

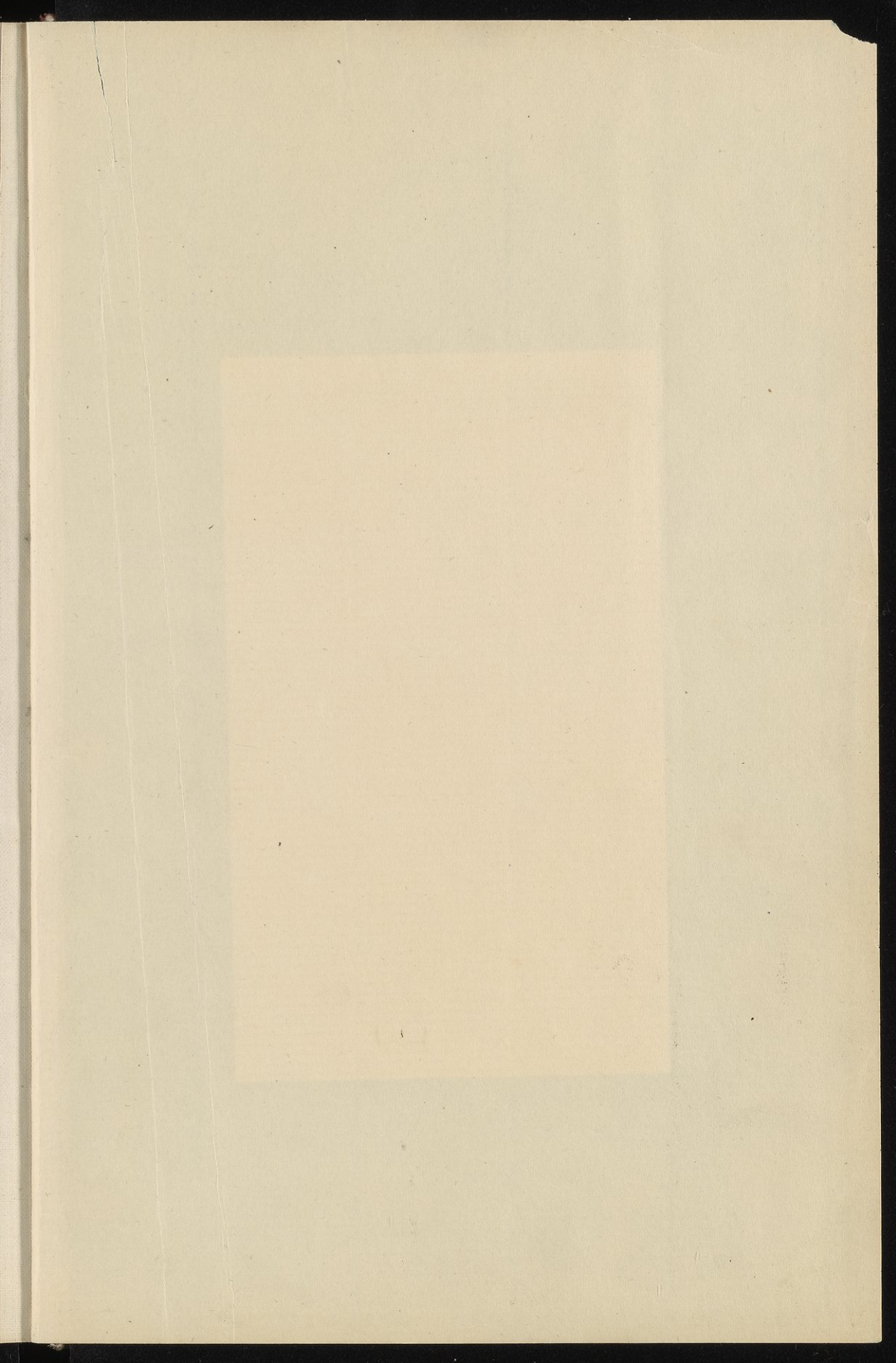
**Columbia University**  
**in the City of New York**

LIBRARY



Bought from the  
**Alexander I. Cotheal Fund**  
for the  
Increase of the Library  
1896





لجنة التأليف والترجمة والنشر

# شرح الإسلام الحرام

كتاب على طراز « فجر الإسلام » يبحث جزؤه هذا في الحياة الاجتماعية والثقافات المختلفة في العصر العباسي الأول

تأليف

إحسان أمين

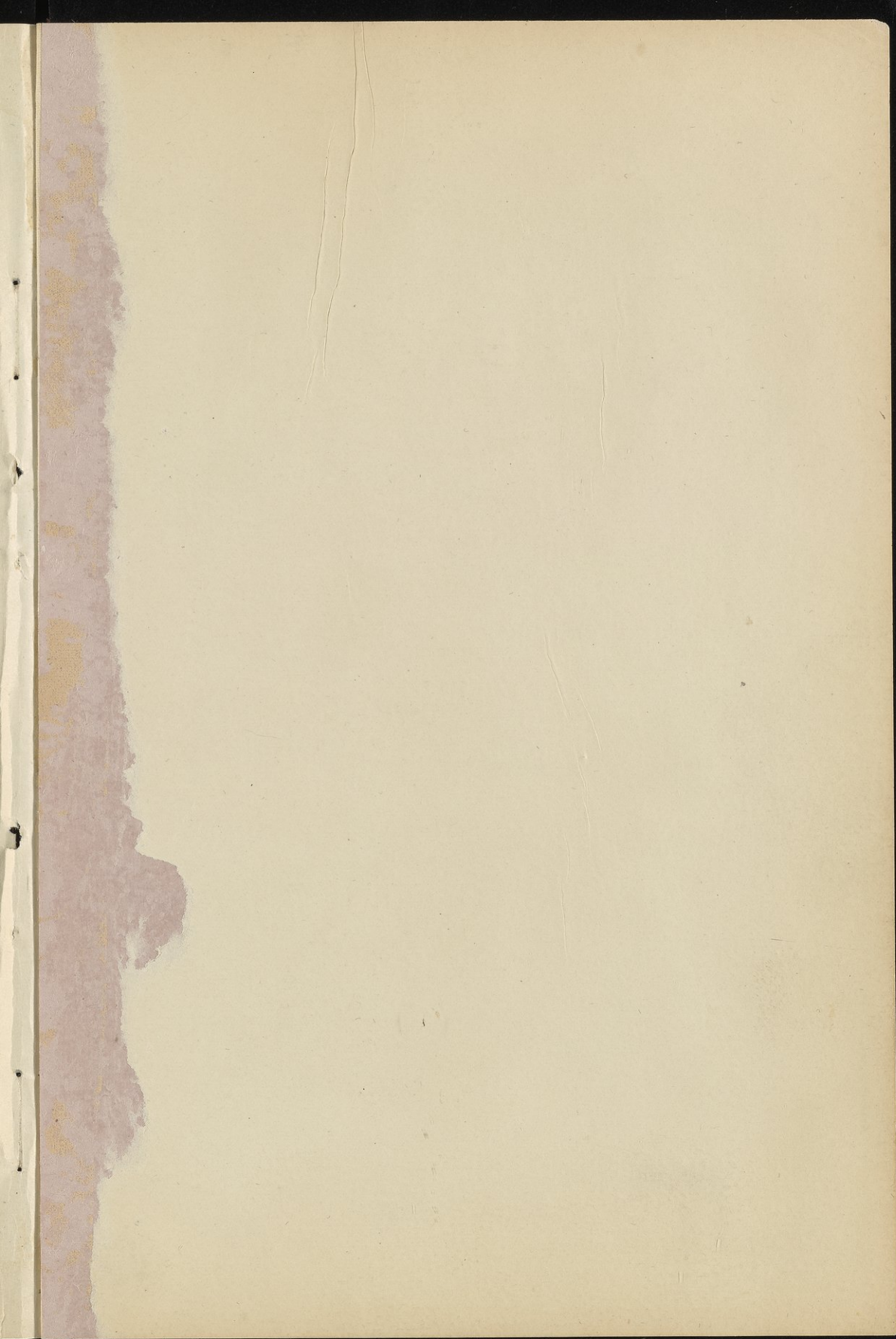
بكلية الآداب بالجامعة المصرية

## الجزء الأول

« الطبعة الأولى »

مطبعة الاعتماد بشان حسن الكبر لصاحبها محمود الحفزي

١٣٥١ — ١٩٣٣



لجنة التأليف والترجمة والنشر

# ضحى الإسلام

كتاب على طراز « فجر الإسلام » يبحث جزؤه هذا في الحياة الاجتماعية والثقافات المختلفة في العصر العباسي الأول

تأليف

إ. محمد أمين  
مكتبة الآثار والجامعة المصرية

١٩٥١

الجزء الأول

« الطبعة الأولى »

مطبعة الاعتماد بشان حسن الكبر لصاحبها محمود الخضري

١٩٥١ - ١٩٥٢



Ahmad Amin  
Duba al-Islam 1933

Coth

33-62339 (cont)

COLUMBIA  
UNIVERSITY  
LIBRARY

893.791  
Ah52



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .  
لعل أصعب ما يواجهه الباحث في تاريخ أمة هو تاريخ عقلها في نشوئها  
وارتقائه ، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب . ذلك أن مدار البحث  
في المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود ، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر  
جلي . أما الفكرة فاذا حاولت أن تعرف كيف نبتت ، وكيف نمت ، وما العوامل  
في إيجادها ، وما العناصر التي غذتها ، وما الطوارىء التي طرأت عليها فعدلتها أو  
صقلتها ، أعياءك ذلك ، وبلغ منك في استخراجها الجهد . لأن الفكرة أول أمرها  
لامظهر لها نستدل به عليها ، وقد تتكون من عناصر قد لا تخطر ببال ، ويعمل  
في تغييرها وتعديلها عوامل في منتهى الغموض . والمذاهب الدينية قد يكون  
الباعث عليها غير ما ظهر من تعاليمها ؛ قد يكون الباعث عليها سياسياً ، وهي في  
مظهرها الخارجي مجردة من كل سياسة ، وقد يكون الباعث لها افساد الدين  
فتتشكل بشكل المتحمس للدين ، وقد يكون المذهب صالحاً كل الصلاح ولكن  
يحكيه أعداؤه فيشو هو نه ويلغون فيه فيه سدونه ، فيقف الباحث حائراً ضالاً ،  
يتطلب بصيصاً من نور يهديه ، أو أثراً في الطريق سلكه من قبله فيحتديه .

وفوق هذا ، فالأفكار متنوعة ، والآراء متعددة ، وقضايا كل عصر تخالف ما قبلها ، ويراه الباحث فيظنها أول وهلة جديدة لم ترتبط بما قبلها برباط ، ولم تتصل به أية صلة ، فيعمل فكره فيما عسى أن يكون بينهما من قرابة أو نسب ، وما قد يصل بينهما من سبب .

ففي سبيل الله ما يلاقي مؤرخ الفكر من عناء لا يتناسب وما يحصله من نتاج !

\* \* \*

سرت في « ضحى الاسلام » سيرى في « فجر الاسلام » رائدى الصدق والايخلاص للحق ، فان أصبت فحمد الله على توفيقه ، وان أخطأت فالحق أردت ، ولكل امرئ ما نوى .

عنيت بضحى الاسلام المائة سنة الأولى للعصر العباسى (١٣٢-٢٣٢) هـ أعنى إلى خلافة الواثق بالله ، فهو عصر له لون علمى خاص ، كما أن له لونا فى السياسة والأدب خاصاً ، امتاز بغلبة العنصر الفارسى ، وبحرية الفكر الى حد ما ، وبدولة المعتزلة وسلطانهم ، وبتلوين الأدب من شعر ونثر لونا احتذى على كر الدهور ، واختلاف العصور . كما امتاز بتحويل ما باللسان العربى الى قيد فى الدفاتر وتسجيل فى الكتب ، وما باللسان الأجنبى الى لغة العرب . وهو فى كل هذا يخالف العصور قبله والعصور بعده . مخالفة تجعله حلقة قائمة بنفسها ، يصح أن تسمى ، وأن تدرس ، وأن تميز . على أنى أحيانا يدعونى ايضاح الفكرة الى أن أربطها بما كان منها فى العصر الذى قبله . كما قد يدعونى تسلسلها الى أن أتجاوزها الى العصر الذى بعده .

وقدر تبتة أبواباً أربعة :

الباب الأول فى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر ، واجتزأت منها بما به أثر قوى فى العلم والفن .

والباب الثانى فى الثقافات المختلفة دينية وغير دينية .

والباب الثالث في الحركات العلمية، ومعاهد العلم، وحرية الفكر، ومزايا البلدان في تلك الحركات.

والباب الرابع في المذاهب الدينية، وتاريخ حياتها، وأشهر رجالها، وأهم أحداثها.

وكنت أحزر أن سيكون حجمه حجم « بحر الإسلام »، فلما شرعت في تأليفه اتسع عليّ موضوعه، وغمرتني مناحيه، وواجهتُ مسائلَ لم تكن خطرت لي، فتركت البحث على سجيته، والقول على طبيعته، فاذا هو ضعف بحر الإسلام أو يزيد، فاضطرت أن أجعله جزءين، في كل قسم بابان.

وأتقدم إلى القراء اليوم بقسمه الأول، راجياً ألا يفرغوا من قراءته حتى أقدم إليهم قسمه الثاني.

على أني لم أقل في كل موضوع الاكلمته الأولى، ولم أنظر إليه الا نظرة الطائر، ولو حاولت أن أستوفي الكلام في كل فصل لكان من كل فصل كتاب. فان نجحت في اثاره الباحثين لنقده، وتصحيح خطئه، وتوسيع مباحثه، فذلك حسبي، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

احمد امين

٢٣ رمضان سنة ١٣٥١

١٩ يناير سنة ١٩٣٣

## مقدمة الكتاب

للدكتور طه حسين

أراد ناقد من نقاد التمثيل أن يثني على قصة راقته ، وملكت عليه إعجابيه ، وكان صاحب القصة له صديقاً حميماً ، فتوقع أن يلام في الشاء عليه ، ولكنه لم يتخرج من إهداء هذا الشاء إلى صديقه في غير تردد ولا تحفظ . وأعلن في صراحة - أعجبتني - أن من خيانة الأصدقاء أن تتخذ صداقتهم وسيلة إلى جحود ما لهم من حق ، وإخفاء ما لهم من فضل ، وتجاهلهم هذه المجاملة السلبية التي تدفعك إلى أن تتردد وتتحفظ ، وتقدم اليهم ثناء ممتنعاً شاحباً ، حتى لا تتهم بالاغراق ، ولا توصف بالمحاباة . وحتى لا يسوء ظن قرائك بنصيبك من الانصاف ، وحظك من الاستقلال .

رأى ذلك الناقد « وأنا أرى معه » أن هذا النحو من معاملة الأصدقاء خيانة منكورة ، وظلم قبيح . وأنه في الوقت نفسه نوع من اتهام النفس ، والاسراف في سوء الظن بها . فليس ينبغي للناقد أن يُصدِرَ - فيما يرى من رأى - عما يقول الناس فيه أو ما يمكن أن يقولوا فيه ، وإنما هو مدين لنفسه ولقراءه بما يعتقد أنه الحق الخالص ، سواء أَرْضَى الناس أم سخطوا ، وسواء أوافق رأيه هوى القراء ، أم انحرف عنه .

وعلى هذا النحو من الاستعداد عمدت دائماً إلى النقد ، واجتهدت ما استطعت ألا أظلم الصديق لصداقته ، ولا الخصم لخصومته ، وليس الظالم مقصوراً على أن تغضَّ من العمل الأدبي أو العلي ، أو تنقص من قيمته لأن

صاحبه صديق لك ، أو حرب عليك . بل هناك ظلم أقبح من هذا وأشنع ، وهو أن تثني على من لا يستحق الثناء ، أو تغلو في حمد من لا يستحق الحمد إلا بمقدار ، وإن تحمد الخصم لأنه خصم ، ولأنك تكره أن يقول الناس فيك خاصمه فعجز عن انصافه وتحامل عليه .

ولست أريد أن أخون صديقي « أحمد أمين » بالاسراف في الثناء عليه ، ولا أن أخونه بالغضب منه والتقصير في ذاته ، وإنما أريد أن أنسى صداقته ، وأهمل - ولو لحظة قصيرة - ما بيني وبينه من مودة كلها صفو وإخاء استطعنا أن نجعله فوق ما يتنافس الناس فيه من المنافع وأغراض الحياة ، إنما أريد أن أنصفه ، وأشهد لقد فكرت وقدرت ، وجهدت نفسي في أن أجد شيئاً من العيب ذى الخطر أصف به هذا الكتاب الذى أقدمه إلى القراء فلم أجد ، ولم أوفق من ذلك إلى قليل ولا كثير .

وليس ذنبى أن « أحمد أمين » قد قصد إلى عمله في جد وأمانة وصدق ، وقدرة عربية على احتمال المشقة والعناء ، والتجرد من العواطف الخاصة . والأهواء التى تعبت بالنفوس ، فوفق من ذلك إلى أعظم حظ يستطيع العالم أن يظفر به في هذه الحياة .

نعم ؛ وليس من ذنبى أن « أحمد أمين » قد استقصى فأحسن الاستقصاء ، وقرأ فأجاد القراءة ، وفهم فأتقن الفهم ، واستنبط فوفق إلى الصواب . ليس من ذنبى هذا ولا ذاك ، وليس من ذنبى أن « أحمد أمين » بعد هذا كله ، وبفضل هذا كله ، قد فتح في درس الأدب العربى باباً وقف العلماء والأدباء أمامه - طوال هذا العصر الحديث - يدنون منه ثم يرتدئون عنه ، أو يطرقونه فلا يفتتح لهم ، ووفق هو إلى أن يفتحه على مصراعيه ، ويظهر الناس على ما وراءه من حقائق ناصعة ، يتهيج لها عقل الباحث والعالم والأديب ، ليس شئ من هذا ذنبى أنا ! وإذالم يكن يد من أن يلام أحد لأن عالماً مصرياً قد

وفق إلى هذا الفوز المبين ، وأهدى إلى اللغة العربية كتاباً لم يُسبق إلى مثله ، فليُلم هذا العالم المصرى نفسه ، وليعاقب « أحمد أمين » لأنه قد ظفر بهذا الفوز .

لقد اختار « أحمد أمين » لكتابه عنوانه هذا « ضحى الاسلام » وهو لا يقدر إلا أن الضحى يأتى بعد الفجر ، وأنه وقد أظهر « فجر الاسلام » يجب أن ينغمس فى ضحاه . أما أنا ، فكنت أفهم معه هذا الفهم ، وأذهب معه هذا المذهب ، ولكنى لم أكد أبدأ معه قراءة الكتاب حتى أخذت أحس شيئاً لم أردد أن أتحدث به إليه ، مخافة أن يكذب ظنى مضيئاً فى قراءة الكتاب ، ولكننا مضيئنا ، ومضيئنا حتى أتممنا هذا الجزء الذى تقدمه الى القراء . فاذا هذا الشيء الذى كنت أحسه يزداد وضوحاً وجمالاً وقوة . واذا ظنى يصدق شيئاً فشيئاً حتى يصبح يقيناً ، واذا أنا مؤمن إيماناً لا يشوبه الشك بأن هذا الكتاب الذى أنا سعيد بتقديمه إلى القراء يُلقى على تاريخ الاسلام فى العصر العباسى الأول نورا رائعاً وضاء قوياً هو أشبه شيء بنور الضحى .

فالكتاب « ضحى الاسلام » لأنه يدرس تاريخ الحياة العقلية للمسلمين فى القرن الثانى للهجرة ، وهو « ضحى الاسلام » لأنه قد جلى هذه الحياة وأظهرها للناس كما أوضح ما يمكن أن تكون ، وكأجمل وأبهى ما يمكن أن تكون ، ولست أدري أيهما أهنيء بهذا الفوز « أحمد أمين » لأنه قد جدد وألح ومضى فى الجدد واللاحاح ، حتى انتهى الى هذا التوفيق أم الجامعة المصرية لأنها قد اهتمت إلى « أحمد أمين » وولت اليه ما وكلت من أنواع الدرس وفنون البحث ، ولعل الخير كل الخير فى أن أصرف هذه التهنئة عن « أحمد أمين » وعن الجامعة الى الذين يقرءون اللغة العربية ، ويعينهم أن يؤرخوا آدابها ، ويستكشفوا ما اشتملت عليه من الكنوز التى كانت مجهولة الى الآن ، هؤلاء أحق بالتهنئة لأنهم سيسيرون منذ اليوم الى أغراضهم فى

طريق واضحة سهلة معبدة ، يغمرها نور الضحى .  
لن تكون حياة المسلمين منذ اليوم كما كانت من قبل ، غامضة مضطربة .  
يتحدث عنها مؤرخو الآداب بالتقريب لا بالتحقيق ، ويقولون فيها بالظن  
لا باليقين . ذلك عصر قد انقضى ، وألقى بينه وبين الذين سيؤرخون الآداب  
ستار صفيق ، ألقاه « أحمد أمين » وأصبح الذين يقصدون الى تاريخ الأدب  
قادرين منذ اليوم على أن يحققوا ويستيقنوا ، ويسيروا في بحشهم على  
بصيرة وهدى .

ما أكثر ما كنا نضيق صدرنا بهذه الرموز الغامضة التي كان يلجأ إليها  
مؤرخو الآداب حين كانوا يذكرون تطور الحياة الإسلامية - أيام بني العباس -  
بفضل الاختلاط بين العرب وغيرهم من الأمم ، وبفضل اتصال العقل العربي  
بالعقول الأجنبية ، وبفضل الترجمة والمترجمين ، والتأليف والمؤلفين . كانت  
هذه الألفاظ كلها رموزاً إلى الآن تدل على أشياء كثيرة ، ولكنها لا تدل  
على شيء . تُصوِّرُ أمام الباحثين صوراً مختلطة مضطربة لا تحصى ولا تستقر ،  
فهى ذاهبة أبداً ، جائية أبداً ، غامضة أبداً . نسعى إليها ، ولا نظفر بها . أو  
يصرفنا عنها الكسل العقلي ، الذي هو آفة حياتنا الأدبية في هذا العصر .

أما الآن فقد ضببطت هذه الصور أحسن ضبط ، وجلت أحسن تجلية ،  
وأصبحنا إذا ذكرنا تطور الأمة العربية أو الأمم الإسلامية في القرن الثاني  
للهجرة نعرف بل نحس حقيقة هذا التطور ومصدره ، والآماد التي انتهى  
إليها ، وأصبحنا إذا ذكرنا الحياة الاجتماعية للمسلمين في هذا العصر لا نقول  
كلاماً مبهماً ، وإنما نقول كلاماً يدل على ما يراد به أحسن دلالة وأجلاها ،  
يدل على طبيعة هذه الحياة وما تقوم عليه من اتصال بين الأفراد والجماعات ،  
على اختلاف الأجناس والبيئات والأمزجة ، يدل على طبيعة الزواج الذي  
كان يكون بين هؤلاء الناس فيخلط دماءهم خلطاً ، أو قل يمزجها مزجاً ،

يدل على طبيعة الرق الذي محا الشخصيات الفردية والاجتماعية لكثير من الأفراد والأمم ، وصهرها كلها في مرجل واحد هو الدولة الاسلامية ، فكوتن منها شخصية جديدة كل الجدة ، طريفة كل الطرافة ، هي شخصية الأمة الاسلامية .

نعم ؛ ويدل على هذه الطبقات التي كان يتألف منها الجسم الاجتماعي ، للأمة الاسلامية ، والتي كانت تنقسم فيما بينها الأعمال الكثيرة المختلفة ، التي يحتاج اليها هذا الجسم لا ليحيا فحسب ، بل ليرفه هذه الحياة ويرقيها ، ويأخذ فيها بأعظم حظ ممكن من الترف المادى والعقل والشعورى جميعاً .

وإذا ذكرنا الثقافة اليونانية ؛ فلن نفهم منها منذ اليوم هذا المعنى المهم الذي نرّمز اليه بالفلسفة أحياناً . ولكننا سنعرف بالضبط مقدار ما أخذ العرب عن اليونان ، وكيف أخذوه ، ومن أين أخذوه ، وكيف أساغوه أولاً ، ثم تمثلوه بعد ذلك ؟ . وقل مثل هذا في الثقافة الهندية والفارسية ، أستغفر الله بل خيراً من هذا ، قل أكثر جداً من هذا ، فما أعلم أن باحثاً عن تاريخ الأدب العربى وفق إلى تحقيق الصلة بين العرب والهند ، أو بين العرب والفرس إلى مثل ما وُفق اليه « أحمد أمين »

وهو - بعد هذا كله - أول من بسط هذا فى اللغة العربية بسطاً يطمئن اليه الباحث الذى يسلك إلى بحثه طريق الجمد والصدق ، لا طريق العبث والتضليل .

وإذا ذكرنا الثقافة المسيحية والثقافة اليهودية ؛ فلن نفهم منهما منذ اليوم ما كنا نفهمه من قبل ، من أن اتصال المسلمين باليهود والنصارى قد أحدث بين أولئك وهؤلاء ضرباً من التأثير العقلى العام .

ولكننا سنعرف طبيعة هذا التأثير ومقداره ومصدره ، ثم سنضع أيدينا على مظاهر هذه الحياة الجديدة ؛ فيما أنتج المسلمون من أدب وعلم وفن .  
أستطيع أن أقول إن « أحمد أمين » حينما انتدب لتأليف هذا



الكتاب قد اتخذ لآمة المحارب ، ووضع أمام عينيه غرضاً أقسم ليلبغنه ، أو ليعدلنَّ عن إظهار الكتاب . وهذا الغرض : هو تخليص الحياة العقلية الإسلامية في القرن الثاني من الغموض والابهام ، وما زال بهذا الغموض والابهام حتى أجلاهما عن موقفهما ، وانتزع منهما حياة المسلمين العقلية إلى منتصف القرن الثالث للهجرة . وكان يزورني كل أسبوع ومعه طائفة جميلة رائعة من الغنائم التي كان يكسبها في هذه الحرب الشاقة المتصلة ، فأقاسمه سعادته بالظفر ، واعتباطه بالفوز .

ولست أحب أن تقدر أني أعتمد في هذا الكلام إلى ضروب المجاز وألوان التمثيل لأزين القول وأتممه ، ولكني أحب أن تستيقن أني إنما أقول الحق خالصاً من كل زينة ، بريئاً من كل تنميق . فقد كان تأليف هذا الكتاب حرباً عنيفة طويلة مملّة بين المؤلف وبين الغموض والابهام . وكان المؤلف كلما تقدم خطوة وقف ينظم انتصاره ، ويصوغ ثمراته هذه الصيغة الجميلة التي سترها في فصول هذا الكتاب ، ويتأهب في الوقت نفسه لهجمة أخرى يكسب بها موقعة أخرى ، وينتصر بها انتصاراً جديداً .

ومع أن المؤلف قد أنفق جهداً قوياً في أن يجنّبك مشاركته فيما كان يحتمل من عناء ، ويلقى من مشقة ، ويدوق من مرارة الصبر والمصابرة ، ومطاولّة المسائل المعضلة التي كانت تعرض له . فأنت واجد أثر هذا كله في فصول الكتاب ، حين ترى المؤلف يسير في أناة تشبه البطء ، ويعرض عليك جزئيات ضئيلة ، تشبه أن تكون إغراقاً في التفصيل ، وتقليداً للجاحظ في حب الاستطراد ، ولكن اثبت لهذا البطء ، واصبر لهذا التفصيل ، وادمض مع الكاتب في رفق وأناة ، فسترى أن نتيجة هذا الثبات والصبر والرفق أقوم جداً مما كنت تظن ، وأنفس جداً مما كنت تنتظر ، وأن الكاتب لم يتورط فيها تورطاً ، وإنما قصد إليها قصداً ، وتعمدها تعمداً . لأنه لم يكن

يستطيع أن يعدل عنها حتى يضحى بالأمانة العلمية ، والتحقق الذى يفرضه البحث الحديث فرضاً على العلماء .

ولا تحف من هذا البطء ، ولا تشفق من هذه المطاولة ، فإن يعترضك ملل ، ولن يفلّ من حدك سأم ، ولن تضيق بالكتاب لحظة ، فقد عرف الكاتب كيف يهون عليك طول الطريق إلى غايتك ، وكيف يبتك أمامك فى هذه الطريق من الزهر ما يستهوى عينك ، وكيف ينشر حولك فى هذه الطريق من الأصداء الحلوة ما يخلب أذنك . وأنا زعيم بأنك ستحتاج إلى أن تعيد قراءة بعض الصحف وبعض الفصول ، وسترى أن الكاتب على ابطائه وأناته مسرع مسرف فى السرعة بعض الأحيان .

أشهد لقد وفق « أحمد أمين » فى هذا الكتاب الى الاجادة العلمية والفنية معاً : استكشف الحياة العقلية الاسلامية استكشافاً لم يسبق اليه ، ثم عرضها عرضاً هو أبعد شئ عن جفاء العلم وجفوته ، وأدنى شئ الى جمال الفن وعدوبته .

فلينعم القراء بفصول هذا الكتاب ، ولينعم المؤلف بما ينعم به الظافر حين ينتهى الى فوز لا تشوبه شائبة . ولتكن هذه الحياة الجادة الخصبة المنتجة - فى تواضع ولين جانب - التى يحياها « أحمد أمين » درساً نافعاً ، ومثلاً صالحاً للذين يريدون أن يحيوا فى مصر حياة العلماء .

طه حسين

## فهرس الكتاب

### الباب الاول — الحياة الاجتماعية في العصر العباسى الاول

- ١ مقررته — فى المقارنة بين العهد الاموى والعهد العباسى فى الحركة العلمية.
- ٥ الفصل الاول — سكان المملكة الاسلامية — العناصر التى تكونت منها المملكة — مزايا كل عنصر — اختلافهم فى الآهواء والميول السياسية — اختلافهم فى الأدب — عملية التوليد — ميزات المولدين — التوليد العقلى — التوحيد بين العناصر المختلفة .
- ١٧ الفصل الثانى — الصراع بين العرب والموالى — تغلب الشعور القبلى عند العرب فى الجاهلية — ظهور الشعور بالامة فى الاسلام — العصية القبلية — تعصب العرب على الموالى — مقاومة التعاليم الاسلامية للعصية بنوعها — تعصب الموالى على العرب — تاريخ العصيتين فى العصر الاموى — فى العصر العباسى — اشكال الصراع — نتيجته .
- ٤٩ الفصل الثالث — الشعوية — النزعات السائدة فى ذلك العصر — نزعة سيادة العرب — نزعة سيادة غير العرب — نزعة المساواة — لفظ الشعوية ومن أين أتى ؟ — بدء الشعوية — أوصافها — الأشكال المختلفة التى حارب بها الشعوية العرب — أثر الشعويين فى الأدب — فى العلم .
- ٧٩ الفصل الرابع — الرقيق وأثره فى الثقافة — الموقف القانونى للرقيق فى الاسلام — تجارة الرقيق — اختلاف أنواع الرقيق وميزة كل نوع — تعليم الجوارى — أثر الجوارى فى الثقافة والفنون — مقارنة بين الحرائر والجوارى .
- ١٠١ الفصل الخامس — حياة اللهو وحياة الجد — مقارنة بين الامويين والعباسيين فى ذلك — تاريخ التدرج فى اللهو فى ذلك العصر — السفاح — المنصور — المهدي — الرشيد — الأمين — المأمون — المعتصم والواثق — كلبة فى الشراب والمذاهب فيه — البيت العباسى وأثره فى الناس — مظاهر الترف — تحول الترف من الحجاز

الى العراق - اختلاف الناس في النعيم والبؤس - ما أتجه  
الافراط في النعيم والافراط في البؤس من دعوة الى  
الاصلاح وميل الى الزهد - أسباب الزهد - أثر هذه الظواهر  
في العلم والأدب والفن .

١٣٧ الفصل السادس - حياة الزندقة وحياة الايمان - الحرب بين الزندقة والايان -  
السبب في انتشار الزندقة في العصر العباسي - تاريخ الزندقة  
في عهد الخلفاء العباسيين - المعاني المختلفة التي كانت تدل عليها  
كلمة الزندقة - الزندقة في الموالي والعرب - الدواعي الى الزندقة -  
كثرة الاتهام بها حقاً وباطلاً - الحكم الفقهي في الزنديق -  
الايان - مثل أعلى من المؤمنين .

### الباب الثاني - الثقافات في ذلك العصر

١٦٢ تمهيد - نظرة عامة في الثقافات المختلفة

١٦٤ الفصل الاول - الثقافة الفارسية . أسباب انتشارها في العصر العباسي -

(١) الوزارة - أكثر كانوا الوزراء فرسا - ثقافتهم - استعانتهم

بالكتاب - طائفة الكتاب - ثقافتهم - أثرهم في الثقافة .

(٢) انتقال عاصمة الخلافة من دمشق الى العراق - أثره في الثقافة -

أثر الثقافة الفارسية في الثقافة الاسلامية - ا - الألفاظ - ب -

العلم والأدب - ما ترجم من الفارسية الى العربية - تتقف بعض

العرب بالثقافة الفارسية ومعرفتهم لغتهم - تأثير الفرس في الحياة

الاجتماعية وعلاقة ذلك بالأدب - الافراط في اللهو والافراط

في الزهد - التوقيعات - القصص - حملة العلم أكثرهم

من الموالي - مناقشة ابن خلدون - الدعاة الى الثقافة الفارسية -

ابن المقفع خير من يمثل هذه الثقافة - ملخص حياته - تحليل

كتبه - الأدب الصغير - الأدب الكبير - رسالة الصحابة -

كليلة ودمنة - كتاب الزندقة المنسوب اليه .

٢٢٩ الفصل الثاني — الثقافة الهندية — بدء علاقة المسلمين بالهند — أثر الهنود في

الثقافة الاسلامية — في الاليات — الفرق بين الفلسفة الهندية  
والفلسفة اليونانية — نظرية التناسخ وأثرها في المسلمين —  
السمنية وظهورها في العراق — مناقشة المسلمين للسمنية —  
الرياضيات الهندية وتأثر المسلمين بها — الأدب الهندي — بدء  
علم النحو — أهم ما استفاد الأدب العربي من الهند — الألفاظ  
الهندية — علم البلاغة عند الهنود — مقارنة بين البلاغة العربية  
والهندية — القصص الهندي — الحكم الهندية — الشطرنج —

انتشاره بين المسلمين — بعض العادات والشرائع الهندية  
٢٥٣ الفصل الثالث — الثقافة اليونانية الرومانية — مناحيها — انتشارها في الشرق —  
اتصال المسلمين بها (١) مدرسة جنديسابور (٢) مدرسة  
حران (٣) مدرسة الاسكندرية — حركة الترجمة في ذلك  
العصر — الباعث عليها — تدرج اتصال المسلمين بموضوعاتها —  
أثر الثقافة اليونانية في المسلمين — في الشكل — في الموضوع —  
في الأدب — سبب ضعف تأثيرهم في الأدب .

خير من يمثل هذه الثقافة حين بن اسحق — حياته — أعماله .  
٢٨٩ الفصل الرابع — الثقافة العربية — نواحيها — اللغة العربية — منزلتها من اللغات السامية  
والآرية — موقفها ازاء العلوم في العصر العباسي — أثر الموالي  
فيها — اللحن — رحلة العلماء الى البادية ورحلة الأعراب  
الى الحضرة — مقدار الثقة بما نقل — تدرج تدوين اللغة —  
الأدب العربي — روايته — الأدب البدوي والأدب الحضري —  
مقدار الثقة بما نقل من الأدب — أثر الاسلام في انتشار  
الثقافة العربية — اختلاف الاتجاهات التي اتجهها العلماء في  
دراستها .

يمثل هذه الثقافة الميرد — تاريخ حياته — تحليل كتابه «الكامل» .

٣٢٢ الفصل الخامس — الثقافات الدينية — اليهودية والنصرانية في المملكة الاسلامية .

اليهودية — ثقافتها — التوراة — نظر المسلمين إليها — تأثير اليهودية  
باليونانية — تسرب الثقافة اليهودية إلى المسلمين — في التفسير —  
في التاريخ — في المذاهب الإسلامية .

النصرانية — الإنجيل — نظر المسلمين إليه — أثرها في التفسير —  
في الحديث — في الفرق الدينية — في الأدب — الأديار وأثرها —  
أثر النصرانية في عادات المسلمين وتقاليدهم .

الإسلام — مقارنة بين الأمويين والعباسيين في انتشار الإسلام —  
أسباب انتشار الإسلام — المتكلمون وأثرهم في نشره — عمل  
الخلفاء العباسيين في ذلك — أثر الإسلام في النصرانية .

الفرق بين تصور الصدر الأول للإسلام وتصور العباسيين له —  
تأثير المذاهب الإسلامية في تصور الإسلام — الفرق بين  
أسلوب القرآن وأسلوب المتكلمين — تأثير الفلسفة في النظر  
إلى الدين — تأثير الفلسفة في تنظيم العلوم والإدارة — نفوذ  
الإسلام في جميع مظاهر الحياة الاجتماعية .

٣٧٣ الفصل السادس — امتزاج الثقافات — محافظة كل ثقافة أول أمرها على مجراها

شم تجمعها بعد في مصب واحد — اختلاف العلماء في الاستقاء  
من هذه الجداول — عملية الامتزاج والعلماء الذين ساعدوا  
عليها — أي الثقافات الأجنبية كان أكثر تأثيراً؟ — مناطق  
النفوذ — أثر الإسلام في عملية الامتزاج . خير من يمثل هذا  
الامتزاج : الجاحظ ، وابن قتيبة ، وأبو حنيفة الدينوري .

الجاحظ — حياته — ثقافته — طبيعته — أسلوبه — تأليفه — تحليل كتاب  
البيان والتبيين — كتاب الحيوان — أثر الجاحظ فيما ألف بعده  
من كتب الأدب .

ابن قتيبة — حياته — مقارنته بالجاحظ — تحليل كتابه « عيون  
الأخبار » — مظهر الثقافات الممتزجة فيه — مظهر مناطق النفوذ فيه .  
أبو حنيفة الدينوري — حياته — ثقافته — أثره في عملية الامتزاج .

# الباب الأول

## الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الاول

### مقدمة

يصور بعض المؤرخين الحالة — وقد سقطت الدولة الأموية؛ وقامت الدولة العباسية — تصويراً يخيل اليك معه: أن هناك حدوداً فاصلة بين الدولتين، وأن صفحة للتاريخ قد ختمت بانتهاء الدولة الأموية، وأن صفحة أخرى بدت بقيام الدولة العباسية. وأن ليس هناك كبير علاقة بين الأمة الإسلامية في عهدها الأول؛ والأمة في عهدها الثاني. وهذا التصوير أبعد ما يكون عن الصحة! وعلى الأخص من الناحيتين: الاجتماعية، والعقلية. فقد حدثت حوادث في صدر الاسلام وفي عهد الدولة الأموية — أخذت تعمل عملها منذ وجودها، واستمر تأثيرها مع سقوط الأمويين، وقيام العباسيين. خذ لذلك مثلاً: تعاليم الاسلام. فقد ظلت تعمل وتنتشر؛ مؤثرة في البلاد المفتوحة ومتأثرة بها. وكذلك الشأن في انتشار لغة العرب. فلم

يكن قيام الدولة العباسية؛ صفحة جديدة لهذين العاملين، وإنما كانت مهذآ لامتدادهما — ومن أوضح المثل على ذلك: عملية الامتزاج بين الأمم الفاتحة والمفتوحة. فقد بدأت من عهد عمر بن الخطاب، ووقفت وقفة صغيرة لِمَا أصاب الأمم المغلوبة من الدهش. ثم بدأت تخضع للنظم الاجتماعية؛ من تزواج، ودخول في الاسلام، وتعلم للعربية. ثم ظهور جيل جديد يحمل الدم العربي والأجنبي معاً، بل يحمل مع ذلك خصائص الأمم المختلفة التي يتكون منها دمه. سواء كانت خصائص جسمية، أو عقلية، أو خلقية، أو روحية. وأخذ هذا الجيل في الظهور في عهد الدولة الأموية، وظل ينمو ويتعاقب في الدولة العباسية — وكان من نتائج هذا الامتزاج: أن كل جنس بدأ يتعلم من الأجناس الأخرى ما يشعر بأنها آخذة منه بحظ أوفر. فالعربي يأخذ من الفرس والرومان حضارتهم، والفرس تأخذ من العرب الدين، واللغة، وهكذا. . . وهذه العمليات ظلت سائرة في العهد العباسي؛ كما كانت سائرة في العهد الأموي.

بل أستطيع أن أقول: إن الدولة الأموية لو قدر لها أن تستمر في الحكم الزمن الذي حكمته الدولة العباسية. لظهر على يديها من الحركات العلمية، والاصلاحات الاجتماعية؛ قريب مما ظهر على يد العباسيين. ودليلنا على ما نقول:

(١) أن الدولة الأموية نفسها وهي هي؛ كانت الحركة العلمية، والمذاهب الدينية، والنظم الاجتماعية؛ في آخرها أرقى منها في أولها. فانتظمت تعاليم الخوارج، ونشأ الاعتزال، واعتنقه بعض الخلفاء الأمويين؛ ونظمت حلقات الدروس في المساجد، وأخذ العلماء يبحثون مسائل في القدر، وغير القدر، وتناقشوا مع اليهود والنصارى وبدأت نواة التأليف، والترجمة،



وظهرت الكتابة الفنية - إلى كثير من أمثال ذلك - ولو كان اتساع الحركة العلمية من عمل العباسيين وخدمهم لكان آخرُ الدولة الأموية يشبه أولها . ( ٢ ) أن الأمويين أنفسهم لما انتقلوا إلى الأندلس ، وكونوا فيها مملكة عاصرت العصر العباسي الأول ؛ لم يكن تشجيعهم للعلم وحركة الترجمة والتأليف أقلّ كثيراً من عمل العباسيين . وكذلك مدينتهم وحضارتهم . وأكبر فرق بينهما : نشأ مما أحاط بالعباسيين من مدينتي العراق القديمة ، والفرس ، واليونان وما أحاط بالأمويين بالأندلس ؛ من مدينة لا تينية . فأما الميل إلى التوسع في الحضارة ؛ ومنها العلم ، والأخذ بأوفر حظ من النظم الاجتماعية التي تليق بهم ؛ فكان حظّ الدولتين معاً .

ذلك بأن المملكة الإسلامية ، كانت من أول عهدا تسيير متنقلة في أطوارها الطبيعية ، ويُسلها طورٌ إلى طور ، فتنتقل من طور تغلب فيه البداوة ، إلى طور من الحضارة ، ثم إلى طور آخر ، وهكذا . . . وجاءت الدولة العباسية ؛ والأمة سائرة إلى الحضارة بطبيعة ما يحيط بها من ظروف . فسارت في هذا الاتجاه . والخطأ كل الخطأ أن يفهم أنها أوجدته من عدم ! نعم ! إن هناك عوامل ظهرت مع العباسيين - وبعضها من عملهم ؛ كغلبة النفوذ الفارسي ، ونقل العاصمة من الشام إلى العراق . وكان لهذه العوامل أثر غير قليل في نمو الحركة العلمية والاجتماعية ، ولكن هذه الحركات كانت حركات مساعدة فقط . ولولم توجد لاستمرت الأمة في سيرها إلى الحضارة . وإن كان يكون سيرها أبطأ . فسلطة العنصر الفارسي كانت تنمو في الحكم الأموي ، وعلى الأخص في آخره ، ولو لم يتح لها فرصة الدولة العباسية لأتيحت لها فرص أخرى مختلفة الأشكال . والعراقيون كان يصح أن يُستخدموا في الحركة العلمية - والعاصمة في الشام - بل نحن نرى بالفعل ، حركة الحسن البصري وتلاميذه الدينية بالبصرة تنمو وتقوى . والحركة اللغوية تنمو

وتقوى؛ بمثل أبي عمرو بن العلاء، وقرينه عيسى بن عمير الثقفي - بالبصرة أيضاً - في عهد الدولة الأموية. ولم يكن اتساع هاتين الحركتين في العهد العباسي إلا أثراً لهؤلاء وأمثالهم، وتقدماً طبيعياً نتج من نشاط تلاميذهم.

ولكن مما لا شك فيه أن الحياة الاجتماعية - التي كانت تحيها الدولة العباسية - لونت العلوم والآداب بلون خاص. وجعلت لها صفات خاصة؛ ما كانت تكون لو استمرت الدولة الأموية في حكمها.

وهذا ما سنحاول وصفه في الباب الآتي. وسنقتصر من وصف الحياة الاجتماعية؛ على ماله أثر كبير في العلم والفن.

---

## الفصل الأول

### سكان المملكة الإسلامية في هذا العصر

واضح أن الأمم تختلف في ميزاتها اختلافا كالذي بين أفرادها. فهي تختلف في عاداتها، وتجاربها، وفي منهج تفكيرها، وكفائتها، ودرجة عقليتها، ومقدار ثقافتها، ووحدة عواطفها، أو هذونها.

وفوق ذلك نرى أن لكل أمة «أدبا» يختلف عن أدب الأمم الأخرى. وأدب كل أمة منتزع من: طبيعة اقليمها، وتاريخها، وخصالاتها، وملوكها وسوقها، وعقلها وسخفائها، وصلحائها ومجرمها، ومن نظامها السياسي، وعلى الجملة من كل شيء يتصل بحياتها.

نستطيع بعد ذلك أن نقول: إن المملكة الإسلامية في هذا العصر كانت مكونة من أمم مختلفة. فقد كان من أجزائها المغرب - حيناً - ومصر والشام وجزيرة العرب، والعراق، وفارس، وماوراء النهر. وكانت هذه الأمم تختلف فيما بينها كل الاختلافات التي أبنائها. وكلها خضعت للحكم الإسلامي، وتكون منها جميعاً مملكة واحدة، وكان لكل أمة من هذه الأمم مزايا وصفات عرفت بها، فشهد العرب مثلاً: بالقدرة على الشعر؛ حتى قال أحمد ابن أبي دؤاد: «ليس أحد من العرب إلا وهو يقدر على قول الشعر، طبعاً ركب فيهم، قل أو أكثر»<sup>١</sup>. واشتهر أهل السند؛ بالصيرفة، والعلم بالعقابر. يقول الجاحظ: «إن السند لهم طبيعة في الصرف، لا ترى بالبصرة صيرفاً إلا وصاحب كيسه سندي، واشترى محمد بن السكني

أَبَارَ وَاحِ السَّنْدِيِّ فَكَسَبَ لَهُ الْمَالُ الْعَظِيمَ ، وَقَالَ صَيْدَلَانِي عِنْدَنَا ، إِلَّا وَلَهُ  
غَلَامٌ سِنْدِيٌّ ، فَبَلَّغُوا أَيْضاً فِي الْخُبْرَةِ ، وَالْمَعْرِفَةِ بِالْعَقَائِرِ ، وَفِي صِحَّةِ الْمَعَامَلَةِ ،  
وَاجْتِلَابِ الْحُرَفَاءِ مَبْلَغًا حَسَنًا<sup>١</sup> ، وَاشْتَهَرَ أَهْلُ مَرَوْ ، وَخِرَاسَانُ بِالْبَخْلِ . حَتَّى  
قَالَ فِي الْعَقْدِ الْفَرِيدِ : « أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى بَخْلِ أَهْلِ مَرَوْ ، ثُمَّ أَهْلُ خِرَاسَانَ قَالَ  
ثُمَامَةُ بْنُ أَشْرَسَ : « مَا رَأَيْتُ الدِّيَّكَ قَطُّ فِي بَلَدَةٍ إِلَّا وَهُوَ يَدْعُو الدَّجَاجَ ،  
وَيُثِيرُ الْحَبَّ إِلَيْهَا ، وَيَلْطُفُ بِهَا . إِلَّا فِي مَرَوْ ، فَانِي رَأَيْتَهُ يَأْكُلُ وَحْدَهُ ! فَعَلِمْتُ  
أَنَّ لَوْمَهُمْ فِي الْمَأْكَلِ . وَرَأَيْتُ فِي مَرَوْ طِفْلاً صَغِيراً فِي يَدِهِ بَيْضَةٌ ، فَعَلِمْتُ لَهُ :  
أَعْطَنِي هَذِهِ الْبَيْضَةَ ! فَقَالَ : لَيْسَ تَسَعُ يَدُكَ فَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّوْمَ ، وَالْمَنْعَ فِيهِمْ بِالطَّبْعِ  
الْمُرَكَّبِ ، وَالْجِبِلَّةِ الْمَمْطُورَةِ<sup>٢</sup> »

وَاشْتَهَرَ الْيَمَانُونَ بِالْعَشْقِ . وَالْحِجَازِيُّونَ ؛ بِالذَّلِّ<sup>٣</sup> . كَمَا اشْتَهَرَ الْعِرَاقِيُّونَ ،  
بِالظَّرْفِ . قَالَ اسْمَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيُّ :

إِنَّ قَلْبِي بِالتَّلِّ تَلَّ عَزَازُ<sup>٤</sup>      مَعَ ظَبْنِي مِنَ الطَّبَّاءِ الْجَوَازِي  
شَادَنَ ، لَمْ يَرَ الْعِرَاقَ ، وَفِيهِ      مَعَ ظَرْفِ الْعِرَاقِ ، دَلَّ الْحِجَازِ  
وَعَدَّدَ الْجَاحِظَ مِزَايَا كُلِّ أُمَّةٍ فِي عَصْرِهِ . فَقَالَ : « مِيزَةُ سَكَانِ الصِّينِ ،  
الصَّنَاعَةُ . فَهَمُّ أَصْحَابِ السَّبْكِ ، وَالصِّيَاغَةِ ، وَالْإِفْرَاقِ ، وَالْإِذَابَةِ ،  
وَالْأَصْبَاغِ الْعَجِيبَةِ ، وَأَصْحَابِ الْخَرَطِ ، وَالنَّحْتِ ، وَالتَّصَاوِيرِ ، وَالنَّسِجِ .  
وَالْيُونَانِيُّونَ يَعْرِفُونَ الْعِلَلَ ؛ وَلا يَبَاشِرُونَ الْعَمَلَ . وَمِيزَتُهُمُ الْحُكْمُ وَالْآدَابُ .  
وَالْعَرَبُ لَمْ يَكُونُوا تِجَارَةً وَلا صِنَاعَةً ، وَلا أَطْبَاءً ، وَلا حُسَّابًا ، وَلا أَصْحَابَ  
فَلَاحَةٍ ، فَيَكُونُوا دَهْنَةً . وَلا أَصْحَابَ زَرْعٍ لِحَوْفِهِمْ مِنْ صَغَارِ الْجَزْيَةِ . . .  
وَلا طَلَبُوا الْمَعَاشَ مِنْ أَسْنَةِ الْمَكَايِلِ ، وَرِءُوسِ الْمَوَازِينِ ، وَلا عَرَفُوا  
الدَّوَانِيقَ ، وَالقَرَارِيطَ . فَخِينِ حَمَلُوا حَدَثَهُمْ ، وَوَجَّهُوا قَوَاهِمَ إِلَى قَوْلِ الشَّعْرِ ،

١ الحيوان : جزء ٣ : ١٣٤ . ٢ العقد الفريد : جزء ٣ : ٣٦١  
٣ زهر الآداب . جزء ١ : ٢٢٣ . ٤ تل عزاز بفتح العين قال أبو الفرج الاصفهاني  
انه بالركة . وأنشد البيهقي اه      وهناك تل آخر بهذا الاسم شمالي حلب ذكره ياقوت .

وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة ، وتصريف الكلام وقيادة البشر ؛ بعد قيادة الأثر ؛ وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآثار ، وتعرف الأثواء ؛ والبصر بالخيال ، والسلاح ، وآلة الحرب ؛ والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المناقب ، والمثالب بلغوا في ذلك الغاية . وميزة آلساسان : في الملك والسياسة ، والأترك : في الحروب .. وليس في الأرض كل تركي كما وصفنا . كما أنه ليس كل يوناني حكيماً . ولا كل صيني في غاية من الخدق . ولا كل أعرابي شاعراً ، قائماً . ولكن هذه الأمور في هؤلاء أعم وأتم . وفيهم أظهر وأكثر . وقال في موضع آخر في الكلام على الزنج : « وهم أطبع الخلق على الرقص ، والضرب بالطلب ؛ على الايقاع الموزون ، من غير تأديب ، ولا تعليم . وليس في الأرض أحسن خلقاً منهم »<sup>٢</sup> « واشتهر الهند بالحساب ، وعلم النجوم ، وأسرار الطب ، والخراط ، والنجر ، والتصوير ، والصناعات الكثيرة العجيبة »<sup>٣</sup> .

كذلك كانوا يختلفون في الأهواء ، والميول السياسية ، يوضح ذلك : مارواه ابن قتيبة : « قال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لرجال الدعوة - حين اختارهم للدعوة ، وأراد توجيههم - : أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي ابن أبي طالب . وأما البصرة : فعثمانية تدين بالكف ؛ وتقول : كن عبد الله المقتول ، ولا تكن عبد الله القاتل . وأما الجزيرة فخرورية مارقة ، وأعراب ؛ كاعلاج ، ومسلمون ؛ في أخلاق النصارى . وأما أهل الشام : فليس يعرفون إلا آل أنى سفیان ، ووطاعة بني مروان ؛ عداوة لنا را سخنة وجهلاً متراكماً . وأما أهل مكة والمدينة : فقد غلب عليهما أبو بكر ، وعمر . ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وصدوراً سليمة ، وقلوباً فارغة ،

١ أنظر رسائل الجاحظ : ٤١ وما بعدها . ٢ رسائل : ٦٣ . ٣ رسائل : ٧٣ .

لم تَتَقَسَّمْهَا الأَهْوَاءُ، ولم تَتَوَزَّعْهَا النَّحْلُ، ولم تَشْغَلْهَا دِيَانَةٌ، ولم يَتَقَدِّمْ فِيهَا فساد، وليست لهم اليوم هِمَمُ العَرَبِ، ولا فِيهِمْ كِتْحَازُ البِإْتِباعِ بالسادات، وكتحالفِ القبائلِ، وعصية العشايرِ. ولم يزلوا يُدالون؛ ويُمْتَهنون، ويُظَلَّهون وَيَكْظِمُونَ؛ ويؤملون الدول. وهم جند لهم أجسام وأبدان، ومناكب وكواهل، وهامات وِخَيِّ وشواربُ، وأصوات هائلة، ولغات نخمةٌ تخرج من أفواهٍ منكرةٍ<sup>١</sup>.

كذلك كان في كل أمة من هذه الأمم طوائفٌ مختلفة لها شعائر، وعادات خاصة، فمنهم يهودٌ؛ حافظوا على تقاليدهم، وحرّموا التزاوج الا منهم، ونصارى؛ تمسكوا بشعائرهم وعاداتهم، ومجوس؛ يقيمون هياكلهم، ويوقدون نيرانهم.

كما نجد خلافاً في الآداب فُقرس لهم أدبٌ هو نتيجة تاريخهم، وحياتهم الاجتماعية. وعراقيون لهم آداب قديمة ورثوها مما اعتورهم من الدول. ومصريون لهم أدب كذلك، وأدب هندي، وأدب شامى، وأدب يونانى، ورومانى.

دع عنك الاختلافات الاقليمية: فأمةٌ تعيش في جبل، وأخرى في سهل؛ وجوٌّ باردٌ شديد البرودة، وحارٌّ شديد الحرارة؛ وأمة ساحلية، وأمة صحراوية. وما يستتبع ذلك من خلاف بين الأمم في العادات، والطبيعة، والمزاج.

كل هذه الاختلافات التي لم نذكر منها الا أمثلة قليلة؛ كانت تكون المملكة الاسلامية في العصر العباسى الأول، وكانت ساحتها وعاءٌ تُصهرُ فيه هذه المواد المختلفة، وتتفاعل فيه كما تتفاعل الأجسام المختلفة كيميائياً. وقد كانت هناك عوامل قوية ساعدت على هذا الامتزاج. ألمنابها في الجزء

الأول من كتابنا<sup>١</sup>. ولكن لا بد أن نزيد هنا كلمة عن شيء كان ظاهر الأثر في هذا العصر. وهو « عملية التوليد » :

وتعنى بالتوليد: أن يتزوج رجل من أمة وامرأة من أمة أخرى؛ فينشأ بينهما نسل يجرى في عروقه دم الأمتين. وقد امتاز العصر العباسي الأول بكثرة هذا الجيل من الناس. وكان هذا التوليد ظاهرة قوية؛ نتجت عن اختلاط الأجناس، ومن نظام الرق والولاء الذي طبّق عقب الفتح الإسلامي. فقد أصبح البيت الإسلامي - وخصوصاً بيوت الخلفاء، والأمراء، والأغنياء - « عصبه أمم » ينتج من النسل ما يحمل خصائص الأمم المختلفة. خذ لذلك مثلاً: بيت أبي جعفر المنصور. فقد كان في بيته: أرؤى بنت منصور الحميري<sup>٢</sup> أولدها المهدي، وجعفر الأكبر. وأمة كردية كان المنصور اشتراها فقتسراها؛ فولدت له جعفر الأصغر. وأمة رومية يقال لها « قالي » أولدها « صالحاً المسكين ». وامرأة من بني أمية أولدها بنتاً تسمى « العالقة »<sup>٣</sup>. هذا مع أن أباجعفر المنصور لم يسرف في التسرى اسراف من أتى بعده. « وكان للرشيد زهاء ألفي جارية من المغنيات والخدمّة في الشراب؛ في أحسن زى من كل نوع من أنواع الثياب، والجوهر »<sup>٣</sup>. « ويقال: إنه كان للمتوكل أربعة آلاف سرية »؛ وسيأتي من ذلك الشيء الكثير؛ عند الكلام في الجوارى.

كانت هذه الجوارى المختلفة الأنواع؛ توزع على الفاتحين، وتباع في أسواق النخاسين، وتهدى كما تهدى الطرف اللطيفة، وتمنح كما يمنح المال. وكانت الحرائر من الأمم المختلفة؛ تتزوج من غير جنسها، وكان هؤلاء وهؤلاء ينسلن نسلًا عديداً، وكان نسلهن أكثر من نسل العرييات.

١ أنظر كتاب فجر الإسلام: الجزء الأول ١٠٠ وما بعدها.

٢ العقد ٣: ٢٩٨. ٣ أغاني: ٩: ٨٨. ٤ مسعودي جزء ٣: ٣٠٨.

الخالصات؛ لقلّة عدد العرييات اذا نسب لغيرهن. بل كان وكوع الناس  
بالاختلاط بغير العرب أقوى وأشدّ، وميلهم الى الاماء أكثر منه الى الحرائر.  
ولذلك سيبان: (الأول) أن الجمال في كثير من نساء هذه الامم المفتوحة  
أوفر، والحسن أتم؛ قد صقلتهنّ الحضارة، وجلاهن النعيم.  
هذا إلى ما حبتهنّ به طبيعة الاقليم؛ من بياض البشرة، وصفرة الشعر،  
وزرقة العيون، ونحو ذلك. (الثاني) ما أشار إليه الجاحظ؛ من أن عادة  
التزوج بالحرائر، كانت في عهده كعادتنا الآن! لا ينظر الرجل إلى من يريد  
أن يتزوج؛ ولكن تتوسط «الخاطبة» فتروى له من محاسنها ما تشاء. وقد  
لا يتفق ذوقها وذوقه.. هذا ان صدقته!. وليس ذلك هو الشأن  
في الأمة، فهو يراها قبل أن يقدم على تملكها. قال الجاحظ: «قال بعض من  
احتج لليلة التي من أجلها صار أكثر الاماء أحظى عند الرجل من أكثر  
المهيرات! إن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء منها، وعرف  
ما خلا حظوة الخلوة، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة. والحرّة  
إنما يستشار في جمالها النساء، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات  
الرجال، وموافقتهن؛ قليلا ولا كثيرا! والرجال بالنساء أبصر... وقد  
تحسن المرأة أن تقول: كأن أنفها السيف! وكان عينها عين غزال! وكان  
عنقها إبريق فضة...! وكان شعرها العناقد...! وهناك أسباب أخرى،  
بها يكون الحب والبغض»<sup>٢</sup>.

ومن أقوال العرب المشهورة: «الأمة تُشترى بالعين، وتردّ بالعيب،  
والحرّة غلّ في عنق من صارت إليه!». وقالوا: «عجبت لمن لبس القصير؛  
كيف يلبس الطويل! ولين أحفى شعره؛ كيف أعفاه! وعجبا لمن عرف



الإماء؛ كيف يُقدِّم على الحرائر؟!»<sup>١</sup>.

وقد اشتهرت الأصقاع المختلفة؛ بميلهم الى أجناس مختلفة من النساء بحكم الجوار، وبحكم ما كانوا يأسرون ويسترقون « من ذلك: أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم: الهندياتُ وبناتُ الهنديات، والاغوار<sup>٢</sup>. واليمن أشهى النساء عندهم: الحبشيات وبنات الحبشيات. وأهل الشام أشهى النساء عندهم: الروميات وبنات الروميات. وكل قوم فإنما يشتهون جـلبهم وسبيهم الا الشاذ، وليس على الشاذ قياس»<sup>٣</sup>.

من هذا الاختلاط الذي أبنّا طرفاً منه؛ نشأ جيل جديد يحمل ميزات خاصة، حتى بعض الخلفاء أنفسهم كانوا من هذا الصنف « فالخيزُران هي سَيِّة من خَرَشِيَّة؛ وَلَتَ موسى الهادي، وهرون الرشيد، ابني محمد المهدي. وشاهسفرم بنتُ فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى ابرويز، ولدت للوليد بن عبد الملك، يزيد بن الوليد الناقص، وابراهيم بن الوليد المخلوع»<sup>٤</sup>. ومروان بن محمد؛ ابن أمة كردية<sup>٥</sup>. وأبو جعفر المنصور؛ أمه بربرية اسمها سلامة. والمأمون؛ أمه أمة تسمى مراجل. والمعتمد، أمه أمة تسمى ماردة. والواثق؛ أمه أمة تسمى قراطيس. والمتوكل؛ أمه أمة تسمى شجاع<sup>٦</sup>. ومثل ذلك في العلماء، والشعراء. قال الأصمعي: « كان أكثر أهل المدينة

١ العقد الفريد: جزء ٣: ٢٩٦.

٢ في القاموس؛ الغورة بالضم: بلدة عند باب هراة، وبلاهاة: ناحية بالعجم.

٣ رسائل الجاحظ: ٧٥.

٤ خرشنة: بلدة قرب ملطية. قال أبو فراس:

ان زرت خرشنة أسيرا فلکم حملت بها أميرا

٥ في كتاب البلدان لابن الفقيه: جاء هذا الاسم: شاهفرند ولعله أصح!

٦ زهر الآداب - هامش العقد - جزء ١: ٢٢٢.

٧ الطبری جزء ٩: ٣١٨.

٨ أنظر كتاب المعارف لابن قتيبة ١٢٨ وما بعدها.

يكرهون الاماء ، حتى نشأ منهم علي بن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله. ففاقوا أهل المدينة فقهاً، وعلماً، وورعاً. فرغب الناس في السراري<sup>١</sup>.

خضع هذا الصنف من المولدين لقوانين « الوراثة » فكسب من آبائه وأمهاته صفات خاصة . وكان صنفاً ممتازاً . والعرب من قديم آمنوا بأن الزواج بالأبعد ، خير من الزواج بالأقرب . وروى في الخبر « اغتربوا لا تزنوا »<sup>٢</sup> . وقال الشاعر :

قَتِي لَمْ تَلِدْهُ بِنْتُ عَمِّ قَرِيْبَةٍ ، فَيَضُوِي . وَقَدْ يَضُوِي رَدِيْدُ الْقَرَائِبِ  
وقال آخر :

أُنْدِرُ مَنْ كَانَ بَعِيْدَ الْهَمِّ ، تَزْوِيْجِ أَوْلَادِ بَنَاتِ الْعَمِّ

فَلَيْسَ نَاجٍ ، مِنْ ضَوْيٍ وَسُقْمٍ !

وروا : « أن عمر نظر الى قوم من قريش ؛ صغار الأجسام . فقال : مالكم صغرتم ؟ قالوا : قرب أمهاتنا من آباءنا . قال : صدقتم ؛ اغتربوا . فتزوجوا في البعداء فأنجبوا ! »

والواقع أيد هذه النظرية : فالمولدون في العصر العباسي ؛ كانوا من أظهر العناصر ، ولهم ميزات مختلفة ، في أجسامهم ، وعقولهم ، وصناعاتهم ، وذلك باختلاف أمهاتهم . يقول أحد القواد : « ما في الدنيا أحد أشجع من أبناء خراسان المولدين ، ولا أفنك منهم ! »<sup>٣</sup> . ويقول الأصمعي : « بنات العم أصبر ، والغرائب أنجب ، وما ضرب رءوس الأبطال كابن الأعمى ! » . « وسئل بعضهم عن ولد الرومية . فقال : صاف ، معجب ، بخيل . قيل : فولد

١ المقد : جزء ٣ : ٢٩٦ .

٢ معناه : تزوجوا في البعاد الانساب ؛ لافي الأقارب . قال في اللسان : « وذلك أن العرب تزعم : أن ولد الرجل من قرابته يجيء ضاوباً ، نحيفاً » . ٣ طيفور : ١٤٣ .

الصقلية قال: طَفِسٌ، زَنِيمٌ. قيل: فولد السوداء. قال: شجاع، سخي. قيل: فولد الصفراء. قال: هم أنجب أولاداً، وألين أجساداً، وأطيب أفواها. قيل: فولد العربية. قال: أنفٌ، حسوداً، الخ. ويقول الجاحظ: «رأينا الخلاسيّ من الناس - وهو الذي يتخلق بين الحبشي؛ والبيضاء - والعادة من هذا التركيب؛ أنه يخرج أعظم من أبويه، وأقوى من أصله، ومثمره. ورأينا اليسريّ من الناس - وهو الذي يخلق من بين البيض؛ والهند - لا يخرج ذلك النتاج على مقدار ضخم الأبوين، وقوتهما؛ ولكنه يحى أحسن، وأملح»<sup>٢</sup>. ويقول في العلة؛ في ميزة النصارى على اليهود في الشكل، والعقل: «إن الاسرائيلي لا يزوج الا الاسرائيلي... فكانت الغرائب لا تشوبهم، وفحولة الاجناس لا تضرب فيهم»<sup>٣</sup>.

ان شئت؛ فانظر في كتاب الاغانى، تجد أن أكثر من نبغ من المغنيات في الحجاز، ثم في العراق؛ في العصر الأول العباسى من «مولدات المدينة» أو من تلاميذهن - ومولدات المدينة: نساء تتجن من آباء عرب، وأمّهات من غير العرب - أو شئت؛ فانظر الى كثير من العلماء، والادباء، وتحرّأجناس آباءهم، وأمّهاتهم، تجدهم من المولدين. وقد رأيت شهرة مولدى خراسان، ومولدى الأعجام عامة؛ بالشجاعة. وقديماً ظهر باليمن عنصر يمتاز سماهم العرب «الأبناء». «وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لما جاء يستنجد على الحبشة؛ فنصروه، وملكوا اليمن، وتدبروها وتزوجوا في العرب، فقبل لأولادهم الأبناء، وغلب عليهم هذا الاسم، لأن أمهاتهم من غير جنس آباءهم». ومن مشهورى العلماء من الأبناء: طاووس

١ محاضرات الادباء جزء ١: ٢٠٧. ٢ كتاب الحيوان جزء ١: ٧١.  
٣ رسائل الجاحظ - على هامش الكامل - جزء ٢: ١٦٩ و ١٧٠ والعبارة هناك أطول.  
٤ لسان العرب في مادة «ابن».

ابن كيسان ، ووهب بن مُنَبِّهٍ التابعيان — غير أن هؤلاء الابناء ؛ كانوا من  
أب فارسي ، وأم عربية يمنية . والمولدون في عصرنا العباسي كان أكثرهم من  
أب عربي ، وأم أعجمية .

\* \* \*

وكما كان هناك « توليد » بين الأجسام ، كان هناك توليد عقلي . فعقول  
الناس من الامم المختلفة ، كان يتناوبها اللقّاح . فالفارسي ؛ يحمل عقلا  
فارسياً ، ثم يعتنق الاسلام ، ويتعلم اللغة العربية ، فينشأ مزيج من العقليين ،  
تتولد منه أفكار جديدة ، ومعان جديدة . واليوناني النصراني ، أو الرومي  
النصراني ، أو العراقي اليهودي ؛ يخالط العربي المسلم ، ويتبادلان الرأي  
والقصص ، والفكرة ، فينشأ من ذلك فكر جديد ، وهكذا . — ومن ثمّ  
كان « الأدب العربي » بمعناه الواسع . الذي يشمل كل ثقافة ؛ ليس في  
الحقيقة أدباً عربياً ؛ وإنما هو « مزيج » طبع بالطابع العربي الاسلامي  
فسمى أدباً عربياً ؛ ولنذكر مثلاً يوضح هذا : ذلك أنا نرى العرب في جاهليتها  
أدبها ؛ أدب عربي بالمعنى الصحيح . وهو ان اقتبس شيئاً مما حوله ؛ فقد كان  
اقتباسه قليلاً خفيفاً . أما الروح الغالبة القوية فهي : الروح العربية . فهو  
يمثل الحياة العربية أحسن تمثيل ، ويصور حياتهم الاجتماعية أتم تصوير ،  
فيه خيالهم ، وفيه طريقة صيدهم ، وفيه وصف حروبهم ، ولهوهم ،  
وجدهم ، وبدواتهم . فإذا نحن طفرنا الى العصر العباسي . وجدنا الناس ،  
وخاصة الفرس الذين دخلوا في الاسلام ، وكانت لهم غلبة على مرافق الدولة ،  
لم يعودوا يتذوقون بذوقهم الفارسي الشعر العربي الجاهلي ، وإنما يتذوقون  
ما ألفوا ، من التغنى في شعرهم بالحب ، والخمر . فظهر العباس بن الأحنف  
الخراساني البيهقي ، وأبونواس الفارسي الأم ؛ يشبعان ذوقهما . الأول : في عشقه  
والثاني : في خمرياته . قد كان للعربي الجاهلي شعر في الحب ، وشعر في الخمر .

ولكن شتان بين خمريات طرفة؛ وخمريات أبي نواس، وشتان بين شوق امرىء القيس؛ وشوق العباس. ويعجبني في ذلك قول الجاحظ: « كم بين قول امرىء القيس - تقولُ وقد مال الغبيط بنامعاً - وبين قول علي بن الجهم:

سقى الله ليلاً ضمناً؛ بعد هجعة، وأذنى فؤاداً من فؤادٍ معذبٍ  
فبتنا جميعاً؛ لو تراق زجاجة من الراح؛ فيما بيننا لم تسرب! <sup>١</sup>  
لم تكن الحضارة وحدها، هي التي أتت هذا الفرق. ولكن كان من أكبر العوامل فيه: تزاوج الأجناس، وتزاوج الأفكار، كالذي كان في الشعر. فقد أخذ الفرس الوزن العربي، والقافية العربية، والأسلوب العربي. ولكن أخذوا بجانب ذلك؛ الخيال الفارسي، والذوق الفارسي. انظر الى القصيدة التي يقولها الخريمي: يذكر بغداد ويصف ما اتابها من الفتن - أيام الخلاف بين الأمين والمأمون - والتي مطلعها:

قالوا: ولِمَ يَلْعَبُ الزَّمانُ بِبَغْدادَ، وَتَعْبُرُ بِهِ عَوَابِرُها! <sup>٢</sup>

تحس بنفَسٍ قَصَصِي، تمتع طويل، لاعهد للعرب به من قبل. وانظر أنواع الحكم الهندية الفارسية العربية - التي تجدها في أقوال ابن المقفع - وانظر القصص الذي في ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة. وانظر أنواع المقامات التي تجلت في عمل البديع، والحريري. كل هذا وأمثاله: أنواع لا يعرفها العرب الخالص. وإنما كانت - من غير شك - نتيجة عملية التوليد التي أشرنا إليها. وما كانت تكون لو عاش العرب وحدهم. أو الفرس وحدهم. ومثل ذلك. يقال فيما ظهر من أنواع العلوم المختلفة، التي سنوضحها في فصول تالية.

١ محاضرات الأدباء جزء ٢ : ٦٨ .

٢ القصيدة في تاريخ الطبري جزء ١٠ : ١٧٦ . وتبلغ ١٤٥ بيتاً .

والخلاصة أن لقاح العقول أنتج مخلوقات جديدة ؛ لها ميزاتها الخاصة ،  
كما كان الشأن في توليد الأجسام .

\*\*\*

وبعد : فمع هذه الاختلافات المتنوعة - التي أبتأ - كانت هناك روح  
واحدة ترفرف على العالم الاسلامى . هي روح شرقية ، توحد بين أفرادها  
- مهما اختلفت أجناسهم وأنواعهم - هذه الروح هي التي أخضعت الفلسفة  
اليونانية ، لما دخلت في بلادها . فأصبغت عليها ثوباً من روحانيتها ، وإلهاماتها .  
وهي التي جعلت علماء التاريخ والاجتماع يدركون خصائص مشتركة بين  
الشرق ، تخالف تلك التي للغرب . روح ورثها الشرقي من أجيال ، وساعد  
على تكوينها بيئاتهم الطبيعية ، والاجتماعية ، وجعلتهم يتذوقون غير ما يتذوقه  
الغربي ، ويدركون الأشياء على غير النمط الغربي ، كما جعلت لهم مدنيت ؛  
تخالف - من وجوه كثيرة - المدنيات الغربية . جاءت الأديان المختلفة من :  
بوذية ، ويهودية ، ونصرانية . فصبغت هذه الروح صبغة خاصة . صبغة  
لامادية ، تؤمن بالله فوق هذا العالم ، وترجو جنة ، وتخاف ناراً ، وترى أن  
وراء هذه السعادة الدنيوية ، والشهوات الجسمية ، سعادة أخرى روحية ! فلما  
جاء الاسلام ، ونشر سلطانه على الممالك الشرقية . زاد هذه الروح وقواها ،  
وعمل في توحيدها . فقد كانت هذه الأمم المختلفة تخضع لقانون واحد .  
ولنظام في الحكم واحد ، وتتكلم بلغة واحدة ، ويدين أغلبها بدين واحد .  
ورحلات العلماء في منتهى القوة ، على صعوبة المواصلات . والرحالون  
يتبادلون الآراء ، والمعتقدات ، ويدعون دعوات دينية وسياسية . والحكام  
يُرسلون من مركز الخلافة مزودين بتعاليم واحدة في جوهرها .  
كل هذا : وحد بين الأمم المختلفة ، وكوّن منها ما يصح أن يسمى أمة  
واحدة لها : أدب واحد ، وثقافة واحدة ، وعلم مشترك .

## الفصل الثاني

### الصراع بين العرب والموالي

يظهر أن العرب في الجاهلية لم يكن لهم شعور قوى بأنهم أمة ! إنما كان الشعور القوى عندهم : شعور الفرد بقبيلته . ذلك : أنا إذا رجعنا إلى ما نرجح صحته من الشعر الجاهلي وجدناه مملوءاً بالشعور القبلي ، فالعربي يمدح قبيلته ، ويتغنى بانتصارها ، ويعدد محاسنها ، ويهجو القبيلة الأخرى من أجل قبيلته . ولكن قلّ أن نجد شعراً يتغنى فيه العربي بأنه عربي ! ويفخر فيه على غيره من الأمم . والسبب في ذلك واضح . وهو : أن العرب في الجاهلية لم يكونوا أمة بالمعنى الصحيح . فلم يتحدثوا لغة ولا ديناً ، وليس لهم أمال وطنية واحدة ، ولا ما هو شرط أولى للأمة ، وهو وجود شخص ، أو هيئة مكونة من عدة أشخاص ، لها قوة تنفيذ أوامرها على كافة أفرادها ، وحملهم على طاعتها . وطبيعة المعيشة القبليّة التي كانت تعيشها تأتي ذلك .

أضف إلى ذلك ؛ أنه لم يكن هناك ما يشجع العرب على هذه الفكرة . لأنهم إذا نظروا هذا النظر لم يشعروهم ذلك بعظمة ، ولا نخر . فحولهم : الفرس من ناحية ، والروم من ناحية ، وعلاقة العرب بهم ليست علاقة تشعروهم بالقوة . فهم يتعاملون معهم تجارياً ؛ ولكن ليست علاقة الند بالند . بل علاقة الفقير بالغني ، والضعيف بالقوى . ومن تاجر منهم ، وانتقل إلى فارس ، والروم ورأى عظمتهم ، استضعف نفسه — نعم ! وردت بعض قصص قد تقض ما نقول : كالذي رواه القطامي عن الكلبي : من وفود العرب على كسرى ، واقتنار النعمان « بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم .

١ تجدها في العقد الفريد : جزء ١ : ١٢٤ .

لا يستثنى فارس ، ولا غيرها . وأن أمة لوقرنت بالعرب لفضلتها (العرب) بعزها ، ومنعتها ، وحسن وجوها ، وبأسها ، وسخاها ، وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ، وأنفتها ، ووفائها ، الخ . . ولكننا نشك في هذا الخبر شكاً كبيراً . فإنا لم نجد هذا الخبر الا عن الكلبي ، وهو مشهور بالوضع . ولأن هذا الحديث لم نجد أحداً رواه في العصر الأموي مع أهميته ؛ إنما روى عن الكلبي وحده ؛ في العصر العباسي ، هذا الى أن ما فيه من الصنعة الفنية ؛ دليل على وضعه — بل عندنا من الأخبار الصحيحة ما ينقضه ، ذلك ما يقوله قتادة وهو من مشهورى التابعين ، وهو كذلك : عربى صميم ، من سدوس . قال عند تفسير قوله تعالى : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ! » : « كان هذا الحى من العرب ؛ أذل الناس ذلاً ، وأشقاء عيشاً ، وأبينه ضلالة ، وأعراة جلوداً ، وأجوعه بطوناً ، معكومين على رأس حُجْرٍ بين الأسدين فارس ، والروم . لا والله ما فى بلادهم يومئذ من شىء يُحسدون عليه . من عاش منهم عاش شقيماً ! ومن مات رُدَى فى النار ! يؤكلون ؛ ولا يأكلون ! والله ما نعلم قبيلة يومئذ من حاضر الأرض ، كانوا فيها أصغر حظاً ، وأدق فيها شأناً منهم . حتى جاء الله عز وجل بالاسلام فورثكم به الكتاب . وأحل لكم به دار الجهاد ، ووسع لكم به من الرزق ، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس !! »<sup>١</sup>

والعرب لما انتصرت قبيلة منهم على فرقة من الجيش الفارسى يوم ذى قار . عدت ذلك نغراً عظيماً ، مع أنه ليس بشىء ذى خطر ، فأية فرقة لأية أمة ؛ عرضة للانزمام ، ولكن العرب أحسوا بالفخر العظيم لا تتصارهم . كأنهم ما كانوا يتوقعون أن تهزم حملة فارسية ؟ ، بل فى نفس هذه القصة مستند قوى لما نقول وهو : أن العرب لما انتصروا يوم ذى قار ، لم يتغنوا بنصرة العرب على



الفرس، إنما تغنوا بنصرة القبائل التي اشتركت في الحرب. وهم: الشيبانيون،  
والعجليون، واليشكريون، ولم تتجل في الغناء روح عربية عامة.

ويخبرنا الطبري: أنه عند ما أراد عمر فتح فارس. تخوفوا من الفرس،  
وعجبوا كيف يستطيعون أن يحاربوهم! يقول: وكان وجه فارس من  
أكره الوجوه اليهم (إلى المسلمين) وأثقلها عليهم؛ لشدة سلطانهم،  
وشوكتهم، وعزهم، وقهرهم الأمام. «وروي أن المثنى بن حارثة  
تكلم فقال: «يا أيها الناس؛ لا يعظمن عليكم هذا الوجه. فانا قد تبجحنا ريف  
فارس، وغلبناهم على خير شقي السواد، وشاطرناهم، وقلنا منهم، واجترأ  
من قبلنا عليهم، ولها ان شاء الله ما بعدها!!»<sup>١</sup>.

فالذي يظهر لنا من هذا كله: أن العربي في الجاهلية كان يعتز بقبيلته.  
والمحمدة التي يفتخر بها هي: التي يأتي بها أحد أفراد قبيلته، فلما رهن حاجب  
ابن زُرارة قوسه عند كسرى ووفى ابنه بالرهن! كان الذي يفتخر بذلك  
قبيلة تميم<sup>٢</sup>، والذي يفتخر بالشاعر أو الشجاع قبيلته، وقل أن يتجاوزوا  
ذلك إلى عد المكرمة، مكرمة أمة!

فلما جاء الإسلام، تكون العرب أمة، وكانت فيها خصائص الأمة التي  
أشرنا إليها، من: اتحاد لغة، ودين، وميول، ومن وجود حكومة على رأسها.  
وأعقب ذلك الانتصار على أضخم أمتين كانتا في عصرها. وهما: فارس،  
والروم. ولكن مع هذا لم تتمم الروح القبيلة. فوجدت النزعتان معا:  
(نزعة العربي لقبيلته، ثم بطنه ثم نخذه) و(نزعة للدم العربي، والأمة العربية،  
والجنس العربي) وسارت النزعتان جنباً إلى جنب، في صدر الإسلام،

١ تاريخ الطبري: جزء ٤: ٦١. ٢ يقول أبو تمام، يمدح أبا دلف العجلي:  
إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها، وزادت على ما وطدت من مناقب  
فأتمم بذي قار. أمالت سيوفكم؛ عروش الذين استرهنوا قوس حاجب!

وصرنا نسمع العربي يفتخر بقبيلته في الاسلام ، كما كان في الجاهلية ، وزاد في الاسلام الافتخارُ بالجنس العربي ، كالذي يقول :

إِنَّا مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ جِيَادُهُمْ  
طَلَعَتْ عَلَيَّ عَادٍ بِرِيحٍ صَرَصَرَ  
وَسَلَبْنِ تَاجِحٍ مَلِكٍ قَيْصَرَ بِالْقَنَا ،

وَاجْتَزَنَ بَابَ الدَّرْبِ لِابْنِ الْأَصْفَرِ ١

فأما النوع الأول . وهو : العصية القبلية ، فالحوادث التاريخية في العصر الأموي ، والقصائد الأموية كلها تفسر هذه النزعة ، ولا تفهم الا بها . ولنسقُ لك أمثلة للدلالة عليها : يقول رجل من بني أسد بن خزيمه يمدح يحيى بن حيان :

أَلَا جَعَلَ اللَّهُ الْيَمَانِينَ كَلِمَهُمْ ،  
فِدَى لِفَتَى الْفَتِيَانِ ، يَحْيَى بِنِ حَيَّانِ  
وَلَوْلَا عُرَيْقُ فِيَّ ، مِنْ عَصِيَّةِ  
لَقُلْتُ ، وَأَلْفًا مِنْ مَعَدٍّ بِنِ عَدْنَانَ  
وَلَكِنَّ نَفْسِي لَمْ تَطِبْ بِعَشِيرَتِي ،  
وَطَابَتْ لَهُ نَفْسِي بِأَبْنَاءِ قَحْطَانَ

وروى المبرّد عن شيخ من الأزد ثقة ، عن رجل منهم : أنه كان يطوف بالبيت وهو يدعو لأبيه . فقيل له : ألا تدعو لأمك ؟ فقال : إنها تيممية ! ٢ .

وَدِعْبِلُ يَفْتَخِرُ بِالْمِنِ ، وَيَعْدُدُ مَنَاقِبَهُمْ ، وَيَرُدُّ عَلَى الْكُمَيْتِ افْتِخَارَهُ  
بِنَزَارِ ، فِي قَصِيدَةٍ تَبْلُغُ سِتْمَاةَ بَيْتِ . أَوْلَهَا :

١ بنو الاصفر: الروم ، قال ابن سيده : لا أدري لم سموا بذلك !

٢ الكامل جزء ١ : ١٩٨ .

أَفِيْقٍ مِنْ مَلَامِكِ يَا ظَعِينَا كَفَانِي اللَّوْمَ مَرُّ الْأَرْبَعِينَا<sup>١</sup>  
وقد ذكر المسعودي : طَرَفًا مِنْ الْقَصِيدَتَيْنِ<sup>٢</sup> ، وعقب ذلك بقوله :  
« وَنَمَى قَوْلَ الْكَمِيْتِ فِي النَّزَارِيَةِ ، وَالْيَمَانِيَةِ ، وَافْتَخَرَتْ نَزَارُ عَلَى الْيَمِينِ ،  
وَافْتَخَرَتْ الْيَمِينُ عَلَى نَزَارِ ، وَأَدْلَى كُلِّ فَرِيْقٍ بِمَا لَهُ مِنَ الْمَنَاقِبِ ، وَتَحَزَبَتْ  
النَّاسُ ، وَثَارَتْ الْعَصِيَّةُ فِي الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ ، وَتَبَعَ ذَلِكَ أَمْرُ مَرْوَانَ بْنِ  
مُحَمَّدِ الْجَعْدِيِّ ، وَتَعْصَبَهُ لِقَوْمِهِ مِنْ نَزَارِ عَلَى الْيَمِينِ ، وَانْحِرَافِ الْيَمِينِ عَنْهُ إِلَى  
الدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ » .

وكان عند كثير من ولاة العرب ، هذه النزعة السيئة في الحكم ، وقيلته  
حوله ترى أنه اذا وُلِّيَ الرَّجُلُ فَقَدْ وَلِيَتْ قَبِيلَتُهُ ، فَلِمَا وَلِيَ ابْنَ هُبَيْرَةَ الْعِرَاقِ  
اعْتَقَدَتْ فِرَازَةَ : أَنَّهَا وَلِيَتْ الْحُكْمَ . فَلِمَا عَزَلَ وَتَوَلَّى خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ  
الْقَسْرِيُّ ، اشْرَأَبَتْ أَعْنَاقَ قَسْرٍ ، وَذَلَّتْ فِرَازَةُ . وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ :  
لَعَمْرِي لَسْتُ نَابِتَ فِرَازَةَ نُوْبَةً<sup>٣</sup> لَمَنْ حَدَّثَ الْأَيَّامَ تَحْسِبُهَا قَسْرُ  
وَفِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ ، لَمَّا تَوَلَّى مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ الشَّيْبَانِي الْيَمِينِ ، قَتَلَ مِنْ أَهْلِهَا  
تَعْصَبًا لِقَوْمِهِ مِنْ رَيْبَعَةَ ، وَغَيْرَهَا مِنْ نَزَارِ ، فَكَانَ عَقِبَةُ بْنُ سَالِمٍ - وَالِيَ عُمَانَ ،  
وَالْبَحْرَيْنِ - يَقْتُلُ مِنَ الْقَيْسِيِّينَ تَعْصَبًا لِقَوْمِهِ مِنْ قَحْطَانَ ، وَكَيْدًا لِمَنْ لَمَّا عَمَلَهُ  
فِي الْيَمِينِ<sup>٣</sup> .

والأمثلة على ذلك كثيرة - لاحصر لها - والذي يهمننا في موضوعنا هنا  
هو النزعة الثانية . وهي نزعة العرب ضد الموالي :

اعتنق العرب الاسلام ، وسمعوا قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ  
الْإِسْلَامُ » « وَمَنْ يَلْتَمِغْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » ، وَهُوَ فِي  
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » وآمنوا بأن الاسلام خير الاديان ، وأن الناس

١ نشوار المحاضرة جزء ١ : ١٧٧ .

٢ أنظر المسعودي جزء ٢ : ١٥٥ .

٣ جزء ٢ : ١٥٥ .

حولهم في ضلال . وأنهم حماة الاسلام ، وحملة الدين القويم . وأن عليهم دعوة الناس كافة ، ليتخلوا عن دياناتهم السابقة ، ويدخلوا فيه . وكان من بعد ذلك الجهاد ، فظفروا بفارس ودكوا عرشها ، وانتصروا على الروم ، وهزموا جيشها ، واستولوا على كثير مما في أيديها . وعلى الجملة ، فقد رأوا : أن سيادة العالم كانت للفرس والروم . فانتقلت لجة اليهم ! . وأن هؤلاء الفرس الذين كان العرب بالأمس يخشون بأسهم أصبحوا تحت حكمهم ! وهؤلاء الروم الذين كان العرب يتمنون أن يفتحوا لهم باب الشام ، ومصر ، ليتاجروا فيها قد هزموا ، وفروا أمامهم الى عقر دارهم ! كل هذا : رفع من نفسية العرب ، وغلا كثير منهم في ذلك فشعروا بأن الدم الذي يجري في عروقهم دم ممتاز ، ليس من جنسه دم الفرس ، والروم ، وأشباههم ! وتملكهم هذا الشعور بالسيادة ، والعظمة ، فنظروا الى غيرهم من الأمم نظرة السيد الى المسود . وكان الحكم الأموي مؤسساً على هذا النظر ! والحق : أن العرب في هذا لم يطيعوا الاسلام في تعاليمه ! فالله تعالى يقول : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ! » ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى ! » ويقول عمر : « لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته !! » وإذا قلتُ العرب . فلست أعني جميعهم ، فقد كان هناك طائفة كبيرة ، من خيارهم ، تدين بتعاليم الاسلام ، وتجعل مقياس الفضل التدين لا الدم « فقد كان علي بن أبي طالب : لا يفضل شريفاً على مشروف ، ولا عربياً على عجمي ، ولا يصانع الرؤساء ، وأمراء القبائل . فكان هذا من آكد الأسباب في تقاعد العرب عنه ! »<sup>١</sup> وروى المدائني : أن طائفة من أصحاب علي مشوا اليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف - من العرب ، وقريش - على الموالي ، والعجم ، واستملي من تخاف خلفه من

١ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد عن المدائني جزء ١ : ١٨٠ .

الناس — وإنما قالوا له ذلك ، لِمَا كان معاوية يصنع في المال . فقال لهم :  
أتأمروني أن أطلب النصر بالجور ؟ ! « . ولكن سواد العرب ، وحكام بني  
أمية ، وولاتهم . كانت عندهم هذه العصية العربية قوية ، يحقرون معها من  
لم يكن منهم . وكتب الأدب ، وحوادث التاريخ ، مملوءة بالشواهد على ذلك :  
نزل جرير بقوم من بني العنبر فلم يُصَيِّفوه حتى اشترى منهم القرى !  
فانصرف وهو يقول :

يَا مَالِكََ بْنَ طَرِيفٍ ، إِنَّ بَيْعَكُمْ  
رَفَدَ الْقَرَى ، مُفْسِدٌ لِلدِّينِ ، وَالْحَسَبِ !  
قَالُوا : نَبَيْعُكَه بَيْعًا . فَقُلْتُ لَهُمْ :

بِيعُوا الْمَوَالِيَّ وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْعَرَبِ !

قال المبرد : ان جِلَّةَ الموالى أنفت من هذا البيت . لأنه حطهم ،  
ووضعهم ، ورأى أن الإساءة اليهم غير محسوبة عيباً <sup>٢</sup> .  
وقال المختار : لابراهيم بن الاشتر يوم خازر وهو اليوم الذي قُتل فيه  
عبيد الله بن زياد « ان عامة جنديك هؤلاء الحمرءاء ( يريد الموالى ) . وان  
الحرب ان ضرسهم هربوا ، فاحمل العرب على متون الخيل ، وأرجل  
الحمرءاء أمامهم » <sup>٣</sup> .

وروى الأغاني : أن رجلاً من الموالى خطب بنتاً من أعراب بني سليم ،  
وتزوجها . فركب محمد بن بشير الخارجي الى المدينة ، وواليها يومئذ ابراهيم  
ابن هشام بن اسماعيل ، فشكا إليه ، فأرسل الوالى الى المولى ، ففرق بين المولى  
وزوجته ، وضربه مائتي سوط ، وحلق رأسه ، ولحيته ، وحاجبيه !

٢ الكامل ١ : ٢٧٣ .

١ شرح النهج جزء ١ : ١٨٢ .

٣ كامل ١ : ٢٧٤ .

فقال محمد بن بشير :

قَضَّتْ بِسُنَّةٍ، وَحَكَمَتْ عَدْلًا، وَلَمْ تَرِثِ الْحُكُومَةَ مِنْ بَعِيدٍ !

وفيها يقول :

وَفِي الْمَائِنِ، لِلْمَوْلَى نَكَالٌ، وَفِي سَلْبِ الْحَوَاجِبِ وَالنَّخْدِودِ !

إِذَا كَافَأْتَهُمْ بِنَاتِ كِسْرَى . فَهَلْ يَجِدُ الْمَوَالِي مِنْ مَزِيدٍ ؟

فَأَيُّ الْحَقِّ أَنْصَفُ لِلْمَوَالِي مِنْ أَصْهَارِ الْعَبِيدِ إِلَى الْعَبِيدِ ؟ !

وكان الحجاج - أحد أركان الدولة الأموية - ينفذ هذه السياسة في شدة ،

ودقة ، فقد وسم أيدي النبط بالمشراط . وفي ذلك يقول الشاعر في مولى :

لَوْ كَانَ حَيًّا لَهُ الْحَجَّاجُ مَا سَلِمَتْ

صَحِيحَةً يَدُهُ مِنْ وَسْمِ حَجَّاجٍ ٢

ولما نزل الحجاج واسطانى النبط منه ، وكتب الى عامله بالبصرة

وهو الحكم بن أيوب - يقول : اذا أتاك كتابي ، فانف من قبلك من النبط ، فانهم

مفسدة للدين ، والدنيا . فكتب اليه : قد نفيت النبط ، الا من قرأ منهم

القرآن ، وتفقه في الدين . فكتب اليه الحجاج : اذا قرأت كتابي فادع من

قبلك من الأطباء ، ونم بين أيديهم ؛ ليقفوا عروقتك . فان وجدوا فيك

عرقاً نبطياً فاقطعه ! والسلام ٣ .

وأمر الحجاج أن لا يؤم بالكوفة الاّ عربي ٤ . ولما قبض على سعيد بن

جبير ، وكان قد خرج مع ابن الاشعث ، على الحجاج . قال له الحجاج : أما

قدمت الكوفة وليس يؤم بها الاّ عربي ، فجعلتك اماما ؟ ! قال : بلى . قال :

أفأ وليتك القضاء فضج أهل الكوفة ، وقالوا لا يصلح القضاء الاّ لعربي !

٢ شرح النهج جزء ٤ : ١٢٣ .

١ الاغانى جزء ١٤ : ١٥٠ .

٤ العقد جزء ١ : ٢٠٧ .

٣ محاضرات الادباء ١ : ٢١٨ .

فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري، وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك! قال: بلى. قال: أو ما جعلتك في سُمّارى وكلهم من رءوس العرب؟ قال: بلى. قال فما أخرجك عليّ؟! الخ<sup>١</sup>.

ويقول الاصفهاني: كانت العرب الى أن عادت الدولة العباسية اذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى؛ دفعه إليه ليحمله عنه. فلا يمتنع، ولا السلطان يغير عليه! وكان اذا لقيه راكباً، وأراد أن ينزل فعل، واذا رغب أحد في تزوج مولاة: خطبها الى مولاها دون أبيها وجدّها<sup>٢</sup>.

وطرب الموالي طرباً شديداً لما مدحهم جرير بن الحَظَفَى بيت قال فيه:  
فِيَجْمَعُنَا وَالْغُرَّ أَوْلَادَ سَادَةٍ أَبٌ لَا يُبَالِي بَعْدَهُ مَنْ تَعَدَّرَا  
فاجتمعوا حوله يسلمون عليه، ويسألونه كيف أنت يا أبا حزرّة؟  
وأهدوا له مائة حلة!<sup>٣</sup>.

بل احتقر العرب طائفة المولدين - الذي ذكرنا طرفاً من نبوغهم، وخصائصهم في الفصل السابق - وسموا ابن العربي من الامة «الهجين» قال في لسان العرب: الهجئة من الكلام ما يعييك، والهجين: العربي ابن الامة لأنه معيب.

قال ابن عبد ربه: «وكانت بنو أمية لا تستخلف بنى الاماء، وقالوا: لا تصلح لهم العرب» ويقول الأصمعي: في تعليقه ذلك «إن الناس يرون أن امتناعهم (عن توليتهم) كان للاستهانة بهم. وإن هذا غير صحيح. وانما كانوا يمتنعون عن توليتهم لأن بنى أمية كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن أم ولد». ونحن أميل الى تعليل الناس من تعليل الأصمعي - لأن قولهم

٢ محاضرات الادباء ١ : ٢٢٠ .

١ الكامل جزء ١ : ٣٩٧ .

٤ عقد جزء ٣ : ٢٩٧ .

٣ أنظر الاغانى ٧ : ٦٥ .

هو الذى يتمشى مع الواقع ، والمنطق الصحيح . وسياسة بنى أمية كلها تؤيد ذلك . فهم اذا اختاروا والياً راعوا عربيته ، واذا اختاروا قاضياً ، أو اماماً يصلى بالناس راعوا ذلك . وليسوا فى هذا يرجعون إلى ضرب من التنجيم كما يزعم الأصمعى . وقد لاقى بنو أمية كثيراً من العنت لتعيين خالد بن عبد الله القسرى والياً على العراق . ولاقى هو كثيراً من هجو الشعراء لأن أمه أمة رومية . وأكبر دليل على نقض قول الأصمعى : أنهم ولو فعلوا يزيد بن الوليد ، و ابراهيم بن الوليد ، ومروان بن محمد ، وأمهاتهم اماء ! ولو كانوا يعتقدون بالتنجيم ما ولوهم - انما الحكمة فى توليتهم أن الموالى بدءوا يقوون فى آخر العهد الأموى ، فاضطر الناس لضرب من الخضوع أمام قوتهم .

وذهب أعرابى الى سَوَّار القاضى ، فقال : ان أبى مات ، وتركنى وأخاً لى - وخط خطين ناحية - ثم قال : وهجيناً لنا - ثم خط خطأ آخر ناحية - ثم قال : كيف ينقسم المال بيننا ؟ فقال : المال بينكم اثلاثاً ان لم يكن وارث غيركم . فقال له : لا أحسبك فهمت ! إنه تركنى ، وأخى ، وهجيناً لنا . فقال سوار : المال بينكم سواء . فقال الأعرابى أياخذ المهجين كما أخذ وياخذ أخى ؟ . قال : أجل ! فغضب الأعرابى ، وقال : تعلم والله إنك قليل الخالات بالدهناء !<sup>١</sup> . وحكى الجاحظ قال : «قلت لعبيد الكلابى وكان فصيحاً فقيراً : أيسرك أن تكون هجيناً ولك ألف جريب ؟ قال . لا أحب اللؤم بشيء ! قلت : فان أمير المؤمنين ابن أمة . قال : أخزى الله من أطاعه ! ويقول الرياشى :

ان أولاد السَّرارى كثرُوا يا ربَّ فينا

ربَّ أدخِلنى بلاداً لا أرى فيها هَجِينا

١ عيون الاخبار ٢ - ٦١ : قيل : انه ليس بالدهناء أمة ؟ وانما كان فيها الخرائر .



وكتب محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يُعيرُ  
أبا جعفر المنصور: « واعلم أنى لست من الطُلُقَاءِ أولاد ، ولا أولاد اللعناء ،  
ولا أعرفَت فيّ الاماء ، ولا حضنتى أمهات الأولاد ! الخ » .

فالحق أن الحكم الأموى لم يكن حكماً اسلامياً ؛ يسوّى فيه بين الناس ،  
ويكافأ فيه من أحسن عربيا كان أو مولى ، ويعاقب فيه من أجرم  
عربيا كان أو مولى ، ولم يكن الحكام فيه خدَمَة للرعية على السواء . انما  
كان الحكم حُكْمًا عربيا ، والحكام فيه خدمة للعرب على حساب غيرهم .  
كانت تسود العرب في النزعة الجاهلية لا النزعة الاسلامية . فكان الحق  
والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل . فالعمل حق اذا صدر عن  
عربي من قبيلة ! وهو باطل اذا صدر عن مولى أو عربي من قبيلة  
أخرى ! — ولسنا الآن بصدد أن نبحت اذا كان الموالى أسعد حظا تحت  
حكم العرب منهم تحت حكم الفرس أو الروم أو أشقى ؟ فذلك ما يهيم  
الباحث السياسى .

ولا بد أن نكرر هنا ما سبقت الاشارة اليه من أن هذا النظر القاسى  
الذى وصفناه ليس نظراً عاماً كان عند العرب جميعهم . انما كان هو النظر  
السائد بين البدو والولاة . أما نظر المساواة فقد كان سائداً فى الأوساط  
العلمية والدينية . فالعالم يشرف بعلمه سواء كان مولى ، أو عربياً . ومن  
سادة التابعين من كانوا موالى ، والناس منحوهم من الاجلال ما منحوا  
العرب ، لا تفاضل بينهم الا بالدين ، والعلم . فنجدهم الزهرى ، ومسروق بن  
الأجدع ، وشريحا ، وسعيد بن المسيب ، وقتادة ، من سادات التابعين . وهم  
من العرب . كما نجد الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، وسعيد بن جبير ،  
وعطاء بن يسار وربيعة الرأى ، وابن جريج ، من سادة التابعين . وهم من  
الموالى . والناس - من عرب وموالى - يأخذون عنهم على السواء ،

وينتقلون من حلقة أحدهم الى حلقة الآخر ، حتى لنرى الحسن البصرى .  
ينقد خلفاء بنى أمية ، وينقد يزيد بن المهلب ! ويرى أن يزيد وصحبه وبنى  
أمية وأصحابهم ضلال مارقون ! ويقول : والله لو ددت أن الأرض أخذتهما  
خسفاً جميعاً ! ثم يأتى يزيد بن المهلب فى رهط من قومه الى الحسن ، ويهم  
أحدهم بقتله . فيقول يزيد : « اغمد سيفك ! » فوالله لو فعلت لانقلب من معنا  
علينا ! .<sup>١</sup> ولما مات تبع الناس كلهم جنازته حتى لم يبق بالمسجد من يصلى  
العصر ، ولم يستنكر الناس عمل الحجاج فى قتله الآلاف من العرب والموالى  
كما استنكروا قتل سعيد بن جبير . وهو مولى لعلمه ودينه !

هذا الذى ذكرنا : هو الذى يفسر لنا ما يروى فى كتب التاريخ والسير  
من قصص مختلفة تدل على احتقار الموالى حيناً واحترامهم حيناً . ويظن  
الظان لأول وهلة أن بينها تضارباً ، والحق أن لا تضارب . وأن الأوساط  
السياسية ، وأوساط أشراف القبائل ، وأوساط البدو كانت تحقر الموالى .  
وأن الأوساط الدينية والعلمية ما كانت تتعصب لجنس ولا دم . وإنما  
كانت تتعصب للدين والعلم وتقومهما حيث كانا .

\*\*\*

كان يقابل هذه العصبية العربية عصبية أخرى من الموالى وخاصة  
الفرس . فقد تملكهم العجب . كيف غلبهم العرب ! وعبر بعضهم عن هذا  
المعنى : بأن حكم العرب لهم ضرب من سخرية القدر ! وكانوا يفخرون على  
العرب بمجدهم القديم ، وعزهم التالذ ، وأنهم أهل الحضارة العظيمة ، ومن  
عرفوا كيف يسوسون الملك ، ويدبرون الحكم . وأنهم لما حكموا لم يكن  
لهم الى العرب حاجة ، ولما حكم العرب لم يستطيعوا أن يحكموا الا بمعوتهم .

لم تكن عند الفرس نزعة قبيلية ، ولم يكونوا يُعْتَوْنَ بالأنساب عناية العرب بها ، انما كانوا يتعصبون أحيانا للبلدان . فقد كان أهل خراسان مثلاً من أشد الناس عصبية بعضهم لبعض . وكانت العصبية القوية عندهم العصبية للأمة . وذلك طبعي . لأنهم قطعوا - من عهد بعيد - طور البداوة ، وتحضروا ، وكانوا أمة بكل معناها الصحيح ، وبدءوا ، يفخرون على العرب في العهد الأموي - كالذي رأيت من شعر اسماعيل بن يسار<sup>٢</sup> - فقد كان يتغنى دائماً بمجد الفرس ، ودخل على هشام بن عبد الملك في خلافته فاستنشده فأنشده قصيدة يقول فيها :

إِنِّي وَجَدْتُكَ مَا عُوْدِي بِذِي خَوْرٍ      عِنْدَ الْحِفَاطِ ، وَلَا حَوْضِي بِمَهْدُومِ !  
أَصْلِي كَرِيمٌ ، وَمَجْدِي لَا يُقَاسُ بِهِ !      وَلي لِسَانٍ كَحَدِّ السِّيفِ مَسْمُومِ !  
أَحْمِي بِهِ مَجْدَ أَقْوَامٍ ذَوِي حَسْبٍ      مِنْ كُلِّ قَرْمٍ بِتَاجِ الْمُلْكِ مَعْمُومِ<sup>٣</sup>  
جَجَاحِجٍ سَادَةٍ بُلُجٍ مِرَازِيَةٍ      جُرْدٍ عِتَاقٍ مَسَامِيحٍ مَطَاعِمِ<sup>٤</sup>  
مَنْ مِثْلُ كِسْرَى وَسَابُورِ الْجُنُودِ مَعَا      وَالْهَرْمُزَانَ لِفَخْرٍ أَوْ لِتَعْظِيمِ ؟  
أَسَدُ الْكِتَابِ يَوْمَ الرُّوعِ إِنْ زَحَفُوا      وَهَمْ أَذَلُّوا مَلُوكَ التَّرِكِ ، وَالرُّومِ !  
يَمِشُونَ فِي حَلْقِ الْمَازِيِ سَابِعَةً      مَشَى الضَّرَّاعِمَةَ الْأَسَدَ اللَّهَامِيمِ<sup>٥</sup>  
هَنَّاكَ إِنْ تَسْأَلِي تُنَبِّي بَأَنَّ لَنَا :      جُرْثُومَةَ قَهْرَتِ عِزِّ الْجَرَائِمِ

فغضب هشام . وقال أعلى تفتخر ، وإيأى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك

١ أنظر مقدمة ابن خلدون . ٢ أنظر الجزء الاول من فجر الاسلام : ١٢٨

٣ معموم : من عم رأسه اذا لقت عليه العمامة .

٤ ججاجح : جمع ججاجح . هو السيد المسارع في المكارم ، والمرازبة : جمع مرزبان . وهو رئيس الفرس ، والعتاق من الخيل : النجائب .

٥ المازي : كل سلاح من الحديد ، والماذية : الدرع البيضاء ، واللهاميم : جمع لهميم . وهو السابق الجواد من الخيل والناس .

وأعلاج قومك؟ غُطّوه في الماء. فغَطّوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج.  
ثم أمر بأخراجه وهو يَشْر. ونفاه من وقته الى الحجاز<sup>١</sup>  
ولكن هذه النزعة صدها الأمويون صدّاً عنيفاً، وعاقبوا عليها في قوة  
وجبروت. فتحولت من فخر ظاهر الى دعوة سرية، وكانت الدعوة العباسية.  
غير أننا نقرر هنا كالذي قررناه من قبل — وهو أن هذه النزعة لم تكن  
نزعة الفرس عامة. فمنهم من دخل الاسلام الى أعماق نفوسهم. كمن سميّاهم  
من التابعين ولم ينسوا أن للعرب عليهم نعمة لا تقدر. وهى: أنهم هدّوهم  
الى الاسلام، واستنقذوهم من ضلال المجوسية الى هداية الوجدانية.  
فقى الاوساط العلية، والدينية كان الفرس لا يؤمنون بعربية، وفارسية  
انما يؤمنون باسلام سَوّى بين الناس أجمعين، ولكن كثيراً من سواد الناس  
ومن أشرف الفرس كانوا يكرهون العرب، وخاصة الحكام، والبيت  
الأموى. روى صاحب الاغانى: «أن اسماعيل بن يسار استأذن على الغمْرِ  
ابن يزيد بن عبد الملك يوماً فحجبه ساعة، ثم أذن له، فدخل يبكي.  
فقال الغمْرُ: يا أبا فائد تبكى؟ قال: وكيف لا أبكى، وأنا على مروانيتي  
ومروانية أبى أُحجِبُ عنك: فجعل الغمْر يعتذر اليه وهو يبكي. فما  
سكت حتى وصله الغمْر بجملة لها قدر، وخرج من عنده فلاحقه رجل  
فقال له اخبرنى: ويملك ياسماعيل أى مروانية كانت لك أو لأبيك؟ قال:  
بغضنا اياهم، امرأته طالق ان لم تكن. أمه تلعن مروان وآله كل يوم  
مكان التسييح، وان لم يكن أبوه حضره الموت، فقيل له: قل لا اله الا الله  
فقال: لعن الله مروان، تقرباً بذلك إلى الله تعالى، وإبدالاً له من التوحيد،  
واقامة له مُقامه!»<sup>٢</sup>

كره الموالى الحكم الاموى كراهة عميقة فسعوا فى اسقاطه وقد

كانت وجهة نظرهم : أن الأمويين لم يعدلوا في حكمهم لنا ، وترقبنا انتقال الأمر من خليفة الى خليفة . فكان أمر الظلم على السواء - اللهم الا اذا استثنينا عمر بن عبد العزيز وهو فذ ، وليس في الامكان أن نحول الأمر من العرب الى الفرس ، فيكونوا هم الحاكمين . لأن السلطة الكبرى لاتزال في يد العرب ، ولأنه اذا أثيرت هذه الدعوة تجتمع العرب . وغير الفرس من الموالي علينا . فلندعُ اذاً الى نقل الخلافة من يد الأمويين الى يد الهاشمين . فنجد القلوب مستعدة لقبول الدعوة لأن الهاشمين عرب ولأنهم أقرب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمويين ، وهذا يُسرّع في قبول الدعوة ، ويصبغها صبغة دينية . وأخيراً فنحن اذا عضدنا الهاشمين ؛ رأوا أنهم وصلوا الى الحكم بمعونتنا ، ونجحوا بتدبيرنا . فيكون ظاهر الحكم لهم وباطنه لنا ، تتولى المناصب العالية ، وتدير شؤون الدولة ، وتترك لهم أبهة الخلافة ، ومظهرها الخارجي . فلهم الشكل ولنا الجوهر . لعل هذا كان أهم ما يدور في خلد المؤسسين من الفرس للدعوة العباسية « قال نصر بن سيار يخاطب النزارية واليمانية ويحذرهم هذا العدو الداخل عليهم . بقوله :

أبْلِغْ رِبِيعَةَ فِي مَرَوْ وَإِخْوَتَهُمْ      فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب  
ولينصبوا الحرب إنَّ القوم قد نصبوا      حرباً ، يُحَرِّقُ فِي حَافَاتِهَا الحَطْبُ  
ما بِالْكُمْ تَلْقَحُونَ الحَرْبَ بَيْنَكُمْ      كَأَنَّ أَهْلَ الحِجَا عَنِ رَأْيِكُمْ عَزُبُ  
وتتروكون عدواً قد أظلكمو      مما تَأَشَّبَ ، لا دِينَ ، ولا حَسْبُ  
قَدِمًا يَدِينُونَ دِينًا ما سَمِعْتُ بِهِ      عَنِ الرِّسُولِ ، وَلَمْ تَنْزِلْ بِهِ الكِتَابُ  
فَمَنْ يَكُنْ سَائِلًا عَنِ أَصْلِ دِينِهِمْ      فَانَّ دِينَهُمْ : أَنْ تُقْتَلَ العَرَبُ ١

وكتب ابراهيم الامام لأبي مسلم الخراساني : « ان استطعت ألا تدع  
بخراسان أحداً يتكلم بالعربية الا قتلته فافعل ! وأيما غلام بلغ خمسة أشبار  
تهمه فاقتله وعليك بمضر فانهم العدو القريب الدار فأبذ خضراءهم ،  
ولا تدع على الأرض منهم ديناراً ١ »

كانت خراسان مهد الدعوة العباسية ، وكانت قطراً عظيماً ، يبلغ نحو  
ضعف ما يطلق الاسم عليه الآن . وقد تولاها أمراء من العرب بين مضرى  
ويمانى فكانوا يحكمون حكماً عربياً ، بل قبلياً . فأجج ذلك نار الحقد بين  
العرب والفرس أولاً وبين اليمانيين والمضريين ثانياً . فالأزديون  
يمثلون اليمانيين ، وتميم وقيس يمثلون المضريين . وكل يعمل للزعامة ،  
والغلبة . فاذا تولاها يمانى واسى اليمانيين وحدهم ، وحقر من شأن غيرهم ،  
والعكس . والفرس بين هؤلاء وهؤلاء ضائعون . تولى خراسان المهلب  
ابن أبى صفرة وآله عهداً طويلاً ، وهم أزديون - أى يمانون -  
فكانت السلطة بيدهم وحكموا حكماً عربياً ، قبلياً ، وكانوا فى منتهى الثروة ،  
والغنى . فكانوا يمدون اليمانيين أولاً ، بما لهم ، وبجاههم قال المدائنى : « باع  
وكيل يزيد بن المهلب بطيخاً جاءه من مغلّ بعض أملاكه باربعين الف  
درهم . فبلغ ذلك يزيد . فقال له يزيد : تركتنا بقالين أما كان فى عجائز الأزد  
من تقسمه فيهن ؟ » ٢ وكان عمر ( بن عبد العزيز ) ييغض يزيد  
( ابن المهلب ) وأهل بيته ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم ٣ .  
وتولى قتيبة بن مسلم وكان باهلياً اى ( مضرياً ) « فتكرت له أمراء القبائل لاذلاله  
إياهم واستهاتته بهم ، واستطالته عليهم » ٤ وأخيراً تولى خراسان نصر بن  
سيار ، وكان مضرياً كذلك « فسكت أربع سنين لا يستعمل فى خراسان  
إلا مضرياً » ٥ لهذا وأمثاله : ساءت العلاقة بين اليمانيين ، والمضريين .

١ شرح النهج ١ : ٣٠٩ . ٢ ابن خلدان ٢ : ٣٩٥ . ٣ ابن خلدان ٢ : ٤٠٤ .

٤ شرح النهج ١ : ٣٠٩ . ٥ ابن خلدون ٣ : ٩٧ .

فلما شعروا باجتماع الفرس عليهم فكروا ان يجمعوا كلمتهم ، ويوحدوا صفوفهم ، فقد رأينا نصر بن سيار يذبه العرب الى أن الفرس تريد أن تهلك العرب ، فأولى ان يتحد العرب ؛ كما اتحد الفرس ، بل نرى ان الأمر قد وصل الى أكثر من ذلك . « فقد توادعت قبائل العرب من ربيعة ، ومضر ، واليمن على وضع الحرب ، والاجتماع على قتال أبي مسلم الخراساني »<sup>١</sup> . ولكن أبا مسلم وقومه بدعاهم ؛ أججوا نار الفتنة بين قبائل العرب من جديد . « فجعل أبو مسلم يكتب الى شيبان الخارجي يذم اليمانية تارة ، ومضر أخرى . ويوصي الرسول بكتاب مضر ؛ أن يتعرض لليمانية ليقروا ذم مضر . والرسول بكتاب اليمانية ؛ أن يتعرض لمضر ليقروا ذم اليمانية »<sup>٢</sup> ويرسل أبو مسلم لعل بن الكرمانى - أحد زعماء اليمانيين - من يقول له : أما تأنف من مصالحة نصر بن سيار ، وقد قتل بالأمس أباك وصلبه ؟ ما كنت أحسبك تجامع نصر بن سيار فى مسجد تصليان فيه ! »<sup>٣</sup> - وأخيراً بعد حوادث ودسائس نجح أبو مسلم « وتقدم نصر بن سيار الى أبى مسلم يلتمس منه أن يدخل مع مضر . وبعثت ربيعة وقحطان الى أبى مسلم بمثل ذلك . فتراسلوا بذلك أياماً ، فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد الفريقين ، حتى يختار أحدهما ففعلوا . وقدم الوفدان ، وسمع أبو مسلم وشيعته الخطب فى ذلك » ثم أعلن أبو مسلم اختياره . فقال : « قد اخترنا على بن الكرمانى ، واصحابه من قحطان ، وربيعة . . . ففض وفد مضر ، عليهم الذلة والكتابة »<sup>٤</sup> .

اجتمع على الدولة الأموية اليمانية ، والرَّبِيعية ، والعجم . وكان فى

١ ابن خلدون ٣ : ١٢١ . ٢ ابن خلدون ٢ : ١١٩ .

٣ الطبرى ٩ : ٩٧ . ٤ تجذ القصة بطولها فى تاريخ الطبرى ٩ : ٩٧ .

النقباء<sup>١</sup> - وهم القادة، والزعماء الذين حاربوا الدولة الأموية - كثير من العرب . منهم ؛ قحطبة الطائي . وكان من اعظم العرب نفوذاً في قومه وقد خطب في اهل خراسان يحقر العرب ، ويعظم الفرس ؛ في لهجة غريبة . فكان فارسياً أكثر من الفرس أنفسهم ! اذ يقول . يا أهل خراسان هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين ، وكانوا يُنصرون على عدوهم لعدلهم ، وحسن سيرتهم ؛ حتى بدّلوا ، وظلموا . فسخط الله عز وجل عليهم ؛ فانتزع سلطانهم ، وسلط عليهم أذل أمة كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم . . . واسترقوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالعهد ، وينصرون المظلوم ، ثم بدلوا وغيروا ، وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبة ؛ لأنكم طلبتموهم بالثأر<sup>٢</sup> . وبعد أن أدى العرب عملهم . نكل أبو مسلم بهم ، وقتل زعماءهم .

\*\*\*

سقطت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية ، ونال الفرس بعض أمنيته لا أمنيته كاملة . فأمنيته الكاملة أن تقوم دولة فارسية بملوكها ، وعمالها . ولكن ما نالوه ليس قليل الخطر ، فالخلفاء العباسيون مقتنعون أن دولتهم قامت على أكتاف الفرس ، وكذلك العلماء والمؤرخون . فداود بن علي ؛ يخطب فيقول : يا اهل الكوفة ! انا والله مازلنا مظلومين ، مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان ؛ فأحيا بهم حقنا ، وأفليج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوقون ؛ فإظهر فيكم الخليفة من هاشم ، ويبيض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل

١ تجد أسماء النقباء وقبائلهم في الطبرى ٩ : ٩٨ .

٢ داود بن علي هو : عم أبي جعفر المنصور .

٣ طبرى ٩ : ١٠٦ .



الشام الخ»<sup>١</sup>. وأبو جعفر المنصور يقول: «يا أهل خراسان! أتم شيعتنا، وأنصارنا، وأهل دعوتنا»<sup>٢</sup>. ويقول الجاحظ: «دولة بني العباس أعجمية خراسانية، ودولة بني مروان عربية أعرابية»<sup>٣</sup>. «وكانوا يسمون باب خراسان في بغداد باب الدولة. لاقبال الدولة العباسية من خراسان»<sup>٤</sup>. وأوصى المنصور ابنه قبل وفاته فقال: «وأوصيك بأهل خراسان خيراً فانهم أنصارك، وشيعتك؛ الذين بذلوا أموالهم في دولتك، ودماءهم دونك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم؛ أن تحسن إليهم، وتتجاوز عن مسيئتهم، وتكافئهم على ما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده»<sup>٥</sup>. استتبع هذا غلبة الفرس، ونفوذهم. حتى عد المؤرخون من أهم خصائص هذا العصر النفوذ الفارسي، وضعف النفوذ العربي.

ولكن إلى أي حد غلب العرب؟ وهل كان نفوذ الفرس في الدولة العباسية كنفوذ العرب في الدولة الأموية؟ وهل انتهى بذلك الصراع بين العرب والموالي؟ الحق أنه لم يكن كل ذلك، فالخلفاء العباسيون عرب هاشميون - ولو من قبل الأب - وهم يفخرون بذلك، ويعدونه من أكبر مناقبهم. وهم ان حفظوا للفرس معوتهم؛ فلن ينسوا عربيتهم، ويوم يشعرون بأن الفرس زاحموهم في سلطانهم؛ نكلوا بهم كما نكل المنصور بأبي مسلم. والرشيد بالبرامكة. والمأمون بالفضل بن سهل. فالفرس في العصر العباسي الأول كان لهم نفوذ كبير. ولكن ليس معنى هذا انعدام نفوذ العرب. كانت اعظم المناصب كالوزارة في يد الفرس، ولكن كان الخليفة عربياً هاشمياً، وكان له قواد من العرب كما له قواد من الفرس، وكان له ولاة من العرب، وولاية من الفرس. فجد المنصور كانوا أقساماً أربعة.

١ طبرى ٩ : ١٢٧ . ٢ مسعودى ٢ : ١٩٠ .

٣ البيان والتبيين ٣ : ٢٠٦ . ٤ مسعودى ٢ : ١٨٢ . ٥ طبرى ٩ : ٣١٩ .

يمنية، ومضرية، وربعية، وخراسانية<sup>١</sup>. — وفي اليوم الذي ولى فيه المأمون طاهرا الشرطة ولى جماعة من الهاشميين كور الشام<sup>٢</sup>. وقد ولى المنصور محمد ابن خالد بن عبدالله القسرى الحرمين<sup>٣</sup>. وولاية الرشيد للأمصارع كان كثير منهم عرباً<sup>٤</sup>. واشتهر في هذا العصر من أمراء العرب وقوادهم سعيد بن سلم الباهلي، ومعن بن زائدة الشيباني، وابو ذؤلف العجلي، وروح بن حاتم بن قبيصة والمهلب بن أبي صفرة، وثمامة بن اشرس، إلى كثير من أمثال هؤلاء.

كل هذا؛ يجعلنا نقول: ان الانقلاب العباسي جعل كفة الفرس راجحة. ولكنه لم يُعَدِّم الكفة الأخرى العربية. وهذا ما جعل الصراع يستمر في هذا العصر. فلتبعه في ايجاز.

نرى في هذا العصر أن الناس لا يزالون ينزعون الى الفخر بالنسب العربي، والولاء العربي. حتى لنرى أبا مسلم الخراساني يصطنع لنفسه نسباً عربياً. فيزعم انه من نسل سليل بن عبدالله بن عباس<sup>٥</sup>. وكتاب الأغاني يحدثنا: ان اسحق الموصلي. وهو ما هو من القرب من الرشيد؛ تناظر مع ابن جامع بحضرة الرشيد فتغالطاً فسيبه ابن جامع، فضى اسحق إلى خازم بن خزيمه (وهو عربي) فتولاه<sup>٦</sup>، واتمى إليه. فقبل ذلك منه فقال اسحق:

إذا كانت الأحرارُ أصلي، ومنصبي،

ودافع ضيمي خازم<sup>٧</sup>، وابن خازم

عطستُ بأنفٍ شامخٍ وتناولت

يداي الشرياً قاعداً؛ غيرَ قائم<sup>٧</sup>

- |  |                                 |
|--|---------------------------------|
| ١ طبري ٩ : ٢٨٢ .   | ٢ طيفور ٦٤ .                    |
| ٣ الجهشيارى : ١٣٨ .                                      | ٤ أنظر الطبري ١٠ : ١١٢ .        |
| ٥ طبري ٩ : ١٦٧ .   | ٦ أى طلب أن يكون اسحق مولى له . |
| ٧ أنظر الحكاية في الأغاني ٥ : ٥٦ والغيث المنسجم ١ : ٨٨ . |                                 |

فهذه القصة : تدلنا دلالة واضحة على حاجة الأعاجم في هذا العصر - حتى الأشراف منهم - إلى الانتماء إلى العربي بالولاء ؛ ليحتفى به ويدافع عنه . ويحكى الأغاني أيضاً أنه كان لعلي بن الخليل صديق فارسي ، فغاب مدة وقد أصاب مالا ، ورفعة . ثم عاد إلى الكوفة ، وادعى أنه من تميم فقال يهجوهُ :

يُرُوحُ بِنِسْبَةِ المَوْئِي ، وَيُصْبِحُ يَدَّعِي العَرَبَا !

فلا هذا ، ولا هذا كَ يَدْرِكُهُ إِذَا طَلَبَا !

إلى أن يقول : يَشْمُ الشَّيْخَ والقَيْصُو م كَي يَسْتَوْجِبَ النَّسَبَا !

فصار تشبهاً بالقَوِّ م جِلْفَا ، جَافِيَا ، جَشْبَا !

إِذَا ذُكِرَ البَرِيرُ ١ بكي وَأَبْدَى الشُّوقِ ، وَالطَّرْبَا ١

وليس ضميرُهُ في القَوِّ م إِلا التَّيْنِ ، وَالعِنْبَا ٢ !

ويحكى في موضع آخر : أن والبة بن الحُبَاب كان يدعى النسب إلى العرب فقال فيه أبو العتاهية :

أولبُ أنت في العَرَبِ كَمِثْلِ الشَّيْصِ في الرُّطْبِ !

هَلُمَّ إلى المِوَالِي الصَّيْدِ في سَعَةِ وفي رُحْبِ !

فأنت بنا لعمر الله ، أشبه منك بالعرب ٣ ! الخ

وَدَّعَى رَجُلُ النِّسْبَةِ إلى العَرَبِ فقال فيه بِشَّار :

ارفق بعمر و إذا حركت نسبته فانه عربي من قوارير !

ويقول فيه : إن عمراً فاعرفوه عربي من زجاج !

مظلم النسبة لا يعرف إلا بالسراج

١ في القاموس ؛ البرير الاول من ثمر الاراك .

٢ الفصيحة بتمامها في الأغاني وقصيدة أخرى مثلها في هذا المعنى ١٣ : ١٨ .

٣ الفصيحة في الأغاني ١٦ : ١٤٩ .

وقال مخلد الموصلى :

أنتَ عندى عربىٌّ ؛ ليس فى ذاك كلام !  
عربى ، عربى ، والسلام !!!  
شعرَ أجنانك قيضو م ، وشيخ ، وثمام !<sup>١</sup>

أفلو كان العرب قد ذلّوا فى هذا العصر ، وحقّر شأنهم على الوصف الذى يصفه بعض المؤرخين كانت هذه الحركة - أعنى حركة الانتساب إلى العرب والاعتزاز بهم - تبلغ هذا المبلغ ؟  
أما الذى نشاهده كذلك . ان الحركة العربية دوفعت بحركة اخرى فارسية ، وان الصوت الخافت الذى كنا نسمعه من مثل : اسماعيل بن يسار ، فى العهد الأموى فيعاقب عليه . اصبح الآن شديداً ، قوياً حراً . ونرى بشاراً زعيم هذه الحركة يفخر مرة بخراسان ويقول :

وهجانى معشر كلهمو ححق ، دام لهم ذاك الحمق  
ليس من جرّم ، ولكن غاظهم شرفى العارض قد سدّ الأفق  
من خراسان ، وييتى فى الذرى ، ولدى المسعاة فرعى قد سمق<sup>٢</sup>  
ويفخر مرة بالعجم فيقول :

ونبتت قوماً بهم جنّة يقولون من ذا ؟ وكنت العلم !  
الا ايها السائل جاهدأ ليعرّقى ؛ أنا أنف الكرم !  
نمت فى الكرام بنى عامر ؛ فروعى ، وأصلى : قريش العجم !  
ويقول ذلك أمّام المهدي ؛ فلا يعاقبه كما فعل هشام بابن يسار بل

١ محاضرات الادباء ١ : ٢٢٢ وما بعدها . ٢ سمق سموقا : علا و طال .

يسأله من اى العجم انت؟ فيقول: من أكثرها فى الفرسان، وأشدّها  
على الأقران، أهل طخارستان:

بل كان يتبرأ من الولاء. ويقول:

اصبحتُ مولى ذى الجلال، وبعضهم:

مولى العريب! نخذ بفضلك فافخر

مولاك أكرم من تميم كلها.

اهل الفعال، ومن قريش المشعر!

فارجع الى مولاك غير مدافع.

سبحان مولاك الأجل الأكبر!

بل كان يدعو الموالى إلى نبذ ولائهم للعرب. فيروى الأغانى: ان رجلا  
من بنى زيد شريف. قال لبشار: «يا بشار! قد افسدت علينا موالينا  
تدعوهم إلى الاتقاء منا، وترغبهم فى الرجوع إلى اصولهم، وترك الولاء  
وانت غير زاكى الفرع، ولا معروف الأصل! فقال له بشار: والله لأصلى  
اكرم من الذهب، ولفرعى ازكى من عمل الأبرار، وما فى الأرض كلب  
يود ان نسبك له بنسبه!»<sup>١</sup>

وقال له عربى: ما للهوالى والشعر؟ فقال يهجو العرب:

احين كسيت - بعد العرى - خزاً، ونادمت الكرام على العقار؟  
تفاخر يا ابن راعية وراع؛ بنى الأحرار، حسبك من خسار!  
ترىغ<sup>٢</sup> بخطبة كسر الموالى، وينسيك المكارم صيد فار  
وكنت إذا ظممت إلى قراح؛ شركت الكلب فى ولغ الاطار<sup>٣</sup>

١ أغانى ٣: ٥١. ٢ ترىغ: تريد. ٣ الاطار: ما حول البيت.

وتغدو للقفادِ تدرِيها ، ولم تعقل بدراج الديار! ١  
وتنشح الشمال للابسيها ، وترعى الضأن بالبلد القفار! ٢  
ولبشار كثير من هذا الضرب ؛ يدلنا على ما نقول من انه كان زعيم الحركة  
العدائية للعرب . كما يرينا ما كان له ولأمثاله من حرية - في هجاء العرب -  
لم يكونوا يعهدونها في العصر الأموي .  
وكثر ادعاء الناس للانتساب الى كسرى كذلك حتى قال جحظة :  
واهل القرى كلهم ينتمون لكسرى ادعاءً ! فأين النديط؟ ٣

\*\*\*

عما لا شك فيه : ان نفوذ الفرس قد قوى في عهد العباسيين الأولين ،  
وكان هذا النفوذ يزداد قوة يوماً فيوماً .  
قد كان استخدام الموالي في العهد الأموي نادراً ، وكان يقابل بامتعاض .  
فقد استخدموا - مثلاً - رجاء بن حيوة ، وكان مولى كندة . واستخدم  
عمر بن عبد العزيز مولى ، وجعله والياً على وادي القرى . فعوتب على ذلك .  
ولكن ما كان شاذاً في العصر الأموي صار هو المألوف في العصر العباسي .  
ابتدأ المنصور يكثر من استخدام الموالي . يقول السيوطي : « ان المنصور  
أول من استعمل مواله على الأعمال ، وقدمهم على العرب . وكثر ذلك بعده  
حتى زالت رياسة العرب وقيادتها » ٤ . وليس معنى هذه العبارة أن أحداً  
قبله من خلفاء بني أمية لم يستعمل مولى قط وإنما المعنى : أن المنصور اتخذ  
استعمال الموالي مبدأ له وقاعدة ، ورأسهم على العرب . وهو بهذا المعنى : أول  
من فعل ذلك ، والجهشياري في كتابه تاريخ الوزراء . يروي لنا ما يفهم منه

١ تدريها : تختلها لتصيدها والدراج : طائر  
٢ أغاني ٣ : ٢٣ .  
٣ محاضرات الأدباء ٢ : ٢٢٢ .  
٤ تاريخ الخلفاء : ١٠٥ .

ان اكثر من تولى الأعمال للمنصور موالى<sup>١</sup>. ويقول المسعودى فى المنصور: إنه أول خليفة استعمل مواليه، وغلما نه، وصرّفهم فى مهماته، وقدمهم على العرب. فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده - من ولده - سنة؛ فسقطت، وبادت العرب. وزال بأسها، وذهبت مراتبها. «ويروى الطبرى: «أنه كان للمنصور خادم أصفر إلى الأدمة، ماهر لا بأس به فقال المنصور يوماً: ما جنسك؟ قال: عربى يا أمير المؤمنين. قال ومن أى العرب أنت؟ قال من خولان، سُبِيتُ من اليمن، فأخذنى عدوُّ لنا فجنبنى فاسترققت، فصرت إلى بعض بنى أمية، ثم صرت إليك. قال: أما إنك نعم الغلام، ولكن لا يدخل قصرى عربى يخدم حرمى. اخرج عافاك الله فاذهب حيث شئت!»<sup>٢</sup> ويروى الأغانى: أن أبا نخيلة وقف على باب أبى جعفر، واستأذن فلم يصل، وجعلت الخراسانية تدخل، وتخرج قهراً به؛ فيرون شيخاً أعرابياً، جلفاً فيعبثون به. فقال له رجل عرفه: كيف أنت يا أبا نخيلة؟ فأنشأ يقول:

أصبحت لا يملك بعضى بعضا تشكو العروق الآبضات؛ أبضا!  
كما تشكى الأزجى الفرضا كأنما كان شبابى قرضا!

فقال له الرجل: وكيف ترى ما أنت فيه فى هذه الدولة؟ فقال:

أكثرُ خلق الله من لا يدرى. من أىّ خلق الله حين يُلقى!  
وحلةٌ تُنشر ثم تُطوى، وطيلسانٌ يشتري فيغلى  
لعبد عبدٍ، أو لمولى مولى. يا ويح بيت المال! ماذا يلقى؟<sup>٥</sup>

١ أنظر الجهشارى: ١٢٩ و ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٧.

٢ المسعودى ٢: ٤٠١. ٣ طبرى ٩: ٣١٦.

٤ الآبضات: التقلصات

٥ الأغانى ١٨: ١٤٨.

ولكن مع هذا كله استخدم المنصور بعض العرب . فقد ولى سَلم بن قتيبة الباهلي البصرة كما ولى مولى كورَ البصرة ، والابُدَّة<sup>١</sup> . ورأيتَ قبل أن جند أبي جعفر كانوا عرباً وعجماً .

فلما جاء الرشيد ؛ زاد نفوذ الفرس بفضل البرامكة ، وقد كانوا المصرّين للدولة وشؤونها . فاستتبع نفوذهم نفوذَ جنسهم ، واتخذوا لذلك سياسة محكمة . منها : ما يرويه لنا الطبري : أن الفضل بن يحيى ( البرمكي ) اتخذ يخراسان جنداً من العجم سماهم « العباسية » وجعل ولائهم لهم ( للعباسيين ) وأن عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل ، وأنه قدّم منهم بغدادَ عشرون ألف رجل . فسموا ببغداد : « الكرنبيّة » ، وخلف الباقي منهم يخراسان على أسمائهم ودفاترهم<sup>٢</sup> .

وزاد نفوذهم كذلك في عهد المأمون فقد انتصر الفرس نصرّة ثانية

١ عيون الاخبار ١ : ٢٩٠ . ٢ طبرى ١٠ : ٦٢ . وقد ساعد على هذا النفوذ نوع من الولاء جديد ، ظهر في هذا العصر ، ولم نكن نعرفه من قبل . وهو غير أنواع الولاء التي شرحناها في « فجر الاسلام » ذلك هو ما يسميه ابن خلدون : « ولاء الاصطناع »<sup>١</sup> وذلك أن الخليفة يتخذ قوماً من الفرس ، أو الترك مثلاً يمنحهم شرف الانتساب اليه ، والى دولته ويستخدمهم في القيام بشؤونه والحرب معه ، ويجرى عليهم الأرزاق ؛ فيسمون مواليه ، وموالى دولته . كما استخدم العباسيون الاولون بنى برمك ، وبنى نوبخت من الفرس ، فأطلق عليهم : موالى الدولة العباسية وكما فعل المعتصم بالاتراك . وهو معنى لم نلاحظه في دولة بنى أمية فلم يكن لدولتهم موالى بهذا المعنى - على ما اعلم - وهذا النوع من الولاء زاد نفوذ الفرس أولاً ، والترك ثانياً ؛ لأنه كان يزيد عددهم ، وقوتهم ، وكان يشعروهم بأن الدولة دولتهم ، وأن لهم سلطاناً على الرعية مستمداً من سلطان خليفتهم . وقد رأينا فيما نقلنا عن الطبرى أنه في مرة واحدة كان خمسمائة ألف فارسى موالى للعباسيين - وهذا عدا الموالى الذين كانوا يؤسسون فيسترقون . فترى من هذا كيف عمر العرب بالموالى .



كالتى كانت بين العباسيين ، والأمويين . لأن أغلب الفرس تعصب للمأمون ،  
وأكثر العرب تعصبوا للأمين . فعُدَّت غلبة المأمون نصرةً فارسيةً .  
فطيفور يذكر لنا فى تاريخه : « ان العجم كانوا يركبون ومعهم القسي ،  
والنشاب ؛ بين يدي المأمون »<sup>١</sup> ويروى الطبرى : « أن رجلاً تعرض  
للمأمون بالشام مراراً فقال له : يا أمير المؤمنين ! انظر لعرب الشام  
كما نظرت لعجم أهل خراسان . فقال « المأمون » : أ كثرت على يا أخا أهل  
الشام ! والله ما أنزلتُ قيساً عن ظهور الخيل ؛ إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت  
مالى درهم واحد ! وأما اليمن ؛ فوالله ما أحببتها ولا أحببتنى قط ، وأما قضاة  
فسادتها تنتظر السفياتى وخروجه فتكون من اشياعه ، واما ربيعة ، فساخطة  
على الله منذ بعث الله نبيه من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج احدهما شارياً .  
اعزب فعل الله بك ! »<sup>٢</sup>

فلما جاء المعتصم احل الترك محل الفرس . فنكّل الترك بالفرس  
والعرب جميعاً ، كما سيتضح ذلك عند الكلام على العصر الثانى ان شاء الله .

\*\*\*

كان لنفوذ الموالى ؛ وخاصة الفرس مظاهر عدة :

( ١ ) ان قصور الخلفاء ملئت بالموالى يستخدمون فى اعمال شتى ،  
وبيوت الحرّيم ملئت بالخصيان . وقد اخذ المسلمون ذلك عن البيزنطيين ،  
ولم تكن هذه العادة معروفة عند العرب .

( ٢ ) قصر المراكز الكبيرة كالوزارة على الفرس تقريباً .

( ٣ ) نفوذ العادات ، والتقاليد الفارسية كاحياء يوم النيروز ، ولبس

القلنسوة .

( ٤ ) انتشار الثقافة الفارسية وسنفرده له باباً خاصاً .

\*\*\*

لم يستسلم العرب لقوة الموالى ونفوذهم بل قاوموا . وكان بين الجانبين صراع عنيف حيناً ، وهادئ حيناً ، واتخذ هذا الصراع أشكالاً مختلفة . فمثلاً : يعتمد الصراع على الدس عند الخليفة فيسكيد العرب للموالى ، ويكيد الموالى للعرب . ومن أجل هذا كان تشكيل الخلفاء بالوزراء من حين إلى حين . حتى قال قائلهم :

ان الوزيرَ وزيرَ آل محمد أودى ، فمن يشنك كان وزيراً

وكان تاريخ الوزراء سلسلة نكبات ، ولسنا نستبعد أن كثيراً منها كان سببه ما يشعر به الخلفاء - تحت تأثير الدسائس - من نفوذ الفرس ، وقوة سلطانهم ، واستبدادهم بالأمور دونهم . يقول ابن خلدون : « وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم أموال الجباية . حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه . فغلبوه على أمره ، وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه . فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمر و مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم . من وزارة وكتابة ، وقيادة وحجابه ، وسيف وقلم » ويقول « إن البرامكة مدحوا بما لم يُمدح به خليفتهم ! وأسوأ لعفاتهم الجوائز والصلوات ، واستولوا على القرى والضياع . . . حتى آسفوا البطانة ، وأحقدوا الخاصة . . . فكشفت بهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية . حتى لقد كان بنو قحطبة - أحوال جعفر - من أعظم الساعين عليهم ! » .

ويتناقش نعيم بن حازم العربي مع الفضل بن سهل الفارسي بين يدي

المأمون فيحسن الفضل نقل الخلافة إلى العلويين . فيقول نعم للفضل :  
« انك انما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي ثم تحتال عليهم  
ثم تصير الملك كسروياً »<sup>١</sup>.

وكثير ممن تولى المناصب الكبيرة من الفرس ؛ كان ينكل بمن استطاع  
من العرب كالذي كان بين الأفشين وأبي دلف العجلي . فقد كان الأفشين  
فارسيّاً من « أشروسنه » بآسيا الصغرى ، وكان قائد جيوش المعتصم ، وكان  
يكره العرب من أعماق نفسه ، وكان يقول : إذا ظفرت بالعرب شدخت  
رءوس عظامهم بالدّبّوس<sup>٢</sup> . وسيأتي له ذكر عند الكلام في الزندقة .  
وأبو دلف العجلي عربي من نزار ، وكان يعيش عيشة عربية . كريماً شجاعاً  
مدحاً ، وبابه مفتوح للشعراء والادباء والسوّال ، وماله مقسم عليهم . وكان  
أحد قواد المعتصم أيضاً « وكان سيد أهله ، ورئيس عشيرته من عجل وغيرها  
من ربيعة . وكان شاعراً مجيداً شجاعاً بطلامغنياً<sup>٣</sup> .

فيحدثنا التنوخي في كتابه « الفرج بعد الشدة » : أن الأفشين همّ بقتل  
أبي دلف ، وصفّده بالحديد ، وأجلسه على نطح بين يديه يقرّعه ويخاطبه  
بأشد غضب ، ويهم بقتله ! فيعلم احمد بن أبي دّواد (وهو عربي وقاضي المأمون  
والمعتصم) فيسرع الى الأفشين ويدخل عليه من غير استئذان خيفة أن  
يعجل عليه . ويقول له « إن أبا دلف فارس العرب وشريفها ؛ فاستبقه وأنعم  
عليه . فان لم تره لهذا أهلاً فهبه للعرب كلها ، وأنت تعلم أن ملوك العجم لم  
تزل تفضل على ملوك العرب ! ومن ذلك ما كان من كسرى إلى النعمان حتى  
ملكه وأنت اليوم بقية العجم فأنعم على شريف من العرب بالنعو عنه ! »  
فيأتي ذلك الأفشين ثم يشعر ابن أبي دواد بمكاته عند المعتصم حتى ليستطيع

١ جهشيارى ص ٣٩٧ .

٢ الدبوس شبيهه بالعصا التي في رأسها عجرة ؛ البيان والتبيين ٣ : ٣٣ .

٣ مسعودى ٢ : ٢٧٧ .

أن يتكلم على لسانه. فيقول للأفشين: إني رسول أمير المؤمنين إليك وهو يقول: لا تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً فانك إن قتلته قتلت به! «  
 وذهب إلى المعتصم فأخبره الخبر فأقره عليه. وبذلك نجا أبو دلف سيد العرب من سيد العجم! وكان أحمد بن أبي دواد من ناحية أخرى يستخدم منصبه فيقضى حوائج العرب. « فيقول (للمعتصم) فلان الهاشمي، وفلان القرشي، وفلان الأنصاري، وفلان العربي، ولا يزال يتلطف حتى تقضى مطالبه.<sup>٢</sup>  
 وشكل آخر من شكل الصراع - وهو الصراع الأدبي الذي كان معروفاً في العصر الأموي - وهو الافتخار بالانساب من طريق الأدب. كالذي كان بين عبد الله بن طاهر (الفراسي) يفتخر بنسبه في الفرس. فيرد عليه محمد بن يزيد (العربي الأموي) يفتخر بالعرب فقد قال عبد الله بن طاهر قصيدة يفخر بها بماثر أبيه وأهله ويفخر بقتلهم الأمين. يقول فيها:

أَقْصِرِي عَمَّا لَهَجْتَ بِهِ      ففراغني عنك مشغول  
 أنا من قد تعرفني نسبي      سلفي الغرُّ البهاليل  
 ومنها وأبي من لا كفاء له      من يساوي مجده؟ قولوا!  
 ومنها أنظر المخلوع كلـكـه      وحواليه المقـاويل  
 فتوى والترب مضجعه      غال عنه ملكة غول  
 قاد جيشاً نحو نائلة      ضاق عنه العرض والطول  
 من خراسان مصمّمهم      كـليـوث ضمّها غيل<sup>١</sup>

١ أنظر القصة بأكملها في كتاب الفرج بعد الشدة ٢ : ٦٨ .

٢ أنظر القصة في المسعودي ٢ : ٢٩٤ .

وهبوا لله أنفسهم لامعازيل، ولا ميل<sup>١</sup>

ويقول محمد بن يزيد: « لما بلغتني هذه القصيدة امتعضت للعرب، وأنفت أن يفخر عليها رجلا من العجم لأنه قتل ملكا من ملوكهم بسيف أخيه لا بسيفه. فيفخر عليها هذا الفخر ويضع منها هذا الوضع. فرددت عليه قصيدته » ومطلعها:

لا يرُءُكَ القال والقيـل      كل ما بلغتَ تـضليلُ  
يا ابن بيت النار موقدُها      ما لحاذيه سراويل  
من حسين من أبوك ومن      مصعب غالتكمو غول  
نسب في الفخر مؤتـشـب،      وأبوات أراذيل  
قاتل المخلوع مقتول،      ودم المقتول مطلول  
ومنها: ماجرى في عود أثلتكم      ماء مجد فهو مدخول  
قدحت فيه أسافله      فأعاليه مهازيل

ويقول قائل من الفرس:

بهاليلُ غرُّ من ذؤابة فارس      إذا انتسبوا لامن عرينة أوعكُل !!  
هو راضة الدنيا، وسادة أهلها      إذا افتخروا لاراضة الشاء والابل

فيقول آخر عربي

لا تغترر أنك من فارس      في معدن الملك وديوانه  
لو حدثت كسرى بدا نفسه      صفعته في جوف ايوانه !

١ القصيدة موجود بعضها في الفرج بعد الشدة ١ : ٧٤ وهي مملوءة بالتحريف، والقصيدة

مختصرة في الأغاني ١١ : ١٣ .

وهناك شكل ثالث من أشكال الصراع؛ هو الصراع العلمي وسنعرض

له بعد .

كانت نتيجة هذا الصراع هزيمة العرب ، وغلبة الموالي . ولكن يجب أن نقرر أن هزيمتهم التامة كانت في الناحية السياسية والادارية . فأما دينياً ولغوياً فقد انتصر العرب فلم تستطع المجوسية أن تسائر الاسلام . ولم تستطع لغات الموالي أن تضع من شأن لغة العرب بل خدمتها وعملت على ترقيتها من نواح مختلفة . وظل الموالي الذين يخدمون أغراضهم السياسية ، وينجحون فيها يخدمون في الوقت نفسه الدين واللغة - يضعون قواعدهما ، ويضبطون شواردهما - وحركات الزندقة التي كانوا ينفثونها من حين لآخر أخمدت في قوة وان كانت قد تركت اثرأ ضئيلاً - كما ان سعى بعضهم لاحلال اللغة الفارسية محل العربية . لم يصادف في عصرنا الذي تؤرخه آذاناً سمیعة ، وظلت اللغة العربية هي اللغة الرسمية ، وهي لغة الدين ، ولغة العلم ، وأقبل الموالي على تعلمها ، واجادتها اجادة تقرب من اجادة أهلها . وحسبك دليلاً : أن أبا مسلم الخراساني كان يجيد العربية ، ويفهم أراجيز رؤبة <sup>١</sup> . وأن أكثر الكتاب المجيدين في العربية في هذا العصر كانوا فرساً . وأن الأصمعي يحكي عن عصره : أن مما يخل بالمروءة التكلم في مصرٍ عربيٍ بالفارسية ! <sup>٢</sup> .

٢ عيون الأخبار : ١ : ٢٩٦ .

١ الأغاني : ١٨ : ١٢٣ .

## الفصل الثالث

### الشعوبية

نستطيع بعد الذى ذكرنا فى الفصل السابق ، أن نقول : إن عصرنا الذى تُوِرَّخه ؛ كانت تسود فيه ثلاث نزعات :

( النزعة الأولى ) تذهب إلى أن العرب خيرُ الأمم ، ولهم فى ذلك حجج ، نجملها فيما يأتى :

( ١ ) أنهم عاشوا حياتهم متمتعين باستقلالهم ؛ فهم فى جاهليتهم جاوروا دولتى الفرس والروم ، وكتاتهما دوخ البلاد وأسس ملكا عظيما ، وكتاتهما كان له من الجند والعدد والعدة ما لا يحصى كثرة . ومع هذا فلم تجرؤ كتاتهما أن تمس استقلال العرب ، وأن تطأ ديارهم ، بل تملقوهم ، واستعانوا باللخمين فى الحيرة ، والغسانيين فى الشام ، ومنحوهم المال ، وقدموا لهم الديار ليحموهم من غارات عرب الجزيرة عليهم . فهم كانوا أحوج إلى العرب من حاجة العرب اليهم !

ولم يشأ أصحاب هذه النزعة : أن يعتقدوا أن زهد الفرس والروم فى أرضهم ، وعدم اقدامهم على اخضاعهم ؛ منشؤه : أن أرض الجزيرة ليس فيها من الخيرات والثروة ما يُطمع ! بل اعتقدوا أن انصراف الفرس والروم عنهم انما كان لشجاعة العرب وإقدامهم وصبرهم ، وأن لهم من أرضهم منعة تجعل حربهم حرب عصابات ؛ لا يستطيع الجيش المنظم أن يجاريهم فى أشكال حروبهم ، ولا أن يقف أمامهم .

وأما فى اسلامهم ؛ فقد حافظوا على استقلالهم ، بل وأضاعوا استقلال

الفرس ، وأخضعوهم لحكمهم ، وكسروا جيوش الروم ، وطردهم من أملا كههم !

( ٢ ) أن لهم صفات خلُقِيَّة امتازوا بها ؛ فهم أكرم الناس لضيف ، وأنجدهم لمستصرخ ، يعقر أحدهم ناقته التي لا يملك سواها للطارق ينزل به ، وهو ممسك بعنان فرسه ؛ كلما سمع هَيْعَةً اطار إليها ؛ وهم أوفى الأمم ؛ يتكلم أحدهم الكلمة فتكون صَكا ، ويلجأ إليه لاجيء فينبج جواره ؛ حتى ليحتكم فيه جاره حكم الصبي في أهله ؛ وهم على ذلك قادة الأمم في البيان ، وحسن التعبير ، وهم معدن الشعر ، ولهم في حسن البديهة ، وقول الأمثال السائرة ، وإبداع الكلام ما ليس لغيرهم ، وهم أحفظ الناس لأنسابهم فليس أحد منهم إلا يعرف نسبه ، ويُسمى آباءه ، وإذا انتسب أحدهم إلى غير آباءه عرفوا أنه دَعِي ؛ حفظوا أنسابهم ، وبنوا على ذلك أحسابهم !

( ٣ ) بينهم نشأ الاسلام ، ورسول الله من أنفسهم ، وهم الناشرون له بين الأمم ، والداعون إليه ؛ والحامون لدعوته . فكل من أسلم من العجم ففي عنقه منة من العرب لا تقدر ؛ هم الذين أنقذوه من دينه القديم ، وهم الذين أخرجوه من الشرك إلى التوحيد ، وهم الذين اصطلوا نار الحروب لهدايته ، وهم الذين قتلوا أنفسهم لحياته !!  
هذه هي أهم حجج الذاهبين إلى هذا الرأي .

ويروون أن جماعة اجتمعوا بالمربد ، ومعهم ابن المقفع . فسألهم أي الأمم أعقل ؟ فنظر بعضهم إلى بعض ؛ فقالوا أعله أراد أصله من فارس ! فقالوا : فارس . فقال ابن المقفع : ليسوا بذلك إنهم ملكوا كثيراً من الأرض ، ووجدوا عظيماً من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق . . . . فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقى حكم في نفوسهم . قالوا : فالروم .



قال: أصحاب صنعة. قالوا: فالصين. قال: أصحاب طرفة. قالوا: الهند. قال: أصحاب فلسفة. قالوا: السودان. قال: شر خلق الله. الخ قالوا: فقل. قال: العرب. فضحكوا! قال ابن المقفع: إني ما أردت موافقتكم، ولكن اذ فاتني حظي من النسب فلا يفوتني حظي من المعرفة. إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها، ولا آثار أثرت، أصحاب إبل وغنم، وسكان شر وأدم، يوجد أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسن ما يشاء فيحسن، ويقبح ما يشاء فيقبح، أدبتهم أنفسهم، ورفعتهم همهم، وأعلتهم قلوبهم وألستهم... وافتتح الله دينه وخلافته بهم إلى الحشر... فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم! ١.

ويروى لابن المقفع أيضاً. أنه قال: وقد جرى ذكر الشعر وفضيلته: «أى حكمة تكون أبلغ أو أغرب أو أعجب؛ من غلام بدوى لم ير ريفاً، ولم يشبع من طعام؛ يستوحش من الكلام، ويفزع من البشر، ويأوى إلى القفر واليرابيع والظباء، وقد خالط الغيلان وأنس بالجان؛ فاذا قال الشعر وصف ما لم يره، ولم يعهده، ولم يعرفه. ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساوئها، ويمدح ويهجو ويدم، ويعاتب ويشبب، ويقول ما يكتسب عنه، ويروى له ويبقى عليه؟!» ٢، ونحن مع شكنا في هذه الرواية عن ابن المقفع لأسباب ليس هذا موضعها؛ فاننا نثبتها لأنها تمثل هذه النزعة ٣.

ويقول الجاحظ: «ليس في الأرض كلام هو أمتع، ولا أنفع، ولا أنق، ولا ألد في الاسماع، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفثق للسان، ولا أجود تقويماً للبيان من طول سماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء» ٤.

١ العقد الفريد ٢: ٥٠. ٢ زهر الآداب - على هامش العقد - جزء ٢: ٢.

٣ من أدلة الوضع؛ أن العبارة الثانية وردت في مجموعة الرسائل طبع الجوائب من كلام لأبي

هلال العسكري. ٤ زهر الآداب ٢: ٢.

وهذه النزعة كان يمثلها أشراف العرب وبدوهم، كما كان يمثلها قوم من العجم أسلموا اسلاماً عميقاً، وأحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعماق نفوسهم، وأحبوا العرب لأن النبي منهم، ولأنهم أسلموا على أيديهم. (النزعة الثانية) تذهب الى أن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم، ولا أية أمة أفضل من أية أمة. « والناس كلهم من طينة واحدة، وسُلالةٌ رجل واحد ». وإنما التفاضل بين الأفراد لا بين الأمم « وليس تفاضل الناس فيما بينهم بأبائهم وأحسابهم، ولكن بأفعالهم وأخلاقهم، وشرف أنفسهم وبعدهمهمهم. ألا ترى أن من كان دنيء الهمة، ساقط المروءة لم يشرف. وان كان من بني هاشم في ذؤابتها، ومن أمية في أرومتها، ومن قيس في أشرف بطن منها! إنما الكريم من كرمت أفعاله، والشريف من شرفت همته! »<sup>١</sup>

يقف هؤلاء موقفاً - على السواء - بين الأمم. فلا عربي أفضل من أعجمي لأنه عربي، ولا أعجمي أفضل من عربي لأنه أعجمي. وليست العربية ولا الأعجمية عاملاً من عوامل التفاضل. إنما عامل التفاضل الدين وحده عند قوم، والشرف وسمو الخلق عند آخرين! وفي هذا المعنى جاء القرآن الكريم: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ! » وفي الحديث « ليس لعربي على عجمي فضلٌ إلا بالتقوى! » و « المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم » ويقول المأمون: « الشرف: نسب. فشريف العرب أولى بشريف العجم من وضع العجم بشريفهم، وشريف العجم أولى بشريف العرب من وضع العرب بشريفهم »<sup>٢</sup> وابن قتيبة بعد أن دافع عن العرب وأبان فضلهم على غيرهم من الأمم، عاد فنقد

كل ذلك وقرر المساواة فقال في آخر كتابه « تفضيل العرب » : « وأعدل القول عندي ، أن الناس كلهم لأب وأم . خُلِقوا من تراب ، وأعيدوا الى التراب ، وجرّوا في مجرى البول ، وطرأ عليهم الأقدار . فهذا نسبهم الأعلى الذي يُردع به أهل العقول عن التعظيم والكبرياء والفخر بالآباء ، ثم الى الله مرجعهم فتقطع الأنساب ، وتبطل الأحساب الا من كان حسبه التقوى أو كانت مآتته طاعة الله ' . »

وحجة هؤلاء أن في كل أمة الطيب والخبيث ، ولكل أمة محاسنها ومساويها ، وخير ميزان توزن به الأعمال ، الدين أو الخلق . ولسنا نستطيع ذلك في الأمم انما نستطيعه في الأفراد . ففرد خير من فرد بدينه أو بخلقه ، ولا شيء غير ذلك . وهذا الصنف من الناس يسمّون « أهل التسوية » أي الذين يسوون بين الأمم ، ولا يجعلون فضلا لأمة على أخرى ، ويمثلهم أكثر المتدينين والعلماء من العرب والعجم ، لأن روح الاسلام وقواعده تؤيد هذا المذهب .

( النزعة الثالثة ) تميل الى الخطّ من شأن العرب ، وتفضيل غيرهم من الأمم عليهم وحجتهم في ذلك :

( ١ ) أن العرب ليست لها أية ميزة ، على حين أن كل أمة لها ميزة تفخر بها . فالرومان تفخر بعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، وعظيم مدينتها . والهند تفخر بحكمتها وطبها ، وكثرة عددها ، وأنهارها وثمارها . والصين تزُهي بصناعاتها ، وفنونها الجميلة ، وما إلى ذلك . ولا نجد العرب تمتاز بشيء يضارع ما ذكرنا . جذب في أرض ! وبدعوة في عيش ! كانوا في جاهليتهم يقتلون أولادهم من الفقر ، ولا يستقر لهم حال من الغزو والسلب ، ويفعلون

المكرّمة الصغيرة كاطعام جائع ، وإغاثة ملهوف فيملئون الدنيا بها شعراً  
وتشراً ، ويتيهون بذلك فخراً !

( ٢ ) قالوا : بم يكون الفخر؟ ابالمملك؟ فأين ملك العرب من ملك الفراعنة  
والعالمقة والاكاسرة والقياصرة؟ ! أو من سليمان الذي أوتي من الملك ما لا  
ينبغي لأحد من بعده؟ ! أو من ملك الاسكندر وقد بلغ مطلع الشمس  
ومغربها! أم بالنوبة؟ فجميع الأنبياء من غير العرب ما خلا أربعة؛  
هودا وصالحا واسماعيل ومحمدا! أم بالصناعة والعلم؟ فالعرب أضعف  
الأمم في ذلك شأننا ، وأعقمهم يداً ، وأجدبهم عقلا! أم بالشعر؟ فلم ينفرد  
العرب به . فليونان شعر موزون مقفى . وللرومان شعر كذلك . أم النخطب  
والبيان؟ فللفرس واليونان والرومان خطب محبّرة ، وبيان ساحر ، فما الذي  
يفخرون به بعد ذلك؟ ! يفخرون بالكرم والوفاء؟ وقولهم في ذلك  
أطول وأعرض من فعلهم! ويفتخرون بالأنساب وقد كانوا في جاهليتهم  
لا يتقيدون بنوع الزواج المعروف في الاسلام . بل كان من أنواع زواجهم  
شيوخ المرأة بين عدة رجال! وكانوا في حروبهم يسبّون بعضهم نساء بعض ،  
ويستمتع بها من غير زواج ، فكيف يدرى أحدهم أباه !!

( ٣ ) وان فخرتم بالاسلام فليس الاسلام دين العرب وحدهم . بل هو  
دين الناس . والاسلام نفسه حارب نزعتكم ، فهدم العصبية الجاهلية ، وجعل  
مقياس الشرف التقوى . فالدين بيننا وبينكم ، والدنيا نحن أحظى بها وأعرف  
بمزايها ، وأكثر تفناً في شؤونها .

ويُمثل هذا الصنف - بمن يحقرون العرب ، ويضعون من شأنهم ويسودّون  
كل أمة عليهم - من ظلوا على دينهم القديم ، أو أسلموا ولما يدخل الايمان في  
قلوبهم ، أو غلبت عليهم النزعة الوطنية . فكرهوا من العرب أنهم أزالوا  
ملكهم ، وأضاعوا استقلالهم .

هذه هي النزعات الثلاث التي كانت في ذلك العصر . وعلى هذا النحو كانوا يتجادلون . وقد أطلق على أصحاب النزعتين الأخيرتين اسم « الشعوبية » وكان أحق الناس بهذا الاسم الطائفة الثانية . لأنهم يقولون « بالشعوب » أى يقولون بأنه لا فرق بين الشعوب من عرب وغيرهم في الشرف والخسة . فكان أمامهم أن يتسموا باسم مشتق من « المساواة » أو باسم مأخوذ من الشعوب يدل على أن الشعوب سواء ، فاختاروا الثانى وسُموا « الشعوبية » . ولذلك يقول فى العقد الفريد : « الشعوبية وهم أهل التسوية » ويقول فى الصحاح : « الشعوبية فرقة لا تفضل العرب على العجم » ولكن لا نلبث أن نراهم أطلقوا هذا الاسم على الصنف الثالث أيضاً . فلو قرأنا ما كتب الجاحظُ ، وصاحبُ العقد وغيرُهما وجدنا أنهم انساقوا فى تسمية المعادين للعرب « بالشعوبية » . والظاهر أن تسميتهم بهذا الاسم تأخرت عن تسمية أهل التسوية به . كما تأخرت الفرقة الثالثة عن الفرقة الثانية تاريخياً ، فطبعى - وقد كان العرب متغلبين فى العصر الأموى ، وكانت النزعة الأولى على أشدها وقوتها وسلطانها - أن يبدأ الموالى فيقولون بالمساواة فقط . وكل أمانيهم أن يظفروا بذلك ، حتى اذا اشتد الجدل ، وأحس الموالى بقوتهم وسلطانهم . أيام الرشيد والمأمون ، ظهرت النزعة الثالثة تضع من شأن العرب ، وترفع من غيرهم . فانسحب اسم « الشعوبية » عليهم وصار يطلق على أصحاب النزعتين معاً . بل وحتى صار أكثر ما يطلق على الصنف الثالث . قال فى اللسان : « والشعوبى هو الذى يصغر شأن العرب ، ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم » .

يستنتج مما ذكرنا أن لفظ الشعوبية مأخوذة من الشعوب : جمع شَعْب . وهو جيل الناس ، وهو أوسع من القبيلة ، وأشمل . قال الزبير بن بَكَار : « الشَّعب ، ثم القبيلة ، ثم العجارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة » وعلى

هذا فالعرب شعب، والفرس شعب، والروم شعب وهكذا - وقد ذهب قوم الى أنها مأخوذة من الشعوب في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا» وقالوا: إن المراد بالشعوب بطون العجم، وبالقبائل قبائل العرب - وهو تفسير في نظرنا غير صحيح، وأوضح دليل على ذلك أن العرب لم تكن تفهمه حين نزول الآية. فقد نقل الينا الطبرى آراء كثير من الصحابة والتابعين في تفسير الآية وكلها تدور حول أن المراد بالشعوب النسب البعيد، أو البطون. والقبائل دون ذلك - والذي يظهر أن تفسير الشعوب بالعجم، والقبائل بالعرب تفسير شعوبى وضعه أجمى، واستطرد منه الى القول بأن العجم أفضل من العرب، لأن الله قدمهم في الذكر. قال ابن قتيبة: «وبلغنى أن رجلا من العجم.... احتج بقول الله عز وجل: يَا أَيُّهَا النَّاسُ. الآية. وقال: الشعوب من العجم، والقبائل من العرب، والمقدم أفضل من المؤخر. وقد كنت أرى أهل التسوية يحتجون بهذه الآية، وقد غلطوا من وجهين: أحدهما، أن تقديم الذكر لا يوجب تقديم الفضل. قال الله عز وجل «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ» فقدم الجن على الانس، والانس أفضل منها.. والوجه الآخر، أن العجم ليست بالشعب أولى من العرب. وكل قوم كثروا وانشعوا فقد صاروا شعوبا»

من الجائز أن يكون اسم الشعوية أخذ من الشعوب بعد أن فسرت الآية بهذا التفسير - ولكنه يكون مرتكزا على أساس خطأ - وأرجح أن اسم الشعوية لم يستعمل الا في العصر العباسى الأول، بدليلين ظنيين: (الأول) ما أسلفنا وهو أن هذه النزعة التي تحاول مساواة العرب أو تحقيرهم. لم تتخذ شكلا قويا واضحا يصح أن يطلق على معتقيه اسم الا في هذا العصر، أما قبل ذلك فقد كانت نزعة خفية لا تستطيع الظهور، واذا ظهرت أتمدت. والحاجة الى

الاسم انما تكون بعد أن يتخذ المبدأ شكل عقيدة عامة أو حزب ( الثاني )  
أنا لم نر من أطلق هذا الاسم على هذه النزعة في العصر الأموي ، نعم إن  
الأصفهاني في الأغاني قال : ان اسماعيل بن يسار كان شعوبيا ، ولكن من  
الواضح أن الأصفهاني وهو عباسي سمي اسماعيل بالاسم الذي يستحقه لما رَفَعَ  
شأن العجم - وتغنى في ذلك بشعره أمام هشام بن عبد الملك ، وليس المعنى  
أن اسماعيل بن يسار عُرِفَ بذلك الاسم في عصره . وذلك كما عدُّوا سلمان  
الفارسي متصوفا ، مع أن قائلنا لم يقل بأن اسم الصوفية عُرِفَ في عهد سلمان .  
كذلك روى عن مسروق : « أن رجلا من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه  
الجزية ، فأمر عمر ألا تؤخذ منه » ومسروق تابعي كان في العصر الأموي .  
وقد فسر بن الأثير الشعوب في هذا القول بالعجم ، وقال في اللسان : « ويجوز  
أن يكون جمع الشعوب - وهو الذي يصغر شأن العرب - كقولهم اليهود  
والمجوس في جمع اليهودي والمجوسي » ونحن نستبعد التفسير الثاني ، لأنه صادر  
من متأخرين ، وقد فسروه بما عرفوه بعد عصر مسروق ، والذي نراه : أن  
مسروقا أراد أن رجلا من الشعوب الأخرى غير العرب اسلم وإذن  
لا يكون فيه دليل .

وقد يستأنس - على ما نقول - بأن أكثر أسماء المذاهب التي وضعت  
في صدر الدولة الأموية ؛ لم تكن في إياها النسبة كالخوارج ، والشيعية ،  
والمُرَجَّة ، والمعتزلة ، ولم تؤلَّفَ هذه النسبة الا في آخر العهد الأموي ،  
أو صدر العصر العباسي . كالجَهْمِيَّة ، والقَدْرِيَّة ، ثم الراوندية ، والخُرَّمِيَّة ،  
والشعوبية - وأقدم ما وصل إلينا من الكتب التي استعملت لفظ الشعوبية ؛  
كتاب البيان والتبيين للجاحظ .

يمكننا أن نستنتج من دراستنا للشعوبية النتائج الآتية :

( ١ ) ان دعاة الشعوبية بدوا دعوتهم مستندين على تعاليم الاسلام نفسه ؛

فهو لا يفضل شعباً على شعب ، والعقوبة أو المَثوبة عنده إنما وضعت على الأعمال لا على الأجناس ، وقد يكون العبد الرقيق ، والنَبَطُ الذليل ، عند الله في أعلى عِلِّيِّين ، وسيدُه المُكَاثِرُ بأهله وولده وماله أسفلَ سافلين . ثم تدرجوا من ذلك الى تحقير العرب وشؤونهم ، وبيان ميزة الأمم الأخرى عليهم . وساعدهم على ذلك ما كان للفرس من نفوذ ظاهر في الدولة العباسية .

( ٢ ) أن الشعبية لم تكن عقيدة محدودة التعاليم ، لها شعائر ظاهرة مُعَيَّنة كما نقول في المذاهب الدينية ، فإنا نستطيع أن نقول : إن هذا شافعي ، وهذا حنفي . فيمكننا أن نحدد وجوه الخلاف ، ونبين الفروق في الشعائر . كما نستطيع أن نقول : إن هذا من أهل السنة والجماعة ، وهذا معتزلي فندرك ذلك . ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك في الشعبية لأنها نزعة أكثر منها عقيدة ، فهي أشبه بالآرستقراطية ، والديمقراطية . بل هي في الحقيقة نوع من الديمقراطية يحارب ارستقراطية العرب ، لذلك لا نستطيع أن نحصر معتققيها ؛ فهم في كل بلد ، وفي كل قطر ، ومن كل جنس كما لا نستطيع اليوم أن نحصى من ينزعون الى الديمقراطية ، أو الاشتراكية .

( ٣ ) مما ساعد على هذه النزعة الشعبية ، أنها تساند النزعة الوطنية ، والعصية الدينية . فالعرب أزالوا استقلال فارس ، وحكموا مصر والشام والمغرب ، وأهلها ليسوا عربا . فاستتب ذلك أن كثيراً من الفرس كانوا يحنون الى مُلُكهم واستقلالهم ، وكثيراً من نصارى الشام ومصر كانوا يكرهون العرب المسلمين الذين أجلوا الروم النصارى عن بلادهم ، ويتمنون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم . وإن كان لا بد أن يُحَكِّمُوا فن أهل دينهم .

نعم ! ان من دخل في الاسلام من الفرس وأهل مصر والشام والأندلس كانوا أقل حدة في هذه النزعة الوطنية ، ولكن لم يكن كلهم قد دخل الاسلام



الى أعماق نفوسهم ، وتملك مشاعرهم الى حد أن تغلب النزعة الدينية  
النزعة الوطنية .

( ٤ ) يمكن أن نستنتج مما تقدم : أن الشعوبيين كانوا أصنافاً مختلفة ، منهم  
فرس ، ومنهم نبط ، ومنهم قبط ، ومنهم أندلسيون . وقد صبغت شعوية كل  
صنف من هؤلاء صبغة خاصة ؛ فالفرس صبغت صبغة وطنية تدعو الى  
الاستقلال ، واتخذت في بعض الأحيان شكل زندقة والحاد ، والنبط ظهرت  
في شكل عصية للأرض وزراعتها ، وتفضيل معيشة الحرث والزرع على  
الصحراء ومعيشتها . والقبط ثاروا ثورات مختلفة على العرب ، وأرادوا  
طردهم من بلادهم ، وكان آخر ثورة كبيرة في عهد المأمون ، فلما هزموا لجئوا  
الى الكيّد « باعمال الحيلة ، واستعمال المكر ، وتمكنوا من النكاية بوضع  
أيديهم في كتاب الخراج »<sup>١</sup> . وفي الأندلس ظهر ابن غرسية ، ووضع  
رسالته في الشعوية ، ورد عليه كثير من العلماء .

( ٥ ) هذه الشعوية كانت درجات مختلفة تتبدى معتدلة هادئة ، وتنتهى  
متطرفة عنيفة . فنرى قوما معتدلين مالوا الى تسوية العرب بغيرهم كما رأيت ،  
وآخرين حقروا من شأنهم ، وسلبوهم كل مزية ، كما نرى قوما فرقوا بين  
العرب والاسلام . فهاجموا العرب من حيث هم أمة ، ولم يعرضوا للاسلام  
بمكروه . بل صرحوا بأن الاسلام دين الناس جميعاً لا العرب وحدهم -  
وكثير ممن حكينا قولهم في ذم العرب كانوا من هذا الصنف ، بل يصح لنا أن  
نعد ابن خلدون شعوبياً بهذا المعنى ؛ فقد حكينا ملخص رأيه في العرب في  
الجزء الأول من « فجر الاسلام »<sup>٢</sup> . وهو رأى في أشد العنف والقسوة على  
العرب وخصائصهم ، قل أن نرى شعوبياً متطرفاً وصل الى ما وصل إليه في  
صراحته وشدته . ولاكنه في رأينا كان مسلماً حقاً حر التفكير في حدود الدين ،

على حين أنا نرى قوما آخرين لم يفرقوا بين العرب والاسلام، وأدتهم كراهيتهم للعرب الى كراهيتهم لسكل ما جاء عنهم، ومن ذلك الدين. وقد حكى الجاحظ عن قوم من هؤلاء. فقال: «وربما كانت العداوة من جهة العصبية. فان عامة من ارتاب بالاسلام انما جاءه ذلك من الشعوبية، فاذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وان أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام اذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف» وقد دعت هذه النزعة قوما الى أن يتبرءوا من الشعوبية إذ هي باب الى الالحاد.

(٦) نلاحظ شيئاً من الوفاق بين بعض تعاليم الخوارج والشيعة والمعتزلة. فالخوارج - كما علمت - يرون أن الخليفة لا يشترط فيه أن يكون قرشياً بل ولا عربياً. والذى أرى أن هذه النزعة منهم لا يقصد منها تحقير العرب، واعلاء شأن غيرهم. وكيف يكون ذلك وأكثر الخوارج كانوا عرباً خلصاً! وهذا الرأي صدر عنهم حين الخلاف بين علي ومعاوية؛ والشعوبية لم تتكون بعد، فالظاهر أن رأيهم هذا صدر عن اجتهاد بحت، دعا اليه محض الرغبة في اصلاح أمور المسلمين. وأما المعتزلة فنرى المسعودي يقول: «وقد زعم جماعة من المتكلمين. منهم ضرار بن عمرو، وثمامة بن أشرس، وعمرو بن عثمان الجاحظ؛ أن النبط خير من العرب!». وهؤلاء الثلاثة من رءوس المعتزلة. وأرى أن رأى المسعودي - وتبعه في ذلك «جولد زيهر»<sup>٢</sup> - خطأ، ويظهر لي أن خطأهما جاء: من أن ضراراً وأصحابه ذهبوا إلى أبعد مما ذهب اليه الخوارج. فلم يقتصروا على أن يقولوا: ان الخلافة لا يلزم أن تكون في قريش ولا في العرب. بل قالوا: ان غير العربي ولو

١ الحيوان جزء ٧ : ٦٨ والعبارة في الأصل سقيمة وقد اختصرناها.

٢ أنظر في ذلك كتاب جولدزيهر «Muhammedanische Studien» وقد عقد فيه فصلاً متمماً في الشعوبية استفدنا منه كثيراً في بحثنا.

نبطياً أولى من القرشي لأنه يسهل خلعه إذا جار وظلم . ودليلنا على ذلك ما جاء في شرح النووي على مسلم: «ولا اعتداد بسخافة ضرار بن عمرو في قوله: ان غير القرشي من النبط وغيرهم يقدم على القرشي له وان خلعه ان عرض منه أمر»<sup>١</sup> وقد فهم الفاهمون من هذا أن ضراراً وصحبه يفضلون النبطي على العربي وهو فهم غير صحيح بل هو على العكس ، يرمى في وضوح إلى القول بأن العربي أشرف وأن من المصلحة أن نولي غير المعتز بعصيته ليسهل خلعه ، وذكر النبطي على أنه مثل في الحسنة ! والجاحظ - بوجه خاص - من الصعب عده شعوبياً ، فقد انبرى في كتابه «البيان والتبيين» للرد على مطاعن الشعوبية ، وسفّه رأيهم . بما يدل على اخلاص فيما يقول - نعم ! إنه ألف رسالة في فضل الموالي وعدد مناقبهم . ولكنه ذكر ذلك على لسانهم ، وقد صرح بأنه ألف هذه الرسالة أيام المعتصم جالب الأتراك ، وذكر أنه إنما ألفها لا ليُفضل بها بعض الجنود على بعض «وقد كانت جند الخلافة اذ ذاك على خمسة أقسام خراساني ، وتركي ، ومولي ، وعربي ، وبنوي»<sup>٢</sup> وإنما ألفها ليؤلف بين قلوبهم ان كانت مختلفة ، وليزيد في الألفة ان كانت مؤتلفة<sup>٣</sup> ، وليحدّر من المنافقين يدسون الدسائس ليوغروا الصدور ، ويفرقوا القلوب ويقول: «إن كان لا يمكن ذكر مناقب الأتراك الا بذكر مثالب سائر الأجناد فترك ذكر الجميع أصوب ، والاضراب عن هذا الكتاب أحزم!»<sup>٤</sup> وعلى الجملة فقد صرح فيه «أنه يرمى الى تعديد مناقب الترك من غير أن يتعرض لذم غيرهم» ولكنه لم يضبط قلبه فجمع به أحياناً إلى تفضيل الترك على غيرهم في بعض الأمور ، ولكن من العسير عد هذا القدر شعوبية .

على أن الجاحظ في نظرنا لم يكن يعبر عن رأيه في مدح الشيء وذمه بل

١ جزء ٤ : ٢٦٥ . ٢ يريد بينوي ما كان من ابناء الدعوة الى الدولة العباسية

٣ رسائل الجاحظ : ١٧ . ٤ المصدر عينه : ٢٢ .

كان يذم الشيء ويمدحه اجابة لدعوة كبير ، أوردغة في اظهار مقدرته البيانية على تصوير الشيء بصورتين متباينتين ، فان نحن اعتمدنا على القرائن فما في كتاب البيان والتبيين أدل على نفسه ولذلك نرجح أنه ليس شعوبياً .  
وأما التشيع فقد كان عشّ الشعوية الذي يأوون اليه ، وستارهم الذي يستترون به . وسيأتى طرف من ذلك عند الكلام فى الشيعة .

( ٧ ) يذهب ابن قتيبة الى أن الذين اعتنقوا الشعوية هم سفلة الناس ووغواؤهم فيقول : « ولم أر فى هذه الشعوية أرسخ عداوة ، ولا أشد نصباً للعرب من السفلة ، والحشوة ، وأوباش النبط ، وأبناء أكرّة القرى . فأما أشراف العجم ، وذوو الأخطار منهم ، وأهل الديانة فيعرفون ما لهم ، وما عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابتاً » ولكن يظهر أنه اقتصر على من يتظاهر بالشعوية ، وهؤلاء كانوا كما ذكر ابن قتيبة . أما الأشراف فكانت حركتهم سرية خفية لا يجرءون أن يظهروا بها لكبر مراكزهم ، وخشية من الشك فيهم عند الخلفاء . فهم يؤيدون - من وراء حجاب - هذه الحركة فلا يراها ابن قتيبة وأمثاله . وقد ذكر ابن قتيبة أن من ذهب مذهب الشعوية « قوما تحلوا بجملة الأدب فجالسوا الأشراف ، وقوما اتسموا بميسم الكتابة فقتربوا من السلطان فدخلتهم الانفة لأدابهم ، والغضاضة لأقدارهم من لؤم مغارسهم ، وخبث عناصرهم . فمنهم من ألحق نفسه بأشراف العجم ، واعتزى الى ملوكهم وأساورتهم ، ودخل فى باب فسيح لا حجاب عليه ، ونسب واسع لا مدافع عنه ، ومنهم من أقام على خساسته ينافح عن لؤمه ، ويدعى الشرف للعجم كلها ليكون من ذوى الشرف ، ويظهر بغض العرب بتقصها ، ويستفرغ مجهوده فى مشامها ، واظهار مثلها ، وتحريف الكلم فى مناقها ، وبلسانها نطق ، وبهممها أنف ، وبأدائها تسلح عليها ، فان هو عرف خير أستره ،

وان ظهر حقره ، وان احتمل التأويلات صرفه الى أقبحها ، وان سمع سوء نشره . . . وان لم يجده تَخَرَّصَه ! » .

فالحق أن الشعوية لم تكن في السقلة وخدم ، وهؤلاء السفلة لم يكونوا الآخذين بزمامها ؛ وانما كان معهم كثير من الطبقة المتعلبة الراقية ، وان لم يرق نسبها الى الملوك والأشراف ، وهؤلاء هم الذين كان لهم الأثر الشعوبي في الأدب والعلم - كما سترى - ومن وراء هؤلاء وهؤلاء طبقة بلغت أعلى المناصب في الدولة . فكانوا يمدّثهم سرا بجاههم وبما لهم ، فقد ألف علان الشعوبي كتابا في مثالب العرب ؛ فأجازه طاهر بن الحسين عليه ثلاثين ألفا . واذ كان هؤلاء العقلاء الماكرون ؛ هم رؤساء هذه الدعوة ؛ كانت حربهم علمية أدبية دينية ؛ أكثر منها ثورات ظاهرة .

\* \* \*

بلغت هذه الحركة أوجها في القرن الثالث الهجري ، وساعد على ذلك أن الخلفاء العباسيين تعصبوا للاسلام ، ولم يتعصبوا كثيرا للعربية . فخاربا الزندقة ، ولم يجاربا - في شدة - النزعة العجمية . وذلك طبعي لأن أكثرهم - كما أنبأ - مولدون . ولقى العرب من العجم عنتا شديدا ، فالوزراء أكثرهم عجم ، والدسائس تدس في القصور لاضعاف شأن العرب ، وإذا ثار العرب في جزيرتهم أو في الأطراف نكل بهم قواد العجم وجيوشهم أشد تنكيل ، وفي أعماق نفوسهم شعور بأنهم ينتقمون منهم من يوم القادسية ، ولم يكن شعور الترك الذين جلبهم المعتصم بأحسن حالا من شعور الفرس ، وكثر الشعر في هذا القرن والذي بعده من الأعاجم الذين تعلموا العربية يفخرون بنسبهم ، ويعتزون بقومهم ، فافتتح ذلك بشار بن بُرد كما رأيت . وتبعه ديك الجن الشاعر المشهور قال في الأغاني : « وكان شديد التشبب والعصية على العرب

يقول : ما للعرب علينا فضل ، جمعتنا وإياهم ولادة ابراهيم عليه السلام ،  
وأسلمنا كما أسلموا ، ومن قتل منهم رجلا منا قُتِلَ به ، ولم نجد الله عز وجل  
فضلهم علينا إذ جمعنا الدين ! »  
ويقول قائلهم :

فلست بتارك إيوان كسرى      لتُوضِحَ أو لحوَمَلَ فالدَّخُولُ  
وضبٌ في الفلا ساع ، وذئبٌ      بها يعوى ، وليثٌ وسَطٌ غِيلِ  
وكان « الخريَّمي » الشاعر المشهور يكثر في شعره من الاعتزاز بالنسب  
الفارسي والتحقير من شأن العرب فيقول :

إني امرؤ من سَرَاةِ الصَّعْدِ البُسنِ      عِرْقُ الأَعاجمِ ، جِلدًا طيِّبَ الخَبِرِ  
ويقول :

أبالصَّعدِ بأسٍ إذ تُعَيِّرُنِي جُمْلُ<sup>١</sup>      سِفَاها ومن أخلاقِ جَارَتِي الجَهْلُ  
فإن تفخرى يا جُمْلُ ، أو تَتَجَمَّلِي      فلا فخرَ إلا فوقه الدينُ والعقلُ  
أرى الناسَ شرَّ عَمَّا في الحياة ، ولا يَرَى      لقبرٍ على قبرِ عَلاءَ ولا فضلُ  
وما ضَرَّتَنِي أن لم تلدني يَحَابِرُ<sup>٢</sup>      ولم تشتمل جَرْمُ علي ولا عُكْلُ<sup>٢</sup>  
إذا أنت لم تَحْمِ القديمَ بحادث      من المجد لم ينفعك ما كان من قَبْلُ  
ويقول :

وناديت من مَرُوٍ وبلخٍ فوارِ سَا      لهم حَسَبٌ في الأكرمين حَسِيبُ  
فيا حسرتا لادارُ قومي قريبة      فيكثر منهم ناصري ويطيب  
وإن أبي ساسانُ كسرى بنُ هُرْمُزِ<sup>١</sup>      وخاقانُ لي لو تعلين نسيبُ

١ يكفي بجمل عن العرب

٢ يحابر ، وجرم ، وعكل : أسماء قبائل عربية

مَلَكُنَا رِقَابَ النَّاسِ فِي الشَّرِكِ، كُلَّهُمْ  
لَنَا تَابِعٌ طَوْعَ الْقِيَادِ جَنِيبٌ  
نَسُومُكُمْ خَسْفًا، وَنَقْضِي عَلَيْكُمْ  
بِمَا شَاءَ مِنَّا مَخْطَىءٌ وَمَصِيبٌ  
فَلَمَّا أَتَى الْإِسْلَامَ وَانْشَرَحَتْ لَهُ  
صُدُورُ بِهِ نَحْوِ الْإِنَامِ تُنِيبٌ  
تَبَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى كَأْتَمَّا  
سَمَاءَ عَلَيْنَا بِالرِّجَالِ تَصُوبٌ

ويقول المتوكلي وكان من ندماء المتوكل :

أَنَا ابْنُ الْأَكْرَمِ مِنْ نَسْلِ جَمٍّ<sup>١</sup>  
وَحَائِزِ إِرْثِ مَلُوكِ الْعَجَمِ  
وَحِجِّي الَّذِي بَادَ مِنْ عَزْهِمْ ،  
وَعَفَى عَلَيْهِ طَوَالَ الْقَدَمِ  
وَطَالِبُ أَوْتَارِهِمْ جَهْرَةً ،  
فَمَنْ نَامَ عَنْ حَقِّهِمْ لَمْ أُنَمِ  
مَعِيَ عَلَمُ الْكَايِيَانِ<sup>٢</sup> الَّذِي  
بِهِ أُرْتَجَى أَنْ أَسُودَ الْأُمَمِ  
فَقُلْ لِبَنِي هَاشِمٍ أَجْمَعِينَ ،  
هَلَمُوا إِلَى الْخَلْعِ قَبْلَ النَّدَمِ  
مَلَكْنَاكُمْ عُنُوءًا بِالرَّمَا  
حَ طَعْنَا وَضْرَبًا ، بِسَيْفِ حَدَمِ  
وَأَوْلَاكُمْ الْمُلْكَ آبَاؤُنَا ،  
فَمَا إِنْ وَفَيْتُمْ بِشُكْرِ النِّعَمِ  
فَاعُدُّوا إِلَى أَرْضِكُمْ بِالْحِجَازِ  
لَأَكُلَ الضُّبَابُ ، وَرَعَى الْغَنَمِ  
فَانِي سَاعَلُوا سِرِيرَ الْمَلُوكِ  
بِحَدِّ الْحَسَامِ ، وَحَرَفَ الْقَلَمِ<sup>٣</sup>

\*\*\*

وقد شعر العرب بخطورة موقفهم، ولكن لم يستطيعوا دفع الشر عنهم، ونجد في كثير من الشعر في ذلك العصر والذي بعده ظلا من الحسرة والألم، وقد ذكرنا طرفا من ذلك في الفصل السابق. ونرى هذا المعنى واضحاً بعد في شعر المتنبي. فيألم وقد زار شعب بَوَّانِ بفارس من ضعف اللغة العربية بها فيقول:

١ يريد بجم : جمشيد ملك الفرس

٢ الكايان : نسبة الى كابه ( جاوه ) حداد فارسي رفع علم الثورة وقد ورد في الأصل

الكاتبان وهو خطأ . ٣ معجم الأدباء ١ : ٣٢٣

مَ عِبَ جِنَّةً لَوْ سَارَ فِيهَا      سَلِيمَانُ لَسَارَ بِتَرْجَمَانِ !  
ويقول: ولكن الفتيَّ العربيَّ فيها      غريبُ الوجه واليد واللسان  
ويقول في قصيدة أخرى :

وانما الناس بالملوك ، وما      تُفْلِحُ عُرْبٌ مَلُوكَهَا عَجْمٌ  
لا أدب عندهم ولا حسبٌ      ولا عهود لهم ولا ذممٌ  
بكل أرضٍ وطئتها أممٌ      تُرعى بعبد كأنها غنمٌ !  
يستخسِنُ الخرزَ حين يلبسه      وكان يُبرى بظفره القلمُ !

\*\*\*

والآن نعرض للأشكال المختلفة التي حارب بها الشعوبيةُ العرب :  
فقد عمدوا الى مزية العرب الظاهرة التي يعتزّون بها ، وهي البلاغة ، وقوة  
الخطابة ، وحضور البديهة ، فأخذوا ينتقصونهم في ذلك من نواح مختلفة :  
كان العرب اذا خطبوا أكثروا من الاشارة بأيديهم ، يمثّلون بها أغراضهم  
ويستعينون بذلك على ايضاح المعنى ، وقوة التأثير في السامعين ، وكثيرا  
ما يستعملون في اشاراتهم المنحصرة [ وهي ما يُمَسِّكُهُ الانسان بيده من عصا ،  
أو مقرعة أو عُكازة أو قضيب ] وكثيرا ما كانوا يُشيرون في خطب السلم  
بالمنحصرة ، وفي خطب الحرب بالقسيّ . وأحيانا كانوا يتكئون أثناء خطبهم على  
القسيّ ، وكثيرا ما يلبسون للخطابة زيا خاصا ؛ فيضعون العمامة وضعا  
يدل على تأهبهم للخطابة . فجاءت الشعوبية تهزأ بهم في ذلك . وتقول :  
أى ارتباط بين الكلام والعصا ، وبين الخطبة والفوس ، وهما الى أن  
يَشغَلَا العقل ، ويصرفا الخواطر ، ويعترضنا الذهن ، أشبه ، وليس في  
حملهما ما يشحذ الذهن ، ولا في الاشارة بهما ما يجلب اللفظ ، وقد زعم  
أصحاب الغناء أن المعنى اذا ضرب على غنائه قصر عن المعنى الذي لا يضرب  
على غنائه ، وحملُ العصا بأخلاق الفدّادين أشبه ، وهو بجفافة الاعراب



وَعُنْجِيَّةُ أَهْلِ الْبَدْوِ ، وَمُزَاوِلَةُ أَقَامَةِ الْإِبِلِ عَلَى الطَّرُقِ أَشْكَلُ ، وَبِهِ أَشْبَهَ !<sup>١</sup> وقد رد عليهم الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ، وأفرد لذلك بابا خاصا سماه « كتاب العصا » من أجل ذلك ، كما عابوهم في جوهر الموضوع فقالوا : ليست الخطابة ميزة امتزتم بها وحدكم ، فهي شيء في جميع الأمم . حتى إن الزنج مع غباوتها ، وفساد مزاجها لتطيل الخطب . وأخطب الناس الفرس لا العرب ، ولهم فوق خطبهم التأليف في صناعة البلاغة ، ومعرفة الغريب ككتاب « كازوند » ومن احتاج الى العقل والأدب والعلم بالمراتب والعبر والمثلثات ، والألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة ، فينظر الى سير الملوك ( ملوك الفرس )<sup>٢</sup> بل أين معانيكم ، وحكمكم وخطبكم ، وطريقة تفكيركم . مما للفرس واليونان والهند ؟ وأين كلامكم الجافى ، وأصواتكم الغليظة من طول اعتيادكم مخاطبة الإبل ؛ مما لهؤلاء من معنى دقيق ، ولفظ رشيق ، وصوت رقيق ؟ ! وقد قارن الجاحظ بين بلاغة الفرس والروم ، وبلاغة العرب . فقال : ان الأولى صادرة عن تفكير وروية ، والثانية صادرة عن بديهية وسرعة خاطر .

كذلك عابوا العرب في آلاتهم الحربية فسحروا من رماحهم ، ومن عرُئى خيولهم ، ومن قناتهم الصماء مع أن الجوفاء أخف محملا ، وأشد طعنة ، ومن قلة الخبرة في تنظيم جيوشهم ، فلم يكونوا يعرفون الميمنة ولا الميسرة ، ولا القلب ولا الجناح ، ولا يعرفون من آلات الحرب العرّادة ولا المجانيق ، وقارنوا بين حالة الجيش العربى ، والجيش الفارسى في تنظيمه وفي آلاته ، وأبانوا ما للأول من حقارة ، وما للثانى من عظم ، وفات الشعوبية أن هذه المقارنة أحقر لشأنهم ، وأوضع لمكانتهم ، فهؤلاء العرب بآلاتهم الساذجة الحقيرة سحقوا الفرس بآلاتهم الضخمة العظيمة ، وجيوشهم المنظمة الكثيرة !<sup>٣</sup>

١ البيان والتبيين ٣ : ٦

٢ المصدر نفسه

٣ أنظر في ذلك الجزء الثالث من البيان والتبيين

ونوع آخر من مسالك الشعوية ، وهو أنهم في هذا العصر أكثروا من التأليف في مناقب العجم . فسعيد بن حميد البختكان ، كان كاتباً شاعراً مترسلاً عذب الألفاظ ، وكان يدعى أنه من أولاد ملوك الفرس ، وكان شديد العصية على العرب ، وألف كتاب « انتصاف العجم من العرب » ، وكتاب « فضل العجم على العرب وافتخارها »<sup>١</sup> ونرى ابن النديم ينقل عن كتاب اسمه « مفاخر العجم »<sup>٢</sup> وفي مقابل ذلك يضعون الكتب في مثالب العرب ، كالحيثم بن عدى - وهو من أشهر العلماء بالأخبار والرواية ، جالس المنصور والمهدى والهادى والرشد ، وقد وضع عدة كتب في المثالب منها : « كتاب المثالب الصغير » و « كتاب المثالب الكبير » و « كتاب مثالب ربيعة » و « أسماء بغايا قریش في الجاهلية ، وأسماء من ولدن » ويتصل بهذا كتاب له ، اسمه : « كتاب من تزوج من الموالي في العرب »<sup>٣</sup> وكذلك سهل بن هارون صاحب « بيت الحكمة » . قال فيه ابن النديم : « كان حكيماً فصيحاً شاعراً ، فارسى الأصل ، شعوبى المذهب ، شديد العصية على العرب . وله في ذلك كتب كثيرة »<sup>٤</sup> وقد وضع رسالته المشهورة في البخل . ولعل ذلك منه نزعة شعوية . لأن العرب كانوا يتمدحون كثيراً بالكرم ، ويعدونه من أكبر مناقبهم ، كما اشتهر الفرس بالبخل ، فوضع سهل هذه الرسالة يقلب فيها قيمة الكرم والبخل ، ويعد الكرم رذيلة والبخل فضيلة . وروى له صاحب زهر الآداب أبياتاً تدل على شعوبيته ، يفتخر فيها بفارسيته ، ويذم العربية ، ويقارن بين بيته في ميسان وبيت آخر عربى فيقول :

أجعلت بيتاً فوق رابية فرعَ النجوم كأنه نجم  
كبيبتِ شَعْرَ وسطِ جَهْلَةٍ بفنائهِ الجُعْلانُ والبُهْمُ؟<sup>٥</sup>

١ فهرست ابن النديم : ١٢٣

٢ الفهرست ٤٢ .

٣ فهرست ١٠٠ و ٩٩ .

٤ فهرست : ١٢٠ .

٥ هامش المقدم ٢ : ١٩٠ .

وألف علاّن الشعوبى - وأصله من الفرس - كتاب « الميّدان  
فى المثالب » قال ابن النديم : إنه هتك فيه العرب ، وأظهر مثالبها ، ويحتوى  
على مثالب قريش ، ومثالب تيم بن مرّة ، ومثالب بنى أسد بن عبد العزّى ،  
ومثالب بنى مخزوم ، وعدد القبائل كلها وذكر مثالبها <sup>١</sup> .

وألف أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وهو من أشهر العلماء فى النحو  
والأخبار ، وكان أصله من يهود فارس - كتباً كثيرة تعرض فيها للعرب .  
منها « كتاب لصوص العرب » وكتاب « أدعياء العرب » كما ألف كتاب  
« فضائل الفرس » <sup>٢</sup> وقال فيه ابن خلدان « وكان يكره العرب وألف فى  
مثالبها كتباً » <sup>٣</sup> وقد صور لنا ابن قتيبة نوعاً من الطعن الذى كان يستعمله  
أبو عبيدة فقد عمد الى مفاخر العرب قهكهم بها . كانوا يفخرون بقوس حاجب  
ويعتزون بوفائه فتضاحك عليه واستضحك الناس منه ، واستسخر فعل  
حاجب ، وخساسة عوده ، وقلة ثمنه ، ويذكر قول الشاعر :

أيا ابنة عبد الله ، وابنة مالك ، ويا ابنة ذى البردين ، والفرس الورد!  
فيهزأ بالشعر ، ويعجب فى سخريه من التمدح بأن أبأها ذو بردين وفرس  
ورد . ويقارن ذلك بملوك فارس وتيجانها ، وأن أبرويز كان يرتبط تسعمائة  
وخمسين فيلا على مرابطه ، وتخدمه ألف جارية ، وفى حجرته التى يشرف  
منها على الداخل عليه ألف اناء من ذهب ! <sup>٤</sup>

وكتب المثالب هذه - على ما يظهر - عمدت الى ماصدر عن كل قبيلة من  
ببت تعبير به ، أو عمل تؤاخذ عليه ، أو جريمة ارتكبها أحد أفرادها فقيدها  
وأذاعتها . للتشهير بالعرب جميعاً . كما أن كتب مناقب العجم ومفاخرها عمدت

١ الفهرست ١٠٥ و ١٠٦ .

٢ الفهرست : ٥٤ . ٣ ٢ : ١٥٥ .

٤ انظر رسائل البلغاء : ٢٧١ وما بعدها .

الى ما استحسنت من عادات الفرس ، وعظمة ملوكها ، ونظام جيوشها ، وسياسة ملكها فشادت به . ولم يصلنا شيء من هذه الكتب - على ما أعلم - كالم يصلنا أى كتاب ألف فى بيان دعوى الشعوية ، وانما وصل الينا نتف من أقوالهم وآرائهم ؛ أهمها ما ورد فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وما ورد فى العقد الفريد لابن عبدبره ، وما نقله ابن قتيبة فى كتابه ( العرب ) .

والظاهر أن أكبر سبب فى ضياع هذه الكتب : أن المسلمين عدّوا هذه النزعة الشعوية نزعة ضد الاسلام فتحرجوا من نقل الكتب المؤلفة فيها ، وتقربوا الى الله بأعدامها وبرىء المخلصون من الميل اليها . كما فعل الزمخشري فى أول كتابه المفصل . فقد حمد الله « إذ جبّله على الغضب للعرب ، والعصية لهم ، وبرّاه من الانضواء الى لفيف الشعوية » .

ولم يقتصر هؤلاء الذين ذكرنا من علماء الشعوية على وضع كتب المثالب . بل يظهر أنهم وضعوا فى الأدب قصصاً كثيرة تؤيد جانبهم . وقد اختلقوها اختلاقاً ، وكانت هذه أخطر على العرب من الحرب الظاهرة . لأن نقضها أصعب ، والوقوف على بطلانها أعسر ، ويمكننا أن ندرك أنهم لجأوا فى ذلك إلى نوعين : ( النوع الأول ) الوضع وهو أن يضعوا القصص الشنيعة فى شرح الآيات أو الأمثال ، ويختلقوا القصص اختلاقاً . كما فعل أبو عبيدة فى شرح المثل « جان ما يلوى على الصّفير » فقد نقل البكرى فى كتابه « الينبيه على أوهام أبى على القالى فى أماليه » حكاية فى ذلك عن ابى عبيدة لا نستطيع ذكرها لشناعتها<sup>١</sup> ! وروى الهيثم بن عدى قصة طويلة . تتلخص فى أن رجلاً من تنوخ نزل بحى من بنى عامر فخرجت اليه جارية ، فقالت : بمن أنت؟ قال : من تميم . فذكرت له آياتاً فى ذم تميم ، فقال لها : لست من تميم بل أنا

١ ما يلوى : أى ما يعرج لشدة جنبه على من يصغر به .

٢ التنبيه : ٧٧

من قبيلة عجل ، ففعلت ذلك ، وما زال الرجل يذكر القبائل قبيلة قبيلة ، وهي تروى الآيات في ذمها حتى استنفد القبائل . ولما انتسب إلى بني هاشم قالت : أتعرف الذى يقول :

بني هاشم عودوا إلى نَخَلَاتِكُمْ فقد صار هذا التمر صاعا بدرهم !  
فان قلتمو : رهط النبي محمد فان النصارى رهط عيسى ابن مريم !<sup>١</sup>  
والحكاية كلها على ما يظهر من وضع الشعوية . أو من وضع الهيثم بن عدى نفسه ، يرمى واضعها الى ذكر مثالب القبائل العربية .

( والنوع الثانى ) نسبة الشيء إلى غير قائله ، وهو طريق سلكوه لافساد الأدب العربى ، وإضاعة معاملته . حتى لا يكون للعرب أدب موثوق به . وتلك أكبر بغية لهم . ومن الأمثلة على ذلك : أن يقول أبو عبيدة فى البيتين الآتين :

هَيْنُونَ لَيْسُونَ أَيَسَارَ ذَوُو كَرَمٍ سَوَّاسٍ مَكْرُمَةَ أُنْبَاءِ أَيْسَارِ  
إِنْ يُسْأَلُوا الْخَيْرَ يُعْطُوهُ وَإِنْ خَبِرُوا فِي الْجَهْدِ أُدْرِكُ مِنْهُمْ طِيبُ أَخْبَارِ  
انهما للعمرندس الكلابى يمدح بنى عمرو الغنويين . فينكر الأصمعى عليه ذلك ، ويقول : محال أن يمدح كلابى غنويا لما بينهما من العداوة !<sup>٢</sup>  
ولو فحصنا الأدب فى ضوء هذه النظرية ؛ لوجدنا الشيء الكثير الموضوع للحظ من العرب ، وافساد الأدب ، مما لا نستطيع أن نستقصيه هنا .

« كان فى هذا العصر ثلاثة ، هم أئمة الناس فى اللغة والشعر وعلوم العرب ، لم يرقبهم ولا بعدهم مثلهم ، عنهم أخذ جل ما فى أيدي الناس من هذا العلم بل كله وهم : أبو زيد الأنصارى ، وأبو عبيدة ، والأصمعى ! »<sup>٣</sup> وقد

١ تجيد الحكاية بطولها فى مروج الذهب للمسعودى من ١٧٥ — ١٨٠ فى الجزء الثانى .

٢ أنظر التنبيه : ٧٣ و ٧٢ ٣ الزهر ٢ : ٢٠٢ .

اشتهر أبو زيد بحفظ الغريب من اللغة وبالنحو ، وتنازع الرياسة الاثنان الآخران ، ويظهر أن الأصمعي بحكم عربيته كان يتعصب للعرب ، وكان يتشدد فيما يروى فلا يجيز إلا أصح اللغات ، وكان لا يجيب في القرآن ، ولا في الحديث خشية الخطأ<sup>١</sup> ، وكان لا يقول في شيء برأيه . وكان لا يفسر شعراً فيه هجاء<sup>٢</sup> ، كأنه كان يرى أن ذلك يمس دينه ! وكأنه يرى أن في الهجاء خطأ من المهجو أو قبيلته ، وفي ذلك مساس بالعربية ، وكان يمتاز عن أبي عبيدة بحسن القائه ، ولطف نعمته — أما أبو عبيدة . فيظهر أنه كان أوسع علماً ، وأكثر ثقافة ، يعرف تاريخ الفرس لفارسيته ، والثقافة اليهودية ليهودية آبائه ، والثقافة الاسلامية لأنه نشأ فيها . ولكنه لم يكن يحسن التعبير كالأصمعي . وكان حرّ الرأي يفسر القرآن برأيه ، فيؤاخذ الأصمعي على ذلك<sup>٣</sup> ، وليس للعرب حرمة في نفسه ، إذ ليس بعربي بل في نفسه الكراهة لهم ، فهو يطلق لسانه في هجوهم ، وذكر مثالهم . وقد استغوى الناس بسعة اطلاعه ، كما استغوى الناس الأصمعي بفصاحته وحسن بيانه . قال الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي ولا إجماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة<sup>٤</sup> . وقالوا : « ان طلبه العلم كانوا إذا أتوا مجلس الأصمعي اشتروا البعر في سوق الدر ، وإذا أتوا مجلس أبي عبيدة اشتروا الدر في سوق البعر ! لأن الأصمعي كان حسنَ الانشاد والزخرفة لردى الأخبار والأشعار حتى يحسن عنده القبيح ، وان الفائدة مع ذلك عنده قليلة . وإن أبا عبيدة كان معه سوء عبارة . مع فوائد كثيرة ، وعلوم جمّة »<sup>٥</sup> — ويظهر أن كلا من الأصمعي وأبي عبيدة . كان في عصره يمثل فكرة . فالأصمعي ؛ يمثل العربية ، والتعصب لها . وحب العرب وإجلالهم والاشادة بذكرهم . وأبو عبيدة ؛ يمثل فكرة

٢ المصدر نفسه ٢ : ٢٠٤ .

٤ ابن خلكان ٢ : ١٥٤ .

١ الزهر للسيوطي

٣ ابن خلكان ٢ : ١٥٥ .

٥ ابن خلكان ٢ : ١٥٦ .

الشعوبية ، والبحث عن معايب العرب والتشهير بهم . وكان كل زعيما ، يلتف حوله من يؤيدون فكرته ، ويناصرونه ويتعصبون له؛ العرب حول الأصمعي ، والفرس حول أبي عبيدة ، فترى اسحق بن ابراهيم الموصلی ، وهو فارسی يقول للفضل بن الربيع :

عليك أبا عبيدة فاصطنعه فان العلم عند أبي عبيدة  
وقدمه ، وآثره عليه ، ودع عنك القرَّيد بن القرَّيدَة !<sup>١</sup>

ويقول أبو الفرج الأصفهاني : إن اسحق الموصلی « كشف للرشد معايب الأصمعي ، وأخبره بقلة شكره وبخله وضعة نفسه ، وأن الصنعة لا تزكو عنده ، ووصف له أبا عبيدة بالثقة والصدق والساحة والعلم ، وفعل مثل ذلك للفضل بن الربيع ، واستعان به ، ولم يزل حتى وضع مرتبة الأصمعي . وأسقطه عندهم ، وأنفذوا إلى أبي عبيدة من أقدمه <sup>٢</sup> ونجد أبا نواس ، ونزعته الفارسية لا تنكر . يقدم أبا عبيدة على الأصمعي ، ويقول : أما أبو عبيدة فانهم ان أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعي فبئس بل يُطربهم بنغماته » ونجد الأصمعي من ناحية أخرى يذم البرامكة ، ويقول :

إذا ذُكر الشُّرك في مجلس أضاءت وجوه بني بَرَمَكِ  
وإن تلييت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزَدَكِ

وأبو عبيدة يشيد بذكر الفرس ، ويؤلف كتاب « فضائل الفرس » ويؤلف كتاباً في أخبار الفرس يصف فيه طبقات ملوكهم من سلف وخلف ، وأخبارهم وخطبهم وتشعب أنسابهم ، وما بنوه من المدن وكوَرَّوه من الكوَر ، واحتفروه من الأنهار ، وأهل البيوتات منهم ، وما وُسم به كلُّ فريق من السهارجة وغيرهم <sup>٣</sup> .

١ يعني الاصمعي ٢ الأغاني ٥ : ١٠٧ . ٣ السعدي ١ : ١١٣ .

ومن آثار الشعوبية أنهم لو تَوَّأوا مارووا من تاريخ الفرس لو نأ زاهياً  
جميلاً ، ونسبوا إلى ملوكهم الحكم الرائعة ، والسياسة الحكيمة ، وكسوة أبهة  
وعظمة بالغوا فيهما ، وزعموا أن الفرس من ولد اسحق بن ابراهيم  
عليه السلام ، والعرب من ولد اسماعيل بن ابراهيم ، واسحاق ابن  
سارة الحرّة واسماعيل ابن هاجر الأمة ، فهم أفضل من العرب لأنهم بنو  
الأحرار ، وأما العرب فبنو اللّخناء . وهى دعوى غيرُ صحيحة علياً ، وإنما  
وضعت ليرفع الفرس من شأنهم وليفخروا بها على العرب ، كما زعموا أن  
سابور سمي ذا الأكتاف لأنه أوقع بالعرب فى العراق وخلع أكتافهم<sup>٢</sup> .

وأغرب من ذلك ما اخترعه شعوبية النبط من حديث نسبوه إلى عليّ  
ابن أبى طالب ، فقد رووا أن رجلاً سأله فقال : أخبرنى يا أمير المؤمنين  
عن أصلكم معاشرَ قريش . فقال : نحن قوم من نبطِ كوثى ، ورووا عن ابن  
عباس أنه قال : نحن معاشر قريش من النبط من أهل كوثى ! وفى رواية  
أخرى عن عليّ أنه قال : من كان سائلاً عن نسبتنا فأتنا نبط من كوثى<sup>٣</sup> ، وقد  
أتعب العلماء أنفسهم فى تفسير هذه الأحاديث فقال بعضهم إنهما أرادا أن  
أباهما ابراهيم عليه السلام كان من نبط كوثى ، وقال قوم إنهما أرادا التبرؤ  
من الفخر بالأنساب ، وقال قوم ان كوثى اسم من اسماء مكة ، ولو أنصفوا  
لأراحوا أنفسهم من تأويل هذا الهديان .

واستغل الفرس سلهان الفارسى استغلالاً عظيماً ، فرَوَّأ له من الزهد  
والحكمة والعلم ما لم يرو لأى صحابى آخر حتى جعلوا عمره فوق أعمار  
الناس فقيل إنه أدرك عيسى عليه السلام ، وروى أبو الشيخ فى طبقات

١ انظر رسائل البلغاء ص ٢٦٥ . ٢ مسعودى ١ : ١٤٣ .

٣ انظر الأحاديث فى لسان العرب ٢ : ٤٨٧ ومعجم ياقوت فى مادة « كوثى » ، وكوثى  
بلدة بسواد العراق .



الاصفهانين : أن أهل العلم يقولون : عاش سلمان ثلاثمائة وخمسين سنة ، فأما مائتان وخمسون فلا يشكون فيها !!<sup>١</sup> ورووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تلا هذه الآية « وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » فقالوا من يستبدل بنا ؟ فضرب صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان . ثم قال : هذا وقومه ، والذي نفسى بيده لو كان الأيمان موطأ بالثريا لثاله رجال من فارس ، وهو الذى قيل فيه : سلمان منا أهل البيت ، وهو الذى أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق . ومن ذلك الحين عرف العرب كيف يستعملون الخنادق فى الحروب ، فهم فى ذلك مدينون للفرس . وعلى الجملة فقد اتخذ الفرس وسيلة لبيان عظمتهم ، وأن لهم فضلا كبيرا على المسلمين \*

وكان للشعوبية مجال فسيح فى الحديث . فقد وضعوا الأحاديث الكثيرة فى فضل الفرس . وأسندوها الى الثقات من الصحابة والتابعين ، مثل ماروى أن الأعاجم ذكرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « لَأَنَا بَهُمْ أَوْثَقُ مِنْى بِكُمْ » وفى رواية « لَأَنَا بِيَعُضِهِمْ أَوْثَقُ مِنْى بِيَعُضِكُمْ »<sup>٢</sup> وفى حديث آخر « سَيَأْتِي مَلِكٌ مِنْ مَلُوكِ الْعَجَمِ فَيُظْهِرُ عَلَى الْمَدَائِنِ كُلِّهَا الْإِدْمَشَقَ »<sup>٣</sup> وفى حديث « لَا تَسْبُوا فَارِسًا فَمَا سَبَّهُ أَحَدٌ إِلَّا انْتَقَمَ مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا » ، « ورأى النبي صلى الله عليه وسلم كأنه رَدِفَهُ غَنَمٌ سُودٌ ، فَرَدِفَتْهُ غَنَمٌ بَيْضٌ ، مَا يَرَى السُّودَ فِيهَا لِكَثْرَتِهَا فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ بِذَلِكَ أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ : السُّودُ الْعَرَبُ وَيُسَلِّمُونَ ، وَالْبَيْضُ الْعَجَمُ يُسَلِّمُونَ بَعْدَهُمْ حَتَّى مَا يَرَى فِيهِمُ الْعَرَبُ لِكَثْرَتِهِمْ . فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ أَخْبَرَنِي

١ الاصابة لابن حجر ٣ : ١١٣ . \* وقد رووا أن النبي صلى الله عليه وسلم املى كتاباً على علي فيه انه صلى الله عليه وسلم فدى سلمان وجعل ولاءه له ، وأرخ الكتاب فى جمادى فى السنة الاولى الهجرية وقد فند الخطيب البغدادي هذا الكتاب تفصيلاً دقيقاً فانظره فى الجزء الأول صفحة ١٧٠ .

٢ تيسير الوصول ٣ : ١١١ .

٣ المرجع نفسه ٣ : ١٢٧ .

«المَلَك سَحْرًا»<sup>١</sup> ومن هذا القبيل ما وضعوه من الأحاديث الكثيرة حول الامام أبي حنيفة الفارسي الأصل، يزعمون: أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار بها إليه أو نصرَّ عليه كالذي روى: لو كان العلمُ مُعَلَّقًا عند الثريا لتناوله رجل من فارس، وكالذي روى: أن آدم افتخر بي وأنا أفتخر برجل من أمتي اسمه نعمان، وكنيته: أبو حنيفة هو سراج أمتي. ورووا: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ان سائر الأنبياء يفتخرون بي، وأنا أفتخر بأبي حنيفة، من أحبه فقد أحبني، ومن أبغضه فقد أبغضني<sup>٢</sup>.

والحق أن العرب ومن تعصب لهم قابلوا عملهم بمشله، فوضعوا الأحاديث الكثيرة في تفضيل العرب، ووجوب حبهم. مثل «من غشَّ العرب لم يدخُل في شفاعتي ولم تنله مودتي، ومثل «إذا اختلف الناس فالحق في هُضْر»، ومثل «أحبُّوا العربَ لثلاث لأنِّي عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي». ومن أطف ذلك أنهم روى حديثا للنبي صلى الله عليه وسلم مع سلمان الفارسي نفسه، ذلك أن رسول الله قال: يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك قال. قلت: يا رسول الله: كيف أبغضك وبك هداني الله! قال لا تبغض العرب فتبغضني الخ<sup>٣</sup> وتعاليم الاسلام التي تدعو الى المساواة، وتعلم أن الفضل ليس الا بالتقوى تأبي مدح الفرس أو العرب أو أية أمة لجنسيتها. ونكاد نجد اصبع الشعوية في كل علم حتى في الفقه، فلو قرأت مثلا باب الكفاءة في الزواج. لرأيت: أن الأئمة أنفسهم لم تؤثر فيهم العصبية أي أثر، فالامام مالك العربي لم يعتبر الكفاءة، وعنده أن العجمي يتزوج العربية من غير أن يكون للولي حق الاعتراض، ومذهب أبي حنيفة الفارسي يعتبر

٤ محاضرات الادب للافهاني ١ : ٢١٩ .

١ انظر ابن عابدين وهامشه ١ : ٥٤ و ٥٥ .

٢ ابن قتيبة في رسائل البلغاء : ٢٩٣ .

الكفاءة، فالقرشيون\* أكفاء لبعض؛ وليس غير القرشي كفوًّا لهم، والعجمي ليس كفوًّا للعربية. ولكن سرعان ما نجد نظرية توضع على بساط البحث يهدم بها الجزء الأكبر من العصرية العربية. وهي: « شرف العلم فوق شرف النسب » قال قاضيخان: « الحسيب يكون كفوًّا للنسيب. فالعالم العجمي يكون كفوًّا للجاهل العربي، والعلوية لأن شرف العلم فوق شرف النسب »<sup>١</sup> وقالوا: « وكيف يصح لأحد أن يقول ان مثل ابى حنيفة أو الحسن البصرى وغيرهما ممن ليس بعربى لا يكون كفوًّا لبنت قرشى جاهل أو لبنت عربى بوال على عقبيه؟! »<sup>٢</sup> ويطول بنا القول لو عددنا أثر الشعوبية فى كل علم.

ومما نأسف له أن الشعوبية أزهرت فى عصر تدوين العلوم. وكل حركة علمية كانت بعد انما أسست على مادون فى هذا العصر العباسى الشعوبى، ولم يكن لنا علم مدون قبل ذلك، وهذا يجعل استكشاف الآثار الشعوبية صعبا غامضا. فلو كان لدينا تاريخ مدون فى العصر الأموى لفهمنا كيف تلاعب به الشعوبيون فى العصر العباسى، ولو كان لدينا تاريخ للفرس موثوق به دون أثناء حكم الفرس لأدر كنا فى وضوح كيف جمّله الشعوبيون، ولو كان العرب فى العصر الاسلامى الأول وضعوا كتبنا فى الأنساب ومناقبها ومثالبها ووصلت اليها عرفنا ما اختلقه الشعوبيون عليهم لأفساد انسابهم، والخط من شأنهم، وهكذا فى كل العلوم. ولكن قدر أن يقترن تدوين العلم بسطوة الشعوبية، فكان ذلك من سوء حظ العلم، ولذلك أجهد العلماء أنفسهم فى تعرف اسرار الشعوبية وخفاياها وآثارها فى العلم، ولا يزال المدى أمامهم فسيحا، والبحث فى مهده.

\* فى المبسوط للسرخسى « أن سفيان الثورى كان من العرب فتواضع ورأى الموالى أكفاء له، وأن أبا حنيفة كان من الموالى فتواضع ولم ير نفسه كفوًّا للعرب » ٢٢ : ٥  
١ ابن عابدين ٢ : ٤٩٨ . ٢ المصدر نفسه ٤٩٩ .

ومع هذا فقد كان للشعوية جانب حسن ، فقد أتت الشعوية وكل شيء للعرب يُمَجَّد ، من نسب عربي ، ولغة عربية ، ورأي عربي ، وعادات عربية . فأخذ الشعوييون - يَعْرِضُونَ هذا للنقد ، والتحليل ؛ عرضوا أنساب العرب للنقد كالذي فعل أبو عبيدة مع غلوه ، فكان يرد على قوم ينتسبون للعرب فيبين أن النسبة كاذبة مختلقة ، وفي كتاب الأغانى عن أبي عبيدة من هذا الشيء الكثير ، وعرضوا اللغة العربية للنقد ، فسيديويه فى كتابه فى النحو يُخَطِّئُ العرب فى بعض أقوالهم ، ويدعى العرب أن البلاغة ليست الا فيهم ، فيرد الشعوية بأن هناك أمماً أخرى لها بلاغة ولها خطب ، ولها حكم لا تقل عما للعرب ، وينبهون على أن عادات العرب ليست المثل الأعلى للعادات ، فيها الحقير المرذول والجيد المحمود - كل هذا النقد وأمثاله استتبع نتيجة جيدة من بعض الوجوه . وهى : عرض ما للأمم الأخرى من كل ذلك لتكون المقارنة أتمَّ ، فتعرض الكلمات الفارسية بجانب الكلمات العربية ، والحكم الاجنبية والبلاغة الأجنبية بجانب البلاغة والحكم العربية ، والنظام الفارسى والأدب الأجنبى بجانب النظام والأدب العربيين ، ونحو ذلك وهذا - من غير شك - مفيد للعلم والعقل

نعم ! لو وقفت الشعوية عند هذا الحد ، فلم يتهجموا على العرب بقلب محاسنهم مساوى ، والتشهير بهم بالحق حيناً ، وبالباطل أحياناً ، ولم يحاولوا إفساد الدين بالزندقة ، وافساد العلم بالكاذب - لو وقفوا عند ذلك لأحسنوا - ولكنهم أفرطوا ففسدوا كثيراً وكرهوا ومقتوا كثيراً .

## الفصل الرابع

### الرقيق وأثره في الثقافة

قبل أن نتكلم في الرقيق وأثره، يجب أن نبين في كلمة موجزة موقفه القانوني في المملكة الإسلامية، وبعبارة أخرى ما كان يطبق من الأحكام الإسلامية عليه.

تقضى تعاليم الإسلام - أو على الأقل - المبادئ التي استنبطها الأمة من أصول الأحكام، وجرى عليها العمل حتى عصرنا الذي تؤرخه بأن «سبب الرق: وقوع الكافر أسيراً في يد المسلمين عند الحرب» فإذا حارب المسلمون الكافرين فمن أسر من المحاربين منهم جاز للإمام أن يسترقه، كما يجوز له أن يسترق أهل البلد الذي فتح في الحرب، رجالاً كانوا أو نساء<sup>١</sup>. وهذا الكفر والوقوع في الأسر هما سببا الرق. ولا يشترط لأجل بقاء الرق بقاء سبيه، فلو وقع كافر في الأسر فاسترق ثم أسلم لا يزول عنه الرق<sup>٢</sup>. وهذا الرقيق يُعدُّ مالاً، شأنه في ذلك شأن المتاع. فمن استرق في الحرب عد جزءاً من الغنيمة كالألات الحربية، وكالنفود وكالخيل. وعلى الجملة مثله كمثل كل شيء مقوم وقع في يد الفاتحين، وشأن هذه الأشياء - أن الإمام ينقلها إلى دار الإسلام، ثم يأخذ خمسها يصرفه في الصالح العام من إعطاء الفقراء والمساكين، وصراف في وجوه البر المختلفة. وأما أربعة الأخماس فتوزع على من اشترك في القتال، والرقيق يفعل به ذلك، فخمسه للصالح العام والباقي يقسم على المقاتلين. وقد ميزوا عند القسمة على المحاربين

١ انظر ما كتبناه في ذلك في الجزء الأول من فجر الإسلام: ١٠٢

٢ التحرير ٢: ١٨٠.

بين الفارس والراجل ، وبعبارة أخرى بين الخيالة والرجالة . فجعل للفارس سهمان في قول بعض الفقهاء ، وثلاثة في قول بعضهم ، وللراجل سهم واحد . على هذا النمط الذي أبتأ كان يوزع الرقيق .

وإذ كانت الحروب في صدر الاسلام تكاد تكون دائمة ، وكان النصر للمسلمين يكاد يكون متلاحقاً مطرداً ، والبلاد المفتوحة والأمم المغلوبة لا تكاد تعد ، أمكننا أن نتصور كيف كان الرقيق لا يحصى كثرة ، وكيف كان مختلفاً متنوعاً تنوع الأمم التي اشتبك معها المسلمون في قتال - وإذ كنا أبتأ كيف يوزع الرقيق فهنا كيف انتشر بين المحاربين ، ودخل في بيت كل منهم . وإذ كان الرقيق يعد مالا ، وتجري عليه كل العقود المالية من بيع وشراء ، وإجارة ورهن ، أمكننا أن نفهم أنه لم يقتصر على المحاربين بل كان في متناول أيدي الناس جميعاً ، وكان له سوق يشتري منه من شاء ويستخدمه كما شاء ! .



هذا من الناحية المالية ، وأما علاقة الرجال بالاماء من الناحية الجنسية فنجملها فيما يأتي :

هناك سببان يُحلان المرأة للرجل : عقد الزواج ، ومِلْك اليمين ، فأما عقد الزواج فلا يحل للرجل الحر أن يتزوج أكثر من أربع ، أعنى أنه لا يحل له أن يكون على ذمته في وقت واحد أكثر من أربع زوجات ، ولكن يحل له أن يطلق منهن ، ويتزوج غيرهن بعد انقضاء عدتهن . هذا هو قول أكثر الفقهاء . وإن كان لغيرهم أقوال أخرى لا محل لها هنا - وهذا الحكم عام سواء كانت الزوجات الأربع حرائر أو اماء - وكل الذي ذكره الفقهاء في هذا الموضوع : أنه لا يحل أن يعقد الرجل عقد زواج على أمة إذا كان متزوجاً حرة ، ولكن العكس يصح ، فيجوز له أن يتزوج حرة على أمة . وقد

لوحظ في ذلك أن زواج الأمة بعد زواج الحرة امتهان للحرة، وجرح لشرفها وعزتها،

والأمر الثاني مما يُحل المرأة للرجل: «مِلْكُ الْيَمِينِ» أعنى ملكية الرجل للأمة، قال تعالى «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْرَابِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» فن ملك جارية جاز أن يتسراها، وهي حل له سواء كان متزوجاً أو غير متزوج، وسواء كان متزوجاً واحدة أو أربعاً. ولا يتقيّد الرجل في ذلك بعدد. فيحل له أن يتزوج إلى أربع، وأن يملك من الجوارى ويتسرى منهن ما شاء من العدد وان كثيراً.

من أجل ذلك كان البيت الاسلامي فيه - غالباً - زوجة أو زوجات، وكان بجانبهن عدد من الجوارى قد تسراهن رب البيت.

وكثيراً ما كان يقع الخلاف بين الحرائر والجوارى السراى، وذلك طبعي، - حتى ذهب بعض اللغويين إلى أن تسميتهن بالسراى كان سببه الغيرة، - نقل اللسان عن بعضهم أن السرية الأمة التي يتسراها صاحبها - منسوبة على غير قياس إلى السر، وهو الاخفاء، لأن الانسان كثيراً ما يسرها ويسترها عن حرته وكثيراً ما ينسل الرجل الواحد الحرائر والجوارى فيفخر أولاد الحرائر على أولاد الجوارى، ويعتزون بأنه لم يجر في عروقهم دم رقيق، كالذى كان بين الأمين والمأمون، فكلاهما ولد الرشيد، ولكن أم الأمين زوجة حرة، وأم المأمون جارية سريّة، وقد ضربنا قبل أمثالا من هذا القبيل ببيوت الخلفاء ونسلهم المتنوع، وكانت بيوت غيرهم من الرعية مثل بيوتهم في هذا الباب.

\*\*\*

وهذا الرقيق الذى أبنا - من رجال ونساء لا يَسْتَرِدُّ حرَّيته إلا بأن يَعْتِقَهُ مالِكُه . وقد عقد الفقهاء باباً طويلاً للعتق ، أبانوا فيه الألفاظ التى يكون بها العتق ، وما يعرض له من أشكال ، والذى يهمنامنه الآن : كلمة فى « أم الولد » ذلك أن الأمة اذا ولدت من سيدها سميت « أمّ ولد » وقد رفعوها فوق منزلة الجارية التى لم تلد منه ، ومنحوها حقوقاً لم تنلها غيرها ، أهمها : أنه لا يصح لمالكها ( وهو مستولدها ) أن يبيعها ، ولا يهبها - وعلى ذلك جرى جمهور الفقهاء - ولكنها تبقى حرة لمالكها حتى يموت . فاذا مات صارت حرة ، تجرى عليها كل أحكام الحرّ . أما الأولاد الذين جاءوا منها فأحرار .

هذا هو الوضع القانونى لمسألة الرقيق ، والنظام الذى كان يسود فى عصرنا الذى نؤرخه ، وهو قدر لا بد منه لفهم النتائج الأدبية والعلمية والاجتماعية .

وقد كان المسلمون والنصارى واليهود على السواء فى تملك الرقيق ، ولكن التسرى لم يكن نظاماً مشروعاً عند اليهود والنصارى ، وان ارتكبه بعضهم خروجاً على القانون . فقد رووا أن أبا جعفر المنصور أهدى طبيبه جورجيس بن بختيشوع النصرانى ثلاث جوار حسان روميات مع ثلاثة آلاف دينار ، فردّ الجوارى فسأله المنصور لم رددتهن ؟ قال : لأننا معشر النصارى لا نتزوج أكثر من امرأة واحدة مادامت المرأة ، ولا نأخذ غيرها . ولكن من ناحية أخرى يروى الجاحظ أن « طيمانو » رئيس الجاثليق قد همّ بتحريم كلام عَوْن العبادى ( وكان نصرانياً ) عندما بلغه أنه اتخذ السرارى ، فتوعد عَوْنَ الجاثليق وحلف لئن فعل ليُسلن .



وروى القفطى : أن النصارى عاتبوا يُوحنا بن ماسويته على اتخاذ الجوارى . وقالوا : خالفت ديننا ، وأنت شماس ! فاما كنت على سنتنا ، واقتصرت على امرأة واحدة ، وكنت شماساً لنا ، وإما أخرجت نفسك عن الشماسين ، واتخذت ما بدا لك من الجوارى . فقال : لهم انما أمرنا في موضع واحد ألا نتخذ امرأتين ولا ثوبين . فمن جعل الجائليق ... أولى أن يتخذ عشرين ثوباً من يوحنا الشقي في اتخاذ أربع جوار ؟ فقولوا للجائليقكم : أن يلزم قوانين دينه حتى نلزم معه فان خالف خالفناه ! ٢ .

وقد كانت المملكة البيزنطية تحرّم على من ليس نصرانياً أن يملك رقيقاً نصرانياً ، ولكن المسلمين أباحوا لليهود والنصارى أن يملكوا الأرقاء ولو كانوا مسلمين .

\* \* \*

انتشرت تجارة الرقيق في المملكة الاسلامية في ذلك العهد ، كما انتشرت في غيرها من الممالك ، وكان في بغداد شارع يسمى « شارع دار الرقيق » ٢ انتُهب في الفتنة بين الأمين والمأمون ، وبكاه شاعر في قصيدة طويلة آخرها :

ومهما أنس من شيء تَوَلَّى فأنى ذا كره دار الرقيقِ

وقد سمى تاجر الرقيق « نخاساً » وكان في الأصل يطلق على بائع الدواب ، واشتهر في ذلك العصر كثير من النخاسين في بغداد ، وسبب شهرتهم : ما لهم من جوار حسان يأوى اليهن الشعراء والأدباء ، منهم بالكرخ نخاس يكنى « أبا عمير » كان له جوار قيانٌ لهن ظرف ، وكان من جواريه جارية تسمى « عبادة » هويها عبد الله محمد بن البواب فيقول :

١ الحيوان للجاحظ ٤ : ٩ ٢ أخبار الحكماء ٣٨٧ . ٣ مسعودى ٢ : ٢٤١ .

لو تَشَكَّى «أبو عَمِيرٍ» قليلاً لَأَتَيْنَاهُ مِنْ طَرِيقِ الْعِيَادَةِ

فَقَضِينَا مِنَ الْعِيَادَةِ حَقًّا وَنَظَرْنَا فِي مَقَلَّتِي «عَبَادَةَ»<sup>١</sup>

ومنه أبو الخطاب النخاس، كان له جارية مغنية تعرف بذات الخال، كان يهاها إبراهيم الموصلى<sup>٢</sup>، ومنهم «حرب بن عمرو الثقفي» كان نخاساً، وكان له جارية مغنية وكان الشعراء والكتّاب وأهل الأدب يبغداد يختلفون اليها يسمعونها، ويُنْفِقُونَ فِي مَنْزِلِهِ النِّفَقَاتِ الْوَاسِعَةَ، وَيَسْرُونه وَيَهْدُونَ إِلَيْهِ وَفِيهَا وَفِيهِ يَقُولُ أَشْجَعُ :

أَشْكُو الَّذِي لَا قِيَّتُ مِنْ حُبِّهَا وَبُغْضِ مَوْلَاهَا إِلَى الرَّبِّ

مِنْ بُغْضِ مَوْلَاهَا وَمِنْ حُبِّهَا سَقِمْتُ بَيْنَ الْبُغْضِ وَالْحُبِّ

فَاخْتَلَجَا فِي الصَّدْرِ حَتَّى اسْتَوَى أَمْرُهُمَا فَاقْتَسَمَا قَلْبِي

تَعَجَّلَ اللَّهُ شِفَائِي بِهَا وَعَجَّلَ السَّقْمَ إِلَى حَرْبٍ<sup>٣</sup>

ومر «أبو دلامة» بنخاس يبيع الرقيق، فرأى عنده منهن من كل شيء حسن فانصرف مهموماً، فدخل إلى المهدي، فأنشدته قصيدة يفضل فيها النخاسة على الشعر مطلعها :

إِنْ كُنْتَ تَبْغِي الْعَيْشَ حُلُوًّا صَافِيًّا فَالشَّعْرَ أَعْدِبُهُ وَكُنْ نَخَاسًا

ولئن كان المستهترون من الأدباء يغبطون النخاسين على نخاستهم، فكثير من العقلاء كان يكره هذه الحرقة ويمقتها. دخل ناس على معاوية، فسألهم عن صنائعهم فقالوا: يبيع الرقيق، قال: بئس التجارة، ضمانُ نفس، وموونة ضرر!

وكان على تجار الرقيق عامل من عمال الحكومة يشرف على أعمالهم، ويراقب تجارتهم يسمى «قيم الرقيق»<sup>٤</sup>.

١ أغاني ٢٠ : ٤٤      ٢ أغاني ١٧ : ٥٠      ٣ أغاني ٩ : ١٢٨

٤ عيون الأخبار ١ : ٢٥٠      ٥ أغاني ٢٠ : ٢٧

كان هؤلاء الأرقاء أنواعاً مختلفة فمنهم السود . وكانت أهم أسواق ذلك الصنف مصر وجنوب جزيرة العرب وشمال أفريقيا ، وكانت القوافل تأتي بهم وبالذهب من الجنوب ، وكان الثمن العادي للعبد في منتصف القرن الثاني حول مائتي درهم . وقد رووا : أن كافوراً الاخشيدي الحبشي الذي ملك مصر قد بيع في أول أمره سنة ٣١٢ هـ بثمانية عشر ديناراً لأنه كان خصياً<sup>١</sup> ، وفيه يقول المتنبي لما غضب عليه :

مَنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمُخْصَى مَكْرَمَةً ؟      أَقَوْمُهُ الْبَيْضُ أَمْ آبَاؤُهُ الصَّيْدُ ؟  
أَمْ أَذُنُهُ فِي يَدِ النَّخَّاسِ دَامِيَةٌ ؟      أَمْ قَدْرُهُ وَهُوَ بِالْفَلَسِينِ مَرْدُودُ ؟  
وَذَاكَ أَنَّ الْفَحُولَ الْبَيْضَ عَاجِزَةٌ      عَنِ الْجَمِيلِ فَكَيْفَ الْخِصِيَّةَ السُّودُ !

ومنهم البيض ، ومن أشهرهم الأتراك والصقالبة وقد كان الناس يفضلون الصقالبة على الأتراك ، كما يدل على ذلك جملة للخوارزمي وردت في كتاب يتيمة الدهر « ويستخدم التركي عند غيبة الصقلي »<sup>٢</sup> وقد كان أهم مركز لتجارة الرقيق الأبيض مدينة سمرقند ، فقد اشتهرت باصدار أحسن الرقيق من هذا النوع ، وعظمت تجارته في المملكة الإسلامية ، وفي أوروبا ، وكان تجارُهُ في أنحاء أوروبا من اليهود<sup>٣</sup> .

وقد كان لكل نوع من أنواع الرقيق ميزات خاصة يعرف بها « فالهنديات عرفن بالوداعة ، ولين الجانب والهدوء ، وحسن رعاية الطفل . ولكن سرعان ما يعرض لهن الذبول . وامتاز الرقيق من رجال الهنود بتدبير المنزل ، والمهارة في الصناعات اليدوية . ولكنه عرضة للبهت الفجائي في ريعان شبابه ،

١ Mez في كتابه Die Renaissance Des Islams

٢ يتيمة ٤ : ١١٦ ويطلق الصقالبة على الاجناس التي تسكن من بلغاريا الى حدود القسطنطينية

٣ Mez

وأغلب ما يجلب الرقيق الهندي من « قندهار » واشتهرت السنديات بالخصر النحيل . والشعر الطويل . واشتهرت مولدات المدينة ( يعنى الاماء اللاتى نشأن بالمدينة وربّين فيها ) بالدلال . والميل الى السرور والفكاهة والمجون . وبحسن الاستعداد للنبوغ فى الغناء . وعرفت مولدات مكة بدقة المعصم والمفصل . والعيون الناعسة . والأمة البربرية ( المغربية ) لا تبارى فى حسن الاتاج ، وهى لدمائة خلقها وئين عريكتها صالحة لأن تعود نفسها القيام بأى نوع من العمل ، والمثل الأعلى للجارية - كما قال أبو عثمان الدلال - : أن تكون من أصل بربرى فارقت بلادها ، وهى فى التاسعة من عمرها ، ومكثت ثلاث سنين فى المدينة ، ومثلها فى مكة ، ثم رحلت الى العراق فى السادسة عشرة من عمرها لتتثقف بثقافته ، فاذا بيعت فى الخامسة والعشرين كانت قد جمعت بين جودة الأصل ، ودلالِ المدينيات ، ورقة المكيات ، وثقافة العراقيات .»

« والسودانيون كانوا يغمرون الأسواق : وقد عرفوا بقلّة الثبات والاهمال ، كما عرفوا بالميل الى الضرب على الدف والرقص ، وهم أحسن خلق الله بياض أسنان لكثرة لعابهم ، ويعابون عادة بتنّ الابط : وخشونة الملمس .»

« والحبشيات عرفن بالضعف والترهل : والاستعداد لأمراض الصدر ، وهن على العكس من السودانيات لا يحسنّ الغناء ولا الرقص ، ولكنهن قويات الخلق ، موضعٌ للثقة ، أهل للاعتماد عليهن .»

« والتركية بياض البشرة ، على حظ عظيم من جمال وحياء ، ولها عينان صغيرتان جذابتان ، وهى فى الغالب بدينة أميل الى القصر ، ولود ، كريمة نظيفة تجيد الطهى ، ولكن لا يوثق بها ولا يعتمد عليها .»

« والأمة الرومية بياض البشرة فى حمرة ، ناعمة الشعر زرقاء العينين . طيّعة مستعدة للتشكل بما يحيط بها من ظروف ، مخلصه ثقة . والعبد الرومى يجيد تدبير

المنزل، ويحب النظام، ويميل إلى القصد في الانفاق ويمجد الفنون الجميلة». « والأرمن شر الجنس الأبيض، بنيتهم جيدة ولكن أقدامهم قبيحة، لا يعرفون بالعفة وتفشوا فيهم السرقة، خشونة في طباعهم وخشونة في كلامهم إذا أنت تركت الأرمني ساعة بلا عمل عمد إلى الأذى يرتكبه، وهو إنما يعمل للخوف، فيجب أن تحمل له العصا دائماً، وتعنفه ليعمل ما تريد<sup>١</sup> ».

إذن كأن الرقيق وعلى الأخص الجوارى مختلفات الانواع، هنديات وسنديات، ومكيات ومدنيات، وسودانيات وحبشيات، وتركيات وروميات وأرمنيات — وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النخاسين بألوان الحمام فشبه الصقالبة بالحمام الأبيض، وشبه الزنج بالحمام الأسود الخ<sup>٢</sup>.

وهذا ماجعل قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء مأوى لرقيق من أمم متعددة، تختلف في الطباع والعادات واللغات. فالطبري يحدثنا: أن المأمون لما غضب على الفضل قتله أربعة من غلمانه: غالب المسعودي الأسود، وقسطنطين الرومي، وفرج الديلمي، وموفق الصقلي<sup>٣</sup>. وقد منّا أن المتوكل كان له أربعة آلاف سُرّيّة<sup>٤</sup> من مختلف الاجناس طبعاً؛ « ودخل احمد بن صدقة على المأمون في يوم السّعانيين<sup>٥</sup> وبين يديه عشرون وصيفة جلباً روميات مزنرات، قد تزين بالديباج الرومي، وعلقن في أعناقهن صلبان الذهب، وفي أيديهن الخوص والزيتون. فقال له المأمون: ويلك يا أحمد قد قلت في هؤلاء أبياتا فغنى فيها ثم أنشدني:

١ ترجمنا هذه القطعة ولخصناها من كتاب Mez السابق وهو نقلها عن رسالة ألفها ابن بطلان « في شراء الرقيق » وهي محفوظة في مكتبة برلين ولم نعلم لها على أصل عربي في مصر  
٢ الحيوان ٣ : ٧٥ . ٣ ابن جرير ١٠ — ٢٥٠ ٤ مسعودي ٢ — ٣٠٨  
٥ يوم السعانيين عيد للنصارى

ظَبَاءٌ كَالدَّيَّانِيرِ      مِلَّاحٌ فِي الْمَقَاصِيرِ  
جَلَاهُنَّ السَّعَانِينُ      عَلَيْنَا فِي الزَّيْتَانِيرِ  
وَقَدْ زَرَفْنَ أَصْدَاغَا      كَأَذْنَابِ الزَّرَازِيرِ  
وَأَقْبَلْنَ بِأَوْسَاطِ      كَأَوْسَاطِ الزَّيْتَانِيرِ

فغناها فلم يزل يشرب ، وترقص الوصائف بين يديه أنواع الرقص<sup>١</sup>.  
والرشيد يمدحه مروان بن أبي حفصة بقصيدة ، فيعطيه مالا ويعطيه  
عشرة من رقيق الروم<sup>٢</sup>. وكان لمحمد بن شفوف الهاشمي ثلاثة غلمان مغنين ،  
اثنان صقليان ؛ خاقان وحسين ! وكان خاقان أحسن الناس غناء ! وكان  
حسين يغني غناء متوسطاً وهو مع ذلك أضرب الناس ! وكان الغلام الثالث  
يقال له حجاج حسن الوجه رومي الغناء !<sup>٣</sup>.

وكان لبشار جارية سوداء يقول فيها :

وَعَادَةٌ سُدَّاءُ بَرَاقَةٌ      كَالْمَاءِ فِي طَيْبِ وَفَى لَيْنِ  
كَأَنَّهَا صِيغَتْ لِمَنْ نَالَهَا      مِنْ عَنَبٍ بِالْمَسْكِ مَعْجُونِ  
وكان لأبي الشيص الشاعر جارية سوداء وكان يتعشقها وفيها يقول :  
يَا ابْنَةَ عَمِّ الْمَسْكِ الذَّكِيِّ وَمَنْ      لَوْلَاكَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَمْ يَطْبِ  
نَاسِبُكَ الْمَسْكِ فِي السُّوَادِ وَفَى الْ      رِيحِ فَأَكْرَمُ بِذَلِكَ مِنْ نَسْبِ

وكان لابراهيم بن المهدي جارية رومية تكنس البيت ، ولا تحسن  
العربية .<sup>٦</sup>

وكان للمهدي جارية نصرانية ، تعلق في صدرها صليبا من ذهب<sup>٧</sup> الى

١ اغاني ١٩ : ١٣٨      ٢ طبرى ١٠ : ١١٤      ٣ الاغاني ١٥ : ٥٣  
٤ اغاني ٣ : ٤٦      ٥ اغاني ١٥ : ١١١      ٦ اغاني ٩ : ٧١      ٧ الطبرى ١٠ : ٢٠

كثير من أمثال ذلك — فأنت ترى أن البيوت ما كانت تخلو غالباً من رقيق،  
جارية أو غلام، وأنهم من أجناس مختلفة، وديانات مختلفة، وثقافات مختلفة،  
وقد رأيت فيما قصصنا أن الخلفاء والأغنياء تركوا المالمليكم حرية الديانة،  
فقد تكون الجارية نصرانية تلبس الصليب والزمار، وتلبس لبسها القومى  
وتتكلم بلغتها ولا تحسن العربية، ولهذا من النتائج ما سننبه عليه.

\*\*\*

اتجه العباسيون الى تعليم الجوارى - على اختلاف أنواعهن - اتجاهاً  
قوياً، وأكثرت عنايتهم كانت بتعليمهن الغناء، فقد انتشر الغناء في هذا العصر  
انتشاراً عظيماً، وعُدَّ حاجة من حاجات الانسان الضرورية، فترى المغنين  
والمغنيات في المحال العامة وفي الشوارع وفي قصور الخلفاء، وفي بيوت  
الأغنياء والفقراء، ونما ذوق الناس في الغناء نمواً غريباً وملئت الكتب  
بالحكايات عنه، شغف الناس به حتى ليغنى مغن على الجسر فيجتمع السامعون  
حوله ويخاف من سقوط الجسر بهم<sup>١</sup>، وحتى كان بعضهم يكاد ينطح العمود  
برأسه من حسن الغناء<sup>٢</sup>. ولم يخرج الخلفاء ولا أولادهم من اختراع  
الأصوات والتغنى بها. فصاحب الأغاني يحدثنا أن الواثق والمنتصر كان لهما  
أصوات يغنى بها، وكانا يجيدان ذلك<sup>٣</sup>. وعقد فصلاطويلاً ممتعاً لأولاد الخلفاء  
وصنعهم في الغناء<sup>٤</sup>. وكان لعُليّة بنت الخليفة المهدي ثلاثة وسبعون صوتاً (دوراً)  
ويحدث احمد بن أبى دواد القاضى فيقول: كنت أعيب الغناء وأطعن على  
أهله فخرج المعتصم يوماً الى الشمّاسية في حرّاقة يشرب، ووجهه في طلبى.  
فصرت اليه فلما قربت منه سمعت غناء حيرنى، وشغلنى عن كل شيء فسقط  
سوطى من يدي، فالتفت الى غلامى أطلب منه سوطه فقال لى: قد والله سقط.

١ أغاني ١٨ - ١٢٧ ٢ أغاني ١٥ - ١٥٦ ٣ أغاني ١٦٣/٨

٤ ٧ - ٣٥ وكذلك في الجزء التاسع

سوطي ، فقلت له فأى شيء كان سبب سقوطه ؟ قال : صوت سمعته شغلني عن كل شيء فسقط سوطي من يدي ، فاذا قصته قصتي ! قال : وكنت أنكرك أمر الطرب على الغناء ، وما يستفز الناس منه ، ويغلب على عقولهم ، وأناظر المعتصم فيه ؛ فلما دخلت عليه يومئذ أخبرته بالخبر فضحك وقال : هذا عمي كان يغنيني :

ان هذا الطويل من آل حفصٍ نَشَرَ المجدَ بعدَ ما كان ماتا

فأن تبت عما كنت تناظرنا عليه في ذم الغناء سألته أن يعيده . ففعلت : وفعال . وبلغ بي الطرب أكثر مما بلغني عن غيري فأنكره ، ورجعت عن رأيي منذ ذلك اليوم<sup>١</sup> .

دعاهم الشغف بالغناء الى تعليمه الجوارى للتمتع بغنائهن ومنظرهن معاً ، وتعلم الغناء استتبع تعلم الأدب ، لأن الناس في ذلك العصر كانوا يتغنون بالشعر العربي الفصيح مثل شعر عمر بن ابي ربيعة ، وبشار ، ومسلم بن الوليد ، وأبي العتاهية . والمغنية لا تحسن أن تغني هذه الأشعار إلا اذا حفظت كثيراً من الشعر ، وأجادت مخارج الحروف وأطلعت على كثير من الأدب . بل رأينا أحاديث كثيرة عن مغنيات كن يغنين بما يخترعن من شعر . وصوت يقول أبو دلامة من شعر له :

هذي رسالةُ شيخٍ من بني أسدٍ يُهدِي السَّلامَ الى العباس في الصحف  
تخطها من جوارى المصْر كاتبة قد طالما ضَرَبَتْ في اللام والألف  
وطالما اختلفت صيفاً وشاتية الى معلمها باللوح والكتف<sup>٢</sup>  
حتى اذا نهذ الثديان وامتلا منها وخيفت على الاسراف والقرف<sup>٣</sup>

١ أغاني ٩ : ٥٥ ٢ الكتف عظم عريض كانوا يكتبون فيه اقله القراطيس عندهم

٣ القرف من قرف الذنب ارتكبه



صِيْنَتْ ثَلَاثَ سِنِينَ مَا تَرَى أَحَدًا كَمَا يَصُونُ تِجَارَةً دُرَّةَ الصَّدْفِ<sup>١</sup>

وكانت عُرَيْبُ المَغْنِيَّةُ تروى الجارية الأشعار ليتغنين بها<sup>٢</sup>. ويقول المبرد: «حدثني الجاحظ عن إبراهيم بن السندی قال: كانت تصير إلى «هاشمية» جارية «حمدونة» في حاجات صاحبها، فأجمع نفسى لها وأطرد الخواطر من فكرى، وأحضر ذهنى جهدى، خوفاً من أن تورد على ما لا أفهمه، لبعد غورها واقندارها على أن تجزى على لسانها ما فى قلبها. وكذلك ما يؤثر عن خالصة، وعتبة جاريته رَيْطَةَ بنت أبى العباس<sup>٣</sup>.

ويقول المسعودى: «لما أفضت الخلافة الى المتوكل أهدى اليه ابن طاهر هدية فيها مائة وصيفة ووصيفة وفي الهدية جارية يقال لها «محبوبة» كانت لرجل من أهل الطائف قد أدها وثقفها، وعلمها من صنوف العلم، وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس، فحسن موقعها من المتوكل»

إذن كانت الجارية كثيراً ما تعلم أدباً، وتعلم فناً، وخاصة الغناء. وكان هذا التعلم يغلى قيمتها أضعاف ثمنها، فقد عُرِضَتْ جارية بثلاثمائة دينار فلما علمها إبراهيم بن المهدي الغناء عرض فى ثمنها ثلاثة آلاف دينار<sup>٤</sup>. وقد بيعت عُرَيْبُ المَغْنِيَّةُ الشهيرة بخمسة آلاف دينار<sup>٥</sup>.

ودحمان يشترى جارية بمائتى دينار! فيعلمها ويبيعها بعشرة آلاف دينار<sup>٦</sup>. واشترى الرشيد جارية من الموصل بستة وثلاثين ألف دينار لأنه يحسبها من من بابته<sup>٧</sup>. إلى كثير من أمثال ذلك.

١ أغانى ٩ : ١٣٦ ٢ نشوار المحاضرة ١ : ١٣٢ ٣ الكامل ٢ : ٢٧٩

٤ مروج الذهب ٢ : ٣٠٩ ٥ اغانى ١٤ : ١٠٩ ٦ اغانى ٥ : ١٤٣

٧ اغانى ٥ : ٧ ويقال هذا من بابته أى يصلح له ويلأم طبعه

وقد كان ابراهيم الموصلى مغنى الرشيد على ما يظهر من أكثر الناس نشاطاً في تعليم الجوارى وتثقيفهن ، ومن أسبقهم في التوجه الى ذلك . يحدث ابنه فيقول : « لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسنة الغناء ، وإنما كانوا يعلمونه الصفر والسود ، وأول من علم الجوارى المثنات أبى ، فانه بلغ بالقيان كل مبلغ ، ورفع من أقدارهن » وفي ذلك يقول أبو عيينة الشاعر وكان يهوى جارية يقال لها « أمان » ، طلب مولاهما فيها ثمنا كبيراً :

قلتُ لما رأيتُ مَوْتِي أمانٍ      قد طَعَى سَوْمُهُ بِهَا طُعْيَانَا  
لا جَزَى اللهُ الموصلى أباً اسحقَ عَمَّا خَيْرَ أَوْلَا احْسَانَا  
جاءَ نامرُسلًا بوخى من الشبي      طانِ اغلَى به علينا القيانا  
من غِنَاءٍ كأنه سكرات الحسبِ      يصنِي القلوبَ والآذَانَا

وألّف هو ( ابراهيم الموصلى ) ويزيد حوراء شركة لشراء الجوارى ، وتعليمهن الغناء ، والمشاركة في ربحهن .

\*\*\*

نشر هؤلاء الجوارى نوعاً من الثقافة كان لا بد منه في مثل مدينة العباسيين وهو لا بد منه في كل مدينة . وأعنى بذلك الفنون الجميلة ، وما يتبعها من رقى في الذوق الفنى : فقد كان بجانب الحركة العلمية في ذلك العصر حركة أخرى لا تقل عنها شأنًا . وهى الحركة الفنية من غناء وتصوير ورقص ، والحق أن الناس شعروا إذ ذاك شعوراً قوياً بالجمال ، وتفنّن شعراؤهم - وخاصة مسلم ابن الوليد ، وأبا نواس - فى وصف الجمال والولوع به وقراءته من غير ملل كما قال أبو نواس :

للحسن في وجناته بدع<sup>١</sup> ما إن يملّ الدرس قاريها

ويحكي الجاحظ : أن من رأى الديك والدجاجة يشربان الماء ، وكان عطشان ذهب عطشه من قبح حسو الديك والدجاجة ، ومن رأى الحمام يشرب الماء وكان ريان يشتهي أن يكون فيه في الماء لجمال شربه 'وهذا- من غير شك - يدل على شعور بالجمال قوى ، وكان العتّابي يعد جمال كل مجلس أن يكون سقفه أحمر وبساطه أحمر ، ويقول بشار :

هجان عليها حمرة في بياضها تروق بها العينين والحسن أحمر<sup>٢</sup>

وشعروا بجمال المعنى كما شعروا بجمال الصورة فأكثرُوا من القول في جمال الروح وجمال الحديث فيقول بشار :

وكان رجع حديثها قطع الرياض كسبين زهرا

وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

ويقول

وبكر كنوار الرياض حديثها تروق بوجه واضح وقوام  
والحق أن الجوارى كنّ أكبر عامل ، في نشر الشعور بالجمال ، وما يتبعه من فنون جميلة ، وأن الناس في العصر الذي تُوّرّخه لم يكتفوا بالجوارى من ناحية جاهلن الخلق ، بل شغفوا بهن من ناحية الجمال الفني أيضاً ليجمعوا بين الجمالين ، كانوا يميلون الى الغناء والى الرقص ، والى التفتن في الملابس ، والى غير ذلك من ضروب الفن . فأخذوا يعلمون الجوارى هذه الفنون ، وسرعان ما تحوّل النبوغ فيها من الرجال الى الجوارى ، وأخذ

نوابغ المغنين يلقنون جواريتهم ألحانهم وأصواتهم وطريقة غنائهم  
فأبراهيم الموصلى يعلم جواريه فنه حتى يحسنه ، وعبد الله بن طاهر كان يعلم  
الغناء علماً تاماً ؛ فيصنع الأصوات يلقيها لجواريه ، والمغنون ينقسمون الى  
حزبين : حزب القديم ، وحزب الجديد ؛ فينقسم الجوارى الى قسمين تبعاً  
لمن أخذن الفنّ عنهم ، وامتلاً كتاب الأغاني بتراجم الجوارى المغنيات أمثال  
عريب ومثيم وبدل وذات الخال وفريدة وأمثالهن ، وعقد الفصول الطوال  
فى نوادرهن وميزة كل منهن ونوع تفوقهن —

والآن نذكر طرفاً من أنواع الفنون التى نشرتها :

فأول ذلك : الغناء وقد عمرن العراق بالغناء الجيد ، وما يتبعه من لهُو  
ومجون . وقد كان هؤلاء الجوارى فى هذا على نوعين ، جوار مغنيات  
للخاصة فالخليفة له جوار يغنيه ، والأمراء والأغنياء كذلك — ثم هم يتهادون  
هذه الجوارى حباً فى التجدد ، وفراراً من الاقتصار على صوت واحد .  
وهناك نوع آخر وهو : قيان عامة وأكثر ما يكون أن نحاساً يملكهن ،  
فيعرضهن للغناء فى مجال يأوى اليها الفتيان لسماعهن ، والانفاق عليهن . ومن  
نماذج ذلك ما حكاه لنا صاحب الأغاني عن ابن رامين : فقد كان له منزل  
بالكوفة ، وله جوار مغنيات أشهرهن اسمها « سلامة الزرقاء » وكان أجلاً  
مُقيماً بالكوفة ، يجتمع فى بيته الفتيان للسمع والشراب ، ويقولون فيه وفى  
قيناته الشعر . ومن كان يختلف اليه روح بن حاتم المسابى ، ومحمد بن  
الأشعث ، ومعن بن زائدة ، وابن المقفع وأمثالهم يسمعون وينفقون عن  
سعة ، وينشدون أشعار الغزل . ولما خرج ابن رامين حاجاً بجواريه بكى  
الشعراء لخروجه ، ووصفوا لوعتهم من فرقة مجلسه كما وصفوا كثرة الناس  
الذين كانوا يغشون بيته ، من ذلك قول أحدهم :

أَيَّةُ حَالٍ يَا ابْنَ رَامِينَ حَالُ الْمُحِبِّينَ الْمَسَاكِينِ

تَرَكَتْهُم مَوْتِي وَلَمْ يَتَلَفُوا      قَدْ جُرِعُوا مِنْكَ الْأَمْرَيْنِ  
 وَسِرَّتَ فِي رَكْبٍ عَلَى طِيَّةٍ      رَكْبٍ تِهَامٍ وَيَمَانِينِ  
 يَارَاعِي الذَّوْدَ لِقَدْرُعَتِهِمْ      وَيَلِكُ مِنْ رَوْعِ الْمُحْبِينِ  
 فَرَقَّتْ جَمْعًا لَا يُرَى مِثْلُهُمْ      بَيْنَ دُرُوبِ الرُّومِ وَالصِّينِ<sup>١</sup>

وفي الحق أن هذا النوع من الجوارى أثر أثرًا سيئًا في نشر الخلاعة والمجون، ومن قرأ رسالة القيان المنسوبة للجاحظ، أو قرأ وصف «الوشاء» في باب ذم القيان في كتابه «الموشى» أدرك ما كان لهن من أثر ترى ظله في شعر الشعراء الخليعيين في ذلك العصر، وما كان أكثرهم! ٢ — ويعلل الجاحظ فساد هؤلاء الفتيات بقوله «وكيف تسلم القينة من الفتنة، أو يمكنها أن تكون عفيفة؟ وإنما تكتسب الأهواء، وتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدُّ عن ذكر الله من هو الحديث...، وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يُسمع منه كلمة جد، ولا يُرجع منه إلى ثقة ولا دين، ولا صيانة مروءة، وتروى الحاذقةُ منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، عدا ما يدخل في ذلك من الشعر، إذا ضرب بعضه ببعض كان من ذلك عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، ولا تهيبٌ عن عقاب، ولا ترغيبٌ في ثواب، وإنما بنيت كلها على ذكر... العشق والصبوة والشوق، ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها، منكبة عليها تأخذ من المطارحين الذين طرَّحهم كله تجميش...! وهي مضطرة إلى ذلك لأنها إن أهملتها نقصت، وإن لم تستفد منها وقفت، وكل واقف فإلى نقصان أقرب»<sup>٣</sup>.

١ الاغانى ١٣ : ١٢٧ وما بعدها . ٢ الموشى ص ٩٥ وما بعدها

٣ رسالة القيان ص ٧٢ .

وغير هذا نشر الجوارى أنواعاً من الظرافة، قلدهن فيها الناس، وجروا على أثرهن، كحب الأزهار وتعشقتها، فيحدثنا «الأغاني» أن «متيماً» جارية على بن هشام «كان يعجبها البنفسج جداً، وكان عندها أثر من كل ريحان وطيب، حتى أنها من شدة إعجابها لا يكاد يخلو من كها الريحان، ولا تراه إلا كما قطف من البستان»<sup>١</sup>، وفطن الناس اذ ذلك الى دلالة الأزهار على المعاني فيقول شاعرهم:

أهدت إليه بِنَفْسِجاً يُسْلِيهِ      تُنْيِيهِ أَنْ يَنْفَسِهَا تَفْدِيهِ  
فارتاح بعد صباية وكآبة      ورجا لحسن الظن أن تُدْنِيهِ

ويقول آخر

سُرَّ بِالْأَسِّ الَّذِي أَهْدَتْ لَهُ      ثُمَّ لَمَّا أَهْدَتْ الْوَرْدَ جَزَعِ  
ذاك أن الآس باق، دائم      ولأن الورد حيناً ينقطع  
ونوع آخر ظريف انتشر بينهم، وهو كتابة الأشعار الرقيقة والجميل «الظريفة تطريزاً على الأقصة والأردية والأكام ونحوها». «قال الماوردي: رأيت جارية ونحن عند محمد بن عمرو بن مسعدة... عليها قميص مكتوب في وشاحه:

أغيب عنك بوْدٌ لا يُغَيِّرُهُ      نَأَى الْمَحَلِّ، وَلَا صَرَفٌ مِّنَ الزَّمَنِ  
وعلى طراز الرداء:

أقلّ الناس في الدنيا سرورا      محبُّ قد نأى عنه الحبيب  
وقال: ورأيت جارية لبعض الهاشميين، يقال لها عُرَيْب، عليها قميص موشح بالذهب، مكتوب في وشاحه:

وأنى لأهواه مُسِيئاً ومَحْسِناً      وأقضى على قلبي له بالذنى يَقْضِي

حتى متى روح الرضا لا ينالني وحتى متى أيام سُخْطِكَ لا تمضي  
وكتبت على العصاب ، ومشاد الطرر والنواب ، والزناير والمناديل  
والوسائد والبسط والأسرة والسكال والنعال والحفاف ، وبالحناء على الأقدام  
والراح<sup>١</sup> . تمت له من ليق العشب مهتسا له من حنك .  
ونجح هؤلاء الجوارى في إشعار الناس بالظرف ، والتزام حدوده ، حتى  
أصبح للظرفاء عرف خاص في الزي والنظر ، والطعام والشراب ، وما إلى  
ذلك . وحتى أخذ « الوشاء » هذا العرف ودوته قانونا للظرفاء في كتابه « الموشى » .  
ولسنا نرجع الفضل في ذلك كله للجوارى فان لمواليهم أيضاً أثر لا ينكر ،  
فابراهيم الموصلي وأمثاله من المغنين هم الذين علموا الجوارى غناءهم ،  
ولقنوهن أصواتهم ، والطبقة الراقية هي التي أوحت الى الجوارى ضروب  
الظرافة ، ولكن بما لا شك فيه أنه قد كان للجوارى الفضل في نشر هذه  
الفنون الجميلة بين طبقات الشعب المختلفة ، لأنهم كانوا أكثر ولوعاً بهم ،  
وأشدّ تقليداً لهم ، وأميل للتخلق بما يستحسن .  
وكان للجوارى فضل آخر : وهو أنهن من أمم مختلفة كما رأيت .  
فهنديات وتركيات وروميات وغير ذلك ، وقد كان كل صنف يُجلب وقد  
تكونت عاداته أو كادت . فالروميات تحملن عادات قومهن في الغناء وضروب  
الظرافة وهكذا بقية الامم ثم أتت المملكة الاسلامية ففسرن عاداتهن ،  
ووقعت أبصارهن على عادات غيرهن ، ففزع ذلك كله لقانون الانتخاب ،  
ومن أجل ذلك كان الغناء غناءً منتخباً ، وهذا ما يفسر النزاع الشديد الذي  
حكاه الأغانى من طائفة تتعصب للقديم ، وأخرى تتعصب للجديد ، وما  
القديم الا ما أُلِفَ من غناء معبَدَ وأمثاله من مغنى الدولة الأموية ، وما  
الجديد الا ما أدخل عليه من نغمات فارسية ورومية ، وكذلك سائر الفنون .  
١ - تجد كثيراً من ذلك في كتاب الموشى .

وفن آخر كان للجوارى أثر كبير فيه ، كأثرهن في سائر الفنون الجميلة . ذلك هو « الأدب » ونرى أن للمرأة في كل أمة ، وفي كل عصر فضلاً على الأدب من ناحيتين « الأولى » ما تثيره في نفوس الرجال من عاطفة قوية تجيش في صدورهم ، فتخرج على ألسنتهم شعراً رقيقاً وأدباً متمعاً . « الثانية » مشاركة المرأة الرجل في اخراج القطع الفنية والأدبية في المواضيع التي تمس شعورهن ، وهن عليها أقدر !

كان هذا هو الشأن في العصر العباسي ، ويظهر لنا أن « الجوارى » كن أنشط من « الحرائر » في النوعين معاً ، أعني في ناحية الانشاء الأدبي ، وفي ناحية الإيحاء إلى الشعراء . ويرجع السبب في ذلك إلى النظام الاجتماعي اذذاك ، فقد كان الناس - كما نقلنا قبل عن الجاحظ - يغارون على الحرائر أكثر مما يغارون على الجوارى ، ويحجبون الحرّة ويشددون في تحجيبها ، وإذا أراد أحد أن يتزوجها بعث « بخاطبة » تنظر إليها ، وتصف للرجل محاسنها وعيوبها ، أما هو فلا يراها الا بعد الزواج . ولكن الجارية شأنها غير ذلك ، فهو لا يعيّر بها كما يعير بقربيتها الحرّة ، ثم هي سافرة إلى حد بعيد بحكم أنها في كل وقت عرضة لأن تباع وتشترى ، وهي تقضى للرجل حوائجها ، وإذا أراد أحد من عامة الناس أن يستمتع لغناء ، أو يلهو بالقينات في بيوت المقنين فهن اللاتي يغذّين ميله إلى السماع ، ورغبته في اللهو ، وهن - بحكم سفورهن - اللاتي يقع عليهن نظر الناس ، أما الحرائر فلا يقع عليهن الا نظر أقاربهن ، لذلك كان طبيعياً أن الأدباء والشعراء يغذون أدبهم وشعرهم بالجوارى أكثر مما يغذونه بالحرائر - ومن ناحية أخرى . فقد عنى الرجال بتعليم الجوارى - كما يظهر - أكثر من عنايتهم بتعليم الحرائر ، ودعاهم إلى ذلك : الناحية التجارية ، فقد رأيت أن علم الجارية وأدبها كان يقوم في سوق الرقيق بأكثر مما يقوم بدنها ، وأن الجارية اذا قومت بمائتي دينار جاهلة قومت



بأضعاف ذلك مغنيةً أو أديبةً ، والمال في كل عصر هو قوام الحركات الاجتماعية ، أما الحرائر فلم يكن يُعنى بتعليمهن وتربيتهن الا طبقة قليلة ، وهي طبقة الأشراف ومن في حكمهم وقليل ما هم . وسبب آخر : وهو أن الناس كانوا يرون أن الجوارى هن ملهى الرجال . فحاول القائمون بأمورهن أن يرقوا هذه الملاهى بكل ما يتطلبه اللاهون ، ورأوا أن الجارية اذا كانت مغنية أديبة موسيقية شاعرة كان ذلك أفعال في قلوب الرجال ، فلم يألوا جهداً في تحقيق مطالبهم .

نعم نجد كثيراً من الحرائر اشتغلن ببعض العلوم ، ولكن أكثر ما اشتغلن به كان الباعث عليه دينياً ككثير من المحدثات والمتصوفات . ولكن هذا ليس موضوعنا هنا ، انما موضوعنا الاشتغال بالفنون ، والجوارى - من غير شك - في هذا الباب كن أكثر وأظهر .

مصدق ذلك أنا نجد - من الناحية الانشائية - كثيراً من الجوارى أديبات متفئنات ، لا يدانين في ذلك الحرائر . فيقول الأغاني في عريب : « كانت مغنية محسنة ، وشاعرة صالحة الشعر ، وكانت مليحة الخط والمذهب في الكلام ، ونهاية في الحسن والجمال ، والظرف وحسن الصورة ، وجودة الضرب واتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار ، والرواية للشعر والأدب »<sup>١</sup> ويقول في « مئيم » : « كانت صفراء مولدة من مولدات البصرة وبها نشأت وتأديت وغنت ، وأخذت عن « اسحاق الموصلي » وعن أبيه من قبله . . وكانت من أحسن الناس وجهاً وغناءً وأدبا ، وكانت تقول الشعر ليس مما يستجاد ولكنه يستحسن من مثلها »<sup>٢</sup> ويقول في « دنانير » - جارية يحيى بن خالد البرمكي - : « كانت من أحسن الناس وجهاً ، وأظرفهم وأكلمهم ، وأحسنهم أدبا وأكثرهن رواية للغناء والشعر »

ومن الناحية الأخرى - كان الجوارى أكثر إيماء للشعراء بمعاني الشعر للسبب الذي بينا ، فبشار يعشق جارية يقال لها « فاطمة » سمعها تغنى فهويها ، وقال فيها الشعر ، كما قال الشعر في جارية له سوداء . وحياء دِعْبِل الخزاعي ، ومُسلم بن الوليد - صريع الغواني - مملوءة بما حدث لهم مع الجوارى والشعر فيهن ، وأبو نُؤاس كان يهوى جارية اسمها « جِنَان » وهي جارية لآل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي ، وكانت جميلة أديبة تعرف الأخبار وتروى الأشعار ، يقال : إن أبانؤاس لم يصدق في حبّه امرأةً غيرها . وقد أكثر فيها من بدائع شعره . وشغف العباس بن الأحنف بفوز ، وكانت جارية لمحمد بن منصور ، فأتى في شعره فيها بالمتع .

هذا قليل من كثير مما ملئت به كتب الأدب من شعر وقصص ، وبما كان بين الفتيان والشعراء والأدباء وبين الجوارى في ذلك العصر .

ولئن اغتبط الأدباء بما أنتجت هذه الحالة الاجتماعية من شعر رقيق ، وفن بديع ؛ فإن رجال الدين والخلق ساءم ما نتج عن ذلك من لهُو خليع ، واستهتار شنيع . وأخذ الأولون يحثون الناس على الاستمتاع بهذه الحياة وجنى ثمارها ، وأخذ الآخرون ينعون على الناس لهوهم وفجورهم ، ثم يفرّون من هذا كله إلى الزهد في الحياة ، والهرب من لذائذها ، كما سنعرض ذلك في الفصل التالي .

... ملكت به فأنعمت ...  
... ملكت به فأنعمت ...  
... ملكت به فأنعمت ...  
... ملكت به فأنعمت ...  
... ملكت به فأنعمت ...

## الفصل الخامس

### حياة اللهو وحياة الجد

هل كان الناس يعيشون في ذلك العصر عيشة ترف ونعيم ، وهو وجون ، أو عيشة جد وعفة ؟ وهل كان الخلفاء العباسيون الأوّلون يتحرّون أوامر الدين ويتقيدون بها ، ولا ينعمون إلا بما أحلّ الله كما يصورهم بعض المؤرخين ، أو هم تحلّوا من كثير من القيود وأسرفوا في اللهو كما يصوره آخرون ؟ وهل كانت حالة الشعب رخيّة سعيدة ، أو بالأسّة شقية ؟ وما أثر ذلك كله في العلم والفن والأدب ؟ ذلك ما نحاول الاجابة عنه في هذا الفصل .

إذا نحن نظرنا نظرة عامة لنقارن بين الحياة الأموية ، والحياة العباسية وجدنا الأولى أقلّ تكلفاً ، وأكثر سداجة ، وأدلّ على الذوق العربي البدوي البسيط . وأكبر ظاهرة نراها أن سيطرة العنصر العربي في العهد الأموي صبغته بهذه الصبغة ، وجعلته إذا أراد الترف والنعيم تخيّر من ترف الأمم الأخرى ونعيمها ، ولم يأخذه كما هو بحذايره ، ثم هو يعدّل فيه حسب ذوقه وميوله ويجعله شيئاً آخر عربياً لا فارسياً صرفاً ، ولا رومياً صرفاً ، وأما الموائد الفارسية ، وأدخل الخلفاء والأمراء على موائدهم نوعاً من التحسين . ولكن لم يكن العربي البدوي إذا دخل على معاوية أو عبد الملك يشعر بأنه في جوّ آخر بعيد كل البعد عما يعرفه .

روى ابن خلدون : « أن الحجاج أوّلّم في اختتان بعض ولده ، فاستحضر بعض الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس ، وقال : أخبرني بأعظم صنيع

شهدته . فقال له : نعم أيها الأمير ، شهدتُ بعضَ مرَازبهِ كسرى ، وقد صنع  
لأهل فارس صنيعاً ، أحضر فيه صحاف الذهب على أخوثة الفضة - أربعاً  
على كل واحد - وتحمله أربع وصائف ، ويجلس عليه أربعة من الناس ،  
فاذاطعموا أتبعوا أربعتهم المائدة بصحائفها ، ووصائفها . فقال الحجاج : يا غلام  
انحر الجزر وأطعم الناس ! ، كأنه كره ذلك واستعظمه ، ونبا عن ذوقه  
العربي ، وعده نخبخة كاذبة ، وأبهة لا يستسيغها ، فنفر من ذلك إلى عادات قومه !  
وكذلك شأنهم في الدواوين ، وضروب الحضارة الأخرى . وعلى الجملة ،  
فالذوق العربي واضح كل الوضوح في العهد الأموي ، والعلاقة بين دمشق  
ومكة والمدينة - وأعني من الناحية الاجتماعية لا السياسية - علاقة متينة .  
يتفاهمون كل الفهم ، ويتذاقون كل الذوق . والاسلام مفهوم لديهم في  
بساطته وتقاليده على نحوٍ أحسن مما فهم به في العصر العباسي .

أما العباسيون فلم يكن شأنهم كذلك ، لئن كان الأمويون ينقلون إليهم  
بعض العادات مع صبغها بصبغتهم ، فالعباسيون كانوا هم الذين ينتقلون بحذايرهم  
إلى العادات الجديدة ، والتقاليد الجديدة ، خذ لذلك مثلاً « النيروز » كان  
عيداً للفرس قديماً ، ولم نسمع في العهد الأموي أن كان له شأن ذو بال ، ولكن  
العباسيين اتخذوه عيداً قومياً يخفلون به حفلاتهم بعيد الفطر ، ويتبارون فيه  
بالهدايا والقصائد ، ويجاس فيه الخلفاء للتهنئة . وقل مثل ذلك في الأزياء  
فانتشرت القلنسوة والطويلة ، وضروب الأزياء الفارسية . اتخذ القضاة القلائس  
العضام ، واتخذ الخلفاء العمام على القلائس ، وتفننوا في العمامة ونوعوها تبعاً  
للطبقات كما كان يفعل الفرس ؛ فللخلفاء عممة ، وللفقهاء عممة ، وللبغالين عممة ،  
وللأعراب عممة . ولكل قوم زي ؛ فللقضاة زي ، ولأصحاب القضاة زي ،  
وللشروط زي . وأصحاب السلطان على مراتب ، ولكل مرتبة زي ؛ فمنهم من

يلبس المَبْطَنَةَ، ومنهم من يلبس الدَّرَاعَةَ، ومنهم من يلبس «البازيكند»  
- وكانت الشعراء تلبس الوشي والمقَطَّعات، والأردية السود - وقد كان شاعر  
في هذا العصر يتزيا بزى الماضين فهجاه بعض الشعراء<sup>١</sup>.

والخلفاء الأمويون اذا وهبوا فانما كانت أكثر جوائزهم الابل، أخذاً  
بمذاهب العرب وبدواتهم. أما في دولة بني العباس فجوائزهم كانت أحمال  
المال وتخوت الثياب، والخيل بمراكبها<sup>٢</sup>. وعلى الجملة فقد انتقل الناس في  
العهد العباسي الى عادات الأمم الأخرى وتقاليدهم، وأفراطوا في ذلك كل  
الافراط - على العكس من العهد الأموي - ومن ثم انقطعت الصلات  
الاجتماعية والمشاكلات بين المسلمين في العراق والمسلمين في جزيرة العرب  
أو كادت. ويحدثنا الأغانى حديثاً طريفاً عن ناهض بن ثومة، وهو شاعر  
بدوى جاف، من الشعراء في العهد العباسي، شهد حفلة عرس في حلب  
فدار عقله واختبل فكره مما رأى مما لا عهد له به في البادية، عجب وأفراط في  
العجب من الاحتفاء بالعروس، ومن ألوان الملابس، ومن ألوان الأطعمة  
والشراب، ومن آلات الغناء الفارسية، حتى أمعن الناس في الضحك من إمعانه  
في الغفلة!!<sup>٣</sup> ولقد كان يُحَنِّ حقاً لو شهد حفلة العرس هذه في بغداد.



أفراط قوم من الناس في هذا العصر في اللذائذ يتحرَّرونها، ويتفننون في  
الاستمتاع بها، وكلما ملّوا نوعاً ابتكروا نوعاً، واذا أخذوا يهدون نشط  
الدعاة يستحشونهم على الاغراق فيها، والأخذ بأكبر حظ منها. ونحن اذا  
تبعنا تاريخ الدولة العباسية في هذا الباب وجدنا أن الدولة كانت تسير

١ انظر الكلام على الزى وأنواعه في البيان والتبيين ٣ : ٦٥ وما بعدها .

٢ ابن خلدون ١ : ١٤٥ ٣ افراط الفصة بتامها في الاغانى ١٢ : ٣٦ .

خطوات متدرجة إلى هذه الغاية ، وأن كل خليفة كان يعلو - غالباً - درجة في سلم الترف والنعيم عن قبله . وأتألو خططنا رسمياً لآتجه صاعداً باستمرار في عصر كل خليفة تقريباً . والناس في كل عصر - وخاصة في هذه العصور - تبع لا مامهم .

بدأت الدولة العباسية ، وحوها أعداء كثيرون من أمويين وصنائعهم ، ولما اختير للخلافة السفاح ثم المنصور غضب كثيرون من البيت العباسي نفسه ، وغضب شيعة علي ، فكان لا بد لقيام الدولة من خلفاء جادين غير لاهين ، يصرفون كل وقتهم في تأسيس الدولة ، واصطناع الموالين ، وكبح جماح الثائرين ، وسفك دم الخارجين . حتى إذا انتهى هذا الدور ، ومهدت الأمور ، وقتل الخارجون ، واستكان أمثالهم ، هدأت الدولة . فكان أمام الخليفة الذي يأتي بعد ؛ وقتٌ من الفراغ والهدوء يجد فيه متسعاً لشيء من اللهو والترف والنعيم ، ولكن ليس يجد كل وقته ، فعليه تنظيم داخل المملكة بعد أن كان أكثرهم من قبله موجهاً إلى تنظيم الأمور الخارجية ، حتى إذا استتب الخارج والداخل جاء خلفاء ؛ وقد جرت الأمور في نصابها وسارت على الأسس التي شيد الأولون بنيانها ، ورأى هؤلاء الخلفاء المال الكثير يجي إليهم في سعة ، من جرّاء ما وضع الأولون من حماية للخارج ، وتنظيم للداخل ، فنعيموا وأسرفوا في النعيم ، وكان من وقتهم متسع لذلك كله !

كان يمثل هذه الأدوار تماماً الخلفاء العباسيون ، وتاريخهم شاهد على ما نقول : فأبو العباس السفاح - أولهم - كان يؤثر الجد والعلم ، على ضروب اللهو يقول : « إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلاً ! فقال له أبو بكر الهذلي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسمع سخفاً ، ويروي نقصاً ! » ولما تزوج أمّ سلمة حلف لها ألا يتزوج عليها ولا يتسرّى ،

وحاول بعض المقرئين اليه في خلافته أن يوسوس اليه ، ويشير ملاذّه وشهواته .  
بذكر الجوارى وأنواعهن فلم يفلح <sup>١</sup> . وكانت حياته حياة سفك للدماء <sup>٢</sup> .

وقضاء على المعارضين . <sup>٣</sup>   
 ووليه المنصور وهو رجل الدولة العباسية ومؤسس بنيانها ، والذي قضى  
على أعدائه وأعدائها من أهل بيته ، ومن غيرهم ، فلم يكن له في اللهو مجال .  
روى الطبرى : عن يحيى بن سليم قال : « لم ير في دار المنصور لهو قط . ولا  
شئ يشبه اللهو واللعب والعبث الا يوماً واحداً ، فاتا رأينا ابناً له يقال له عبد  
العزيز ( توفى وهو حدث ) قد خرج على الناس متكباً قوساً متعمهاً بجماعة ،  
متريداً برداء ، في هيئة غلام أعرابي ، راكباً على قعود ، بين جوالقين فيما  
مقل ونعال ، ومساويك وما يهديه الأعراب ، فعجب الناس من ذلك وأنكروه  
فعبه الغلام الجسر ، وأتى المهدي بالرشاقة فأهدى اليه ذلك ، فقبل المهدي  
ما في الجوالقين ، وملاهما دراهم ، وانصرف الغلام ، فعلم أنه ضرب من عبث  
الملوك ! » <sup>٤</sup> وترى من هذا أن الناس أنكروا العمل ، على بساطته ولطافته لأنهم  
لم يألفوا شيئاً من اللهو - وسمع المنصور جلبة في داره . فقال : ما هذا ؟ قالوا :  
خادم يجلس بين الجوارى ، وهو يضرب لهن بالطنبور ، وهن يضحكن . فقام  
حتى أشرف عليهم فرآهم فلما بصروا به تفرقوا ، فأمر فضرب رأس الخادم  
بالطنبور حتى تكسر الطنبور ، ثم أمر بالخادم فيبيع ! <sup>٥</sup> . وكان حازماً لا لهو  
له ، يشعر بالتبعة ، ويضطلع بها . ولما سمع شعر طريف بن تميم العنبري :

إن قتاني لتبع لا يؤيسها غمز الثقاف ولا دهن ولا نار  
مضى أجز خائفاً تآمن مسارحه وإن أخف آمناً تقلق به الدار

١ انظر المسعودى ٢ : ١٧٠ وما بعدها ٢ مسعودى ٢ : ٤٠٠  
٣ طبرى ٩ : ٢٩٤٦ ٤ طبرى ٩ : ٢٩٤٥ ٥ طبرى ٩ : ٢٩٤٤

بن الأمور إذا أوردتها صدرت إن الأمور لها ورد وإصدار  
قال: أنا أحق ببيتيه منه، وأنا الذي وصف لاهو وكانت لا تزال به بقية  
من بدواة، ومييل إلى البساطة — بلغه أن عبد الله بن مصعب بن الزبير قد  
اصطبغ مع جارية تغنيه بشعر له فيه غزل، وفيه استهتار. فقال المنصور:  
لكن الذي يعجبني أن يحدو بي الحادي الليلة بشعر طريف العنبري فهو آلف  
وأحرى أن يختاره أهل العقل، فدعا حاديا يحدو له، وألقى عليه شعراً في  
الفخر بمكارم الأخلاق فحده به فقال المنصور: هذا والله أحث على المروءة،  
وأشبه بأهل الأدب، ثم دعا الربيع وقال أعطه درهما! فقال: يا أمير المؤمنين  
حدوتُ بهشام بن عبد الملك فأمر لي بعشرين ألف درهم؛ وتأمر لي أنت بدرهم!  
فقال: إنا لله، ذكرت مالم نحب أن تذكره، وصفت رجلاً ظالماً أخذ مال الله  
من غير حله، وأنفقه في غير حقه، يا ربيع اشد يدريك به حتى يرد المال،  
فما زال الحادي يبكي ويتشفع حتى كف عنه<sup>١</sup>.

وهو كذلك لا يجب الشراب، ولا يُشربُ على ما بُدته شراب، ولما  
قدم بختيشوع الطيب عليه أمر المنصور بطعام يتغدى به فلما وضعت المائدة  
بين يديه طلب شراباً فقبل له: لا يُشربُ على مائدة أمير المؤمنين فقال: لا  
آكل طعاماً ليس معه شراب، فأخبر المنصور بذلك فقال: دعوه<sup>٢</sup>.

ثم هو لا يسرف في عطاء الحاد ولا لشاعر ولا لمادح، ويؤنّب أولاده  
إذا أسرفوا في العطاء، ولا يتغالى في ثوب يلبسه، ولا مائدة تمد إليه، إنما هو  
مقتصد في كل ضروب الحياة، مقتصد حتى فيما أحل الله، وربما غلا في  
الاقتصاد غلوً من بعده في الاسراف — لقد زعموا: أن أمة المغربية لما حملت  
به رأت أنها وضعت أسداً سجدت له الأسد! والحق؛ أنه لولا أن له همة أسد  
يعاف الصغائر، ولا يشغله لهُو عن تدبير، ما استطاع أن يؤسس هذه المملكة



ويخلفها لمن أتى بعده مضبوطة محكمة ، لا تحتاج منه إلا أن يحفظ ما ورث .  
أسلم المنصور البلاد ، وهي وحدة لم يشذ عنها إلا الأندلس ، وهي هادئة  
مطمئنة لا تؤذن بفتن ذات بال ، والخزائن مملوءة بالمال ، والعرب من  
سكان المملكة آخذون في الانكماش ، قد ضعف سلطانهم ونفوذهم ، والموالى  
يطاردونهم ليحصرهم في جزيرة العرب بدواً كما كانوا في الجاهلية ، ويحلون  
محل العادات العربية عادات فارسية ، ومحل البساطة في العيش العربي التعقد  
في العيش الحضري . وعلى الجملة فقد طرأ دور آخر يجد فيه الخليفة والناس  
على أثره وقتاً للفراغ والجدة ، ومصدراً خصباً للترف والنعيم .

أخذ الناس يشعرون بعدم موت المنصور بشيء من الراحة ، وقد أجهدوا  
أنفسهم في عهده بما يتطلبه تأسيس دولة من مشقة ، وتذليل صعوبات جمّة ،  
وملأوا الإفراط في الجد والاقتصاد اللذين اتصف بهما المنصور ، وتطلعوا  
لحياة فيها سعة في المال ، وطرف من النعيم ، فوجدوا ذلك في الخليفة  
« المهدي » وفي الحق ؛ أن السنوات العشر التي حكمها كانت جسراً بين حياة  
الجد والجفاف والعمل في عصر المنصور ؛ وحياة الترف والنعيم في عصر  
الرشيد ، ومن بعده .

كان المهدي سخياً كريماً فتنفّس الناس من شح المنصور . لقد خلف  
المنصور أربعة عشر مليون ديناراً وستمائة مليون درهماً<sup>١</sup> . ففرقها المهدي في  
الناس ، سوى ما جُبي في أيامه وكثرة المال - في كل جيل وفي كل عصر -  
داعية الترف والنعيم ، واللهو واللعب ، ومن ثم أخذ الناس يقدرّون فضيلة  
الكرم تقديراً أعلى مما كانوا يقدرّونه في عصر المنصور ، وأخذوا يذمون  
البخل ذمّاً شنيعاً ، ويقصّون على البخلاء قصصاً فكهة لاذعة ، ربما كان من  
آثارها وضع الجاحظ لكتاب « البخلاء » .

اجتمع في المهدي حب للفنون الجميلة، وميل شديد إلى الكرم فخرى  
الناس على أثره، وأنفقوا الأموال على الفنانين فرقى الفن، وبدأ ينتشر بين  
طبقات الشعب، أخذ المهدي يجلس للمغنين، ويسمع غناءهم بعد أن كان  
أبوه المنصور يستلذ الحداء. فيحدثنا «الأغاني» «أن المهدي كان يسمع  
المغنين جميعاً، ويحضرون مجلسه فيغنونه من وراء الستارة لا يرون له وجهاً  
«الافليح بن أبي العوراء» فقد سأله في بيتين أن يناديه فأحضره مجلسه بين  
أهله ومواليه، فكان فليح أول من عاين وجهه في مجلسهم» ويقول صاحب  
كتاب أخلاق الملوك «كان المهدي في أول أمره يحتجب عن الندماء  
متشبهاً بالمنصور نحواً من سنة، ثم ظهر لهم فأشار عليه «أبو عون» بأن يحتجب  
عنهم فقال «المهدي»: إليك عني يا جاهل إنما اللذة في مشاهدة السرور،  
وفي الدنوم من سررتي، فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها؟<sup>٢</sup> وأتاب على  
ذلك الأموال الكثيرة، على عكس أبيه «فقد كان المنصور لا يثيب أحداً  
من ندمائه وغيرهم درهماً، فيكون له رسماً في ديوان، ولم يُقَطَّعَ أحداً ممن  
كان يضاف إلى مُلْهيته أو ضحك أو هزل، موضع قدم من الأرض - أما المهدي  
فكان كثير العطايا، يواترها، قل من حضره إلا أغناه»<sup>٣</sup> وحسبك بالمهدي  
أنه تخرج في قصره ولداه زينة الدنيا، وبهجة عصرهما في الظرف والغناء:  
ابراهيم بن المهدي وعُمَيْة بنت المهدي. «لكنه من ماله منته قبحاً من ماله  
وكان كذلك يحب القيان، ويحب الحديث عن النساء في غير دعارة،  
ذكر الجاحظ: «أن المهدي كان يحب القيان وسماع الغناء وكان معجباً بجارية،  
يقال لها «جواهر» كان اشتراها من مروان الشامي وله فيها شعر»<sup>٤</sup>  
وقد اتفق صاحب الأغاني والطبري على أنه لم يكن يشرب النبيذ، ولكنه

١ أغاني ٤ : ٩٩      ٢ أخلاق الملوك ص ٣٤      ٣ المصدر نفسه ٣٤ ، ٣٥

٤ البيان والتبيين ٣ : ٢٠٨

في هذا أيضا خطأ خطوة أخرى وراء أبي جعفر، فقد رأينا المنصور لا يشربه ولا يسمح لأحد أن يشربه على مائدته، أما المهدي فيذكر الطبري: أنه ما كان يشربه ولكن لا تخرج جابل كان لا يشتهي، وكان أصحابه يشربون عنده بحيث يراهم، وكان وزيره يعقوب بن داود يعظه في ذلك، ويلج عليه في حسمه عن السماع، واسقائه النبيذ، ويهدده بالتخلي عن منصبه، والمهدي يحتج بأن عبدالله ابن جعفر كان يسمع<sup>١</sup>.

كذلك كان المهدي مترفاً في ملبسه وما كله، يُحمل اليه الثلج الى مكة وهو يحج! وكان أول خليفة فعل ذلك.

والحق أن المهدي - على ما يظهر - كان معتدلاً في لهوه وترفه، ولكن ما كاد يرُخى للناس العنان في هذا السبيل حتى استطابوه، وأفرط فيه المستهترون، ولم يقفوا عند حد لم يجرؤوا في عهد المنصور أن يستهتروا لأنه ضرب لهم مثلاً من نفسه بالجد والحزم، فلما رأوا المهدي يخطو خطوة جروا هم وقفزوا، وبلى الناس في عهده بشار يث فيهم غزله المكشوف، ويفتنهم بشعره الداعر، ويملاً البلاد بالحث على المغازلة، حتى ضج الأشراف الى المهدي من شعره مثل يزيد بن منصور خال المهدي، وطلبوا إليه أن يقف هذا التيار لماً خافوا على نساءهم وبناتهم، فتدخل المهدي حينئذ، ونهى بشاراً عن الغزل فيقول:

قد عشت بين الريحان والراح والـمـزهر في ظل مجلس حسن  
وقد ملأت البلاد ما بين فغفور الى القيروان فالين  
شعراً تصلى له العواتق والشيب صلاة العواة للون

ثم نهاني المهدي فانصرفتُ  
فالحمد لله لا شريك له  
نفسى صنيع الموقِّقين  
ليس يباق شيء على الزمن  
ومع هذا ظلَّ في خبث يتغزل من طريق خفيّ، ويحتمي بنهى المهدي  
فيقول: يا مَنْظراً حسناً رأيتهُ  
من وجه جارية فدَيْتُهُ  
بعثتُ الىّ تسومني  
ثوب الشباب وقد طويتهُ  
والله ربّ محمدٍ  
مَا إن غدرتُ ولا نويتهُ  
أمسكتُ عنه وربّما  
عرَضَ البلاء وما ابتغيتهُ  
إنّ الخليفة قد أبى  
وإذا أنى شيئاً أبيتُهُ  
ونهاني الملكُ الهما  
مُ عن النساء فما عصيتهُ  
بل قد وقّيتُ، ولم أضع  
عهداً، ولا وأياً وأيتهُ  
وأنا المطلّ على العدى  
وإذا غلا الحمدُ اشتريتهُ  
وأميلُ في أنس النديم من الحياء وما اشتريتهُ  
ويشوقني بيتُ الحبيب إذا غدوتُ وأين يبتُهُ  
حال الخليفةُ دونه  
فصبرتُ عنه وما قلّيتهُ  
ويقول:

دَقَنْتُ الهوى حياً فلستُ بزائر  
سليمي ولا صفراء ماقرّ قرّ القُمرى  
تركتُ لمهديّ الأناجِم وضالها  
وراعيتُ عهداً بيننا ليس بالخبترِ ٢  
ولولا أميرُ المؤمنين محمدٌ  
لقبّلتُ فاهاً أو لكان بها فطرى  
لعمري لقد أوقرتُ نفسى خطيئةً  
فما أنا بالمزُداد وقرأ على وقرّ  
ثم يبلغ المهديّ حسنُ صوتِ ابراهيم الموصلي فيقرّ به إليه، ويكون هو

أول من يعلى شأنه ، ثم يعلم أن الموصلى يشرب ويستهتر فيريده على ملازمته ، وترك الاستهتار ، فلا يستطيع الموصلى ذلك فيضربه ويحبسه — يقول ابراهيم الموصلى : إن المهدي دعاني يوما فعاتبني على شربي في منازل الناس ، والتبذل معهم فقلت يا أمير المؤمنين انما تعلت هذه الصناعة للذتي وعشرتي لاخواني ، ولو أمكنتي تركها لتركتها وجميع ما أنا فيه لله عز وجل . فغضب المهدي غضبا شديدا ، وقال : لا تدخل على موسى وهرون ألبتة فوالله لئن دخلت عليهما لأفعلن ولأصنعن ! فقلت : نعم . ثم بلغه أني دخلت عليهما ، وشربت معهما وكانا مستهترين بالنيذ فضربني ثلاثاثة سوط ثم قيدني وحسني !<sup>١</sup> .

في الحقيقة إن المهدي فتح للناس باب اللهو ، ورسم لهم حداً يقفون عنده فتخطوه ، وحاول أن يقفهم عند الحد الذي رسمه بايقاع العقوبة على من تجاوزه فلم ينجح .



انتقل الناس نُقْلة أخرى من حيث السرف في الترف في عهد الرشيد ، ويرجع ذلك الى أسباب : منها ما كان من النشوء الطبيعي للامة فكان من انضباط أمورها ما زاد ثروتها ، ومكنتها من أن تعيش عيشة ناعمة فقد حكى ابن خلدون : أن دخل المملكة في عهد الرشيد كان في كل سنة ٧٠١٥ قنطارا<sup>٢</sup> والقنطار في حسابه عشرة آلاف دينار ، فيكون مجموع ذلك سبعين مليوناً ومائة وخمسين ألف دينار . وهي ميزانية ضخمة ، تدلنا مهما بولغ فيها على غنى الدولة ، وتمكنتها من حياة النعيم .

والسبب الثاني : عظم سلطان الفرس في عصره وعلى رأسهم البرامكة ، والفرس من قديم يعرفون بالميل الى اللهو والسرور ، والافراط في حب

النبيذ، وقد كانت الديانة الزرادشتية تبيح شرب النبيذ بل تجعله من شعائرها، ولا يزال النبيذ كما يقول الأستاذ « براون » الى اليوم ظاهرة قوية في الحياة اليومية للفرس الزرادشتية - كان الفرس قديماً يفرطون في شرب النبيذ، وكانوا يفرطون في سماع الغناء، وكانوا يفرطون في فنون كثيرة من اللهو الطيب، واللهو الخبيث. فلما عاد سلطانهم في الدولة العباسية، وخاصة في عهد الرشيد والمأمون نشروا مع نفوذهم حياة الأكاسرة، وما كان فيها من حضارة وهو وعبث - نقلوا جدهم من نظم سياسية ونحوها، ونقلوا لهوهم من نبيذ ومجالس غناء وغزل، وما إلى ذلك. وما إلى ذلك.

وسبب ثالث: يرجع الى طبيعة « الرشيد » نفسه وتربيته، فيظهر لي أنه كان شاباً حاد العاطفة؛ ولكن ليس من هذا النوع الذي يستسلم كل الاستسلام لشهواته، بل هو مع ذلك قوى النفس، جندى بالغريزة والتربية، طالما قاد الجيوش وشرق وغرب - هذه الحدة في العاطفة، وقوة النفس ونضارة الشباب أظهرته بمظاهر مختلفة، يؤعظ فيثأثر بالموعظة الى أن يجش بالبكاء، ويسمع الغناء فيطرب له كل الطرب، يسمع ابراهيم الموصلي يغنى، ويرصوماً يزمُر، وزلزلاً يضرب بالدف، فيدعوه الطرب أن يتكلم بكلمة فيها شيء من عدم التورع الديني، يقول: يا آدم لو رأيت من يحضرنى من ولدك اليوم لمرآك، ثم يندم على قوله فيستغفر الله - تمت عنده العاطفة الدينية، وامت بجانبها أيضاً عاطفة الفنون؛ فهو يصلى، ويكثر من الصلاة، وهو يسمع الغناء فيستجيده، والشعر فيطرب له، تتجه عواطفه الى جهات مختلفة فيصل فيها الى نهايتها، يسمع قول أبي العتاهية:

خانك الطرفُ الطموحُ  
أياها القلبُ الجموحُ  
لدواعي الخير والشَّرِّ  
دنوُّ و نزوحُ

هل المطلوب بذنب توبة منه نصح ؟  
كيف اصلاح قلوب انما هن قروح !  
احسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح  
سيصير المرء يوما جسدا ما فيه روح  
بين عيني كل حى علم الموت يلوح  
كلنا فى غفلة وال موت يغدو ويروح  
لبنى الدنيا من الدن يا عبقوق وصبوح  
رحن فى الوشى واصد بحن عليهن المسوح  
كل نطاح - من الدهر - له يوم نطوح  
نح على نفسك يامسك كين ان كنت تنوح  
لتموتن وان عمه رت ما عمه نوح !

فيكى وينتجب<sup>١</sup>. ويرضى عن البرامكة؛ فيعجب بهم كل الاعجاب،  
ويقر بهم كل القرب، ثم يغضب عليهم ويستفز الحساد عواطفه عليهم، فينكل  
بهم كل التنكيل، ويعجبه الغناء فيقرّب ابراهيم الموصلى تربيته للعلماء والقضاة،  
ولا يسأل عن مال ينفقه متى استطاع المغنى أو الشاعر أن يصل الى موضع  
يثير منه اعجاب، تعجبى جملة لصاحب الأغانى يصف بها الرشيد، تمثّل خير  
تمثيل قوة عاطفته إذ يقول: « كان الرشيد من أغزر الناس دموعا فى وقت  
الموعظة، وأشدهم عسفا فى وقت الغضب والغلظة »<sup>٢</sup> من أجل ذلك لا عجب  
أن تراه متدينا شديد التدين، يصلى فى اليوم مائة ركعة، وأن تراه حيناً  
غضوباً يسفك الدم لشيء لا يستحق سفك دم، وطروباً يملك الطرب عليه  
نفسه ومشاعره، وهذه صفات من السهل أن تتصور اجتماعها فى شخص واحد.

تقرأ كتاب الأغاني فتخرج منه في كثير من الأحيان على صورة للرشيد  
يخيل اليك معها أنه عاكف على اللهو والطرب، لا عمل له إلا أن يسمع  
الغناء، ويخالط الندماء، ويثيب الشعراء، وله العذر في ذلك، لأنه لم يؤلف كتابه  
تاريخاً يصف فيه أعمال الخلفاء المختلفة، ويقومهم بما أتوا من حسنات وسيئات؛  
انما ألف كتابه في الغناء، فمن الطبيعي أن يقصر قوله على هذا الضرب وما إليه؛  
كما تقصر كتب طبقات النحاة واللغويين كلامها على العلماء من الناحية النحوية  
واللغوية، وإذا كان هناك خطأ فمن ناحية من يفهم أن الغناء وحده يمثل حياة  
الرجل المختلفة النزعات.

وتقرأ ابن خلدون فيقصر تصويره على الناحية الجدّية والدينية، ويذهب  
الى أن الرشيد لم يكن يعاقر الخمر لأنه كان يصحب العلماء والأولياء، ويحافظ  
على الصلوات والعبادات، ويصلي الصبح في وقته، ويغزو عاماً ويحج عاماً،  
ويستدل أيضاً بأنه كان من العلم والسداجة بمكان، لقرب عهده من سلفه، ولم  
يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيداً زمن « وانما كان الرشيد يشرب نبيذ  
التمر على مذهب أهل العراق. وقتاويهم فيها معروفة، وأما الخمر الصّرف فلا  
سبيل الى اتهامه بها، ولا تقليد الأخبار الواهية فيها، فلم يكن الرجل بحيث  
يواقع محرّماً من أكبر الكبار عند أهل الملة، ولقد كان أولئك القوم كلهم  
بمنجاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم، وسائر متناولاتهم  
لما كانوا عليه من خشونة البداوة، وسداجة الدين التي لم يفارقوها! »<sup>١</sup>

ونحن مع اتفاقنا في الرأي مع ابن خلدون في أن الرشيد لم يشرب الخمر؛  
انما المعروف عنه أنه شرب النبيذ، فلسنا نتفق معه على ما يستخلص من قوله  
من أنه كان بمنجاة من السرف والترف، وأنه كان يعيش عيشة ساذجة، وأنه  
لم يواقع محرّماً، فهذا أيضاً افراط في التقديس لا تدل عليه سيرة الرشيد،



خصوصاً وأن أدلته في هذا النوع أدلة خطائية؛ فقرب عهده من المنصور لا يستوجب أن يعيش عيشته، وقد صرح هو مراراً بأن الترف والنعيم في عصر الرشيد كان أكثر منه في عصر المنصور، ولو كان قرب العهد يكفي في الاستدلال؛ لما رأينا الأمين - وهو قريب العهد من الرشيد - يسير سيرته. والعجب أنه عقد فصلاً طويلة يتعرض فيها لوصف الحضارة والنعيم والترف في أيام الرشيد والمأمون وتقنهم في المطعم والمشرب والملبس، وهو هو الذي وافق «المسعودي» و«الطبري» على ما حكياه في إعراس المأمون ببوران بنت الحسن، وأن المأمون أعطاها في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة من الياقوت، وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة من<sup>١</sup> وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب، مكللاً بالدرّ والياقوت الخ الخ<sup>٢</sup>

هل هذا ليس سرفاً في الترف؟ وهل قرب عهد المأمون من الرشيد كقرب عهد الرشيد من المنصور جعلت الناس يعيشون عيشة السذاجة كما يقول؟ الحق أن ابن خلدون مخطيء في وصفه عصر الرشيد بالسذاجة، وأنه وقومه كانوا بمنجاة من السرف والترف، والحق أيضاً أن ابن خلدون صور جانباً صحيحاً من جوانب الرشيد في صلته وتقواه، ولكن لم يكن هذا كل جوانبه، فله جانب هو الذي وصفه الأغانى، وان عذرنا الأغانى لما بيننا فلسنا نعذر ابن خلدون، وهو مؤرخ عليه أن يذكر نواحي الرجل المختلفة!

وكأن ابن خلدون فهم أن الذي يصلى مائة ركعة، ويجالس الفضيل بن عياض لا يتأتى منه أن يجلس مجالس لهو يسمع فيها الغناء، ويظهر فيها مظاهر الترف على أتم وجوهها. إن كان فهم ذلك كان خطأ، والطبيعة الانسانية لا تأباه. وفي رأينا أن الرشيد كان يجد فيممعن في الجد، ثم يلهو فيممعن في اللهو خضوعاً لحدة العاطفة مع الميول المختلفة.

قال أبو البَخْتَرِي وهب بن وهب القاضي : كنت عند الرشيد يوماً واستدعى ماء مبرداً ، بالثلج فلم يُوجد في الخزانة ثلج ، فاعتذر إليه بذلك ، وأحضر إليه ماءً غير مشلوج فضرب وجه الغلام بالكوز ، واستشاط غضباً . فقلت له : أقول يا أمير المؤمنين وأنا آمن ؟ فقال : قل ، قلت : يا أمير المؤمنين قد رأيتَ ما كان من الغَيْرِ بالأمس - يعني زوال دولة بني أمية - والدنيا غير دائمة ولا موثوق بها ، والحزم ألاّ تعود نفسك الترفه والنعمة ، بل تأكل اللينَ والجشَبَ ، وتلبس الناعم والحشن . وتشرب الحارَّ والقارَّ . فنفحني يده وقال : لا والله لا أذهب الى ما تذهب إليه بل ألبس النعمة ما لبستي فاذا نابتنى نوبةُ الدهر عدت الى نصابي غير خوار<sup>١</sup>

\*\*\*

جاء الأمين فزاد في اللهو نعمة بل نغمت—ومهما قال محققو المؤرخين من أن كثيراً من الأخبار وضعت في عهد المأمون لتشويه سمعة الأمين ، والخط من شأنه ، وتبرير ما فعل به . فان ميله الى الافراط في اللهو والشراب والغلمان مما لا يسهل انكاره .

روى الطبري قال : لما ملك محمد (الأمين) ... طلب الخصيان ، وابتاعهم وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ... ورفض النساء الحرائر والاماء ، حتى رمى بهم<sup>٢</sup> ففي ذلك يقول بعضهم :

لهم من عمره شَطْرٌ ، وشَطْرٌ يُعَاقِرُ فِيهِ شَرِبَ الحَنْدَرِيسِ  
وما للغانيات لديه حَظٌّ سَوَى التَّقْطِيبِ بِالوجهِ العَبُوسِ !  
اذا كان الرئيسُ كذا سقيماً فكيف صلاحاً بعد الرئيس ؟  
فلو علمَ المُقِيمُ بدارِ طُوسٍ لعزَّ على المقيمِ بدارِ طوسِ<sup>٣</sup>

١ شرح النهج لابن ابى الحديد ١ : ١٢٢ وفي الأصل عدت الى نصاب غير حوار

٢ في الأصل بهن ٣ الطبري ١٠ : ٢١٥ ويعني بالمقيم بطوس أباه الرشيد

وروى أيضا: أنه لما ملئ وجهه الى جميع البلدان في طلب الملهين، وضمهم اليه، واجرى لهم الأرزاق، ونافس في ابتياع فرسه الدواب، وأخذ الوحوش والسباع والطيور، وغير ذلك. واحتجب عن اخوته وأهل بيته وقواده، واستخف بهم، وقسم ما في بيوت الأموال، وما بحضرة من الجوهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه... وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته، ومواقع خلوته وهواه ولعبه.... وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس، وأنفق في عملها مالا عظيما وفيها قال أبو نواس مدائحه<sup>١</sup> — ويصفه وزيره الفضل بن الربيع فيقول: « ينام نوم الظربان<sup>٢</sup>، لا يفكر في زوال نعمته، ولا يروى في امضاء رأى ولا مكيدة قد ألهاه كأسه، وشغله قدح، فهو يجرى في هواه، والأيام تضرع في هلاكه، قد شمر عبد الله (المأمون) له عن ساقه، وفوق له أصيب أسهمه، يرميه على بعد الدار بالحتف النافذ، والموت القاصد، قد عني له المنايا على متون الخيل، وناط له البلاء في أسنة الرماح، وشفار السيوف»<sup>٣</sup>

جاء المأمون بعد الأمين ولكن لم تكن شهوات المأمون وملاهيته كشهوات الأمين وملاهيته. لهو الأمين لهو شاب غر رأى سلطانا ومالا، وليس له عقل ناضج فانفق كل وقته في ارواء شهوته. وأما المأمون فرجل حنكته التجارب، وعلمه - ما قاسى من الأهوال في الحروب وما تحتاجه المملكة من خلق جديد - الحزم والبصر بالأمور، ثم كان له ملاذ عقلية تشغل وقته، فهو يحب الكتب ويحب الفلسفة، ويحب الجدال في المسائل الدينية والفقهية، وحوله العلماء من كل نوع يباحثهم ويجادلهم، وهو مع ذلك يلهو لهوا خفيفا فيشرب النبيذ<sup>٤</sup> ويقيم بعد قدومه بغداد عشرين شهرا لا يسمع

١ طبرى ١٠: ٢١٥ ٢ الظربان: دويبة كالهرة مننتة ٣ طبرى ١٠: ١٥٧

٤ طبرى ١٠: ٢٥٦ وطيفور ١: ٢٢٠

ثم يسمع<sup>١</sup> وكان يزين مجلسه ويغنيه اسحق الموصلي ، كما كان أبوه ابراهيم الموصلي يزين مجلس أبيه الرشيد ، قرّبه المأمون وأعلى شأنه ، وكذلك قرّب اليه عمّه ابراهيم بن المهدي وكان مُبدعا في غنائه .

وكان الناس قد تجرعوا غصص البؤس أيام الفتن بين الأُميين والمأمون ، وخربت بغداد ، وعم البؤس والشقاء فما عادت السكينة حتى شعروا أنهم في حاجة أن يعوّضوا ما فقدوا ، فلهوا وأفرطوا .

هذه ناحية من نواحي القصور شرحناها لما كان لها من أثر كبير في الفن والأدب . ولها نواحي أخرى مختلفة . فناحية سياسية ليست تهمننا في موضوعنا ، وناحية علمية من تشجيع للعلم ، وانفاق للبال في سبيله ، وعقد مجالس للجدل والمناظرات ، وبذل الجهد في تحصيل الكتب ، وانشاء دورها والعمل على ترجمتها ، وكان من أعظم الخلفاء أثرا في ذلك المنصور والرشيد والمأمون ، وهذه الناحية سنوضحها عند الكلام في الحركة العلمية .

\*\*\*

واذ كثر القول في الشراب ، وروينا ما قال ابن خلدون من أن بعض الخلفاء كانوا يشربون النبيذ لا الخمر ، وشاع أن فقهاء العراق يرون حلّ النبيذ ، وكان لهذا القول أثر في الأدب ؛ كان لا بدّ لنا من كلمة في الشراب .

كثر الشراب عند العرب ، وتعددت أنواعه ، وقد كانوا يأخذون عمن جاورهم من الأمم الأخرى أنواعا من الشراب ، وألوانا من عاداته فقد أخذ أهل الشام عن الروم نوعا من الخمر ممزوجا بالعسل ، ونقلوا اسمه الرومي وهو «الرساطون Rosatum» ولم يكن يعرفه عرب الحجاز<sup>٢</sup> كما أخذ بعض الأمويين عن الفرس شرابا اسمه «الهفنجة» كانوا يشربونه سبعة أسابيع في

بعض منازل القمر فشربه الوليد بن يزيد كذلك<sup>١</sup>.  
وهكذا كان للأمم أثرية وعادات في الشراب أخذت تتسرب إلى المسلمين،  
فلما جاء العباسيون تفننوا في أنواعه، وفي مجالسه والمنادمة عليه.  
وقف الاسلام يحارب الخمر، ويحرم السكر، ونزلت الآية « إِنَّمَا الْخَمْرُ  
وَالْمَيْسَرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ  
لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ  
فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ  
مُنْتَهُونَ »

ومع هذا فنرى أن أسئلة أثبتت حول هذه الآية الكريمة: ما المراد بالخمر  
أهي عصير العنب وحده، أم كل مسكر خمر؟ وما هو القدر المحرم؟ أكل نوع بما  
يسكر كثيره فقليله حرام، أم بعض الأنواع يحل قليله؟ وظهرت في عالم الفقه  
مسألة النبيذ هل يحل أو لا يحل، وما القدر الذي يحل؟ وظهر هذا الخلاف من  
عهد الصحابة فمن بعدهم، ورأينا عمر بن عبدالعزيز في العهد الأموي يشعر بخاطر  
هذا الخلاف في النبيذ وضرره، فيصدر كتابا إلى الأمصار يحرم فيه النبيذ<sup>٢</sup> إلى  
أن كان عصر الأئمة فكان بينهم الخلاف السابق، فذهب الأئمة الثلاثة مالك  
والشافعي وأحمد بن حنبل إلى سد الباب بتاتا، ففسروا الخمر في الآية السابقة بما  
يشمل جميع الأنبذة المسكرة من نبيذ التمر والزبيب والشعير والذرة والعسل  
وغيرها وقالوا: كلها تسمى خمرأ، وكلها محرمة. أما الامام أبو حنيفة ففسر  
الخمر في الآية بعصير العنب مستندا إلى المعنى اللغوي لكلمة الخمر وأحاديث  
أخرى، وأداه اجتهاده إلى تحليل بعض أنواع من الأنبذة كنيبيذ التمر والزبيب  
إن طبخ أذنى طبخ وشرب منه قدر لا يسكر، وكنوع يسمى «الخليطين» وهو  
أن يأخذ قدراً من تمر ومثله من زبيب فيضعهما في إناء ثم يصب عليهما الماء

٢ ورد كتاب عمر في العقد الفريد ٣ : ٤١١

١ أغاني ٦ : ١٣٠

ويتركهما زمنا. وكذلك نبيذ العسل والتين، والبرّ والعسل<sup>١</sup> ويظهر أن الامام  
أبا حنيفة في هذا كان يتبع الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود؛ فقد علمت من  
قبل<sup>٢</sup> ان ابن مسعود كان امام مدرسة العراق، وعلمت مقدار الارتباط بين  
فقه أبي حنيفة وابن مسعود، ودليلنا على ذلك: ما رواه صاحب العقد عن ابن  
مسعود من انه: كان يرى حل النبيذ. حتى كثرت الروايات عنه، وشهّرت  
وأذيعت واتبعه عامة التابعين من الكوفيين، وجعلوه أعظم حججهم وقال  
في ذلك شاعرهم:

مَنْ ذَا يُحَرِّمُ مَاءَ الْمُرْنِ خَالِطَهُ<sup>٣</sup> فِي جَوْفِ خَايَةِ مَاءِ الْعَنَايِدِ؟  
أَنِي لِأَكْرَهُ تَشْدِيدَ الرِّوَاةِ لَنَا فِيهِ، وَيُعْجِبُنِي قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ<sup>٤</sup>

على كل حال كان هناك جدال شديد بين الفقهاء في النبيذ كالذي كان بينهم في  
الغناء؛ فابن أبي ليلى يحرم النبيذ ويجادل فيه أبا حنيفة؛ وأبو حنيفة يرد عليه،  
وعبدُ الله بن ادريس كان الوحيد بين فقهاء الكوفة يحرم النبيذ فيرد عليهم  
ويردون عليه الخ؛ ولما كان كثير من فقهاء العراق يرون حل النبيذ اشتهر  
العراقيون بحل النبيذ فقال شاعرهم:

رَأَيْهِ فِي السَّمَاعِ رَأَى حِجَازِي<sup>٥</sup> وَفِي الشَّرَابِ رَأَى أَهْلَ الْعِرَاقِ \*

وانتقل هذا الجدل الى الأدباء والشعراء، وأخذوا يتلاعبون بهذه الآراء،  
فقال بعضهم «أباح أهل الحرمين الغناء وحرموا النبيذ، وأباح أهل العراق

١ رجعنا في هذه الاحكام الى شرح النووي على مسلم ٤: ٣٦٢ والزيلعي ٦: ٤٥٥ وما بعدها  
٢ فجر الاسلام ص ٢٢٠ ٣ العقد ٣: ١٥٠ ٤ انظر العقد وكتاب الاشربة لابن قتيبة  
وقد نشر في مجلة المقتبس ونقل صاحب العقد طرفا منه

\* ومع أن كثيرا من فقهاء العراق كانوا يرون حل النبيذ كانوا يتورعون من شره وفي ذلك  
يقول بعضهم « لان أقول في النبيذ مرارا كثيرة هو حلال خير من أن أقول فيه مرة واحدة  
هو حرام — ولأن آخر من السماء فتقطعني الرياح خير لي من أن أشرب منه قطرة » الغيث

النبيذ وحرمو الغناء فأوجدونا في الرخصة فيهما عند اختلافهما الى أن يقع الاتفاق<sup>١</sup> « وقال ابن الرومي :

أَبَاحَ الْعِرَاقِيُّ النَّبِيذَ وَشَرِبَهُ      وَقَالَ: حَرَامَانِ الْمُدَامَةُ، وَالشُّكْرُ  
وَقَالَ الْحِجَازِيُّ: الشَّرَابُ بِنِوَاحِدٍ      فَحَلَّ لَنَا مِنْ بَيْنِ قَوْلَيْهِمَا الْخَمْرُ  
سَاخِذٌ مِنْ قَوْلَيْهِمَا طَرَفَيْهِمَا      وَأَشْرَبُهَا لِأَفَارِقِ الْوَازِرِ الْوَزِيرُ<sup>٢</sup>

وعلى الجملة فإن كثيرا اتخذوا هذه الآراء تكأة يصلون بها الى أغراضهم، ولم تكن هي الباعث على شربهم؛ فانهم لم يقفوا عند النوع الذي حملوه، ولا القدر الذي أباحوه فليس من فقيهه أباح أي نوع من النبيذ الى حد الاسكار؛ ولكنها خلاعة الأدباء، وتظرف الشعراء.

أما أبو نواس وشيعته؛ فلم يركنوا الى هذا الضرب من الحيل بل جاهدوا بها مع الاقرار بتحريمها، وقال زعيمهم (أبو نواس):

فَانْ قَالُوا حَرَامٌ قَبْلَ حَرَامٍ      وَلَكِنَّ اللَّذَّاذَ فِي الْحَرَامِ !  
وَقَالَ: أَلَا فَاسَقُنِي خَمْرًا، وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ      وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا مَكَّنَ الْجَهْرُ !

\*\*\*

قلد الأغنياء والخاصة قصور الخلفاء، وعاشوا عيشة بدخ وتآف، بل زادوا في لهوهم، لما تقتضيه طبيعة مجالس الخلفاء من حشمة ووقار لا يلتزمها غيرهم من الأغنياء.

فقد كثر أولاد الخلفاء وأقاربهم، وأحصى ولد العباس من رجال ونساء وصغار وكبار، فكان عددهم أيام المأمون ثلاثة وثلاثين ألفا<sup>٣</sup> وكانوا ممتازين في رقتهم وجمالهم « كان يقال: انتهى جمال ولد الخلافة الى أولاد الرشيد ومن أولاد الرشيد الى محمد وأبي عيسى، وكان أبو عيسى اذا عزم على

الركوب جلس الناس له حتى يروه أكثر مما يجلسون للخلفاء. <sup>١</sup> وقد أولع كثير من أفراد هذا البيت بالغناء والفنون الجميلة؛ فعُلِيَّة بنت المهدي كانت «من أحسن الناس وأظرفهم، تقول الشعرَ الجيد، وتصوغ فيه الألحان الحسنة» <sup>٢</sup> وأخوها ابراهيم بن المهدي «كان من أعلم الناس بالنغم والوتر والايقاعات وأطبعهم في الغناء، وأحسنهم صوتاً» <sup>٣</sup> ثم أبو عيسى ابن هرون الرشيد المشهور - كما أسلفنا - بجماله «كان من أحسن الناس وجهاً ومجالسةً وعشرةً، وأجمنهم وأحدهم نادرةً وأشدهم عبثاً» <sup>٤</sup> وسبب موته: «أنه كان يحب صيد الخنازير فوقع عن دابته فلم يسلم دماغه» <sup>٥</sup>.

وتبعهم في ذلك أولادُ الخاصة؛ فقد كان حفيد الفضل بن الربيع - وزير الرشيد - وهو عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع مغنياً ماهراً، وماجناً مستهتراً <sup>٦</sup> يصطبج في حدائق النرجس، ويعيش عيشةً لهو وخلاعة. وأمثالهم كثيرون يطول ذكرهم وسرت العدو من أولاد الأغنياء الى الطبقة الوسطى فكانوا يتحدثون حدوهم، ويسرون على منهاجهم.

تفشنوا في فن العمارة، وأجادوا تشييد القصور، ووصفها ابن الجهم فقال:

صَحُونٌ تَسَافَرُ فِيهَا الْعَيُونُ      وَتَحْسِرُ عَنْ بَعْدِ أَقْطَارِهَا  
 وَقَبَّةٌ مُلْكٌ كَانَ النَّجْوُ      مَ تَصْنِي إِلَيْهَا بِأَسْرَارِهَا  
 وَقَوَارَةٌ ثَارُهَا فِي السَّمَاءِ      فَلَيْسَتْ تَقْصُرُ عَنْ ثَارِهَا  
 إِذَا أَوْقَدَتْ نَارُهَا بِالْعِرَاقِ      أَضَاءَ الْحِجَازِ سَنَا نَارِهَا  
 تَرُدُّ عَلَى الْمِزْنِ مَا أَنْزَلَتْ      عَلَى الْأَرْضِ مِنْ صَوْبِ أَقْطَارِهَا  
 لَهَا شُرُفَاتٌ كَانَ الرَّبِيعُ      كَسَاهَا الرِّيَاضَ بِأَنْوَارِهَا

ويصف أحدُهم شيئاً من قصر الواثق فيقول: «لم يزل الخدم يُسلبونني

١ أغاني ٩٦:٩      ٢ أغاني ١٣:٩      ٣ أغاني ٣٥:٩      ٤ أغاني ٩٦:٩  
 ٥ أغاني ٩٧:٩      ٦ انظر ترجمته في الاغاني ١٧:١٢٧



من خدم الى خدم ، حتى أفضيت الى دار مفروشة الصحن ، مُلبَّسة الحيطان  
بالوشى المنسوج بالذهب ، ثم أفضيتُ الى رواق أرضه وحيطانه مُلبَّسة بمثل  
ذلك ، واذا الواثق في صدره ، على سرير مرصع بالجواهر ، وعليه ثياب  
منسوجة بالذهب ، والى جانبه «فريدة» جاريته، عليها مثلُ ثيابه ، وفي حجرها  
عود . الخ <sup>١</sup>

وبالغوا في الموائد وتنسيقها وألوان طُعومها ، فوصف العُماني الشاعرُ  
ما أكل على مائدة محمد بن سليمان بن علي . فقال :

جاءوا بفرني لهم ملبونٍ      بات يسقى خالص السمون <sup>٢</sup>  
مُصومع أكوّم ذى غضونٍ      قد حشيت بالسكر المطحون  
ولوتوا ما شئت من تلوينٍ      من بارد الطعام والسخين  
ومن شر أسيف ومن طردين      ومن هلام ومصيص جون <sup>٣</sup>  
ومن أوز فائق سمينٍ      ومن دجاج فت بالعجين  
فالشحم في الظهور والبطن      وأتبعوا ذلك بالجوزين  
وبالخبيص الرطب والتوزين      وفكّوها بعنب وتين  
والرطب الأزاز والهيزون <sup>٤</sup>

ويقول أبو العتاهية : دُعيتُ الى بيت مخارق (أحد المغنين) بفتحته ، فأدخلني  
بيتاً نظيفاً فيه فرش نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خبز سميدٌ ، وخل وبقل وملح ،  
وجدى مشوى فأكلنا منه ، ثم دعا بسمك مشوى فأصبنا منه حتى اكتفينا ،  
ثم دعا بجلواء فأصبنا منها وغسلنا أيدينا وجاءونا بفاكهة وريحان ، وألوان

١ أغاني ٣ : ١٨٤ : ٢ القرنى : خبز جوانبه مضمومة الى وسطه يشوى ثم يروى سمنا  
ولبنا وسكرا ٣ الشراسيف أطراف الاضلاع المشرفة على البطن ، والطردين : نوع من  
أطعمة الأكراد . الهلام : طعام من لحم عجل يجلده أو مرق السكباج المبرد المصق . والمصوص لحم  
ينقع في الخل بعد نضجه والجون المائلة الى السواد ٤ الأزاز والهيزون : نوعان من التمر

من الأنبذة فقال : اختر ما يصلح لك منها ، فاخترت وشربت «<sup>١</sup> وكان ذلك قبل أن يتزهد .

وقل ما شئت في مجالس اللهو والشراب ، وما كان يجري فيها من خلاعة ومجون امتلاً بوصفها كتاب الأغاني ، ودواوين الشعراء مثل بشار ، وأبي نواس ، ومسلم بن الوليد<sup>٢</sup> .

أولعوا بالغناء وتفننوا فيه ، وأبدعوا في مجالسه من ملح وتادُر وشراب ، وغير ذلك ، وذهبوا فيه مذهبين جديد وقديم ، وتعصب كل فريق لمذهب<sup>٣</sup> .

ولعبوا بالنرد والشطرنج وغلوا فيهما<sup>٤</sup> . وعنوا بتربية الحمام ، وتغالوا في أثمانه<sup>٥</sup> . وتهارشوا بالديوك والكلاب<sup>٦</sup> . ولعب أبو نواس بالكلاب زماناً حتى عرّف منها ما لا تعرفه الأعراب<sup>٧</sup> . وانتشر القمار حتى في حانات الفقراء<sup>٨</sup> . وأولعوا بالنقش والتصوير فكثرت رسم الصور على الكأس كما في شعر بشار وأبي نواس ، ورثى أبو الشبل مسرحة له مصورة تصويراً بديعاً كسرّها كبش له<sup>٩</sup> . وأغربوا في الهدايا يوم النيروز يبدعون فيها نقشاً وتصويراً . ورقصوا فكان اسحق بن ابراهيم الموصلى يجيد الرقص ، واشتهر في عصره بالرقص جماعة<sup>١٠</sup> . وأحبوا البساتين وأكثروا الخروج إليها ، والأزهار يزينون بها موآدهم ، ويتغزلون في لونها وعيقها<sup>١١</sup> الى كثير من أمثال ذلك .

١ أغاني ٣ : ١٨٠ ٢ انظر وصف اشجع لمجلس شراب — أغاني ١٧ : ٢٤ وبيت  
ابن رامين ١٠ : ١٣٦ وما بعدها و ٥ : ١١٢ الخ ٣ أغاني ٧ : ٢٥  
٤ المسعودي ٢ : ٤٥٦ ٥ الحيوان ٣ : ٩١ ٦ أغاني ٦ : ٧٥ ٧ حيوان ٢ : ١٠  
٨ حيوان ٥ : ١١٥ ٩ أغاني ١٣ : ٢٧ وانظر زهر الآداب ٣ : ٣٦ ١٠ أغاني جزء  
٥ في ترجمة اسحق ١١ أغاني ١٢ : ١٣٠

كثير النعيم ، وكثير العنصر الفارسي العريق في المدنية ، المُمغن في الترف ،  
وكثير الجوارى يُجلبن من الأصقاع المختلفة ، وكثير الجمال وسفر ، اذ لم تكن  
عامة الأماء يطالبن بحجاب ؛ فقويت النزعة الى اللهو والخلاعة والمجون  
التي وصفنا ، وشعر قوم من الشعراء بهذه النزعة من الناس أمثال بشار  
وصريع الغواني وأبي نواس؛ فقادوا زمامها وألهبوها ، وسهلوا السبيل لها .  
إن سكر القوم وشعروا بالحاجة الى أبيات من الشعر تُروى عاطفتهم ،  
وتزين لهم عملهم ، وتحملهم على المضي في شربهم ؛ رأوا في شعر هؤلاء إرواء  
لغلتهم ، وإن تشببوا في فتاة أو غير فتاة ؛ فشعروا الشعراء كفيفل أن يجدوا فيه  
بغيتهم في صريح من القول غير كناية ، وبشار يخصص يومين في الأسبوع  
للمتظرفات من النساء يأخذن عنه شعره الماجن ، وينشرنه في الناس !  
فلا عجب ان رأينا الحياة لاهية لاهية لاهية ، ورأينا شعر الشعراء في ذلك  
العصر الا القليل منهم داعراً فاجراً .

وهنا ظاهرة واضحة ، وهو أن هذا العراق الذي كان في العصر الأموي  
جاذباً اذا قيس بغيره من الشام والحجاز أصبح الآن في العصر العباسي لاهياً ،  
بل هو محط أنظار اللاهين ، وسائر الأمصار انما تقتبس من لهوه !  
والسبب في ذلك أمور أهمها - على ما يظهر - شيان :

(الأول) المال : فالعراق كان مصب أموال المملكة الاسلامية الغنية - بحكم  
أنه مركز الخلافة - والمال كل شيء في اللهو يتبعه حيث كان . فالرقيق والشراب  
والغناء وما الى ذلك انما تكون حيث يكون الترف ، وانما يكون الترف  
حيث يكون المال ، والعراق أكثر البلدان مالا ، وأعزها جاها ، وكل نابغ  
في فن - ومنه الأدب - انما ينفق سوقه في العراق ، ومن نبغ في غيره ولم  
يرحل اليه تحمّل ذكره ، وضاع فنه . فأى مغن مشهور لم يكن في العراق ؟

وأى نابغة في الشعر لم يكن في العراق ؟ وأية جارية امتازت بجمال أو غناء لم تسكن في العراق ؟

والسبب (الثاني) أن العراق كان أكثر بلاد الله خليطاً، فقديمًا تعاقبت عليه أمم مختلفة، ومدنيات متتابعة ، وفي العصر العباسي كان حاضرة الخلافة ، وكان مقصد الأمم . وكان مسكن العنصر الأرسطراطي من الفرس ، وكان محطّ الرحالين من الهند والروم وغيرهم . وكان يجلب إليه أحسن الرقيق من كل جنس ، ولهُؤلاء جميعاً تاريخ في اللهُو ، وإمعان في الحضارة ، وتفنن في الترف . فلما حلّوا بالعراق ، ووجدوا السبيل ممهدة ، عرّضت كل أمة فنّها ، وأنواع حضارتها ، فكان من ذلك معرض عام أخذ العراق من كل شيء منه بحظ وافر ، وأخذت البلدان الأخرى من العراق بقَبَس .



ولكن من الحق أن نقول : إن هذا الوصف الذي وصفنا ليس حال الناس جميعهم ، فما كانوا كلُّهم أغنياء ولا كلُّهم هازلين ، وما كان ذلك لأمة من الأمم في أى عصر من العصور ، وما كان العالم الاسلامي كله هو العراق وملاهيته ، ولا كان العراق كله يحيا هذه الحياة — فان أنت قرأت كتاب الأغاني ، وتنقلت في صحفه من ضرب من اللهُو الى ضرب ، أو قرأت ديوان أبي نواس فرأيت أكثره خمراً ومجوناً ؛ فلا تظن أن ذلك يمثل حياة العصر بأجمعها ، انما هو يمثل ناحية واحدة من نواحيها المتعددة ، ووجوهها المختلفة ، وعذر الأغاني أنه أُلّف في طبقات المغنين ، والمغنون في كل عصر موطن اللهُو وبيئة المجون .

على أننا نريد أن ننبّه على أمر فطن له ابن خلدون وهو : وضع الأخبار الكاذبة في الملاذ تقرباً الى الكبراء ، فكانوا يبالغون في أخبار الملاهي ليغزوهم عليها ، وليكسبوا هم من وراء ذلك مالا أوجاها أو نحوهما .

لم تكن أموال الدولة موزعة توزيعاً متقارباً، ولا كانت الفروق بين الطبقات فروقا طفيفة، إنما كان هناك هُوَاتٌ سحيقة بين الطبقات، فكثير من مال الدولة ينفق على قصور الخلافة والأمراء ورؤساء الأجناد، وعمال الدولة. وهم ينفقون منه جزأفاً على المقربين من أدباء وعلماء ومغنيين وجواري وأتباع، وطبقة تجار ومن إليهم. وهؤلاء في درجة من الثروة دون الأولى. وعامة الشعب يفشو فيهم الفقر والبؤس. كانت بغداد تعجبُ أربابَ الأموال لما يجدون فيها من عيش رَعْدٍ وهناءة ونعيم.

أَعَايَنْتَ فِي طُولِ مِنَ الْأَرْضِ وَالْعَرْضِ  
كَبغدادَ داراً إِنها جَنَّةُ الْأَرْضِ ؟  
صفاً العيشُ فِي بَغدادَ واخضرَ عودُهُ  
وعيشُ سواها غيرُ صافٍ ولا غَضُّ  
تَطُولُ بها الأعمارُ انْ غداها  
مَرىءٌ وبعضُ الْأَرْضِ أَمْراً مِنْ بَعْضِ ١

فأما الفقراء وذوو الحاجة فضاقت عليهم بغداد بما رحبت، ولم يستطيعوا العيش فيها ولا المقام بها.

بغدادُ دارٌ طيبها آخذٌ نَسيمها مِنِّي بأنفاسي  
تصلحُ للوسرِ لا لامرئٍ بيت في فقرٍ وإفلاسِ  
لو حلها قارونُ ربُّ الغني أصبحَ ذاهمٌ ووسواسِ  
هي التي نُوعدُ لَكِنها عاجلةٌ للطَّاعِمِ الكاسي

حُورٌ وولَدَانٌ وَمِنْ كُلِّ مَا تَطْلُبُهُ فِيهَا سِوَى النَّاسِ !  
ويقول آخر: أذمُّ بَغْدَادَ وَالْمَقَامَ بِهَا  
من بَعْدِ مَاخِبْرَةَ وَتَجْرِيْبِ  
مَا عِنْدَ سُكَّانِهَا لِمَحْتَبِطِ  
خَيْرٌ وَلَا فَرْجَةَ لِمَكْرُوبِ ١  
يَحْتَاجُ بَاغِيَ الْمَقَامِ بَيْنَهُمُ  
إِلَى ثَلَاثٍ مِنْ بَعْدِ تَتْرِيْبِ  
كَسُوْزِ قَارُونَ أَنْ تَكُوْنَ لَهُ  
وَعُمْرُ نُوحٍ وَصَبْرُ أَيُّوبِ

كما كرهها جماعة من أهل الورع والصلاح والزهاد... وعلتهم في الكراهية ما عاينوا بها من الفجور والظلم والعسف.... وكان بعض الصالحين إذا ذكرت عنده بغداد يتمثل:

قُلْ لِمَنْ أَظْهَرَ التَّنَسُّكُ فِي النَّاسِ وَأَمْسَى يُعَدُّ فِي الزَّهَادِ  
الزُّمِ الثَّغَرَ وَالتَّوَاضَعِ فِيهِ لَيْسَ بَغْدَادُ مَنْزِلَ الْعُبَادِ  
أَنْ بَغْدَادَ لِلْمَلُوكِ مَحَلٌّ وَمُنَاخٌ لِلْقَارِيءِ الصِّيَادِ ٢

ويقول بشر بن الحارث « بغداد ضيقة على المتقين ، لا ينبغي لمؤمن أن يقيم بها » ٣

\*\*\*

كانت كثرة الأموال بالعراق ووفرة ما يحمل إليها من خراج الأقطار، سبباً في ارتفاع الأسعار، وذلك إن احتمله الأغنياء فإنه يبتس الفقراء، وقد شكوا أبو العتاهية ذلك، وصوره تصويراً دقيقاً فقال:

مَنْ مَبْلَغَ عَنِي الْإِمَا مَ نَصَائِحَا مَتَوَالِيَه  
أَنْ أَرَى الْأَسْعَةَ أَرَا أَسْعَارَ الرَّعِيَّةِ غَالِيَه

١ المحتبِط من يستجدي الناس من غير معرفة ٢ معجم ياقوت في مادة بغداد ٣ تاريخ بغداد ١: ٥ وقد روى الخطيب أسباباً أخرى لكراهية العلماء لها منها أن بعضهم كان يرى أن أرضها مفضولة، ومنها أن منهم من كان لا يحب سكنها لأحاديث وردت في ذمها.

وأرى المكاسبَ نَزْرَةً وأرى الضَّرُورَةَ فاشيةً  
وأرى غُمُومَ الدَّهْرِ را حُحَّةً تَمْرُهُ وِغَادِيهِ  
وأرى اليتامى والأرا مَلَّ في البيوتِ الخالية  
من بَيْنِ راجٍ لم يزل يسمو اليك وِراجِيهِ  
يشكون مَجْهَدَةً بأصواتٍ ضِعَافٍ عَالِيهِ  
يرجون رِفْدَكَ كى يروا مِمَّا لِقُوهُ العَافِيهِ  
من يُرْتَجَى للناسِ غَيْرُكَ للعيونِ البَاكِهِ  
من مُصِيبَاتِ جُوعٍ تَمسى وتصبح طَاوِيهِ  
من يُرْتَجَى لدفاعِ كَرِّ بِ مَلْهَةٍ هِىَ مَاهِيهِ  
من للبطونِ الجائعا تِ وللجسومِ العارِيهِ  
يا ابنَ الخِلائفِ لا فِقْدَ تِ ولا عَدِمَتِ العَافِيهِ  
انِ الأُصولَ الطيبا تِ لها فروعٌ زَاكِهِ  
أَلْقَيْتُ أَخْبَاراً اليك من الرعية شَافِيهِ ١

\*\*\*

كان المال عرضة أن يأتي في طرفة عين ، ويذهب في طرفة عين ، ذلك لأن عطاء الخلفاء والأمراء والولاية إذ ذاك ؛ كان لا يقف عند حد ، ومصادرتهم للأموال لا تقف كذلك عند حد ، قد يعجب احدُهم نعمة المغنى ، أو بيت الشعر أو الكلمة الطيبة ، أو الجواب الحسن فيبُ الأُلوْفَ ، وقد يكره ذلك فيهدِرِ الدم ، ويصادر المال !  
وصف العتّابى هذه الحالة في عصره فقد سئل : لم لا تتقرب بأدبك

الى السلطان؟ فقال: «لأني رأيتُه يعطى عشرة آلاف في غير شيء، ويرى من السور في غير شيء. ولا أدري أيّ الرجلين أكون!» والمفضل الضبي يدعو رسول المهدي: فيخاف ويتوهم السعاية به، ثم يتطهر ويلبس ثوبين استعداداً للهوت فاذا مثل بين يديه سلم فرد عليه، فلما سكن جأشه سأله عن أي بيت قالته العرب أنخر؟ ثم سأله مسائل أخرى، فلما أحسن الجواب سأله عن حاله فشكا اليه دَيْتُه فامر له بثلاثين ألف درهم<sup>٢</sup>. وحكى الجاحظ في كتابه الحيوان: أن أبا أيوب المورياتي وزير المنصور بينما هو جالس في أمره ونهيه إذ أتاه رسول أبي جعفر فامتقع لونه، وطارت عصفير رأسه، وذُعِرَ ذُعراً نقض حَبْوتَه، واستطار فؤاده، ثم عاد طلقَ الوجه، فتعجبنا من حاله! وقلنا له: إنك لطيف الخاصة، قريب المنزلة، فلم ذهب بك الذعر واستفزك الوجع؟ فقال: سأضرب لكم مثلاً من أمثال الناس؛ زعموا أن البازي قال للديك: ما في الأرض شيء أقل وفاء منك! قال: كيف؟ قال: أخذك أهلك بيضة فحزنوك، ثم خرجت على أيديهم، فأطعموك على أكتفهم، حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت هاهنا وهاهنا! وضحجت وصحت، وأخذتُ أنا من الجبال فعلموني، والقوني، ثم يُخلى عني فأخذ صيدى في الهواء فأجىء به الى صاحبي! فقال له الديك: انك لو رأيت من البزاة في سفائدهم مثل ما رأيت من الديوك، لكنت أنقر مني. ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفي مع ما ترون من تمكن حالي»<sup>٣</sup>

ولما قتل المأمون الفضل بن سهل عرضت الوزارة على احمد بن أبي خالد فأبى وقال: لم أر أحداً تعرض للوزارة وسلمت حاله<sup>٤</sup>

« وكانوا يرفعون الأخبار الى المأمون ولو لم تصح بالعدول، ويقول

١ المستطرف ١: ١١٢ ٢ القصة مذكورة بطولها في الاغانى ١٤: ١١٦ وما بعدها

٣ الحيوان ٢: ١٣٢ ٤ طيفور ٢١٥



صاحب الخبر : لولم نرفع الا ما ثبت بالعدول لم يتها ذلك في السنة الامرة  
أو مرتين <sup>١</sup> »

ودُعي محمد بن الحرث بن بسُخْرٍ الى الواثق في يوم لم يكن يدُعي فيه  
فقال : داخلني فرع شديد وخفت أن يكون ساع قد سعى بي ، أو بلية قد  
حدثت في رأى الخليفة على ، فتقدمت بما أردت « الخ وكانت النتيجة أن غناه  
فأمر له بعشرة آلاف درهم وتخوت <sup>٢</sup> .

ووشى برجل يقال له « الفضيل بن عمران » الى أنى جعفر المنصور ، وكان  
المنصور جعله كاتب ابنه جعفر وولى أمره ؛ ووشى به أنه يعث بجعفر ، فبعث  
المنصور برجلين ، وأمرهما أن يقتلا الفضيل حيث وجداه ، وكتب الى جعفر  
يعلمه ما أمرهما به وقال : لا تدفعا الكتاب الى جعفر حتى تفرغا من قتله ،  
فضربا عنقه ! وكان الفضيل رجلا عفيفا ديناً ! فقبل للمنصور : إن الفضيل  
كان أبرأ الناس مما رمى به ، وقد مجلت عليه . فوجه رسولا وجعل له عشرة  
آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ! فقدم الرسول قبل أن يحف دمه ، وقد  
استنكر ذلك جعفر وقال لمولاه سويد « ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل  
عفيف دين مسلم بلا جرم ولا جناية ؟ فقال سويد : « هو أمير المؤمنين  
يفعل ما يشاء وهو أعلم بما يصنع » الخ <sup>٣</sup> .

\*\*\*

أنتجت هذه الحياة التي وصفنا من رفاهية قوم وبؤس آخرين ، ولهو قوم  
وجد آخرين ؛ حركتين ظاهرتين في تاريخ هذا العصر :

(أولاهما) ظهور فرقة المتطوعة للتكبير على الفساق ببغداد ، يقول الطبرى  
في سبب ظهورهم : إن فساق الحربية <sup>٤</sup> والشطّار الذين كانوا ببغداد والكرخ

١ طيفور ٦٨ ٢ أغاني ٣ : ١٨٤ ٣ اقرأ الحكاية بطولها في الطبرى ٩ : ٣١٧  
٤ الحربية محلة في الجانب الغربى من مدينة بغداد نسبت الى حرب بن عبد الله صاحب حرس المنصور

آذوا الناس أذى شديداً وأظهروا الفسق ، وقطع الطريق ، وأخذ الغلمان والنساء من الطرق ... لا سلطان يمنعهم ، ولا يُقدَّر على ذلك منهم ، لأن السلطان كان يعتزّ بهم ، وكانوا بطّانته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يركبونه : فلما رأى الناس ذلك ، وما قد أظهروا من الفساد في الأرض والظلم والبغى وقطع الطريق ، وأن السلطان لا يغير عليهم قام صلحاء كل ربض ، وكل درب فمشی بعضهم الى بعض « الخ .

وكان لهذه الحركة زعيان ، لكل زعيم برنامج ، فأما أحدهما : وهو خالد الدريوش فبرنامجُه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولكنه لا يثور على السلطان ، فهو يطلب الاصلاح ، ويتولاه في حدود الطاعة للحكومة ، والزعيم الآخر : سهل بن سلامة الأنصاري ، برنامجُه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر كذلك ، والعمل بكتاب الله وسنته ، ومقاتلة من خالفه ، كائنا من كان ، سلطاناً أو غيره . ويقول الطبري : إنه تبعهما خلق كثير وكان كل من أجاب سهلاً هذا عمل على باب داره برجا بخصّ وأجرّ ونصب عليه السلاح والمصاحف - وكان ذلك سنة ٢٠١ هـ وقد انتهى أمرهما بالقبض عليهما وحبسهما .

وظاهر أن الذي دعا الى هذه الحركة كما يقول ابن خلدون « توافر أهل الدين والصلاح على منع الفساق وكفّ عاديتهم » وقد استمرت هذه الحركة تبدو حيناً وتخمد حيناً ، فقد جاء بعدهم فرقة الحنابلة تدعو كذلك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يطول ذكره .

( ثانيتهما ) حركة الزهد - ذلك أن قوماً يسوا من الغنى ، ورأوا أن نفوسهم لا تطاوعهم للتقرب من ذوى الجاه ، أو حاولوا ذلك ففشلوا فلجئوا الى القناعة يروضون أنفسهم عليها ، وقالوا : اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون !

وقوماً عافت نفوسهم ما رأَت من شهوات لا حد لها ، ورأوا أن النفس اذا نالت ما طمحت تفتحت أمامها شهوات وشهوات . وللوصول الى كل شهوة متاعب وعقبات ، ففضلوا أن يجمعوها ، وقالوا مع القائل :

وما النفسُ الا حيثُ يجعلُها القى فان أهملت تافتُ وإلا استقرتِ  
أو مع الآخر :

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغبتْها واذا تُردُّ الى قليلٍ تَقنعُ  
وقوماً يئسوا من حبِّ ، أو صُدُّوا صدمة عنيقة في منصب أو جاه أو مال ؛ فلم يجدوا الا الزهد يركنون اليه ويأنسونه ، ويتسلَّون به عما فقدوا .  
وكثيراً زهدوا تديننا لما في الزهد من خفة المؤونة ، وسهولة الحساب ، يقولون كما قال محمد بن واسع : « يعجبني أن يصبح الرجل وليس عنده غداء ، ويمسى وليس له عشاء ، وهو مع ذلك راض عن الله ! » صرفوا نفوسهم عن الشهوات ، وأكثروا من ذكر الموت والقبور ، وعدوا أنفسهم في الموتى ، وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، ورفضوا أن يمدوا أيديهم لأخذ عطاء من خليفة أو وال ، وقنعوا بالقليل ، كالذي فعل ابراهيم بن اسحق الحرَّبي ؛ عاش أكثر عمره على كِسْرٍ يابسة ومالح ، وربما عدم الملح ، ورفض أن يأخذ ألف دينار بعث بها اليه المعتضد ، وأنفق مرة في شهر رمضان كله درهما وأربعة دوانيق ونصفاً

كل هذه الأصناف ؛ كان منها في العصر الذي نؤرخه . وكما كان بشار وأبو نواس وأضرابهما يمثلون نزعة اللهو ، ويضرمون نارها ؛ كان أبو العتاهية يعبر عن نزعة الزهد ، ويروي غُلة الزاهدين . فان قال أبو نواس في الدعوة الى اللهو :

جَرَيْتُ مَعَ الْهَوَى طَلَقَ الْجُوحِ وَهَانَ عَلَيَّ مَا ثَوَّرَ الْقَبِيحِ  
وَجَدْتُ أَلَذَّ عَارِيَةِ اللَّيَالِي قِرَانَ النَّعْمِ بِالْوَتْرِ الْفَصِيحِ  
وَمُسْمِعَةٍ مَتَى مَا شِئْتُ غَنَّتْ مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِدِي طُلُوحِ  
تَمَتَّعَ مِنْ شَبَابٍ لَيْسَ يَبْقَى وَصَلَ بُعْرَى الْغُبُوقِ عُرَى الصَّبُوحِ  
قَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ: رَغِيفُ خَبْزٍ يَابَسَ تَأْكُلُهُ فِي زَاوِيَةٍ  
وَكُوْزُ مَاءٍ بَارِدٍ تَشْرَبُهُ مِنْ صَافِيَةٍ  
وَعَرْفَةٌ ضَيِّقَةٌ نَفْسِكَ فِيهَا خَالِيَةٌ  
أَوْ مَسْجِدٌ بِمَعْزَلٍ عَنِ الْوَرَى فِي نَاحِيَةٍ  
تَدْرُسُ فِيهِ دِقْتَرًا مُسْتَنْدَأً بِسَارِيَةٍ  
مُعْتَبِرًا بِمَنْ مَضَى مِنَ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ  
خَيْرٌ مِنَ السَّاعَاتِ فِي تَنِي الْقُصُورِ الْعَالِيَةِ  
تُعْقِبُهَا عَقُوبَةٌ تُصَلِّي بِنَارٍ حَامِيَةٍ  
فَهَذِهِ وَصِيَّتِي مُخْبِرَةٌ بِحَالِيَةِ  
طَوْبِي لِمَنْ يَسْمَعُهَا تَلِكَ لَعَمْرِي كَافِيَةٍ  
فَاسْمَعْ لِنُصْحِ مَشْفِقٍ يُدْعِي أَبَا الْعَتَاهِيَةِ

والناس يتنازعون أيهما أشعر، أبو نواس أم أبو العتاهية، وليسوا يفضلون أحدهما في الحقيقة استنادا على الناحية الفنية؛ وإنما كلاهما يمثل نزعة خاصة، وكل فريق يفضل من عبس عن نفسه، وجلي نزعته.

\*\*\*

كان للحالة الاجتماعية التي ألمنا بها نتائج عليية وأدبية وفنية؛ من ذلك: أن غزارة الأموال في يد الخلفاء والولاة ومن إليهم، ووفرة

عطاياهم وقلة الأموال في يد سواهم ؛ جعلت الفنون الجميلة ومنها الشعر ؛ لا تزهر الا في أحضان الخلفاء ومن اليهم ، وتذبل في غير جَوْهَم - قد كان من المعقول أن يفيض شعور الرجل وتهيج عواطفه ، وتغلي نفسه ؛ فينطق بالشعر يهدىء من شعوره ، ويخفف من غليانه ، لا يرجو من ذلك الا ارواء لعاطفته الفنية ، وهذا هو كل مطمحة في الثواب ! وكان من المعقول : أن يجيد الفنانُ إشباعاً لنهمه الفني ، في فقر أو غنى ، ورخاء أو شقاء ! ولكن يظهر أن قليلاً كان عندهم هذا السمو الفني ، وأكثرهم رأى أن قليلاً من الفن وأبياتاً من الشعر اذا لوحظ فيها ذوق الممدوح - لا ذوق الفن - تدرّ عليه من الأموال ما لا يحلم به ، وهو إذا أَرْضَى عاطفته وفنّه عاش عيشة كَفَاف ، فاندفع يطلب هوى الخليفة أو الأمير ، وسال السيل وجرى التيار كله ؛ الا القليل النادر - نحو القصور ، يقفون بأبوابها الأيام والشهور ، حتى يؤذن لهم ، وأصبح الشعراء والفنانون أداة من أدوات الزينة ، وطرفة جميلة تحلّى بها الدور والقصور ، ولهم في ذلك بعض العذر . فمن من هؤلاء يرى من هو أقل منه - شعراً وفناً - يعمل بيتين أو ثلاثة في مدح أمير فينال عشرة آلاف درهم ، ثم تقوى نفسه وتسمو همته ويطرف عن أن يسلك مسلكه ويجرى مجراه ؛ كذلك الشأن في الغناء ، يقول الأصفهاني : إن مجموع ما أخذ ابراهيم الموصلي من الرشيد كان أكثر من مائتي ألف دينار ، ولا تكاد تقرأ صفحة من الأغاني حتى تجد فيها شاعراً يمدح ، وألوفاً تمنح ! ومهما كان في هذه القصص من المبالغة فالأساس صحيح .

كان من نتائج هذا ؛ أن أصبح أكبر مجرى يصب فيه الشعر هو المديح ، وهو باب أبعد ما يكون - في نظرنا - عن الشعر الصحيح ، وتعاقَب الشعراء يصوغون معانيه السائغة وغير السائغة ، حتى ارتشفوا آخر نقطة منها ، بينما

الأبواب الأخرى من وصف عاطفة سامية، وتحليل لشعورٍ بجمال الطبيعة وجمال الزهور، ونحو ذلك لم تمس إلا مساً رقيقاً.

وكان من نتائج هذا أيضاً: أن مؤرّخ الأدب والفن في هذا العصر يكاد لا يؤرّخ إلا العراق، فأما مصر والشام والحجاز فأدبها أدب خفيف، وفيها لا يكاد يُؤبّه له، وكل نابغ في شعر أو فن لا يجد مشترياً لسنّته إلا العراق. ونرى أن الأدب؛ أصبح يمثل هاتين النزعتين البارزتين خير تمثيل؛ نزعة اللهو، ونزعة الزهد. فأما نزعة اللهو فما قيل في الخمر والنسيب وما اليهما وتجد ذلك في دواوين الشعراء أمثال أبي نواس ومسلم بن الوليد وفي كتاب الاغانى. واما نزعة الزهد؛ فما قيل في الموت والبعث والحساب، وما قيل في حياة الزهاد وما أثور قولهم وفعلهم. وعقدت الفصول الطوال تشرح نفسيّتهم وتروى حكيمهم: فبرى الجاحظ في الجزء الثالث من كتاب البيان والتبيين يضع كتاباً يُعْونُه «كتاب الزهد» يقول في أوّله: «نبدأ باسم الله وعونه بشيء من كلام النساك في الزهد، وبشيء من ذكر أخلاقهم ومواعظهم»، وصارت هذه الأقوال والقصص تغذّي هذا الفريق من الناس الذين زهدوا في الحياة، وأصبحنا نرى المؤلفين في الأدب بعده ينسجون على منواله، ويجعلون باب الزهد رُكناً من أركان الأدب؛ فابن قتيبة يُخصّص كذلك باباً للزهد في كتابه عيون الاخبار، وابن عبد ربه في العقد الفريد وهكذا. وتقرأ هذه الفصول فتراها تتمثل حياةً هي على النقيض من حياة اللهو.

أما العلم، فقد كان هناك علمان: علم ديني، وعلم دنيوي - ان صح هذا التعبير - فأما العلم الدنيوي من فلسفة وطب ورياضة وفلك، فقد نما كذلك في كنف الخلفاء والأمراء والاعنياء، وقلّ أن تجد عالماً في ذلك العصر في علم من هذه العلوم إلا كان له أمير أو غنيٌّ يُمدّه بمعونته، ولذلك كانوا - نسيباً - في سعة من العيش.

أما العلم الديني : فقد كان الباعثُ عليه أخروياً غالباً ، فما وأزهر خارج القصور أيضاً ، كعلم التفسير والحديث ، ومن أجل هذا أيضاً لم يكن نمو هذا النوع من العلم وإزهاره قاصراً على العراق ، بل تجده حيث الباعث الديني ، في كل قطر وكل إقليم ، فإذا أنت أرخت لعلوم القرآن وعلوم الحديث ؛ أو علوم اللغة ، أرخت لمصر والشام والحجاز كما أرخت للعراق ، وتقرأ تراجم هؤلاء العلماء فتري في أكثرهم فقراً مدقعاً ، وبؤساً واضحاً ، ورضى بالقليل ، وأمثلة ذلك لا تحصى .

وسياتى عند الكلام في الحركة العلمية وصف ما كان لهؤلاء العلماء من جد في طلب ، واحتمال نصّب ، وسفر بعيد ، في فقر شديد ، مما يدعو الى الاعجاب ، ويعد المثل الأعلى للحياة العلمية .

## الفصل السادس

### حياة الزندقة وحياة الايمان

كما قدرأنا في الفصل السابق ، حياة فيها هو ومجون ؛ ونعيم ورخاء ، وحياة فيها جد وزهد وبؤس وشقاء ، نرى في هذا الفصل ألواناً أخرى من الحياة ، هي حياة القلب والعقل ، والعاطفة والدين ، فتري صراعا بين الشك والزندقة والالحاد ، وبين الايمان الخالص والاعتقاد الصادق . ويخيّل الينا ونحن نقرأ تاريخ هاتين الحركتين أننا في موقف قتال مُستَحَر ، تُستخدم فيه كل وسائل الحروب ، نخدع ومكايد ووسائل سرية أحيانا ، ولجوء الى السيف وسفك الدماء أحيانا ، وعقد مجالس ومقارعة بالحجج أحيانا ، ثم الحرب سجال ، يوم ينتصر فيه الملحدون بما يثيرون من شكوك وأوهام ، وبما يضللون من ناشئة وشبان . فان مجزوا ظاهرا استعملوا طريق الغواية سرا ، تحت مظهر

التشيع ، أو الغيرة على الاسلام أو نحو ذلك ، ويومٌ ينتصر فيه المؤمنون فينكلون بالملحدين تنكيلا ، ويوقعون بهم قتلا وتشريداً ، ثم بما يؤلفون من كتب ينقضون شبههم ، وييطون حججهم .

ولكن لم يُعن المؤرخون في تسجيل هذه الحرب ووقائعها ، كما عنوا بتسجيل الحروب السياسية . انما يعثر الباحث في ثنايا الكتب على نتف مبعثرة ، قد يستطيع - في عناء - أن يؤلف منها وحدة ، ويكون منها سلسلة متصلة الحلقات الزندقة - : نلاحظ في هذا العصر الذي نُورخه تردد كلمة « الزندقة » على الألسنة ، وكثرة اتهام الناس بها حقاً وباطلاً . وتنبه الرأي العام الى هذا المعنى تنبهاً دقيقاً ، فهم يسمعون شعر الشاعر فسرعان ما يلتفتون الى شيء فيه يهتمونه من أجله بالزندقة ، أو يرون فعلاً صدر من انسان ، أو كلمة قالها جداً أو هزلاً ، أو إشارة أشار بها فيرمونه بالزندقة<sup>١</sup>

ونحن اذا قارنا بين انتشار هذه الكلمة في العصر الأموي ، والعصر العباسي ، وجدنا استعمال الكلمة في العصر الأموي قليلاً نادراً ، وفي العصر العباسي فاشياً شائعاً ، فشلا اتهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد بن عبد الملك بالزندقة في العصر الأموي ، واتهم الوليد بن يزيد كذلك ، ولكن هذا قليل نادر ، أما في العصر العباسي فالأخبار بالزندقة مستفيضة ، والمتهمون بها كثيرون .

والسبب في ذلك : أن الزندقة في بعض معانيها - وهو الشك أو الالحاد - انما تقترن عادة بالبحث العلمي ، وهو في العصر العباسي أبين وأظهر . ذلك أن العلم الذي كان شائعاً في العصر الأموي ، كان العلم الديني من جمع للحديث ، وتفسير للقرآن الكريم ، واستنباط الأحكام الشرعية منهما . وهذه لا تثير في النفوس شكوكاً تبعث على الزندقة ، انما الذي قد يثير هذه الشكوك مذاهب

١ بينما في فجر الاسلام الاقوال المختلفة في اشتقاق كلمة الزندقة فانظره ص ١٢٨



الكلام ، والجدال الديني حول المسائل الأساسية في الأديان ، والبحث الفلسفي على النحو الذي يبحثه أرسطو وأفلاطون في المادة والصورة ، والجزء الذي لا يتجزأ والجوهر والعرض ، وما إلى ذلك . وهذه الأشياء كانت قليلة في العصر الأموي ، وهي وفيرة جداً في العصر العباسي .

وسبب ثان هو أن بعض الفرس رأوا أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يحقق مطالبهم ، فقد انتقلوا من يد عربية وهي اليد الأموية إلى يد أخرى هي يد العباسيين . ومطمح نفوسهم أن تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها ، في سلطتها ولغتها ودينها . ورأوا أن ذلك لا يتحقق والاسلام في سلطانه ، فأخذوا يعملون لنشر المانوية والزرادشتية والمزدكية ظاهراً إن امكن ، وخفية إذا لم يمكن ، فكان من ذلك فشوة الزندقة .

يضاف إلى ذلك أن الدولة الأموية - كما قدمنا - كانت دولة العرب فالحكم في أيديهم والملك لهم ، وولاتهم ورجالهم عرب والموالي أذلاء مضطهدون . والعرب لا تعرف الزندقة كثيراً ولا تميل إليها ، فهم مطمئنون إلى ملكهم وإلى دينهم . فلما أتت الدولة العباسية انتعش الموالي وخاصة الفرس ، وأصبح أكثر السلطان في أيديهم ، وغلبوا على العرب ، وقد كانت لهم ديانات سابقة لم ينسوها جميعها لما اعتنقوا الاسلام ، وكانوا لا يجرءون في الحكم الأموي أن ينسوا بكلمة ، وكان همهم الأول أن يتحرروا سياسياً لا دينياً . فكانت دعواتهم السرية واجتماعاتهم وتدابيرهم للسياسة لا للدين . والزندقة إنما هي في الدين لا في السياسة ، فلما نجحوا واطمأنوا وغلبوا بدأت تلعب في رءوسهم الديانات القديمة والجديدة فكانت الزندقة .

نرى اسم الزنادقة مقروناً بالمجان في عهد أبي جعفر المنصور ؛ فيذكر الطبري : « أن المنصور وجهه مع محمد بن أبي العباس بالزنادقة والمجان ، فكان فيهم حماد مجرد ، فأقاموا معه بالبصرة يظهر منهم المجون ، وإنما أراد بذلك أن

يغضه الى الناس»<sup>١</sup> وكان محمد بن أبي العباس مرشحاً للخلافة ، فأراد من إحاطته بالزنادقة والمجان أن يكرهه الناس ، فيتسنى له أن يرشح ابنه المهدي ، ولعل ذلك كان سبباً في لفت نظر المهدي الى الزنادقة ، فقد كان قرب محمد ابن أبي العباس منهم مُبْعِداً له عن الخلافة ، فليقترب هو الى الله والى الناس باضطهادهم !

على كل حال لم يُعرف عن المنصور امعان في اضطهادهم ، وكانت سياسته - على ما يظهر - قمع الفتن الظاهرة فقط . فلما جاء المهدي كان من أظهر المسائل في تاريخه ؛ تنكيله بالزنادقة والفحص عنهم ، فقد عين رجلاً و كَلَّ اليه أمرهم سماه « صاحب الزنادقة » يقول في الأغاني : « لما نزل المهدي البصرة كان معه حمدويه صاحب الزنادقة فدفع اليه بشاراً ، وقال : اضربه ضرب التلغ »<sup>٢</sup>

وقال في موضع آخر : « أمر المهدي (عبد الجبار) صاحب الزنادقة فضرب بشاراً »<sup>٣</sup> وهذه ؛ أول مرة نسمع فيها بتعيين رجل خاص يعهد اليه أمرهم ، يبحث عنهم ، وينكل بهم . ويقول الطبري في حوادث سنة ١٦٧ : « وفيها جدّ المهدي في طلب الزنادقة ، والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم ، وولى أمرهم «عمر الكوازي» »

ويقول المسعودي في المهدي : « انه أمعن في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين اظهورهم في أيامه ، واعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني ، وابن ديسان<sup>٤</sup> ومريقيون ؛ بما نقله عبدالله بن المقفع وغيره ، وترجمه من الفارسية والفهلووية الى العربية ، وما صنف في ذلك ابن أبي العوجاء<sup>٥</sup> وحماد مجرد ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانوية

١ طبري ٩ : ٣٠٨ ٢ اغاني ٣ : ٧٣ ٣ اغاني ٣ : ٧٢ ٤ طبري ١٠ : ٩

٥ في الاصل ابن دميان ٦ في الاصل ابن العرجاء

والديصانية<sup>١</sup> والمرقونية. فكثرت بذلك الزنادقة، وظهرت آراؤهم في الناس. وكان المهدي أول من أمر الجدلّيين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب (في الرد) على الملحدّين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم، وأقاموا البراهين على المعاندين، وأزالوا شبه الملحدّين فأوضحوا الحق للشاكين<sup>٢</sup>. اذن قام المهدي بعملين نحو الزنادقة، انشاء ادارة للبحث عنهم ومحاكمتهم، وانشاء هيئة علمية لمناظرتهم، وتأليف الكتب للرد عليهم.

وعلى الجملة، فقد كان المهدي شديد الاهتمام بهذه الفئة، حتى لم ينس أن ينصح ابنه اذا قدّم الامر أن ينكل بهم، فالطبرى يذكر: « أن المهدي قال لموسى - (هو ابنه الهادي) يوماً وقد قدم اليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب، فضرب عنقه وأمر بصلبه - : يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصاة - يعنى أصحاب ماني - فانها فرقة تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش، والزهد في الدنيا والعمل للاخرة، ثم تخرجها الى تحريم اللحم، ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً، ثم تخرجها من هذا الى عبادة اثنين أحدهما النور، والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات، والاعتسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطرق لتتقدم من ضلال الظلمة الى هداية النور. فارفع فيها الخشب، وجرّد فيها السيف، وتقرب بامرّها الى الله لا شريك له؛ فاني رأيت جدك العباس في المنام قلدني بسيفين، وأمرني بقتل الاثنين » فقال موسى - بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر - : أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها، حتى لا أترك منها عيناً تطرف. ويقال إنه أمر أن يهيباً له ألف جذع. فقال هذا في شهر كذا، ومات بعد شهرين<sup>٣</sup>.

وقد أنفذ الهادي وصية أبيه، فكان يقتل الزنادقة. ويروى الطبرى في

١ في الاصل الدنسانية ٢ المسعودى ٢ : ٤٠١ ٣ طبرى ١٠ : ٤٢

حوادث سنة ١٦٩ : أن الهادي اشتد هذه السنة في طلب الزنادقة ، فقتل منهم فيها جماعة ، فكان ممن قتل منهم ، يزدان بن باذان كاتب يقطين ، وابنه علي بن يقطين من أهل النهروان . ذكر عنه أنه حج فنظر الى الناس يهرولون في الطواف فقال : ما أشبههم الا بيقر تدوس في البيدر . وله يقول العلاء ابن الحداد الأعمى :

أيا أمينَ الله في خلقه ووارثَ الكعبةِ والمنبرِ  
ماذا ترى في رجلٍ كافرٍ يشبهُ الكعبةَ بالبيدرِ<sup>١</sup>  
ويجعلُ الناسَ إذا ما سعوا حُمُرًا تدوسُ البرَّ والدَّوسرَ<sup>٢</sup>  
فقتله موسى ثم صلبه<sup>٣</sup> .

ولما ولي هرون الرشيد ، سلك سبيل من قبله من الخلفاء في تعقب الزنادقة فيحدثنا الطبري في حوادث سنة ١٧١ : أن الرشيد في هذه السنة أمّن من كان هارباً أو مستخفياً ، غير نفر من الزنادقة منهم يونس بن فروة ، ويزيد ابن الفيض :

حتى المأمون ، بلغه خبر عشرة من الزنادقة من أهل البصرة ، يذهبون الى قول « ماني » ويقولون بالنور والظلمة ، فأمر بحملهم اليه بعد أن سمّوا واحداً واحداً ، فكان يدعوهم رجلاً رجلاً ويسألهم عن دينهم فيخبرونه بالاسلام فيمتحنهم بأن يُظهر لهم صورة ماني ، ويأمرهم أن يتفلوا عليها ، ويتبرءوا منها ويأمرهم بذبج طائر ماء وهو الدرج ، وقد أبوا ذلك فقتلهم ° .  
وفي عهد المعتصم ؛ كانت حادثه عظمى في تاريخ الزندقة . وهي محاكمة « الألفشين » ( قائد جيوش المعتصم ) فانه لما شق عصا الطاعة اتهم بالزندقة

١ بيدر الطعام كومة والبيدر موضعه الذي يداس فيه ٢ الدوسر نبت حبه الزوان  
الذي في الحنطة ٣ طبري ١٠ : ٢٣ ٤ طبري ١٠ : ٥٠ ٥ المسعودي ٢ : ٢٤٩

وألفت محكمة لمحاكمته كان من أعضائها ، محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحمد بن أبي دواد وقد اتهم الأفشين بجملة تهم .

١ — أنه عمداً الى رجلين كانا قد وجدنا بيتاً فيه أصنام — في اشرو سنة — فأخرجوا الأصنام منه ، وحولاه مسجداً ، وصار أحدهما إماماً للمسجد والآخر مؤذناً ، فضربهما الأفشين كلاً ألف سوط حتى عريت ظهورهما من اللحم . وقد دافع عن نفسه ، بأنه كان بينه وبين ملوك السغد عهد أن يترك كل قوم على دينهم ، فكان عملُ الامام والمؤذن تعدياً على ما التزمه من حرية الأديان .

٢ — واتهم كذلك بأنه عُثر في بيته على كتاب قد زين بالذهب والجوهر والديباج فيه كفر بالله .

وردّ على هذه التهمة بالاقرار بها ، وأنه ورث الكتاب عن آبائه ، والكتاب فيه أدب من آداب العجم ؛ وفيه كفر ، فانتفع بما فيه من أدب وترك ما فيه من كفر ، ولم يكن بحاجة الى مال حتى يجرّد الكتاب من حليته ، وليس شأن الكتاب بعد ذلك الا شأن كتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك . وهما في منازل القضاة ، لم يعترض عليهما معترض !

٣ — واتهم أيضاً بأنه كان يأكل الخنوقة ، ويزعم أنها أرطب لحما من المذبوحة ، وكان يقتل شاة سوداء كل يوم أربعاء ، يضرب وسطها بالسيف ، ثم يمشي بين نصفيها ويأكل لحمها .

وقد ردّ على هذا بأن من شهد عليه بهذه الشهادة ، يعترف خصومه بأنه ليس ثقة ولا معدّلاً ، وليس بين منزل الشاهد ومنزل الأفشين باب أو كوة يطلع عليه منها ويتعرّف أخباره .

٤ — واتهم بأن أهل مملكته كانوا يكتبون اليه باللغة الأشروسنية ما تفسيره بالعربية الى إله الآلهة ، من عبده فلان بن فلان : فماذا أبقى بعد لفراعون

اذ يقول « أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ! »

وقد أجاب بأن هؤلاء القوم كانوا يكتبون لأبي وجدي كذلك ، ولى قبل أن أدخل في الاسلام ، فكرهت أن أضع نفسى دونهم ، فتنفسد على طاعتهم .  
٥ - واتهم - خامسا - أن أخاه كتب الى « قوهيار » إنه ليس من ينصر هذا الدين الأبيض ( يريد المجوسية ) الا أنا وأنت وبأبك - فأما بابك فقد قتل نفسه بحمقه ، فان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيرى ، ومعى الفرسان وأهل النجدة والباس ، فان وجهت اليك لم يبق أحد يحاربنا الا ثلاثة ، العرب والمغاربة ، والأتراك . والعربى بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة ، ثم اضرب رأسه بالدبوس . وهؤلاء الذباب يعنى المغاربة انما هم أكلة راس ، وأولاد الشياطين - يعنى الأتراك - فانما هى ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول عليهم الخيل جولة ، فتأتى على آخرهم ، ويعود الدين الى ما لم يزل عليه أيام العجم .  
وخلاصة هذه التهمة العظمى محاولته قلب المملكة الاسلامية ، ومحو الخلافة ، ومحو الدين الاسلامى ، وإعادة المملكة العجمية كما كانت ، بلعتها ودينها وسلطانها .

وقد أنكر هذا الكتاب وقال ان عمل أخيه لا يلزمه ولو صح لكانت هذه حيلة منى أريد أن أستميله حتى يثق بى ، ثم أتى به الخليفة لأحظى به عنده .  
٦ - واتهم أيضا بتهمة ترك الاختتان فقال إنه خاف أن يقطع ذلك من جسده فيموت ، وما علم أن فى ترك الاختتان الخروج من الاسلام .

فردّ الى الحبس ، ومُنِع عنه الطعامُ والشرابُ إلى أن مات ، ثم صلب ، وأحرق بالنار . وقد مدحه ابو تمام أولاً بمدائح كثيرة منها :

لقد لبس الأفشين قسطة الوغى  
محشاً بنصل السيف غير مؤاكل<sup>١</sup>  
وجرد من آرائه حين أضمرت  
به الحرب حذاء مثل حد المناصل  
وسارت به بين القنابل والقنا  
عزائم كانت كالقنا والقنابل<sup>٢</sup>  
وقد ظلمت عقبان أعلامه ضحى  
بعقبان طير في الدماء نواهل  
تراه إلى الهيجاء أول راكب  
وتحت صبير الموت أول نازل<sup>٣</sup>

فلما صلب وأحرق عاد قدمه في قصيدة طويلة منها :

قد كان بوأه الخليفة جانباً  
من قلبه حرماً على الأقدار  
فاذا ابن كفرة يسر بكفره  
وجداً كوجد فرزدق بنوار

ومنها :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه  
حتى اصطلى سر الزناد الوارى  
ناراً يساور جسمه من حرها  
لهب كما عصفت شق إزار  
طارت لها شعل يهدم لفحها  
أر كانه هدماً بغير غبار  
فصلن منه كل مجمع مفصل  
وفعلن فاقرة بكل فقار<sup>٤</sup>  
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك  
ما كان يرفع ضوءها للستارى  
صلى لها حياً وكان وقودها  
ميتاً ويدخلها مع الفجار  
يا مشهداً صدرت بفرحته إلى  
أمصارها القصى بنو الأمصار  
رمقوا أعالي جذعه فكأتما  
وجدوا الهلال عشيّة الإفطار

١ المحش : الحديدة تحش بها النار اى تحرك ، ويقال هو محش حرب أى شجاع ٢ القنابل : جمع قنبل الطائفة من الناس ومن الخيل ٣ الصبير : السحاب المتراكم ٤ الفاقرة : الداهية ، والفقار جمع فقارة وهى عقدة الظهر

ويقول التبريزي: « لم يكن الأَفْشِين كافرًا ولا منافقًا، وإنما كان رجلاً من الفرس، اصطفاه المعتصم لحسن طاعته وخدمته، واعتمد عليه في مهام أموره، حتى وكلَّ إليه مقاتلة بابك الخُرَّمي ففضى إليه في ألوف وأسرته... غير أن الحساد أفسدوا ما بينهما، فذكروا للمعتصم: أنه منطو على خلافك. وقالوا للأفشين: إن المعتصم قد عزم على القبض عليك، فانقبض عنه حذراً من القبض عليه؛ فتحقق المعتصم - بانقباضه - ما كان أخبر به عنه، فأخذه وأحرقه وصلبه. وقيل إن السبب في ذلك هو ابن أبي دُوَادٍ لأمر جرى بينهما » وليس هنا موضع تحقيق ما اتهم به الأفشين فمحل ذلك البحث التاريخي. وإنما يهمننا هنا مظهر الزندقة، وما وُجِّه إليه من التهم، وطريقة محاكمته.

\*\*\*

وبعدُ، فإذا كان يفهم من كلمة « الزندقة » في هذا العصر الذي تُوِرَّخه، وماذا يعنون عند ما يتهمون رجلاً بالزندقة، وماذا كان الباعث عليها؟ الحق أن كلمة « الزندقة » لم يكن معناها واحداً عند الناس على السواء. فمعناها في أذهان الخاصة والعلماء؛ غيرُ معناها في أذهان العامة.

فأما العامة وأشباههم فكانوا يُطلقون على المستهتر الماجن « زنديقاً » فابراهيم بن سيَّابة الشاعرُ كان يُرمَى بالزندقة، ولم يكن يعرف عنه قول في الدين، إنما كان يعرف عنه أنه كان خليعاً ماجناً. طيبُ النادرة، يحب الغلمان ويحبه المِجَّانُ، وادم حفيد عمر بن عبد العزيز؛ اتهم بالزندقة لأنه كان خليعاً ماجناً منهمكاً في الشراب، يشرب الخمر فيفرط في شربها، وتجرى على لسانه - وهو سكران - أبيات فيها مساس بالدين، كأن يقول:



اسقني واسق خليلي في مدى الليل الطويل  
لونها أصفر صاف وهى كالمسك الفتيل  
في لسان المرء منها مثل طعم الزنجبيل  
ريحها يفتح منها ساطعاً من رأس ميل  
من ينل منها ثلاثاً ينس منهاج السبيل  
ففى ما نال خمساً تركته كالقتيل  
ليس يدري حين ذاك ما دبير من قبيل  
إن سمى عن كلام اللامى فيها الثقيل  
لشديد الوقر أئى غير مطواع ذليل  
قل لمن يدحك فيها من فقيه أو نبيل  
أنت، دعها وارح أخرى من رحيق السلسيل  
تعطش اليوم وتسقى فى غد نعت الطلول !  
وكان يقول: اسقني واسق غصيناً لا تبغ بالنقد ديناً  
اسقنيها مرة الطعم تريك الشين زيناً

من أجل ذلك يثهم بالزندقة، فيأخذه المهدي ويضربه بثمائة سوط على أن يقر بالزندقة فيقول: والله ما أشركت بالله طرفة عين، ومتى رأيت قرشياً تزندق؟ ولكنه طرب غلبنى وشعر طفتح على قلبي، وأنا فقي من فتیان قریش، أشرب التبيذ، وأقول ما قلت على سبيل المجون، ثم هجر الشرب والمجون بعد ذلك، وكان يكره أن يرى الشرب<sup>١</sup> والشراب ويقول:  
شربت فلماً قيل ليس بنازع نزعت وثوبى من أذى اللثوم طاهر<sup>٢</sup>!  
فترى أن « آدم » لم يتزندق زندقة علمية، وإنما غلبه الشرب فنطق بقول فيه هجر، فاتهم بالزندقة، على هذا المعنى العامي الشائع.

١ الشرب يفتح الشين: الفوم يشربون ٢ انظر الاغانى ١٤: ٦٠ و ٦١

والواقع أن كثيراً من الشعراء في ذلك العصر أفرطوا في دعوة الناس الى  
الفجور والاباحة، وحملهم على الاستهتار. ولم يكتفوا أن يدعوا الى ما يدعون  
اليه من غير تعرض للدين؛ بل تعرضوا له أحياناً، وأخذوا يجهرون بأقوال  
فيها تهكم، وفيها سخرية. فيسخرون ممن يقول بتحريم الخمر، ويسخرون ممن  
يخوف بالنار، وممن يذكر يوم البعث وما فيه من حساب، فيقول بشار:  
لاخير في العيش إن كنا كذاً أبداً لا نلتقي وسيل الملتقى نهجٌ  
قالوا: حرامٌ تلاقينا! فقلت لهم ما في التلاقي ولا في قبلة حرج!  
وبدأ هذا النوع خفيفاً، ثم أخذ يشتد حتى وصل الى ضرب من الالحاد،  
وكان من أشدهم في ذلك أبو نواس كأن يقول:

وملحة باللوم تحسب أنني بالجهل أوثر صجنة الشطار  
بكرت على تلومني فأجبتها إني لأعرف مذنب الأبرار  
فدعي الملام فقد أظعت غوايتي وصرفت معرفتي الى الانكار  
ورأيت إتياني اللذاعة والهوى وتعجلا من طيب هذى الدار  
أحرى وأحزم من تنظر أجل علمي به رجم من الأخبار  
ما جانا أحدٌ يخبر أنه في جنة من مات أوفى النار!  
ويقول:

ياناظراً في الدين ما الأمرُ لا قدر صح ولا جبر؟  
ما صح عندي من جميع الذي تذكر إلا الموت والقبر  
ويقول:

قلت والكأس على كفى تهوى لالتشامى  
أنا لا أعرف ذلك اليوم في ذلك الزحام  
على أن بعض هؤلاء الشعراء الذين ترد على لسانهم هذه الأقوال

١ نقلت هذه الايات من الموشح ص ٢٧٧ وما بعدها والوساطة بين المتنبي وخصومه  
للقاضى عبد العزيز الجرجاني ص ٥٧ وما بعدها وتجد فيهما أمثلة كثيرة من هذا النوع

وأمثالها؛ كانوا يقولونها وهم مطمئنون الى دينهم ، ولكن غلبهم الطرب ،  
وجرى الشعر على لسانهم فتحرك بمثل هذا ، وذلك مثل الذي ورد من شعر  
آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز .

والذين كانوا يستمعون لهذا القول ؛ يختلفون فيما بينهم ، فطائفة تسخط لمثل  
هذا ، وتحكم على قائله بالالحاد والخروج من الدين ، وطائفة لا ترى هذا جدًّا  
من القول ؛ وانما هو نوع من أنواع التملح ، لم يُقل إلا على سبيل الفكاهة  
والمجون ، وعلى هذا الأساس الأخير شاع في ذلك العصر وصف الزنديق  
بالظرف . فأبو نواس يصف العباس بن الفضل بن الربيع فيقول :

نَدِيمُ كَأْسٍ مَحْدَثُ مَلِكٍ      تِيَهُ مَعْنٌ وَظَرْفُ زِنْدِيقِ

بل شاع اتهام بعض الناس بأنه لا يتزندق عن عقيدة ، وانما يتزندق  
ليشتهر بالظرف ، ففي الأغاني: ان محمد بن زياد كان يظهر الزندقة تظارفاً ، فقال  
فيه ابن مَنَازِر :

يا ابنَ زيادِ ، يا أبا جعفر      أظهرتَ ديناً غيرَ ما تُخفي  
مزندقَ الظاهرِ باللفظِ في      باطنِ اسلامِ قتيِّ عَفِّ  
لستَ بزِنْدِيقٍ ولكنَّا      أردتَ أن تُوسِّمَ بالظَرْفِ !<sup>١</sup>

وقال غيره :

تَزَنَّدِقُ مَعْلِنًا ليقولَ قومٌ      إذا ذَكَرُوهُ زِنْدِيقُ ظَرِيفٌ  
فقد بَقِيَ التَزَنَّدِقُ فيه وسَمًا      وما قيلَ الظَرِيفُ ولا اللطيفُ !

وعلى الجملة فالزندقة بهذا المعنى - معنى التهتك ، ثم التدرج فيه الى الخروج عن الدين أحيانا بألفاظ ماسية ، ثم المغالاة في ذلك الى أقوال فيها معنى الالحاد لا عن نظر وتفكير . كل هذا كان شائعاً فاشياً ، وكل هذا كان معنى « الزندقة » في أذهان العامة وأشباههم ، وعلى هذا المعنى قالوا : « إن علامة الزندقة شرب الخمر ، والرشا في الحكم ، ومهر البغي »<sup>١</sup>

وهناك معنى آخر للزندقة ، كان يفهمه الخاصة وأشباههم . ويعنون به اعتناق الاسلام ظاهراً ، والتدين بدين الفرس القديم باطناً ، وخاصة مذهب مانى . ذلك أنه كان في ذلك العصر طائفة لم تؤمن بالاسلام ولكن آمنت بسلطانه ، ورات أن لا سبيل لنيل الجاه والسلطان والمال الا بالاسلام فاعتنقته ظاهراً ، وظلت تخلص لدينها القديم ، وقوم من هؤلاء كان لهم غرض أعمق من هذا ؛ اذ رأوا أنهم لا يستطيعون افساد العقيدة الاسلامية الا بالانتساب اليها أولاً حتى يؤمن جانبهم ، وحتى يسهل على النفوس الأخذ بقولهم ، ثم هم بعد ينفسون تعاليمهم على أشكال مختلفة ؛ طوراً في العلم والدين ، وطوراً في الأدب ، وطوراً في وضع مثالب العرب ، ومن حين لآخر كان يُعثر على بعضهم فينكل بهم ، ولكنهم لا يبيدون ، أحيانا يعملون أفراداً ، وأحياناً يعملون جماعات ، وعصرنا الذي نؤرخه مملوء بهذه الأمثال ، فعبد الكريم بن أبي العوجاء يتهم بالزندقة ، ويفسد أحاديث رسول الله بما يضع فيها ، ويقر حين يقتله المنصور ، بأنه وضع أربعة آلاف حديث مكذوب مصنوع<sup>١</sup> ، وحماد الراوية يفسد اللغة والأدب بما يعمل من شعر يضيفه الى الشعراء المتقدمين ، ويدسه في أشعارهم « حتى أن كثيراً من الرواة قالوا : قد أفسد حماد الشعر لأنه كان رجلاً يقدر على صنعته فيدس في شعر كل

رجل ما يشاكل طريقته»<sup>١</sup>، وصالح بن عبد القدوس يدس في الأشعار معاني  
زندقة، ويونس بن أبي فروة يعمل كتاباً في مثالب العرب، وعبوب الاسلام  
بزعمه، ويصيرُ به الى ملك الروم فيأخذ منه مالا<sup>٢</sup>.

هؤلاء وأمثالهم كانوا يتزندقون تزندقاً علمياً؛ فهم يدينون بماني أو مزدك،  
ويؤمنون بالنور والظلمة، وبعبارة عامة يدينون بدين المجوس عن علم، ثم  
يتظاهرون بالاسلام تقيّةً، أو توسلاً الى إضلال الناس. ويدل على هذا  
المعنى الخاص ما رواه الأغانى أن بشّاراً هجّاهما حماد وعجرد فقال:

يا ابن نُهبي، رأسٌ على ثَقيلٍ واحتمال الرأسيّن أمرٌ جليلٌ  
فادعُ غيري إلى عبادة ربيّن فاني بواحدٍ مشغولٌ!

فقال حماد: ما يعيظني من بشار الا تجاهله بالزندقة، يوهم الناس أنه يظن  
أن الزنادقة تعبد رأساً ليظن الجهال أنه لا يعرفها، لأن هذا قول تقوله العامة  
لا حقيقة له، وهو والله أعلم بالزندقة من ماني<sup>٣</sup>.

ويقول أبو نواس: كنت أتوهم حماد وعجرد إنما يرمي بالزندقة لمجونه في  
شعره حتى حبسْتُ في حبس الزنادقة، فاذا حماد وعجرد إمام من أممهم، واذا  
له شعر مزاج بيتين بيتين، يقرءون به في صلاتهم<sup>٤</sup>.

اشتهر بالزندقة في هذا العصر كثيرون، منهم الحمادون الثلاثة: حماد وعجرد،  
وحامد الراوية، وحماد بن الزبرقان، وبشار بن برد، وابن المقفع، ويونس  
ابن أبي فروة، ومطيع بن إياس، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، وصالح بن  
عبد القدوس، وعلي بن الخليل، وابن مناذر. وتجد في ترجمتهم في الأغانى

٣ أغانى ١٣ : ٧٦

٢ المصدر نفسه ١ : ٩٠

١ المصدر نفسه ١ : ٩١

٤ أغانى ١٣ : ٧٤

وغيره ضروبا من القصص توضح زندقتهم ، وكان بين بعض هؤلاء وبعض صداقة ووُدٍّ أحيانا ، وهجو وتنازُّرٍ أحيانا .

والذي نلاحظه أن أكثر من ذكرنا موال من الفرس ، وذلك طبعي ، فان الزندقة بهذا المعنى تستروراءها ديانة مجوسية من ديانات الفرس ، فطبعي أن ينزع اليها من كان أصلهم مجوساً . ومع هذا فانا نجد من العرب بل من الهاشميين من اتهم بالزندقة ، مثل الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب <sup>١</sup> . وكالذي روى الطبري من أن المهدي أتى بداود بن علي ، وييعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن ابن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ؛ وقد اتهما بالزندقة فأقرأ له بها <sup>٢</sup> . ولكن كانت الزندقة في العرب على العموم نادرة ، وأكثر من اتهم بها كانت زندقته بالمعنى الأول ، وهو التهلك والفجور ، أو كان اتهامهم شرَّكا من الشرك التي تنصب من أجل خصومة سياسية .

وقد اشتهر بهذا النوع من الزندقة طائفة من الكتاب ، كان أكثرهم كذلك من أصل فارسي ، وقد أخذوا من كل علم بطَّاف ، ولم يتعمقوا في علم ، وأمعنوا في الغرور بانفسهم فكثرت زندقتهم . يقول الجاحظ : « والناشيء منهم (من الكتاب) اذا حفظ من الكلام فتية ، ومن العلم ملحة ، وروى ليزر جهمر أمثاله ، ولأردشير عهدَه ولعبد الحميد رسائله ، ولا بن المقفع أدبه ، وصير كتاب مزدك معدنَ عليه ، ودقتر كليله ودمته كنز حكمته (توهم) أنه الفاروق الأكبر في التدبير ، وابن عباس في العلم بالتأويل ، ومعاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام ، وعلي بن أبي طالب في الجرأة على القضاء

١ انظر زندقتهما في الاغانى ١١ : ٧٥ وما بعدها ٢ طبرى ١٠ : ٢٣

٣ القتيق : الجزل البين

والأحكام ، وأبو الهذيل العلاف في الجر والظفرة ، وابراهيم بن سيار النظام في المكائنت والمجانسات ، وحسين النجار في العبادات والقول بالاثبات ، والأصمعي وأبو عبيدة في معرفة اللغات والعلم بالأنساب. فيكون أول بدوّه الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه : ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل الآثار ، فان استرجح أحد أصحاب الرسول قتل عند ذكرهم شدقه ، ولوى عن محاسنهم كشحه ، وان ذكر شريح جرحه ، وإن نعت له الحسن استثقله ، واذا وُصف له الشعي استحمقه ، ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة اردشير بابكان ، وتدير أنوشروان ، واستقامة البلاد لآل ساسان ، فان حذر العيون ، وتفقدت المسلمون رجوع بذكر السنن الى المعقول ، ومُحكّم القرآن الى المنسوخ ، ونفى ما لا يدرك بالعيان ، وشبهة بالشاهد الغائب ، لا يرتضى من الكتب الا المنطق . . . . هذا هو المشهور من أفعالهم والموصوف من أخلاقهم<sup>١</sup> .

وأحيانا تطلق كلمة الزنادقة على أتباع ديانة الفرس ، من غير أن ينتحلوا الاسلام . ونرى هذا الاستعمال أحيانا في كتاب الحيوان للجاحظ فهو يقول : وكان لهؤلاء الزنادقة كتب أجود ما تكون ورقاً ، يكتب عليه بالخبر الأسود البراق ، ويستجاد له الخط<sup>٢</sup> . « وأن كتبهم لا تفيد علماً ولا حكمة ، وليس فيها مثل سائر ، ولا خبر ظريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ، ولا مسألة كلامية . . . وجل ما فيها ذكر النور والظلمة ، وتناكح الشياطين ، وتسافد العقاريت ، وذكر الصنديد ، والتهويل بعمود الصبح » ثم يذم كتبهم ، ويستخف بمعانيها<sup>٣</sup> .

ويقول : إن هؤلاء الزنادقة ائروا في بعض الناس ، وخاصة في ناس من

الصوفية والنصارى ؛ فكانوا يرفضون الذبائح ، ويغضون إراقة الدماء ،  
ويزهدون في أكل اللحوم . ويقول : إن قوماً ممن ينتحل الإسلام يظهرون  
التقذر من الصيد ، ويرون أن ذلك من القسوة ، وأنه يُسلم إلى التهاون بدماء  
الناس . والرحمةُ شكل واحد ، ومن لم يرحم الكلب لم يرحم الضبي . ومن لم  
يرحم الضبي لم يرحم الجدى ، ومن لم يرحم العصفور لم يرحم الصبي . وصغار  
الأمر تودى إلى كبارها ، يضاهاون في ذلك سبيل الزنادقة <sup>١</sup> .

وهناك معنى آخر للزندقة يستعمله الجاحظ وغيره أحياناً ، يطلقونه على قوم  
جحدوا الأديان كلها عن نظر ، فهى بهذا المعنى مرادفة للدهرية والاحاد قال  
أبو العلاء فى رسالة الغفران : « الزنادقة هم الذين يُسمَوْنَ الدهرية لا  
يقولون بنبوة ولا كتاب » .

وعلى هذا المعنى يروى الجاحظ : « أن الزندقة فشت فى النصارى » <sup>٢</sup>  
والظاهر انه يريد بذلك الشك ونحوه  
من هذا كله يظهر أن كلمة الزندقة لم تكن ذات معنى واحد ؛ وإنما كانت  
تطلق على معان أربعة .

١ — التهتك والاستهتار والفجور مع تبجح فى القول ، يصل أحياناً الى  
ما يمس الدين ؛ ولكن قائله لم يقله عن نظر ، وإنما قاله عن خلاعة ومجون .  
٢ — أتباع دين المجوس . وخاصة دين مانى مع التظاهر بالإسلام ؛ كالذى  
اتهم به الأفشين ، والذى اتهم به بشار وحماد وابن المقفع .  
٣ — أتباع دين المجوس ، وخاصة «مانى» من غير تظاهر بالإسلام ، كالذى  
يرويه الجاحظ عن كتب الزنادقة ،

٤ — ملحدون لا دين لهم ؛ كالذى يحكيه المعرى ، ولكن يظهر أن الكلمة  
— أكثر ما كانت — تطلق على من اعتنق المانوية باطنياً والإسلام ظاهراً ، ثم



توسعوا في معناها فأطلقوها على الاباحى ، والملحد الذى لادين له .

\*\*\*

على كل حال فشت الزندقة بمعانيها المختلفة في هذا العصر ، وقد عد أبو العلاء من الزنادقة في رسالته الغفران ؛ « الوليد بن يزيد الخليفة الأموى ، ودعبل الشاعر ، وبشاراً ، وأبا نواس ، وصالح بن عبد القدوس ، وأبا مسلم الخراسانى مؤسس الدولة العباسية ، وبابك ، والأفشين ، والحلاج الصوفى ، وغيرهم . فيقول في دعبل » وما ياحقنى الشك فى أن دعبل بن على لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع ؛ وإنما غرضه التكب ، ولا أرتاب فى أن دعبل كان على رأى الحكيمى ( أبى نواس ) وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ، ومن ديارهم ناشية » ويقول : « وقد اختلف فى أبى نواس ادعى له التأله ، وأنه كان يقضى صلوات نهاره فى ليله ، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه »

وكان من الطبيعى أن يكون فى هذا العصر زنادقة دعاهم اليها دواع مختلفة ؛ فقوم دعاهم اليها دين الفوه قديما وهودين المجوسية ، وكان لهم فيه آباء عديدون وكانت لهم عادات وتقاليدها أخذها الخاف من الساف ، ولكنهم رأوا جاهاً عريضا ، ومناصب عزيزة لا يستطيعون الوصول اليها الا أن يسلموا فأسلموا « ولما يدخُل الأيمان فى قلوبهم » واتخذوا الاسلام ثيابا ظاهرية ، يخلعونها اذا خلوا الى أهلهم ، وهم - اذا أمكنتهم الفرصة - كادوا للاسلام وللعرب ، ودعوا للشعوبية والمذاهب الدينية . وقوم دعاهم الى التزندق شك فى الأديان ، والقول بسلطان العقل الى أقصى حدوده ، فهم لا يريدون أن يؤمنوا الا بما يرون بأعينهم ، ويحكمون العقل حتى فيما ليس للعقل فيه مجال ، فنبذوا الأديان جملة ، ودعوا الى الاحاد . وآخرون انما كانوا همهم فى الحياة شهواتهم ، فما الحياة الا خمر وما إليها ، لا يرضون أن يجهدوا عقولهم

في تفكير في دين ، إنما يغضبون على الدين وقت أن يتعارض مع شهواتهم ،  
ويحد من لذاتهم ، حينذاك ينطقون بالكلمة تِلْوُ الكلمة وهم سكارى  
يتضاحكون فيها على الدين - كل هذه الأصناف كانت في العصر العباسي ، وكان  
جمهور المؤمنين يكرهها ويحاربها .

ولكن من الحق أن نقول أيضا : إن الاتهام بالزندقة لم يقف في ذلك  
العصر عند حد ، فالشاعر يكون صديقَ الشاعر وَصَفِيَّ نفسه ، ثم تكون بينهما  
جَفْوَةٌ فأول ما يرميه به أنه زنديق ، كالهجاء بين بشار وحماد ، وكالذي يقول  
خلاد الأرقط: ذُكِرَ ابنُ مُنَاذِرٍ في حلقة يونس ، فَقَدَحَ فيه أكثر أهل الحلقة  
حتى نسبوه الى الزندقة ، فلما صرت في السقيفة التي في مقدم المسجد سمعت  
قراءة قرية من حائط القبلة ، فدنوت فإذا ابن مناذر قائم يصلي ، فرجعت الى  
الحلقة فقلت لأهلها : قلم في الرجل ما قلم وها هو ذا قائم يصلي حيث لا يراه  
الاله ! »<sup>١</sup> ثم هم يسرعون في الاتهام ، فيحكمون على أبي العتاهية بالزندقة

لقوله : كَأَنَّ عِتَابَةَ مِنْ حُسْنِهَا دَمِيَّةٌ قَسٌّ فَتَنَتْ قَسَّهَا  
يَا رَبِّ لَوْ أَنْسَيْتَنِيهَا بِمَا فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ لَمْ أَنْسَهَا !  
ولقوله : إِنَّ الْمَلِيكَ رَأَى أَحْسَنَ خَلْقِهِ وَرَأَى جَمَالَكَ  
فَخَذَا بِقُدْرَةِ نَفْسِهِ حُورَ الْجِنَانِ عَلَى مِثَالِكَ<sup>٢</sup>

بل أكثر من هذا يرون أبا العتاهية يذكر الموت ، فيقولون : إنه زنديق  
لأنه يذكر الموت ، ولا يذكر الجنة والنار<sup>٣</sup> .

كل هذا وأمثاله يدلنا على أن الناس في ذلك العصر أفرطوا في الرمي  
بالزندقة ، مع خطر الاتهام . يقول أبو العلاء في رسالة الغفران « وذكر  
صاحب كتاب « الورقة » جماعة من الشعراء في طبقة أبي نواس ومن قبله ،

ووصفهم بالزندقة : وسرائر الناس مُغَيَّبَةٌ ، وإنما يعلم بها علام الغيوب »  
وكما كانت الخصومة الأدبية سبباً في الرمي بالزندقة ؛ كذلك كانت  
الخصومة الدينية والسياسية ، يقول صاحب الأغاني : « كان حُمَيْد بن سَعِيد  
وجهاً من وجوه المعتزلة ، يخالف أحمد بن أبي دواد في بعض مذهبه ، فأغرى  
المعتصم بأنه شعوبي زنديق »<sup>١</sup> ، وظل الأصمعي يتقرب الى البرامكة ، ويمدحهم  
فلما نكبوا قال فيهم :

إذا ذُكِرَ الشَّرْكُ في مجلس أضاءت وُجوهُ بني برمكِ  
وإن تُلِيَتْ عندهم آيةٌ أتوا بالأحاديث عن مزْدَكِ !

ثم ، أليس عجيباً أن ترى بشاراً يظلُّ طولَ حياته يقول الشعر الماجن الخليع ،  
ويتعرض للدين من قريب أو بعيد ، ويظل في ذلك ثمانين عاماً أو نحوها ؛ فلا  
يتعرض له أحد ، إلا ما نهاه الخليفة عن الغزل ! بل نرى المهديّ - وهو  
أكبر من اضطهد الزنادقة - يحميه ويتأول له الفقهاء<sup>٢</sup> . فلما بلغ الثمانين  
أو جاوزها هجا يعقوب بن داود وزير المهدي بقوله :

بني أمية هبوا طال نومكم انّ الخليفة يعقوب بن داودِ  
ضاعت خلافتكم يا قوم فانتظروا خليفة الله بين الزقّ والعودِ

وهجا المهديّ نفسه فأفحش ، فعند ذلك - فقط - عوقب بشار على زندقته  
فضُرب بالسياط حتى مات - وكذلك كان الشأن في ابن المقفع ؛ خاصمه المنصور  
سياسياً ، وخاصمه سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ققتلاه ورمياه بالزندقة ! .  
الحق أن بعض الناس اتخذوا الزندقة ذريعةً للانتقام من خصومهم سواء  
في ذلك الشعراء والعلماء والأمراء والخلفاء . وأخشى أن يكون قد رمى بها  
أناس كثيرون سحت عقيدتهم ولكن كانت لهم حرية رأى في بعض المسائل

خالقوا فيها جمهور العلماء فشهروا بهم .

ونجد الحكم الفقهي في الزنادقة عند الحنفية العراقيين أشد منه عند الشافعية فكثير من الحنفية يرى أن المرتد إذا تاب قبلت توبته ولم يقتل ، وأما الزنديق فإذا تاب لم تقبل توبته وقتل ، وخالفهم في ذلك الشافعية فقالوا لا يقتل من أظهر التوبة من الزنادقة<sup>١</sup>

على كل حال كانت حركة الزندقة في عصرنا الذي نؤرخه حركة عنيفة ، كان من ضحاياها كثيرون بالحق أحيانا ، وبالباطل أحيانا .

الإيمان — يقابل حركة الزندقة والشك هذه ، حركة إيمان صادق من جانب آخر . واذ كنا نريد أن نفهم جوانب الحياة في هذا العصر ، وجب علينا أن نصور جانب الإيمان كما صورنا جانب الزندقة . والذي يظهر لي أن جانب الإيمان في ذلك العصر كان الأعم الأشهر ، والزندقة - بمعنى الشك أو الالحاد - كانت حظاً قليل من المفكرين إذا قيس بالعدد العديد من المؤمنين . ولذلك استطاع المؤرخون ، وكتاب المقالات الدينية أن يسموا الزنادقة على شكهم في زندقة بعضهم ، ولكن كان من العسير أن يسموا المؤمنين لأن الإيمان هو الأساس ، والزندقة ليست الا شذوذاً في اتجاه التيار العام . والذي زاد في عدد الزنادقة ، أنهم أطلقوا الكلمة على المجان والمستهترين ، ولو لم يصل الشك في الدين الى نفوسهم ، وان شئت فقل : إنهم لم يفكروا في الدين تفكيراً إيجابياً ولا سلبياً ، وان كثيرين حشروا مع الزنادقة سياسة لا ديناً كما قدمنا ، وان كثيرين من الزنادقة كانت زندقتهم في الواقع ليست كراهية للإسلام من حيث هو دين له تعاليم خاصة لا توافق عقولهم ، ولكن من ناحية وطنية قومية . وأكثر ما كان ذلك في قوم من الفرس ، رأوا أن ضياع ملكهم إنما كان على يد العرب ، ولم يكن يتأتى للعرب ذلك لولا دينهم الجديد ، وهو الإسلام .

١ انظر في ذلك « الأم » ٦ : ١٥٦ وقد حكى صاحب فتح القدير في الزنديق روايتين عن الحنفية ، رواية لا تقبل توبته كقول مالك واحمد ورواية تقبل كقول الشافعي ٤ : ٣٨٧

فكرهو العرب ، وكرهوا الاسلام لهذا السبب ، فأما الزندقة بمعنى البحث في الأديان بحثاً علياً عميقاً يُسلم أحياناً الى شك أو إنكار فذلك كان قليلاً نادراً .

\*\*\*

اشتهر جماعة كثيرة في ذلك ، كانوا المثل الأعلى في الايمان أمثال عبد الله ابن المبارك ، وسفيان بن عيينة ، وسفيان الثوري ، وداود الطائي ، والفضيل ابن عياض الخ ، تقرأ ترجمتهم ، فتبتين فيهم ورعاً وتقوى ، وإيماناً صادقاً ، وهروباً من الاتصال بوال أو أمير ، ورفض أي منصب يعرضه عليهم العباسيون . ولعل خير ما يمثل هذا النوع من الحياة ما رواه ابن قتيبة في رثاء ابن السمّك لداود الطائي ، قال : « إن داود رحمه الله نظر بقلبه الى ما بين يديه من آخرته ، فأعشى بصر القلب بصر العين . فكان كأنه لا ينظر الى ما اليه تنظرون ، وكأنكم لا تنظرون الى ما اليه ينظر ! فأتم منه تعجبون ، وهو منكم يعجب ! فلما رأى كم راغبين مذهولين مغرورين ، قد أذهلت الدنيا عقولكم ، وأماتت بحبها قلوبكم ، استوحش منكم ، فكنت اذا نظرت نظرت الى حى وسط أموات ! يداود ما أعجب شأنك بين أهل زمانك ! أهنت نفسك وإنما تريد إكرامها ، وأتعبتها وإنما تريد راحتها ، أحشنت المطعم وإنما تريد طيبه ، وأحشنت الملبس وإنما تريد لينه ، ثم أمت نفسك قبل أن تموت ، وقبرتها قبل أن تقبر ، وعذبتها ولما تعذب ، وأغنيتها عن الدنيا لكيلا تذكر ، رغبت نفسك عن الدنيا فلم ترها لك قدراً الى الآخرة . فما أظنك الا وقد ظفرت بما طالبت ، كان سيماك في سرك ، ولم يكن سيماك في علانيتك ، تفقحت في دينك ، وتركت الناس يُعنون . وسمعت الحديث ، وتركتهم يُحدثون . وخرست عن القول ، وتركتهم ينطقون . لا تحسد الأخيار ، ولا تعيب الأشرار ، ولا تقبل من السلطان عطية ، ولا من الاخوان هدية . آنس

ما تكون اذا كنت بالله خاليا ، وأوحش ما تكون أنس ما يكون الناس .  
فمن سمع بمثلك وصبر صبرك وعزم عزمك ؟ لا أحسبك الا وقد أتعبت  
العابدين بعدك . سجننت نفسك في بيتك فلا مُحَدِّث لك ، ولا جليس معك  
ولا فراش تحتك ، ولا ستر على بابك ، ولا قِلةً يبرِّدُ فيها ماؤك ، ولا صحِفةً  
يكون فيها غداؤك وعشاؤك . مظهرتك قلبك ، وقصعتك تورُّك ١ .

داود ! ما كنت تشتهي من الماء بارده ولا من الطعام طيبه ، ولا من  
اللباس لينه . بلي ! ولكن زهدت فيه لما بين يديك . فما أصغر ما بذلت ! وما  
أحقر ما تركت في جنب ما أملت ! فلها مت شهرك ربك بموتك ، وألبسك  
رداء عملك ، وأكثر تبعك ، فلو رأيت من حضرك عرفت أن ربك قد أكرمك  
وشرَّفك ، فلتتكرم اليوم عشيرتك بكل ألسنتها ، فقد أوضح ربك فضلها بك «  
وسفيان الثوري ، كان مع صلاحه وورعه وعلمه يعيش من تجارته ،  
ويرفض عطاء الوُلاة ، ورفض أن يكون قاضياً على الكوفة للعباسيين ، فيطلب  
ويظلّ دهرًا من حياته يهرب من العراق الى اليمن ، ومن اليمن الى مكة ، خشية  
من العباسيين . وتوفي سنة ١٦١ متوارياً من السلطان .

\*\*\*

وكما صوّرت حياة اللهو والمجون في كتاب الأغاني ودواوين الشعراء ،  
صوّرت حياة الايمان في تراجم العلماء أمثال طبقات ابن سعد ، وطبقات  
المحدثين . فاذا أنت قرأت الأغاني ظننت أن الحياة كلها هو ومجون وإباحة ،  
واذا قرأت طبقات المحدثين والمتصوفة خلت أن الحياة كلها دين وورع  
وتقوى ، وتنصف ان أنت اعتقدت أن الحياة كانت ذات صنوف وألوان ،  
وأن المدينة العباسية كانت ككل المدنيات ، مسجد وحانة ، وقارى وزامر .  
ومتهجد يرتقب الفجر ، ومصطبح في الحدائق . وساهر في تهجد ، وساهر في

طرب . وثُخْمَةٌ من غنى ، ومسكنة من إملاق . وشك في دين ، وإيمان في يقين . كل هذا كان في العصر العباسي ، وكل هذا كان كثيراً .

\*\*\*

هذا النوع من المؤمنين الذين سميناهم كسفيان وداود، لم يدخلوا في معترك الجهاد مع الشاكين والمتزندقين . بل كانوا يُعْنُونَ بإيمانهم ، ولا يَأْبَهُونَ لالحاد غيرهم . أما المؤمنون الذين تصدوا للرد على الملحدين هم معتزلة ذلك العصر أمثال واصل بن عطاء ، وأبي الهذيل العلاف ، وبشر بن المعتز ، وإبراهيم النِّظَّام ، فهؤلاء أخذوا يَسْتَعْرِضُونَ ما تقوله الزنادقة ، ويناقشونهم ويردون عليهم ، ويلزمونهم الحجّة ، وقد حكى لنا الكتب كثيراً من هذا الجدال ، نعرض له عند الكلام على المعتزلة إن شاء الله .

## الباب الثاني

### الثقافات في ذلك العصر

نهر

كان من أثر اختلاف السكان في المملكة الإسلامية ، وانتسابهم - من حيث أصولهم الى أمم مختلفة كما بينّا في الباب الأول - وامتزاج بعضهم ببعض في السكنى والتزواج وما إلى ذلك ، ودخول كثير من أفراد الأمم المختلفة في الاسلام ، ونمو الحضارة نمواً يستدعي علماً واسعاً بكثير من شؤون الحياة ، من هندسة وطب ونجوم ، ونظام حكم وفقه ، ولغة وأدب ، كان من أثر ذلك كله أن انتشرت في المملكة الإسلامية ثقافات مختلفة لأمم مختلفة ، وكان هناك رجال بارزون يحملون لكل ثقافة علمها ، ويذلون جهدهم في الدعوة لها ، والترويج لمبادئها ، وتحييها الى الناس ، وإفهامهم أنها خير أنواع الثقافات . وكان من مظاهر هذا : أن كل ثقافة أخذت تشق لنفسها جدولاً تسير فيه وحدها ، وكلها غزرت وزاد مددُها ، وسعت مجراها ، وتعهدته بالاصلاح ، وحافظت الى حد ما على استقلاله ، ثم نرى - بعد ذلك - أن هذه الجداول المستقلة - تقريباً - أخذت تلتقي ويتكوّن منها نهر عظيم ، تُصب فيه مياه



مختلفة . ورأينا أنّ ما حصل في الأجناس البشرية ، حصل نظيرُه في الثقافات العلية . قد كان في الأجناس امتزاج وتزاوج وتوليد ؛ فكان في الثقافات العلية امتزاج وتزاوج وتوليد ، وقد كان في الأجناس ميزات مختلفة ، كل جنس له مزاياه وله عيوبه ، وكانت عملية التوليد تنشأ من تلقيح دم بدم ، فينشأ جنس جديد له مزايا الجنسَيْن ، وعيوب الدَمَيْن ، وله خصائص أخرى ليست في الجنسَيْن ، فكان كذلك الشأن في الثقافات . كان هناك تقاح بين الثقافات ، ونشأ من هذا اللقاح ثقافات جديدة ، تحمل صفات من هذه وتلك ، وصفات جديدة لم تكن في هذه ولا في تلك ، وأصبح لها طابع خاص يميزها عما سواها . وكما كان في المملكة الإسلامية أمم مختلفة ، اشتهرت كل أمة بميزة ، كذلك امتازت الأمم المختلفة بميزات في العقلية ، تبعها ميزات في الثقافة . فما هي أشهر الثقافات في ذلك العصر ؟ وما ميزة كل ثقافة ؟ وماذا كانت

طبيعة جدولها قبل أن تصب في النهر الأعظم ؟

ثم بعد أن صبّت في ذلك النهر ، ماذا كانت طبيعة مائه ، وأيّ العناصر

غلب عليه ؟ وما مظاهر تلك العناصر في مياه النهر ؟

ذلك ما نريد أن نبحث عنه في هذا الباب .

قد انتشرت في هذا العصر أربع ثقافات ، كان لها الأثر الأكبر في عقول

الناس وأغنى بها : الثقافة الفارسية ، والثقافة اليونانية ، والثقافة الهندية ، والثقافة

العربية . كما كان هناك ثقافات دينية أهمها ؛ اليهودية والنصرانية والإسلام .

فلنتكلم كلمة في كل منها ، ولنختار لكل ثقافة من يمثلها - ما أمكن - ثم لنختار

مثلا ممن كان يمثل الثقافات كلها بعد امتزاجها .

## الفصل الأول

### الثقافة الفارسية

انتشرت الثقافة الفارسية - في العصر العباسي الأول - انتشاراً عظيماً، وساعد على ذلك أمران :

الأول - انشاء منصب الوزارة، وإسناده غالباً إلى الفرس .  
والثاني - انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد، وبعبارة أخرى من الشام إلى العراق .

الوزارة : كانت كلمة « وزير » معروفة للعرب قبل الفتح الاسلامي، ففي القرآن الكريم على لسان موسى « وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي » وفي حديث السَّقِيفَةِ « نَحْنُ الْأُمَرَاءُ وَأَتَمُّ الْوُزَرَاءِ » وفي طبقات « ابن سعد » « ان أبا بكر كان وزيراً للنبي صلى الله عليه وسلم » وفي طبقات الشعراء لابن قتيبة « ان أبا ذؤيب الهذلي - وهو شاعر جاهلي اسلامي - خان في امرأة ابن عم له ، ثم خانه خالد بن زهير فيها . فقال خالد يخاطب أبا ذؤيب :

فلا تجزعن من سنة أنت سرتها وأول راض سنة من يسيرها  
وكنت إماماً للعشيرة تنتهي إليك إذا ضاقت بأمر صدورها  
ألم تنتقدّها من ابن عويمر وأنت صفي نفسه ووزيرها!

وفي الدولة الأموية كان اللفظ مستعملاً، يقول الطبري : « إن زياداً كان

يسمى وزير معاوية »

ولكن الكلمة في كل المواضع التي ذكرنا ؛ لم تستعمل في المعنى

الاصطلاحي الذي نعرفه الآن من كلمة الوزير ؛ وإنما هي بمعنى الموازر المناصر.

قال ابن خلكان: « وقد اختلف أربابُ اللُّغة في اشتقاق الوزارة على قولين: أحدهما أنها من الوزر وهو الحمل، فكانَّ الوزير قد حمل عن السلطان الثقل، وهذا قول ابن قتيبة — . والثاني أنها من الوزر، وهو الجبل الذي يعتصم به لِيُنَجَّى به من الهلاك، وكذلك الوزير معناه الذي يعتمد عليه الخليفة، أو السلطان، ويلتجى إلى رأيه. وهو قول أبي اسحاق الزجاج »  
ونحن نرجح هذا - وهو أن أصل الكلمة عربي - على ما ذهب إليه بعض المستشرقين من أن أصل الكلمة فهلوى مأخوذ من فيشير Vi-chira ومعناه الأمر أو التقرير .

لم تكن كلمة وزير بدعا في العصر العباسي؛ إنما المبتدع هو إنشاء هذا المنصب، وإعطاء صاحبه السلطة الرسمية، وتلقيه بهذا الاسم، وهذا المنصب فارسي، ولم يكن معروفا قبل العباسيين - قال ابن خلكان في ترجمة أبي سلمة الخلال: « إن أبا سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير، وشهر بالوزارة في دولة بني العباس، ولم يكن قبله من يعرف بهذا الاسم، لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول »<sup>١</sup>.

ويقول الفخرى: « الوزير وسيط بين الملك ورعيته، فيجب أن يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك، وشطر يناسب طباع العوام، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة... والوزارة لم تتمهد قواعدها، وتتقرر قوانينها الا في دولة بني العباس، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد، ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك اتباع وحاشية، فاذا حدث امر استشار ذوى الحجي والآراء الصائبة، فكل منهم يجرى مجرى وزير، فلما ملك بنو العباس تقرررت قوانين الوزارة، وسمى الوزير وزيراً، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً او مشيراً »

وقد كان الوزراء الظاهرون في هذا العصر موالى فرساً ، فأبو سلمة الختال - أول وزير عباسي - مولى فارسي ، وأبو أيوب المورياني وزير المنصور فارسي من «موريان» قرية من قرى الأهواز ، ويعقوب بن داود وزير المهدي مولى كذلك ، وكذلك كان يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد ، واستوزر المأمونُ بنِي سهل وكانوا من أولاد ملوك الفرس ، ومن صنائع البرامكة ، واستوزر المأمون الفضل بن سهل ، ثم الحسن بن سهل ، ولما دالت دولة بني سهل استوزر المأمون أحمد بن يوسف ، وهو مولى لبني العجل<sup>١</sup> . ثم استوزر ثابت بن يحيى بن يسار الرازي وهكذا .

فترى من هذا أن أكثر الوزراء في هذا العصر الذي تُوِرَّخه كانوا فرساً ، وكان الوزير قائماً مقام الخليفة في كل الشؤون . فينظر في الشؤون الحربية ، وفي الشؤون المالية ، ويكتب الرسائل الى الجهات المختلفة ، ويوقع على ما يُرْفَع اليه من أوراق ، ولم يتعدد الوزراء في الدولة العباسية بتعدد الأعمال ، فيجعل للحرب وزير ، وللمال وزير وهكذا . وإنما كان تعدد الوزراء بتعدد الأعمال ، من نظام الأندلسيين « فقد قَسَمُوا خُطَّةَ الوزارة أصنافاً ، وأفردوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا حُسبان المال وزيراً ، ولترسل وزيراً ، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً ، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً<sup>٢</sup> » وعلى العكس من ذلك العباسيون ؛ فقد جمعوا له بين خُطَّتَي السيف والقلم .

وهذا الذي ذكرنا من أن الوزير كان يجمع إلى الإدارة الحربية والمالية خطة القلم - وأعني بها إنفاذ الرسائل الى الجهات ، والتوقيع على ما يُعْرَض عليه من مطالب ورسائل - جعلَ من شروط الوزير أن يكون عالماً مطلعاً ، كاتباً بليغاً . وكذلك كان أكثر الوزراء في ذلك العصر « حكى أن المأمون كتب في اختيار وزير : إني التمت لأموري رجلاً جامعاً لخصال

الخير ، ذاعفة في خلائقه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذّبت الآداب ، وأحكمتها التجارب ، إن أوّتمن على الأسرار قام بها ، وإن قُلِّدَ مهمات الأمور نهض فيها . يُسكته الحلم ، وينطقه العلم . وتكفيه اللحظة ، وتُغنيه اللحظة . له صَوْلَةٌ الأُمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء . إن أحسن إليه شكر ، وإن ابتُليَ بالاساءة صبر . لا يبيع نصيبَ يومه بجرمان غده ، يسترقُّ قلوب الرجال بخلاصة لسانه وحسن بيانه <sup>١</sup> وتاريخ الوزراء ، يدلنا على أن أكثر من اختير للوزارة لوحظ في اختيارهم الكفاية العلمية والبلاغية ، فأبو سلمة الخلال كان فصيحاً عالماً بالأخبار ، والأشعار والسير والجدل ، والبرامكة كانوا ذوى مشاركة في كثير من العلوم والآداب . والفضل بن سهل كان يسمى ذا الرياستين لجمعه بين رياسة السيف ورياسة القلم الخ .

وهذه القدرة الكتابية التي كان يشترطها الخلفاء في الوزير ، كانت من أكبر الأسباب في قصر الوزارة على الفرس - غالباً - فالعرب كانوا أهل فصاحة لسانية أكثر منهم أهل بلاغة كتابية . ولعل هذا هو السبب في أنهم وضعوا للفصاحة كلمة مشتقة من اللسان ، فقالوا ، رجل لسن إذا كان ذا بيان وفصاحة ، ولم يشتقوا مثل ذلك من الكتابة .

والحق أن القدرة الكتابية كانت عند الفرس أبين منها عند العرب ، وحتى في الدولة الأموية كان أظهرُ الكتاب الفنين من الفرس ، أمثال عبد الحميد الكاتب ، وسالم مولى هشام . وكان العربي يفخر بالسيف واللسان لا بالقلم . قال يزيد بن معاوية يعدد فضل بيته على زياد بن أبيه : « لقد نقلناك من ولاء ثقيف إلى عزّ قريش ، ومن عبيد إلى أبي سفيان ، ومن القلم إلى المنابر ! » ولم تزل العرب تفضل السيف على القلم ، وفي ذلك يقول سميّط ابن جرير النمرى :

أَتَحْقِرُنِي وَلَسْتَ لِذَلِكَ أَهْلًا      وَتُدْنِي الْأَصْغَرِينَ مِنَ الْخَوَانِ ؟  
جَهَابِذَةً وَكُتَّابًا وَلَيْسُوا      بِفُرْسَانَ الْكُرَيْمَةِ وَالطَّعَانَ  
سَتَعْرِفُنِي وَتَذَكُرُنِي إِذَا مَا      تَلَاقَى الْحَلِيقَتَانِ مِنَ الْبَطَانِ ١

\*\*\*

هؤلاء الوزراء كان لهم - من هذه الناحية التي تعيننا الآن وهي ناحية أنهم أرباب أقلام - أعوان يسمون الكُتَّاب، فقد كان لكل وزير كاتب، بل كُتَّاب يعينونه. ولولاة الأقاليم، ورجال الدولة كُتَّاب. فكان حماد مجرد مثلاً: كاتباً ليحيى بن محمد بن صُول بالموصل، وكان ابن المقفع يكتب لداود ابن عمر بن هُبَيْرَةَ والي كَرْمَانَ ٢، وكان عمرو بن مَسْعَدَةَ يكتب للمأمون، وكان الحسن بن عيسى يكتب لعمر بن مسعدة، وكان يكتب ليحيى بن خالد البرمكي عبد الله بن سوَّار بن ميمون وهكذا.

وكانت هذه الطائفة - طائفة الكُتَّاب - تؤلِّف وحادّة على رأسها الوزير، بل وتدرج في الرقي إلى الوزارة، معتمدة على كفايتها وبلاغتها. فقد وقّع عمرو بن مسعدة على ورقة رُفِعت إلى جعفر بن يحيى، فأعجب جعفر بتوقيع عمرو، فضرب يحيى بيده على ظهر عمرو وقال: «أى وزير فى جلدك!» ٣. وكان بين أفراد هذه الكتلة صلوات ولو لم يتعارفوا «حضر ديوان الخراج فى أيام الرشيد شيخ من قدماء الكُتَّاب، ومعه توقيع من الرشيد بقضاء دين عليه، فعُني الكُتَّاب به، وزجّوا كتابه، فقال لهم: احفظوا عني ثلاثاً الجوارُ نسب، والمودّة نسب، والصناعة نسب» ٤ وقبل ذلك كانت نصيحة عبد الحميد الكاتب لمعشر الكُتَّاب، دليلاً على أنهم كانوا يؤلّفون وحده فى آخر عهد الدولة الأموية.

١ الوزراء والكُتَّاب للجهشيارى: ٢٤ والبطان حزام ذو حلقتين يشد على بطون الخيل ويعنى بتلقيهما الاستعداد للحرب. ٢ المصدر نفسه ٣ انظر مقالة الاستاذ كرد على فى هذا الموضوع فى مجلة المجموع العلمى «البلاغة سبيل الوزارة» جزء ٥ و٦ سنة ٢٧ ٤ الجهشيارى: ٣٤٣

كان أكثر هؤلاء الكتاب فرساً كالوزراء ، يحتدون حذو أجدادهم من الفرس - حتى في مظاهرهم الخارجية - يروى الجهشيارى : « أن الفضل بن سهل بن زاذان فروخ - ذا الرياستين - كان يجلس على كرسي مُجَنَّب ، ويُحْمَلُ فِيهِ إِذَا أَرَادَ الدَّخُولَ عَلَى المَأْمُونِ ، فَلَا يَزَالُ يُحْمَلُ حَتَّى تَقَعَ عَيْنُ المَأْمُونِ عَلَيْهِ ، فَإِذَا وَقَعَتْ وَضِعَ الكُرْسَى وَنَزَلَ عَنْهُ فَشَى ، وَحْمِلَ الكُرْسَى حَتَّى يَوْضِعَ بَيْنَ يَدَيِ المَأْمُونِ ، ثُمَّ يُسَلِّمُ ذُو الرِّيَاسَتَيْنِ وَيَعُودُ فَيَقْعُدُ عَلَيْهِ . . . وَإِنَّمَا ذَهَبَ ذُو الرِّيَاسَتَيْنِ فِي ذَلِكَ إِلَى مَذْهَبِ الأَكَاسِرَةِ ، فَإِنَّ وَزِيرًا مِنْ وَزَرَائِهَا كَانَ يُحْمَلُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الكُرْسَى ، وَيَقْعُدُ بَيْنَ أَيْدِيهَا عَلَيْهِ ، وَيَتَوَلَّى حَمْلَهُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ المُلُوكِ ! »<sup>١</sup>

بل إن تكوُّن الكتاب كطبقة ، ليس إلا تقليداً للنظام الفارسي ، فالجهشيارى يقول : « كان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة من في خدمتهم لبسة لا يلبسها أحد من في غير تلك الطبقة ، فإذا وصل الرجل إلى الملك عَرَفَ بلبسته صناعته ، والطبقة التي هو فيها ، فكان الكتاب في الحضرة يلبسون لبستهم المعهودة . . . وكانت ملوك الفرس تسمى كتاب الرسائل تراجمة الملوك »<sup>٢</sup>

كان هؤلاء الكتاب أثر كبير في نشر نوع من الثقافة خاص ، ذلك أن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم ، وكانت معارفهم ودائرة اطلاعهم واسعة شاملة ، لأنهم - بحكم مناصبهم - مضطرون أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم ، وأن يعرفوا من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والجغرافيا والتاريخ طرفاً ، لأن كثيرًا من مواقفهم يحتاج إلى ذلك ، وقد تعرَّض للخليفة أو الوالي مسائل من هذا القبيل ، يضطرُّ الكاتب إزاءها أن

١ الجهشيارى : ٤٠١ و ٤٠٢ ٢ المصدر نفسه : ٣ و ٤

يكون مأمراً بجميع ذلك . إذ هم الذين كانوا يعرضون على الخلفاء ما يرد عليهم  
ويحررون ما يصدر منهم . ويتضح ذلك اذ نحن قارئاً بين معارف الكاتب ،  
ومعرفة المحدث أو الفقيه في ذلك العصر . فالمحدث أو الفقيه معارفه محدودة ،  
ودائرة حول فنه ، فان توسع في شيء فانما يتوسع في المسائل التي تعدّ وسائل  
لفنه كاللغة والنحو والصرف . أما الكاتب فدائرته أوسع من ذلك . وحسبنا  
دليلاً على هذا ما ألف للكاتب من الكتب .

فأول ما نعرفه من ذلك « أدب الكاتب لابن قتيبة » فقد حمله على تأليفه  
كما ذكر في مقدمته : أنه رأى طائفة من الكتاب « قد شغفت بالنظر في النجوم  
والمنطق والفلسفة ، وعرفت الكون والفساد . وسمع الكيان والكيفية  
والكمية ، والجوهر والعرض ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم الخ » .  
وأهملوا النظر في اللغة وما إليها فوضع لهم كتابه في ذلك ، فهو خاص بما يلزم  
الكاتب من لغة ونحو وصرف وإملاء . وألف بعده أبو بكر الصولي كتابه  
« أدب الكتاب » فعمز ابن قتيبة بالتقصير في كتابه ، وتوسع هو في مسائل  
لم يتعرض لها ابن قتيبة ، فتكلم في حسن الخط وقبحه ، والدواة والقلم وما  
اليهما ، وتتريب الكتاب وطيبه ، والدعاء في المكاتبات - والدوواين  
وتحويلها الى العريضة ، ووجوه الأموال التي تحمل الى بيت المال ، وشيء  
من قواعد الإملاء . وألف ابن درستويه المتوفى سنة ٣٤٦ كتاب  
« الكُتّاب » وأكثره في قواعد الإملاء ، وفي آخره باب في افتتاح  
الكتاب ، وفي التاريخ ، وما يذكّر منه وما يؤنث ، وما يفرد ويجمع ثم في  
برئى القلم وسننه وقطبه ، والدواة وما إليها الخ . وتوسع من جاء بعدهم - من  
المؤلفين للكتّاب - حتى ختمت بكتاب « صبح الأعشى في صناعة الانشاء »  
فتعرض فيه - تقريباً - لكل المعلومات البشرية في عصره ، من تاريخ وجغرافيا  
وفلك ، وما يحتاج اليه الكاتب عملياً في صناعته من خط ونحوه ، ومصطلح



المكاتبات، وكيفية العقود، والبريد، ومطارات حمام الرسائل، والمنارات الخ. فترى من هذا كيف كان المؤلفون يعنون بهذه الطبقة من الناس، وكيف كانوا يتطلبون منهم المعارف الواسعة في الموضوعات المختلفة، وأن هذه الطبقة كانت تمتاز عن بقية العلماء بالثقافة العامة.

بل يظهر لي أن هذا الموقف، هو الذي جعل الناس يقولون: إن الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف، فقد نرى أن كلمة الأدب في صدر الإسلام كانت تطلق على التهذيب الخلقى، ثم كانت تطلق على العلم باللغة والشعر، وأيام العرب وتاريخها وما إلى ذلك. واستعملت بهذا المعنى في العهد الأموي. فلما جاء هؤلاء الكتاب واتسعت الثقافة، وصاروا يتطلبون من الكاتب أن يعرف الثقافة العربية والفارسية اتسع معنى الأدب، وقالوا: « إن الأدب الأخذ من كل شيء بطرف »

بل جعلوه يشمل معرفة شيء من الألعاب، قال الحسن بن سهل، وهو أحد الوزراء والكتاب في عصرنا العباسي: « الآداب عشرة: فثلاثة شهرجانية وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربت عليهن. فأما الشهرجانية فغزب العود، ولعب الشطرنج. ولعب الصّواج. وأما النوشروانية فالطب، والهندسة، والفروسية. وأما العربية فالشعر، والنسب، وأيام الناس. وأما الواحدة التي أربت عليهن فمقطعات الحديث، والسمر، وما يتلقاه الناس في المجالس »<sup>١</sup>.

بل يظهر لي - أيضاً - أن هذا كان أحد الأسباب في فوضى الكتب الأدبية المؤلفة في ذلك العصر. كاليان والتيين، والكامل، وعيون الأخبار. فقد قصدوا فيها إلى جمع ما يفيد، وتكويمه بعضه فوق بعض، فاهمين الأدب بمعناه الواسع الذي ذكرنا، فحكمة بجانبها بيتان من الغزل، إلى نادرة لطيفة إلى خطبة بليغة، إلى قصص في البخل، إلى أخبار الخوارج.

والجاحظ - في كتابه الحيوان - تكلم في الخِصاء بعد كلامه في فائدة الكتاب، الى غير ذلك . لأن الغرض عندهم أن يلم الأديب من كل شيء بطرف، ثم جاءت الكتب الأخرى بعدها تحذو حذوها، وتفرق مجتمعاً، وتجمع متفرقاً، وتزيد ما استحدثت من الطرف الأدبية.

هؤلاء الوزراء والكتاب نشروا الثقافة العامة، وضموا الى الآداب العربية الآداب الفارسية، فأصبح مما يتطلبه الأدب؛ أن تعرف حكم بزرجمهر كما تعرف حكم أكتم بن صيفي، وتعرف تاريخ الفرس كما تعرف تاريخ العرب، وتعرف أقوال كسرى وسابور وأبرويز وموبذ وموبدان كما تعرف أقوال الخلفاء الراشدين والأدويين، فقد جاء في نصيحة عبد الحميد الكاتب الى الكتاب: فنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والأدب، وتفقهاوا في الدين، وابدؤوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية فاتمها ثقاف ألسنتكم، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب، والعجم وأحاديثها وسيرها؛ فان ذلك معين لكم على ما تسمون اليه بهمكم، ولا يضعفن نظركم في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج منكم». وقال الرشيد للكسائي معلم أولاده: «يا علي بن حمزة، قد أحللتك المحل الذي لم تكن تبلغه همتك، فروتا من الأشعار أعفها، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق، وذاكرنا بأداب الفرس والهند، ولا تسرع علينا الرد في ملاء، ولا تترك تثقيفا في خلاء»

السبب الثاني - في نشر الثقافة الفارسية - انتقال عاصمة الخلافة من دمشق الى العراق، وكان من أكبر بواعث العباسيين على هذا الانتقال أن دمشق كانت عاصمة الأمويين، وكانت ضلع الشام مع بني أمية من عهد الخلفاء بين علي ومعاوية، وكان الشاميون هم الجند المخلص لبني أمية، وهم مثال

الطاعة لدولهم فمن حزم العباسيين ألا تكون عاصمة الدولة الجديدة بين الشاميين وتحت رحمتهم، وفوق ذلك، فدمشق بعيدة جداً عن خراسان، منبع الثورة، ومصدر الدعوة، وذخيرة العباسيين وعمادهم.

وسبب آخر وهو: أن دمشق مُنتحيةٌ ناحية الغرب، وليست في الوسط، ولا قريبة من وسط المملكة التي تمتد من البحر الأبيض الى الهند. والعراقُ يحقق هذه الأغراض فبغداد قريبة من خراسان، قريبة من الشرق، بعيدة عن الروم، كثيرة الخيرات، صالحة لأن تكون نقطة اتصال بين الفرس والأمم السامية. وقد كره العباسيون أن يتخذوا البصرة أو الكوفة مقرّاً لهم لأن تاريخهما - وخصوصاً البصرة - سلسلة ثورات متصلة، ولأن فيهما عدداً كبيراً يتشيع لعلي وأولاده، وهذا التشيع جرّم يؤخذ عليه العباسيون، كما كان يؤخذ عليه الأمويون - لذلك اتخذ السفاح مدينة الهاشمية قرب الأنبار. فلما جاء أبو جعفر المنصور اختار موقع بغداد، وقد وُفق في اختياره، فجانبا الأراضى الخصبة بين دجلة والفرات، وهي كما قال بعض النصارى للمنصور: «يا أمير المؤمنين، تكون على الصّرة بين دجلة مع الفرات، فاذا حاربك أحد كانت دجلة والفرات خنادق لمدينتك، ثم إن الميرة تأتيك - في دجلة - من ديار بكر تارة، ومن البحر والهند والصين والبصرة، - وفي الفرات - من الرقّة والشام، وتجيئك الميرة أيضاً من خراسان وبلاد العجم في نهر تامرّا، وأنت يا أمير المؤمنين بين أنهارك لا يصل عدوك اليك الا على جسر أو قنطرة، فاذا قطعت الجسر وأخربت القنطرة لم يصل اليك عدوك، وانت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد، وأنت قريب من البر والبحر والجبل»<sup>١</sup>.

والذي يهمننا هنا أن بغداد كانت في العراق حيث عواصمُ الممالك القديمة مثل بابل والمدائن.

لهذا كله ، أصبحت بغداد - بعد قليل - أهم مركز للحضارة والثقافة في المملكة الإسلامية بل في العالم كله - ونحن إذا استثنينا أوقات الفتن والاضطرابات أمكننا أن نقول : إنها ظلت في رقي واتساع وعظمة الى نهاية القرن الخامس الهجري .

كان لهذا الانتقال من الشام الى العراق أثر كبير - من الناحية العقلية - فقد كان يسكن العراق أمم مختلفة . وتداولت عليه دول خلفت فيه مدنيته وثقافتها ، وكان يسكنه قبائل الفتح الإسلامي بقايا من الأمم القديمة مثل السكّدان والسريريان وهم الذين يلقّبون بالآراميين ، وكان يسكنه العرب من إياد وربيعة ، وكان يقيم به المناذرة الذين استسوا ملوك الحيرة ، وكانت مدينة الفرس غالباً عليه لأن آخر من حكمه قبل الإسلام هم الساسانيون من الفرس ، وظل في أيديهم زمناً طويلاً ، إلى ان استولى عليه المسلمون في أيام عمر ، وكانت فيه « المدائن » عاصمة الساسانيين . كل هذا جعل العراق أكثر ما يكون اصطفاً بالفارسية فلما كان العباسيون ، وكان الفرس هم الذين اعانواهم ، كان من هذا وذاك نفوذ للفرس عظيم في المناصب وفي الثقافة .

والآن نريد أن نبحث النواحي التي كان فيها للثقافة الفارسية أثر في الثقافة الإسلامية .

فأول ذلك الألفاظ اللغوية : ذلك أن العرب لما تحضروا بعد البداوة وجدوا أنفسهم أمام أشياء كثيرة ، ليس في الفاظهم ما يدل عليها ، وكان ذلك في جميع مرافق الحياة ، من أدوات الزينة ، وانواع المأكل والملبس ، وآلات الغناء ، والدواوين ونظامها ونحو ذلك ، فسلكوا خيراً طريقاً يسلك لذلك . وهو : أن يتوسّعوا في مدلولات الكلمات العربية أحياناً ، ويأخذوا الكلمات الأجنبية كما هي أحياناً ، ومصقولة بما يتفق ولسانهم أحياناً . وكانت اللغة الفارسية منبعاً كبيراً من المنابع التي تستمد منه اللغة العربية وتوسع به مادتها - حكى الصولي قال : « حدثنا

على ابن الصباح قال : سمعت الحسن بن رجاء يقول : ناظر فارسي عربياً بين  
يدي يحيى بن خالد البرمكي فقال الفارسي : ما احتجنا إليكم قط في عمل ولا  
تسمية ، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنا في أعمالكم ولا لغتكم ، حتى إن طيخكم  
وأشربتكم ودواوينكم وما فيها على ما سمينا ، ما غيرتموه ، كالأسفيداج  
والسكباج والدوغباج ، وأمثاله كثيرة ، وكالسكنجيين والخلنجيين والجلاب  
 وأمثاله كثيرة : وكارلوزناج والأسكدار والفراونك وإن كان رومياً ! - ومثله  
كثير - فسكت عنه العربي . فقال له يحيى بن خالد قل له : اصبر لنا نملك كما ملكتم  
ألف سنة ، بعد ألف سنة كانت قبلها لا نحتاج إليكم ، ولا إلى شيء كان لكم !<sup>١</sup>  
ويقول الجاحظ : « ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس  
في قديم الدهر علقوا بالفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ الخربز ...  
وكذا أهل الكوفة فانهم يسمون المسخاة « بال » و « بال » بالفارسية ...  
وأهل البصرة اذا التقت أربعة طرق يسمونها مربعة ويسمونها أهل الكوفة  
« بالجهارسو » والجهارسو فارسية ويسمون السوق أو السويقة « وازار »  
والوازار فارسية . ويسمون القشاء خياراً ، والخيار فارسية الخ<sup>٢</sup> .

من قديم تسربت ألفاظ فارسية الى اللغة العربية ، وكان ذلك بطريق  
التجارة أو الاختلاط . ولكنها تعد قليلة اذا قيست بالألفاظ التي دخلت  
في العصر العباسي للسبب الذي ذكرنا ، وهو أن العرب كانوا أكثر شعوراً  
بأسباب الحضارة في العصر العباسي ، فكانوا أشد احتياجاً للاقتباس من  
الفرس ، ولأن اللغة العربية لم تعد ملكاً للعرب وحدهم ؛ بل كانت ملكاً للعالم  
الاسلامي جميعه ، والعالم الاسلامي لا يتعصب للغة العربية تعصب العرب ،  
فهو يفسح صدره للغات الأخرى ما دعا داع إليها .

ثانياً : قد كان للفرس - من قديم - علم وأدب يتناسبان مع ضخامة ملكهم

١ أدب الكتاب للصولي : ١٩٣ ٢ البيان والتبيين جزء ١ ص ١٠٧

وعظم سلطانهم ، فلما جاءت الدولة العباسية ، وكثير من رعيها فرس ، لهم  
نزعة وطنية ، وميول قومية ، أخذ المثقفون ينقلون الى العربية تراث آبائهم ،  
وما حفظته العصور الى عهدهم .

كانت لهم كتب في التنجيم والهندسة والجغرافية ، وكانت تتوالى عليهم  
نكبات تذهب بكثير من كتبهم . ولكن كانت مدينتهم في حياة وعظمة ، فكانت  
تستردُّ مجدها بتأليف كتب جديدة تسير عظيمهم . وأكبر نكبة عرتهم كانت بفتح  
الاسكندر الأكبر لبلادهم ، وقد تلف في هذا الحرب كثير من خزائن كتبهم  
فلما جاءت الدولة الساسانية ( ٢٢٦ — ٦٥٢ م ) استعادوا أدبهم وعلهم .  
وأظهرُ ملوكهم في الميل الى العلم ، وتشجيع الترجمة والتأليف أردشير بابك  
( ٢٢٦ — ٢٤١ م ) فقد بعثَ في طلب الكتب من الهند والروم والصين ،  
وكذلك كان الشأن في عهد ابنه سابور ، وعهد كسرى أنوشروان .

وقد دامت الدولة الساسانية نحو أربعة قرون ، خلقت فيها علماء كثيراً ،  
وأدباً وفيراً . وأكثر ما نقل اليها في العصر العباسي - من الأدب والعلم ،  
والأساطير والتاريخ - إنما يرجع الى هذه الاسرة ، قال حمزة الأصفهاني : « فأما  
تواريخ من كان قبل الساسانية من ملوك الأشغانية ، فلم اشتغل بها الآفات المعترضة  
فيها - كانت - في أزمنة أولئك الملوك ، وذلك أن الاسكندر لما استولى على  
أرض بابل وقهر أهلها ، حسدهم على ما كان اجتمع لهم من العلوم التي لم  
تجمع قط لأمة من الأمم مثلها ، فأحرق من كتبهم ما نالته يده ، ثم قصد إلى  
قتل الموازنة والهرابذة والعلماء والحكماء ، ومن كان يحفظ عليهم في أثناء  
علومهم تواريخهم ، حتى أتى على عامتهم - هذا - بعد أن نقل ما احتاج اليه  
من علومهم الى لسان اليونانيين »<sup>٢</sup> .

١ هكذا في الأصلين الهندي والأوروبي

٢ تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني ص ٢٢ والبحث الحديث لا يؤيد كل ذلك

فلما نشطت الحركة العلمية في العصر العباسي ، أخذ طائفة من يجيدون اللسانين - الفارسي والعربي - ينقلون الكتب من الفارسية الى العربية ، وقد عقد ابنُ النديم في كتابه الفهرست فصلاً لأسماء النقلة من الفارسي الى العربي ، ذكر منهم : ( ١ ) عبد الله بن المقفع ( ٢ ) آل نَوْبَحْت ( ٣ ) موسى ويوسف ابني خالد ( ٤ ) أبا الحسن علي بن زياد التيمي ( ٥ ) الحسن بن سهل ( ٦ ) البلاذري ( ٧ ) جبلة بن سالم ( ٨ ) اسحق بن يزيد ( ٩ ) محمد بن الجهم البرمكي ( ١٠ ) هشام بن القاسم ( ١١ ) موسى بن عيسى الكردي ( ١٢ ) زادويه بن شاهويه الأصفهاني ( ١٣ ) محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني ( ١٤ ) بهرام بن مردان شاه ( ١٥ ) عمر بن الفرّخان<sup>١</sup> .

وقد ترجم عبد الله بن المقفع « كتاب خداينامه » وهو كتاب في تاريخ الفرس من أول نشأتهم الى آخر أيامهم ، وقد سماه ابن المقفع « تاريخ ملوك الفرس » والظاهر أن الطبري اعتمد عليه في كتابه تاريخ الأمم والملوك عند كلامه على « الساسانيين » وترجم كذلك كتاب « آيين نامه » ومعنى الآيين النظم والعاتات ، والعرف والشرائع . فالكتاب وصف لنظم الفرس ، وتقاليدهم وعرفهم . وقد ذكر المسعودي : أنه كتاب كبير ، يقع في آلاف من الصفحات . كذلك ترجم ابن المقفع عن الفارسية « كليلة ودمنة » وكتاب « مزدك » وهو يتضمن سيرة مزدك الزعيم الديني الفارسي المشهور ، وكتاب « التاج » في سيرة أنوشروان ، وكتاب « الأدب الكبير » و« الأدب الصغير » وكتاب « اليتيمة »<sup>٢</sup> . وقد ذكر المسعودي : أن ابن المقفع ترجم كتاباً اسمه كتاب « الكيكيين » من الفارسية الأولى الى العربية — وهذا الكتاب تعظمه الفرس لما قد تضمنه من خبر أسلافهم وسير ملوكهم<sup>٣</sup> .

١ ابن النديم ص ٢٤٤ وما بعدها ٢ المصدر نفسه ص ١١٨ ٣ مروج

وقد عُنِيَ المترجمون فترجموا كتباً عديدة من تاريخ الفرس ، يقول حمزة الأصبهاني : « اتفق لي ثمان نسخ - من تاريخ الفرس - وهي كتاب سيرملوك الفرس من نقل ابن المقفع ، وكتاب سيرملوك الفرس من نقل محمد بن الجهم البرمكي ، وكتاب تاريخ ملوك الفرس المستخرَج من خزانة المأمون ، وكتاب سيرملوك الفرس من نقل زادويه بن شاهويه الأصبهاني ، وكتاب سيرملوك الفرس من نقل أو جمع محمد بن بهرام بن مطيار الأصبهاني ، وكتاب تاريخ ملوك بني ساسان من نقل أو جمع هشام بن قاسم الأصبهاني ، وكتاب تاريخ ملوك بني ساسان من اصلاح بهرام بن مردانشاه مؤبَّد « كورة شابور » من بلاد فارس ، فلما اجتمعت لي هذه النسخ ضربت بعضها ببعض حتى استوفيت منها حق هذا الباب »<sup>١</sup>

وقال المسعودي : « ورأيت بمدينة اصطخر من أرض فارس في سنة ٣٠٣ عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتاباً عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم ، وأخبار ملوكهم وأبنتهم وسياستهم ، لم أجدها في شيء من كتب الفرس ؛ كخداينامه ، وأيينامه ، وكهنامه وغيرها ، مصوّر فيه ملوك فارس من آل ساسان سبعة وعشرون ملكاً ، منهم خمسة وعشرون رجلاً وامرأتان »<sup>٢</sup>

وترجم جبلة بن سالم « كتاب رستم واسفنديار » و « كتاب بهرام شوس » وهما في السّير<sup>٣</sup> .

وقد ترجم من الكتب الدينية كتاب زرادشت المسمى « أفتستا » وما عليه من شروح ، وينقل عنه حمزة الأصفهاني<sup>٤</sup> . ويقول المسعودي : « كانوا يقولون إن رجلاً بسجستان بعد الثلثمائة مُستظهر بحفظ هذا الكتاب على الكمال »<sup>٥</sup> .

١ حمزة الأصفهاني ص ٨ ٩ كذا بالأصل وهي كما ترى سبع نسخ لا ثمان

٢ كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي : ١٠٦ ٣ ابن النديم ص ٣٠٥

٤ المصدر نفسه ص ٦٤ ٥ مروج الذهب جزء ١ : ١١٠



وفي الأدب؛ ترجموا عن الفرس أشياء كثيرة، منها ما ذكرنا قبل من كلية ودمنة، واليتمة، والأدب الكبير، والصغير، ومنها كتاب «هزار أفسانه» ومعناه ألف خرافة، وهو أصل من أصول «ألف ليلة وليلة» وكثير غيره من كتب القصص؛ ككتاب بوسفاس، وكتاب خرافة ونزهة، وكتاب الدب والثعلب، وكتاب رُوز به اليتيم، وكتاب نمرود، الخ. كما ترجموا في الأدب عهد أردشير، وهو محفوظ بالعربية الى عهدنا، وكتاب موبد موبدان، وكتاب أردشير في التسدير، وتوقعات كسرى. وكتاب أدب الحرب، الخ<sup>١</sup>.

هذا الذي ذكرنا كان ترجمة ونقل من اللسان الفارسي الى العربي، وشيء آخر لا يقل عنه شأنًا، وهو: أنه كان هناك قوم أتقنوا اللغة الفارسية والعربية معاً، فعكفوا على قراءة الكتب الفارسية يتثقفون بها، ويرقون أفكارهم وعقولهم، ثم هم يخرجون باللغة العربية أدباً وشعراً وعلماً، وليس ما يخرجونه نقلاً تاماً لكلام فارسي ولكنه منبعث عنه، ومتولد منه، كالعربي اليوم يتثقف ثقافة فرنسية أو انجليزية أو ألمانية، ثم هو بعد ذلك يخرج أدباً جديداً بلغته العربية لا يسمى أدباً أوروبياً، ولكنه نتاجه ومتأثر به، وسائر على أثره. كان كثير من الفرس على هذا النحو، حذقوا الفارسية والعربية، وتثقفوا الثقافتين، وأنتجوا في الأدب العربي نتاجاً جديداً كالفضل بن سهل، وسهل ابن هارون، وابن المقفع، ويقول الجاحظ عن موسى بن سيار الأسواري - أحد القصاص - كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية. فلا يُدرى بأى لسان هو

أَيِّنَ . واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منها الضيمَ  
على صاحبها، إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسواري<sup>١</sup>  
بل نرى قوماً من العرب تعلموا الفارسية، ووجدوا فيها من الغذاء ما لم  
يجدوه في العربية، فعكفوا على كتبها يتدارسونها ويمعنون في دراستها، ثم  
يخرجون بعد أدباً عربياً فيه معاني الفرس، وبلاغة العرب. نذكر مثلاً على  
ذلك « العتّابي » الشاعر العباسي المشهور. وهو عربي من تَغْلِبِ اسمه  
كثُوم بن عمرو بن أيوب، تشقف بالثقافة الفارسية، وأعجِب بها. يحدثنا  
طيفور فيقول: « قال يحيى بن الحسن: إني بالرفقة بين يدي محمد بن طاهر  
ابن الحسين علي برُكة إذ دعوت بـغلام له فكلّمته بالفارسية، فدخل  
العتّابي - وكان حاضرأ في كلامنا - فتكلم معي بالفارسية، فقلت له: أبا عمرو!  
مالك وهذه الرطانة؟ قال فقال لي: قدمت بلدكم هذه ثلاث قَدَمَات، وكتبت  
كتب العجم التي في الخزانة بمرّو - وكانت الكتب سقطت إلى ما هناك مع  
يزدجرد فهي قائمة إلى الساعة - فقال: كتبت منها حاجتي ثم قدمت نيسابور  
وجزّتها بعشر فراسخ إلى قرية يقال لها ذودَر، فذكرت كتاباً لم أقض  
حاجتي منه، فرجعت إلى مرو فأقمت أشهرأ، قال: قلت أبا عمرو لم كتبت  
كتب العجم؟ فقال لي: وهل المعاني إلا في كتب العجم، والبلاغة. اللغة لنا  
والمعاني لهم! ثم كان يذاكرني ويُحدّثني بالفارسية كثيراً<sup>٢</sup>  
كان العتّابي إذا مثقفاً ثقافة فارسية، وأنت إذا قرأت شعره ونثره تبينت  
منه أنه كان أدبياً ممتازأ، عزيز المعاني، على حين أن كثيراً من الشعراء أشعارهم  
جوفاء. تقرأ له مثلاً في العقد الفريد، قطعاً نثرية غزرت معانيها، ودق  
أسلوبها، وتقرأ له شعراً مطبوعاً في فنون مختلفة من فنون الشعر - فتشعر  
بروح غير مألوف، كأن يقول:

١ البيان والتبيين ١: ١٣٩ ٢ طيفور الجزء السادس من تاريخ بغداد ص ١٥٧، ١٥٨

فَلَوْ كَانَ لِلشُّكْرِ شَخْصٌ يُبَيِّنُ إِذَا مَا تَأَمَّلَهُ النَّاضِرُ  
لَمَثَلْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ لَتَعَلَّمَ أَنِّي أَمْرٌ شَاكِرٌ  
فِيُفْتَنَ بِهِ النَّاسُ ، وَيَتَغَوَّنَ بِهِ زَمَانًا طَوِيلًا ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

مَا جَفَّ لِلْعَيْنَيْنِ بَعْدَ دَاكِ يَاقِرِيرِ الْعَيْنِ مَجْرَى  
إِنَّ الصَّبَابَةَ لَمْ تَدَعْ مِنِّي سِوَى عَظْمِ مُبْرَى  
وَمَدَامِعِ عَبْرَى عَلَيَّ كَبِدِ عَلَيْكَ الدَّهْرِ حَرَى

وله حكم تشبه حكم ابن المقفع، كأن يقول: الأقلام مطايا الفطن. قَرِيْبُكَ مِنْ قَرُبٍ مِنْكَ خَيْرُهُ، وابن عمك من عمك نفعه، وعشيرك من أحسن عشرتك، وأهدى الناس إلى مودتك من أهدى بره إليك « وكتب يوصي بشخص فقال: « موصل كتابي إليك أنا: فكمله أنا! » وعلى الجملة فالعتابي شخصية نادرة، لم تقدر قدرها اللائق بها. قليل اللفظ، غزير المعنى، يدل ثره وشعره على ثقافة واسعة، قد اجتمع له من الاجادة في النظم والنثر ما ندر أن يجتمع لغيره، وقد أدركنا سبب ذلك مما علمنا من ثقافته. هؤلاء الفرس الذين تعربوا، وهؤلاء العرب الذين أخذوا بحظ من الثقافة الفارسية؛ ملئوا الدنيا في هذا العصر العباسي علماً وحكمة وشعراً ونثراً، فيها العنصر الفارسي واضح جلي. ومن حظ العربية وقتذاك أنها سادت اللغة الفارسية وغلبتها على أمرها، فكان نتاج العقول الفارسية الراجحة؛ إنما هو باللغة العربية لا الفارسية، شعر الشاعر منهم عربي كبشار، وأدب الأديب منهم عربي كابن المقفع، وتأليف المؤلف منهم عربي كابن قتيبة والطبري الخ. ثالثاً — أثر الثقافة الفارسية في الأدب العربي. وقد كان ذلك من جملة وجوه:

١ — أن الأدب — في كل عصر — ظل الحياة الاجتماعية . وقد كانت هذه الحياة ذات ألوان متعددة ، أظهر لون فيها اللون الفارسي .

وبيان ذلك : أن العادات الفارسية تغلغت في الناس في ذلك العصر ، وكان مظهرها واضحاً جلياً . فالناس يتخذون يوم النيروز عيداً لهم كالفرس قديماً ، والقضاة وعظماء الدولة يلبسون القلنسوة كالفرس ، ومجالس الغناء واللهو والشراب هي مجالس الفرس . والفضل بن سهل وزير المأمون — وهو فارسي — يحتال حتى يُقنع المأمون بتغيير السواد بالخضرة ، ويكتب الى جميع العمال أن يجعلوا أعلامهم وقلانسهم خضراً ، والخضرة هي لباس كسرى والمجوس . ونظام الحرب وادارة الدولة ، اتبعت — في أغلب الأحيان — نظام الفرس في حروبهم وادارتهم ، الى كثير من أمثال ذلك .

والفرس من قديم ميالون الى الإفراط في الشراب ، والإفراط في الغناء . حتى وصفهم « هيرودوت » بالامعان في ذلك ، والغلو فيه وتصريفهم شؤون الدولة وهم سُكاري .

ويروى حمزة الأصفهاني أن « بهرام جور » أمر الناس أن يعملوا من كل يوم نصفه ، ثم يستريحوا ويتوافروا على الأكل والشرب واللهو ، وأن يشربوا على سماع الغناء فعزّ المغنون . . . ومر بقوم يشربون على غير ملهين (مغنين) فقال : أليس قد نهيتكم عن الغفلة عن الملاحى ؟ فقالوا : طلبناه بزيادة على مائة درهم فلم نقدر عليه ! فكتب الى ملك الهند يستدعي منه ملهين ، فبعث اليه اثني عشر ألف رجل منهم ، ففرقهم على بلدان مملكته فتناسلوا بها . فما أن قرّت الدولة العباسية ، حتى عاد الفرس الى سيرتهم الأولى ، فملئوا الجوّ غناءً ونيذاً وهواً وترفاً ، ورأينا رجالهم في كل فن من هذه الفنون هم

قادة الناس في ذلك . فابراهيم الموصلي وابنه اسحاق ، ينشران اللهو الظريف والغناء الحلو ، ويعلمان الجوارى ، ويقدمان للناس المشل في حياة المرف والانلاف في تحصيل اللذائد وكانا مع حسن صوتهما - وخاصة اسحق - عالمين اديبين شاعرين . وقد وضع اسحق علم الموسيقى في الدولة العباسية وألف فيه وأولع الناس بغنائهما وقلدوهما في فنهما ولوهما ، ولما مات ابراهيم رثاه الشعراء بما يدل على أثره فيهم ، فمن قائل :

تَوَلَّى الْمُوصِلِيَّ فَقَدْ تَوَلَّتْ بِشَاشَاتُ الْمَزَاهِرِ وَالْقِيَانِ  
وَأَيَّ بِشَاشَةٍ بَقِيَتْ فَتَبَقَى حَيَاةُ الْمُوصِلِيِّ عَلَى الزَّمَانِ !  
سَتَبَكِيهِ الْمَزَاهِرُ وَالْمَلَاهِي وَتُسْعِدُهُنَّ عَاتِقَةُ الدَّنَانِ ١  
ومن قائل :

سَتَبَكِيهِ أَشْرَافُ الْمُلُوكِ إِذَا رَأَوْا مَحَلَّ التَّصَابِي قَدْ خَلَا مِنْهُ جَانِبُهُ  
وَيَبْكِيهِ أَهْلُ الظَّرْفِ طُرًّا كَمَا بَكَى عَلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَحَاجِبُهُ !  
ومن قائل :

أَصْبَحَ اللَّهُوْتُحْتَ عَفْرُ الثَّرَابِ ثَاوِيًّا فِي مَحَلَّةِ الْأَحْبَابِ  
إِذْ تَوَى الْمُوصِلِيَّ فَاَنْقَرَضَ اللَّهُوْ بَخِيرِ الْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ  
بَكَتِ الْمُسْمِعَاتُ حُزْنَاً عَلَيْهِ وَبَكَاهُ الْهُوَى وَصَفُو الشَّرَابِ  
وَبَكَتِ آلَةُ الْمَجَالِسِ حَتَّى رَحِمَ الْعُودُ دَمْعَةَ الْمِضْرَابِ ٢  
وبشار بن برد الفارسي كان إمام المحدثين ، والفتاح لهم باب التتمك على مصرعيه ، سار شعره في العراق فلاغزل ولاغزلة الأيروي من شعره ، ولا نائحة ولا مغنية إلا تتكسب به ، ويأتيه النساء في بيته فيأخذن عنه شعره .

١ تسعد : تعين على البكاء ، ويعني بعاتقة الدنان الحر . ٢ أغاني ٥ : ٤٧ وما بعدها

ويقول سَوَّار بنُ عبد الله ومالكُ بن دينار: « ماشىءُ أدعى لأهل هذه المدينة (البصرة) الى الفسق من أشعار هذا الأعمى ! » وكان واصل بن عطاء يقول: إن من أذخ حَبائل الشيطان وأغواها لكلماتِ هذا الأعمى الملحد !<sup>١</sup> ويقول بشار: « عُسْرُ النَّسَاءِ الى مِيَا سِرَّةٍ » فيشجع الفتيانَ على الإمعان في المغازلة والإلحاح في الطلب<sup>٢</sup>. فلما فتح هذا الباب لَج فيه من أتى على أثره، سواء في ذلك العربي والعجمي: كمطيع بن إياس، وأبي نواس. وكان لنا من هؤلاء جميعاً أدب داعر، لا يتعفف عن العبث بالغلبلان، ولا يكتفى عن فحش، إن ملَّح من ناحيته الفنية، فالذوق النبيل لا يستسيغه.

نعم؛ في الأدب الجاهلي خمرٌ تراه في مثل شعر طرقة، وفحشٌ تراه في مثل امرئ القيس « تقولُ وقد مال الغبيطُ بنامعاً » و« ألام صباحاً أيها الطللُ البالي » وكان في الأدب الأموي خمرٌ كالذي في شعر الأخطل. وكان غزل مكشوف كغزل عمر بن أبي ربيعة. ولكن أين هذا كله من شعر بشار وصريع الغواني ومطيع بن إياس، وأبي نواس! قد كان فجور الأولين ساذجاً بسيطاً في ألفاظه ومعانيه كعيشتهم، وكان فجور الآخرين مركباً ممعناً في الوصف، شاملاً لكل المظاهر، ومشاعر الشهوة، يتخير أقبح اللفظ لأقبح المعنى.

قد تقول، إن هذا نتيجةٌ طبيعيةٌ لسير المدنية، فلما تقدمت بالناس حياتهم الاجتماعية، وما يتبعها من ترف تقدم الشعر والأدب يُسائران عيشة الترف والنعيم. فما للفرس ولهذا!؟

وقد يكون في هذا القول كثير من الصحة، ولكنني أظن أن الأمر ما كان يصل الى هذا الحد لولا الفرس، فهم الذين دفعوا الناس الى حياة ترف

ألفوها هم وآباؤهم من عهد الأكاسرة، وعلوهم كيف يكون الإفراط في طلب الملاذ من طرق فنيّة أكتسبهم إياها حضارتهم القديمة - لا من طريق ساذج كالذي يعرفه العرب - هل كان يعرف العرب مجالس الغناء المتقنة، ومجالس الشراب المترفة، وحياة النعيم الناعمة لولا الفرس؟ فعطاء الفرس كالبرامكة وأمثالهم أرشدوا الناس إليها، وفتانواهم كإبراهيم الموصلي غنّوهم عليها، وشعراؤهم كبشّار بن بُرد كانوا لسانهم الناطق بها، المحدث عنها! ولو كانت الحياة الأموية امتدت وظلت السيادة العربية، ما رأيت تشييباً بغلمان، ولا هذا السيل الجارف من القيان، ولما رأيت نعيماً وترفاً وفيراً! «  
ألم تر الشام ومصر والأندلس في هذا العصر نفسه - لم تنغمس في الترف كما انغمست العراق وفارس، ولم يكن أدهبها أدباً ناعماً داعراً كالذي كان في العراق. قد تكون كثرة المال يُصَبّ في حاضرة الخلافة سبباً للترف في الحياة، والترف في الأدب - ولكنّ المال وحده لا يكفي لولا العنصر الفارسي الذي كان ينظّم كيف يستخدم المال في هذه السبيل.

من الحق أن نقول: إن هذه النزعة الى اللهو والترف لم تكن نزعة عامّة شاملة للفرس، بل كان هناك نزعات أخرى بجانبها، أظهرها ما كان يقابلها من نزعة الزهد. وكان زعيم هذه النزعة في الأدب أبا العتاهية الفارسي أيضاً.

قد كان قبل أبي العتاهية حياة زهد في الجاهلية وفي العصر الإسلامي، وكان قبل أبي العتاهية شعر زاهد. ولكنّ أبا العتاهية أتى في هذا الباب بما لم يُسبق إليه، وزاد في معانيه زيادة بشّار وأبي نواس في أدب اللهو والمجون. وأصحّ تعبير في ذلك أن نقول إنه فلسفَ الزهد، وملاً الأدب العربي - في عصره - بالموت والتخويف منه وبما بعده، واحتقار اللذة، والجد في الهرب منها.

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَإِنْوَا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى تَبَابٍ ١  
لِمَنْ نَبِيٌّ وَنَحْنُ إِلَى تَرَابٍ نَصِيرُ كَمَا خَلَقْنَا مِنْ تَرَابٍ؟  
أَلَا يَامُوتُ لَمْ أَرِ مِنْكَ بُدًّا أَتَيْتَ وَمَا تَحِيْفٌ وَمَا تُحَابِي!

\*\*\*

طَلَبْتُكَ يَا دُنْيَا فَأَعْدَرْتُ فِي الطَّلَبِ فَمَا نِلْتُ إِلَّا الْهَمَّ وَالْغَمَّ وَالنَّصَبَ  
فَلَمَّا بَدَأَ لِي أَنْتَى لَسْتُ وَأَصْلًا إِلَى لَذَّةٍ إِلَّا بِأَضْعَافِهَا تَعَبٌ  
وَأَسْرَعْتُ فِي دِينِي وَلَمْ أَقْضِ بُغْيَتِي هَرَبْتُ بُدَيْنِي مِنْكَ إِنْ نَفَعَ الْهَرَبُ  
وَشَعَرَ لِمَجْهُورِ النَّاسِ لَا لِلْخَاصَّةِ، وَقَالَ: «إِنَّ الزَّهْدَ لَيْسَ مِنْ مَذَاهِبِ  
الْمُلُوكِ، وَلَا مِنْ مَذَاهِبِ رُوَاةِ الشَّعْرِ بِهَا، وَلَا طُلَّابِ الْغَرِيبِ. وَهُوَ مَذْهَبٌ  
أَشْغَفَ النَّاسَ بِهِ الزَّهَادُ، وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ، وَالْفُقَهَاءُ، وَالْعَامَّةُ، وَأَعْجَبَ  
الْأَشْيَاءَ إِلَيْهِمْ مَا فَهَمُوهُ ٢. وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: «كَانَ يُخْرِجُ الْقَوْلَ مِنْهُ كَمَا تُخْرِجُ النَّفْسَ  
قُوَّةً وَسَهُولَةً وَاقْتِدَارًا»

وَقَدْ كَانَ لَشَعْرُهُ صِبْغَةٌ عِلْمِيَّةٌ دِينِيَّةٌ فِلْسُفِيَّةٌ، قَالَ الصُّوْلِيُّ: «كَانَ مَذْهَبُ  
أَبِي الْعَتَاهِيَةِ الْقَوْلُ بِالتَّوْحِيدِ، وَأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ جَوْهَرَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ لَا مِنْ شَيْءٍ،  
ثُمَّ إِنَّهُ بَنَى الْعَالَمَ هَذِهِ الْبَنِيَّةَ مِنْهُمَا، وَأَنَّ الْعَالَمَ حَدِيثُ الْعَيْنِ وَالصَّنْعَةُ لَا مُجَدِّثٌ  
لَهُ إِلَّا اللَّهُ. وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ سِيرَدٌ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى الْجَوْهَرَيْنِ الْمُتَضَادَّيْنِ قَبْلَ  
أَنْ تَفْنَى الْأَعْيَانُ جَمِيعًا، وَكَانَ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ الْمَعَارِفَ وَاقِعَةٌ بِقَدْرِ الْفِكْرِ  
وَالِاسْتِدْلَالِ وَالبَحْثِ طَبَاعًا ٣. وَكَانَ يَقُولُ بِالْوَعِيدِ، وَبِتَحْرِيمِ الْمَكَّاسِبِ،  
يَتَشَبَّعُ بِمَذْهَبِ الزَّيْدِيَّةِ الْبُسْتَرِيَّةِ الْمُبْتَدِعَةِ لَا يَنْتَقِصُ أَحَدًا، وَلَا يَرَى مَعَ ذَلِكَ  
الْخُرُوجَ عَلَى السُّلْطَانِ، وَكَانَ مُجْبِرًا ٤»

١ التَّبَابُ: الْفَسَادُ وَالْهَلَاكُ ٢ دِيْوَانُ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ ص ٢٥ ٣ فِي ذَلِكَ يَقُولُ:

وَأَمَّا الْعِلْمُ مِنْ قِيَاسٍ وَمِنْ عِيَارٍ وَمِنْ سَمَاعٍ

٤ الْإِغَانِيُّ ٣: ١٢٨



وعلى الجملة فالشعر الديني الذي كان يحمل لواءه - في ذلك العصر - صالحُ ابن عبد القدوس وأبو العتاهية ؛ فيه نزعة ثنوية كان ينزعها الفرس قديماً ، وسنرى عند الكلام في التصوف أثرَ الفرس في حياة الزهد ، ولكن يمكننا أن نقول الآن : إنه إن كان في نزعة بشار الإباحية عنصر مزدكي ، ففي نزعة أبي العتاهية الزاهدة عنصر ما نوي .

وقد كان للفرس أثر كبير في الأدب غير هذا الذي ذكرناه ، فقد كانت كتبهم في القصص التي نقلت من الفارسية الى العربية ، ككليلة ودمنة وهزار إفسانه أساساً من الأسس التي بنت عليها الأجيال المتعاقبة ما بين أيدينا من قصص عربي . فابن النديم يروي أن محمد بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء « ابتدأ بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسرار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره ، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويُحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسرار والخرافات ما يحلّ بنفسه ، وكان فاضلاً فاجتمع له من ذلك أربعائة ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة ، وأقل وأكثر ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تسميمه ألف سمر »<sup>١</sup>

وضرب آخر من الأدب كان للفرس فيه أثر كبير ، وهو باب «التوقيعات» ذلك أن الفرس - قبل الإسلام - كانوا يُعْتَوْنَ بالبلاغة عناية كبرى ، وكان لهم فيها تأليف كما حكى الجاحظ . وكان من أظهر عنايتهم بالبلاغة والحكم التوقيعات . قد كان الفرس - ككل الشعوب - يرفعون الى ولاة أمورهم أوراقاً تتضمن طلباً لشيء أو شكوى من شيء ، نسميها نحن الآن «عرائض» وكانت تسمى عند العرب « قِصَصاً » سميت كذلك على سبيل المجاز ، لأن

القصة اسم للحكى في الورقة ، فسميت الورقة نفسها « قصة » وكانت تسمى كذلك رقاعاً ، لصغر حجمها . تشبيهاً لها برقعة الثوب .

كانت هذه القصص ترفع الى الملك ، أو من يليه تبعاً لموضوعها ، وتبعاً للمُظلم وقدره . وقد جرت عادة الملوك والولاة من الفرس أن يوقّعوا على هذه القصص بعبارة بليغة ، أو حكمة حكيمة . يُتَخَيَّرُ لها أحسنُ اللفظ ، وأجود المعنى . وتتناقلُ أثرًا من الآثار القيمة ، كما يتناقل المثلُ الجيد . وقد نقل الى أدبنا العربي الشيء الكثير من توقيعات ملوك الفرس ، من ذلك : أن رجلاً رفع الى كسرى بن قباد رقعة يخبره فيها أن جماعة من بطائه قد فسدت نياتهم ، وخبثت ضمائرهم منهم فلان وفلان ، فوَقَّعَ في أسفل كتابه : إنما أملكُ ظاهرَ الأجسام لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالهوى ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر ! . ووقع أنوشروان في قصة محبوبس : من ركب ما نُهي عنه حيلَ ما بينه وبين ما يشتهي ! ومدح رجلٌ من الخاصة كسرى ابن قباد بمدح أطنب فيه وأسهب ، وذهب كل مذهب ، وكان المدح في رقعة فوقع فيها كسرى « إننى للمدح مستصغر ؛ لعلى بأشياء قد مدحت ، وكانت بأن تدم محقوقة » الخ . الخ . ولما تحضر العرب وانتشرت بينهم الكتابة ، وحرروا مظالمهم على رقاع - بعد أن كانوا يُشافهون بها أمراءهم - كان لهم توقيع . وقد نقلت توقيعات في أيام الخلفاء الراشدين وبنى أمية ، أخشى أن يكون كثير منها كان شفهيًا فحوّر الى توقيع . ولكن قد سال سيل التوقيعات في عهد بنى العباس ، وكان أكثر الكُتَّاب والوزراء فرسًا فساروا فيها على سنن آبائهم . وكثر ذلك حتى أنشؤا فيما بعد ديواناً أسموه « ديوان التوقيع » .

هذا إلى انه كان للفرس شعر كثير وأمثال كثيرة وأدب كثير ، وُضع تحت أعين العرب . قال أبو هلال العسكري في رسالته « التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم » : « للفرس أشعار لا تُضبط كثرةً ، ولليونانيين

أشعار دون الفرس » ويقول في موضع آخر : « سمعت أبا بكر بن دريد يقول : اجتمع في ديوان صالح بن عبدالقدوس - وهو رجل من شعراءهم - ألفٌ مثل للعرب ، والف مثل للعجم »<sup>١</sup> وترجمت بعض أمثال العجم الى العربية ، مثل : عفوُ المَلِكِ أبقي للسلْكِ ، خاطَرَ من استغنى برأيه ، الأسد يقترس الأرنب اذا أعياه العَيْرُ ، الفرارُ في وقته ظفر ، امنع أخاك من أكل الخبيث فإن أبا فاعطه ملعقة ، من أوقد نار الفتنة احترق بها ، لا تستبعد غداً وما بعده ، هو يطلب الثمر بلا شوك<sup>٢</sup> .

وكانت هذه المعاني الفارسية تُسرق وتنظم أو تحتذى ، يقول بُزُرْجَمِهْرُ :  
« اذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فإنها لا تفي ، واذا أدبرت عنك فأنفق فإنها لا تبقى » فيقول الشاعر :

فأنفق - إذا أنفقت - إن كنت موسراً

وأنفق - على ما خيلت - حين تُعسرُ

فلا الجود يُفنى المالَ والجُدُّ مقبلٌ

ولا البخلُ يبقي المالَ والجُدُّ مُدْبِرٌ<sup>٣</sup>

ويخطب أردشير لما استوثق له الملكُ يحرّض الناس على الألفة والطاعة ، ويقوم بين يديه خطيب فيقول له : « قد أشرق علينا من ضياء نورك ما عمنا عموم ضياء الشمس ، ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتصل بأنفسنا اتصال النسيم ، فجمعت الأيدي بعد افتراقها ، والكلمة بعد اختلافها ، وألقت بين القلوب بعد تباعضها ، وأذهبت الإحْنَ والحسائِكِ بعد استعار نيرانها » فيقول خالد بن صفوان في مثل هذا المعنى يخاطب والياً : « قَدِمْتَ

٢ انظر كتاب خاص الخاص للشعالي ص ١١

١ مجموعة رسائل طبع الجوائب ص ٢١٧

وما بعدها ٣ عيون الاخبار ٣ : ١٧٩

فأعطيت كلا بقسطه من نظرك ومجلسك وصلاتك وعدلك ، حتى كأنك من كل أحد أو كأنك لست من أحد! »<sup>١</sup>

وقيل لابن المقفع ، لم لا تطلب الأمور العظام ؟ فقال : رأيت المعالي مشوبة بالمكاره ، فاقترت على الخمول ضناً بالعافية . فأخذ العتابي وقال :

دَعَيْتِي تَجْنِي مَيْتِي مُطْمَئِنَّةٌ      ولم أَنْجَسْهُمُ هَوْلَ تِلْكَ الْمَوَارِدِ  
فإنَّ جَسِيَّاتِ الْأُمُورِ مَشُوبَةٌ      بِمَسْتَوْدَعَاتِ فِي بَطُونِ الْأَسَاوِدِ<sup>٢</sup>

وينصح طاهر بن الحسين الفارسي ابنه عبد الله - لما ولاه المأمون الرقة ومصر - بكتابه المشهور ، ويوصيه فيه بجميع ما يحتاج إليه في دولته من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية ؛ فتلمح فيه شياً كبيراً بينه وبين ما نقل إلينا من عهد أردشير<sup>٣</sup> .

ويكتب أبو مسلم الخراساني للنصور حين أمره بالقدوم عليه : « أما بعد ؛ فانه بما حفظناه من وصايا الفرس » أخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء » ؛



وشيء آخر كان له أثر كبير في الثقافة الاسلامية ذلك ما تنبه إليه ابن خلدون من « أن حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية » إلا في القليل النادر ، وإن كان منهم العربي في نسبته

---

١ عيون الأخبار ١ : ٩٧    ٢ محاضرات الأدباء للاصفهاني ١ : ٢٧٧ والاساود : الحيات العظيمة    ٣ انظر كتاب طاهر بن الحسين في مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٤ وانظر عهد اردشير في كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه ١ : ٩٩ وما بعدها    ٤ مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥    ٥ هذا تمبير يستعمله ابن خلدون كثيراً يريد به سواء في ذلك العلوم الشرعية والعلوم العقلية

فهو عجمي في لغته ومرّ به ومشيجته « ١ . ويعلّل ذلك بأن العلوم من جملة الصناعات، والصناعات من خصائص الحضّر، والعرب كانوا بدو أفكانت العلوم من نتاج الحضّر. والحضّر في ذلك العهد هم العجم، ومن في معناهم من الموالي . ويقول: « فكان صاحب صناعة النحو سيوييه، والفارسيّ من بعده، والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم، وإنما رُبوا في اللسان العربيّ فاكتسبوه بالمرّبّي ومخالطة العرب، وصيروه قوائين وفتنا لمن بعدهم . وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الاسلام أكثرهم عجم، أو مستعجمون باللغة والمربيّ، وكان علماء أصول الفقه كلّهم عجم كما يعرف، وكذا حملة علم الكلام، وكذا أكثر المفسرين . ولم يَقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم، وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: لو تعلّق العلم بأكناف السماء لئناله قوم من أهل فارس » ٢ .

ونحن نعتقد أن ابن خلدون - مع دقة ملاحظته - قد غالى فيها غلوّاً كبيراً وبخس العرب نصيبهم في المشاركة . فلئن كان أبو حنيفة النعمان فارسياً فمالك والشافعي وأحمد بن حنبل عرب، ولئن كان سيوييه فارسياً فشيخه الخليل ابن أحمد عربيّ . وليس كل علماء أصول الفقه عجم كما يقول؛ فواضعه وأول مؤلّف فيه الشافعي وهو عربيّ، وغلوّ أن يدعى أن هؤلاء العلماء العرب هم عجم بالمربيّ، فإن المرّبّيّ كان مزيجاً من عرب وعجم .

ولكن بما لا شك فيه أن العجم - وخاصة الفرس - كانوا في جملتهم أقدر على التدوين والتأليف للسبب الذي ذكره ابن خلدون، وهو تعمقهم في الحضارة، ولأنهم مرّوا من قديم على التأليف بلغتهم هم وآباؤهم، فلما دخلوا في الاسلام وتعلموا العربية كان تأليفهم بالعربية سهلاً يسيراً، لأنه ليس الا احتذاء للنهج، وإن اختلف الموضوع واللغة .

- إذن - لا عجب من أن نرى في عصرنا الذي نؤرخه كثيراً من الفرس ،

كانوا من السابقين الأولين في تدوين العلوم المختلفة .

فالإمام أبو حنيفة النعمان إمام المذهب ، وحماد الراوية جامع المعلقات

العشر ، وراوى كثير من الشعر الجاهلي ، وبشار بن برد أحد المحدثين من

الشعراء ، وسيبويه الإمام المقدم في النحو وتدوينه ، والكسائي أحد الأئمة

الأعلام في النحو واللغة والقراءات ، وهو أحد القراء السبعة ، والقراء

أربع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، وأبو عبيدة معمر بن

المنثري العالم باللغة والغريب وأخبار العرب وأيامها ، وذو النزعة الشعبية ،

وأبو العتاهية شاعر الزهد ، وابن قتيبة المؤرخ الأديب ، صاحب التأليف

الكثيرة ككتاب المعارف وعميون الأخبار . كل هؤلاء - وغيرهم ممن

لم نذكرهم - كانوا فرساً وكان لهم أثر كبير في الثقافة العربية الإسلامية .

قد كان وراء هذه الثقافة الفارسية ، وهؤلاء العلماء الفرس قوياً تحميها

وتدفعها . هذه القوى ظاهرة أحياناً وخفية أحياناً ، تنطوى على نية خير

أحياناً ونية سوء أحياناً . منهم من يريد خدمة العلم ، والعمل على نشره ، لا يريد

بذلك إلا وجه الله والعلم ، ومنهم من يريد أن يشيد بالقومية الفارسية ، والخط

من القومية العربية ، بل منهم من يريد الكيد للإسلام وأهله . ومنهم من يرى

أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها حيث وجدها ، ويعمل على إذاعتها . ومنهم

من ينشر شعوية ، ومنهم من ينشر زندقة ، ومنهم من يغلو في التشيع لأهل

البيت ، وهو يضمير السوء للمسلمين . كل هذا الخير وكل هذا الشر كان في

النزعات الفارسية ، وسيأتي توضيح لبعض ذلك في أبوابه .

يقول الجاحظ في وصف الفرس : « واعلم أن هذه الأحاديث من

أحاديث الفرس ، وهم أصحاب نفخ وتزويد ، ولا سيما في كل شيء مما يدخل

في باب العصبية، ويزيد في أقدار الأكَاسرة<sup>١</sup> وقد كان من أعظم من يحمي الثقافة الفارسية، وينشرها «البرامكة» الفُرس، وما لهم من مال وفير، وكرم واسع، يحقق رجاءهم، ويسيطر نفوذهم. روى الجاحظ عن ثُمّامة، قال كان أصحابنا يقولون: لم يكن يُرى لجليس خالد (البرمكي) داراً إلا وخالد بناها له، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمّه إن كانت أمّة، أو أدّى مهرها إن كانت حرة، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها إما من نتاجه أو من غير نتاجه<sup>٢</sup> وهم مع هذا وذاك مثقفون ثقافة واسعة، وفي الغاية من العلم والأدب والفصاحة، يقول سهل بن هارون في وصف يحيى بن خالد البرمكي، وجعفر بن يحيى: «لو كان كلام يُتصوّر دُرّاً، أو يحمله المنطق السرى جوهرأ لكان كلامهما، والمنتقى من لفظهما!» ويحيى بن خالد ينشئ الكتابيب للأيتام<sup>٣</sup>، ويتحبّب إلى الناس، ويحبّب الناس أولادَه. ويقول لولده: «لا بد لكم من كتاب وعمال وأعوان، فاستعينوا بالأشراف، وإياكم وسفلة الناس؛ فان النعمة على الأشراف أبقى، وهي بهم أحسن، والمعروف عندهم أشهر، والشكر منهم أكثر!»<sup>٤</sup>

مالقينا من جود «فضل بن يحيى» ترك الناس كلهم شعراء!

كان هؤلاء البرامكة وأمثالهم يعملون على نشر الثقافة الفارسية، فالفضل ابن سهل الفارسي، الملقب - فيما بعد - بنى الرياستين، ينقل كتاباً من الفارسية إلى العربية ليحيى البرمكي، فيعجب بفهمه وبجودة عبارته، فيدعوه يحيى إلى الإسلام لينال المناصب. وهو بعد أن أصبح ذا الرياستين يبعث بمولاه، وبأحداث من أهله إلى شيخ بخراسان، ويقول لهم تعلموا منه الحكمة، ثم

١ الحيوان ٧ : ٥٦ ٢ الجهشيارى ١٧٣ وتاريخ بغداد ٤ : ١٤٤

٣ انظر الجهشيارى ص ٢١٢ ٤ المصدر نفسه ص ٢١٥ ٥ المصدر نفسه ص ٢٨٧

يعرضون ما يعلمهم الشيخ على الفضل بن سهل ، فيتبين فيها الأثر الفارسي<sup>١</sup> .  
وقد عُرِف عن البرامكة إيواءهم لكثير من عُرُفوا بحرية الرأي ، أو  
أثَمُوا بالزندقة . فكانت البرامكة تحسن إلى محمد بن الليث الخطيب ، وتقدمه  
وكان ممن يرمى بالزندقة<sup>٢</sup> . وكان هشام بن الحكم الرافضي منقطعاً إلى يحيى بن  
خالد البرمكي . وكان القيمم بمجالس كلامه ونظره ، وقد ألف كتباً كثيرة في  
الخلافة ، ومسائل علم الكلام<sup>٣</sup> .

ومن الحق أن نذكر أن البرامكة لم يشجعوا الثقافة الفارسية وحدها ،  
بل شجعوا كل ثقافة . فابن النديم يروي عند الكلام على كتاب المجسطي في  
الهيئة . أن أول من عُنِيَ بتفسيره وإخراجه إلى العربية . يحيى بن خالد بن  
برمك ، ففسره له جماعة فلم يتقنوه ، ولم يرض ذلك فنذب لتفسيره أبا حسان ،  
وسلمًا - صاحب بيت الحكمة - فأتقناه واجتهدا في تصحيحه ؛ كما أنه أمر  
بتفسير كتاب في الطب . لمنكه الهندي<sup>٤</sup> ، وبعث يحيى أيضاً برجل إلى الهند  
ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم ، وأن يكتب له أديانهم ، فكتب له هذا  
الكتاب<sup>٥</sup> .

فهؤلاء البرامكة ، وإن عُنُوا بالثقافة الفارسية ؛ فقد عُنُوا بجانبها كذلك  
بالثقافة اليونانية والهندية والعربية .

والآن نستطيع أن نختار رجلاً يمثل الثقافة الفارسية خير تمثيل وليكن  
« ابن المقفع » .

١ زهر الآداب على هامش العقد ٣ : ٢٦٩ ٢ ابن النديم ص ١٢٠  
٣ انظر ابن النديم ص ١٧٥ ٤ ابن النديم ص ٢٦٨ ٥ المصدر نفسه  
٦ ابن النديم ٤٣٥



## ابن المقفع

لسنا نريد أن نبحت في ابن المقفع بحثاً تحليلياً، في مولده وأسرته، ومناصبه التي تولّاها، وعلاقته بالولاية والأمراء. ولا أن نبحت طويلاً في مقدرته البلاغية وأسلوبه، وأثره في أسلوب عصره ومن أتى بعده، فذلك بالناحية الأدبية أشبه. وإنما نريد أن نبحت فيه من ناحية ثقافته الواسعة، وآثاره الخالدة، ومن ناحية أنه نتاج ثقافة فارسية عميقة واسعة، لَقِحَتْ بعدُ بَلْقَاحِ عَرَبِيٍّ، فكان من هذا وذاك أدبٌ جمٌّ، مَدِينٌ في أكثر معانيه للفرس، وفي أكثر ألفاظه وأساليبه للعربية.



ابن المقفع، فارسي الأصل اسمه «رُوزْبَهْ بن دَاذُويَه» كان أبوه من قرية اسمها «جور»، من إقليم فارس ونشأ ابن المقفع بالبصرة في ولاء «آل الأهتم» وهم قوم معروفون بالفصاحة واللسان، وخالط الأعراب وأخذ عنهم. وكان أبوه يدين بمذهب زرادشت ونشأ ابن المقفع - كما يه - زرادشتياً وتقلد الكتابة لكثيرين، فكتب ليزيد بن عمر بن هُبَيْرَة، وكان يزيد والياً على العراق لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ثم كتب لأخيه داود بن عمر ابن هُبَيْرَة، ثم اتصل بعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور، وكان - إلى هذا العهد - لا يزال مجوسياً، فأسلم على يديه وكتب له، ثم قتل لتشددده - على ما يقول كثير من المؤرخين - في كتابة صيغة الأمان التي وضعها ابن المقفع ليوقع عليها أبو جعفر المنصور أما نأ لعبد الله بن علي - فأفرط ابن المقفع في الاحتياط فيها، حتى لا يجد المنصور منفذاً فيها للإخلال

بعهده ١ ، فغاظ المنصور ذلك ، فأوعز بقتله .

ولم نجد للمؤرخين سبباً آخر لقتله ، إلا ما حكاه الجاحظ : من أن ابن المقفع كان أغرى عبد الله بن علي بالمنصور فقطن له وقتل ٢ . وكان قتله سنة ١٤٢ هـ أو ١٤٣ أو ١٤٥ على خلاف في ذلك ٣ .

نستطيع أن نستنتج من هذا نتیجتین هامتین :

( الأولى ) أنه لم يقض من حياته في العصر العباسي إلا نحو عشر سنوات ، أما بقية حياته فقد قضاها في العصر الأموي ، وشهد اضطهاد العرب للموالى ، وشاركهم في محنتهم وبؤسهم - أيام الأمويين - ولم يكن مسلماً يُلطّف دينه من كرهه للعرب - كما كان شأن المتدينين - فلا بد أن يكون قد أُفعم بكره العرب ، وشاهد الدعوة العباسية ، واشترك الفرس فيها ، وتمنى كما تمنوا أن يُرفع عنهم نير الأمويين ، وسرّ كما سرّوا باستيلاء العباسيين .

( الثانية ) أنه نشأ مجوسياً زرادشتياً ، وقضى زهرة شبابه في أحضان المجوسية ، مثقفاً بثقافتها ، ولم يُسلم إلا قبل قتله ببضع سنوات ، بعد أن تكون ونضج ، وتقاد الكتابة للكثيرين . وكان قبل إسلامه مستمسكاً بدينه ، فلما أراد أن يسلم قال له عيسى بن علي عم المنصور : ليكن ذلك بمحضّر من القواد ، ووجوه الناس ، فاذا كان الغد فاحضر . ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم ، فجلس يأكل ويزمزم - على عادة المجوس - فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الاسلام ؟ فقال أكره أن أبيت على غير دين ! فلما أصبح أسلم على يده فسمي بعبد الله ، وسنّ تعرض لهذا الموضع عند الكلام في زندقته .

١ انظر الجهشيارى ص ١١٠  
٢ انظر ثلاث رسائل للجاحظ ص ٤٧  
٣ لم نر فيما بين أيدينا من الكتب القديمة تاريخاً لمولد ابن المقفع وقد ذكر بعض المحدثين أنه ولد سنة ١٠٦ وان صح فيكون قد قتل وهو شاب لم يتجاوز الأربعين

وابن المقفع من أقوى الشخصيات في عالم الأدب العربي ، قوى في خلقه ، قوى في عقله وسعة علمه ، قوى في لسانه .

أما خلقه فنبل وكرم ، وتعهد لذوى الحاجات يواسيهم ، وتقديرٌ دقيق للصدقة ، ومراقبة شديدة لنفسه يحملها على الأجر والأنبيل ، ورغبة شديدة في اصلاح الراعى والرعية - خلقياً واجتماعياً - الى ظرف الخاصة ، والتمسك بأداب اللياقة ، ومراعاة الدقة فيما يتطلبه الذوق .

نستنتج هذا مما قصه علينا المؤرخون ، ومما نلمحه في كتبه التي بين أيدينا . قال سعيد بن سلم : قصدت الكوفة ، فرأيت ابن المقفع فرحّب بي ، وقال : ما تصنع ههنا ؟ فقلت ركبتني دين . فقال : هل رأيت أحداً ؟ قلت رأيت ابن شبرمة فوعدني أن أكون مربيّاً لبعض أولاد الخاصة . فقال : أف يجعلك مؤدّباً في آخر عمرك . أين منزلك ؟ فعرّفته ، فأتاني في اليوم الثاني ، وأنا مشغول بقوم يقرءون عليّ - فوضع بين يدي منديلاً فاذا فيه أسورة مكسورة ، ودراهم متفرقة مقدار اربعة آلاف درهم ، فأخذت ذلك ورجعت به إلى البصرة واستعنت به <sup>١</sup> . ويقول الجهشيارى فيه : « كان سرّياً سخياً ، يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج اليه ، وكان قد أفاد من الكتابة لداود بن عمر مالاً ، فكان يُجرى على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين الخمسمائة الى الألفين في كل شهر » <sup>٢</sup> . ثم هو صديق لعبد الحميد الكاتب ، فيطلب عبد الحميد ليقتل ، وهو معه ، فيقول الذين دخلوا عليهما أياكم عبد الحميد ؟ فيقول كل واحد منهما « أنا ! » خوفاً على صاحبه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع فقال : « ترفقوا فان فيّ علامات ، ووكّلوا بنا بعضكم ، ويمضي بعضٌ يذكرك تلك العلامات ففعل ذلك » <sup>٣</sup> .

ويصفه الجاحظ فيقول: « كان جواداً فارساً جميلاً » ويدعوه عيسى بن علي للغداء، فيقول: أعز الله الأمير! لست اليوم للكرام أكيلاً. قال: ولم؟ قال: لأنني مزكوم، والزُّكْمَةُ قبيحة الجوار، مانعة من عشرة الأحرار. ويُعْجَبُ الناس بأدبه، فيسألونه من أدبك؟ فيقول: نفسي! إذا رأيت من غيري حسناً أتيتته، وإن رأيت قبيحاً أتيتته. ويدل الباقي من كتبه على باقي ما وصفنا من خلقه.

ثم هو واسع الاطلاع، مضطلع باللسانين العربي والفارسي، نقل خير ما رأى باللغة الفهلوية، إلى اللسان العربي. وهو غزير المعاني إذا كتب، ليست كتابته جوفاء - ككثير من كتابات الناس - يمعن في اختيار المعنى، ثم يمعن في اختيار اللفظ له، قالوا: « كان قلم ابن المقفع يقف، فقيل له في ذلك، فقال: إن الكلام يزدهم في صدرى، فيقف قلبى لتخيره »<sup>١</sup>. ويقول محمد بن سلام « سمعت مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ابن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع »<sup>٢</sup> وقال جعفر بن يحيى: « عبد الحميد أصل، وسهل بن هرون فرع. وابن المقفع ثمرة، وأحمد بن يوسف زهر »<sup>٣</sup>

وستبين غزارة معانيه، وقوه تفكيره مما يأتي.

## آثاره الادبية

ذكرنا فيما سبق ما ترجم من الفارسية إلى العربية، وما نقله منها ابن المقفع. والآن نذكر آثاره الباقية في أيدينا، وتعرض لها بشيء من التحليل وهي:

- |   |               |   |                         |
|---|---------------|---|-------------------------|
| ١ | الأدب الصغير  | ٢ | الأدب الكبير أو اليتيمة |
| ٣ | رسالة الصحابة | ٤ | كليلة ودمنة.            |

\*\*\*

الأدب الصغير والأدب الكبير— كلمة الصغير والكبير وصف للكتاب وقد شاع استعمال هذا التعبير في ذلك العصر، فقالوا كتاب الطبقات الكبير لابن سعد، وأحياناً يحذفون كلمة « كتاب » ويقولون « السير الكبير والسير الصغير لمحمد بن الحسن الشيباني » ومن هذا؛ الأدب الصغير والأدب الكبير. فليس الصغير والكبير وصفين للأدب، ولكن للكتاب المفهوم ضمناً.

والقارىء لعبارة ابن النديم يفهم أن الأدب الصغير، والأدب الكبير غير كتاب اليتيمة فهي كتب ثلاثة، ولكن كثيراً من الأدباء أطلقوا على الأدب الكبير اسم اليتيمة، أو الدرة اليتيمة. كذلك يفهم من ابن النديم: أن هذه الكتب الثلاثة ترجمها ابن المقفع، والمعروف بين الأدباء، والظاهر من تعبيراته أنه ألفها. ونحن نرجح أن الأدب الكبير ليس هو اليتيمة، وأنهما كتابان مختلفان لابن المقفع. ودليلنا على ذلك:

١ — أن ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار، يورد هذين الاسمين في مواضع مختلفة، فيقول أحياناً « قرأت في اليتيمة » وأحياناً « في الأدب الكبير » وما

ينقله عن اليتيمة ليس موجوداً في الذي بين أيدينا مما يسمى اليتيمة ١ .

٢ - وردت فصول من اليتيمة في كتاب المشور والمنظوم لابن طيفور ،  
لا نجد فيها بين أيدينا من الأدب الكبير الذي سمي اليتيمة .

٣ - قال الباقلاني في عجاز القرآن : « وقد ادعى قوم أن ابن المقفع  
عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة ، وهما كتابان أحدهما  
يتضمن حكماً منقولة توجد عند حكماء كل أمة . . . . . والآخر في شيء من  
الديانات » واليتيمة التي بين أيدينا ليس فيها فصول عن الديانات . فالراجح  
أن الذي بقي لنا هو الأدب الكبير ، أطلق عليه خطأ اسم الدرة اليتيمة .  
وأما المسألة الثانية : وهي هل هما مؤلفان أو مترجمان ؟ فنفس الكتابين  
يدلنا على أن ابن المقفع لم يترجمهما حرفياً ؛ كما نفهم من معنى الترجمة ، وإن  
كان اعتمد في كثير من المعاني على معاني الأقدمين . قال في الأدب الصغير :  
« قد وضعتُ في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عونٌ  
على عمارة القلوب وصقلها ، وتجدية أبصارها ، وإحياء للتفكير ، وإقامة  
للتدبير ، ودليلٌ على محامد الأمور ، ومكارم الأخلاق » وقال في الأدب  
الكبير المسمى بالدرة اليتيمة : « إنا لم نجدهم - أي الأولين - غادروا شيئاً ، يجدُّ  
واصف بليغ في صفته له مقالاً لم يسبقوه إليه ، لا في تعظيم الله عز وجل ،  
وترغيب فيما عنده . ولا في تصغير الدنيا ، وتزهيد فيها . ولا في تحرير صنوف  
العلم ، وتقسيم أقسامها ، وتجزئة أجزاءها ، وتوضيح سبلها ، وتبيين مآخذها .  
ولا في وجوه الأدب وضروب الأخلاق . فلم يبق في جليل من الأمر لقائل  
بعدهم مقال ، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور ، فيها مواضع لصغار الفطن ،  
مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم . ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في  
كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس » .

وكلمة الأدب في السكتابين ليس معناها ما نستعمله الآن فيما يقابل العلم ، وإنما يطلقها ابن المقفع على معنى تهذيب النفس والخلق .

والأدب الصغير — عبارة عن كلمات حكيمة في الأخلاق ، لا تحلّل النفس والخلق تحليلاً دقيقاً واسعاً مستوفى ، ولا تذكّر الخلق فتبسّط القول فيه ، وتذكر وصفه ، والسبيل إلى اكتسابه ، فذلك بالعقل اليوناني أشبه . ولكنها عبارة عن جمل موجزة أشبه بالأمثال . وهي خطرات ، نتيجة تجارب قد صيغت في إيجاز ، وفي عبارة رشيقة رقيقة . مثل : « أربعة أشياء لا يُستقلُّ منها القليل : النار ، والمرض ، والعدو ، والدّين » .

ومثل « لا تعدّ العنم غنماً إذا ساق غرماً ، ولا الغرم غرماً إذا ساق غنماً ، ولا تعتدّ من الحياة ما كان في فراق الأحبة ، الخ .

ونلاحظ في الأدب الصغير أن ليس — في كثير من مواضعه — ارتباط بين حكمه . فهي أشبه برجل أخذ يرصد تجارب مختلفة في حالات مختلفة ، فكلمة عشر على تجربة وضعها ، وإن كانت إحدى التجارب الاقتصادية ، والأخرى دينية ، والثالثة نفسية . أو كرجل يقرأ في كتب مختلفة فكلمة وجد كلمة أعجبتة دونها ، لذلك ترى كلمة في محاسبة النفس ، وبجانها كلمة في الصديق ، ثم كلمة في معاملة الناس بحسب طبقاتهم ، ثم في تعادى الرأى والهوى ، ثم بعد كثير من الصفحات تجد كلمة أخرى في الصديق ، قد كان يحسن أن تكون بجانب الأولى ، وهكذا . ثم هو مختلف في طريقة التأليف ، فأحياناً ينشئ الشيء من غير إسناد ، وأحياناً يقول : وقالت الحكماء ، وأحياناً تجد قبل الحكمة كلمة « وقال » ، مما يدل على أنه لم يضعها هو في هذا الموضع .

أما الأدب الكبير — أو ما سماه السكتاب بالدرة اليتيمة ، فكلمات كذلك ولكنها في مجموعها أطول ، وهي مرتبة غالباً ، ألغت الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد تقريباً ، يدور أغلبها على موضوعين قد استوفى

الكلامَ فيهما استيفاءً حسناً، فأولهما: الكلام على السلطان والولاية، ومن يتصل بهما. وقد كان هذا الموضوع يشغل نفسه كثيراً، يتجلى ذلك في أكثر ما كتب، لأن حياته كانت متصلةً به، فقد كتب للولاية، واتصل بهم، وصادقهم وعادهم. وقد اتصل بالخلاف بين المنصور وأعمامه، وكان ركناً من أركان هذا الخلاف ومحراً لوقائعه، ومستشاراً في أمره، ومنغمساً فيه، وقارئاً لمثل هذه الأحداث في سير الفرس، و مترجماً لها. فلا عجب إذا أكثر الكتابة فيه، ولا عجب إذا أجاد؛ وقد جمع فيه مآثر الأولين، وتجارب الآخرين، إلى ما منحه الله من دقة نظر، وحسن أداء. وقد استغرق هذا الموضوع القسم الأول من الكتاب. والموضوع الثاني: الصداقة والصديق. وقد كان ابن المقفع يقدر هذا تقديراً دقيقاً، ويرى في الأصدقاء عماد الحياة، و مرآة النفس، يفضى إليهم وحدثهم بنبات صدره، ودخائل نفسه، ويضع عندهم وحدثهم مكنونات سرّه، ويضع عنه مؤونة الحذر والتحفظ. أما غيرهم فيلبس لهم لباساً آخر، لا يلقاهم الا متحفظاً متشدداً متحرزاً. ولأجل ذلك أثقل في شروط الصديق، ونصح بالدقة التامة في اختياره « لأن ذا الرأي لا يُدخِلُ أحداً من نفسه هذا المدخل إلا بعد الاختبار والسبّر، والثقة بصدق النصيحة، ووفاء العقل » وتدل سيرته على أنه آمن بما كتب، ودان به، وسار في حياته على ما كتب من قوانين الصداقة؛ فقد بذل دمه لصديقه عبد الحميد، وبذل ماله لأصدقائه بل لمعارفه، كما فعل مع سعيد بن سلم، ومثلُ ابن المقفع في علاقته الدقيقة بين الولاية والأمراء، وما يلاقي في سبيل ذلك من مشكلات وصعاب، وفي عقله البحت، وانتقاله من دين إلى دين، وما يعرض - عادة - في ذلك من شكوك وارتياب. وفي نزعته إلى الإصلاح الاجتماعي، وما يرى حوله من عيوب تتصل أحياناً بالولاية وأحياناً بالخلفاء ويرى أحياناً وجوب الجهر بالنصيحة، والإرشاد إلى مواطن الضعف وطرق



العلاج . مثل ابن المقفع في هذه المواقف يحتاج الى الصديق الذي يصفه ،  
والى الشروط التي يشترطها له ، يفضى اليه بدخائل نفسه ، وفيما يرى من دولة  
تنهار ودولة تقام ، وأسسٍ توضع لا بد أن يشترك في وضعها ، ويبين عيب  
القديم والحديث ، وما يطمح إليه من اصلاح ، وإليه يُفزع في عوامل  
تضطرم في نفسه بين دين نشأ عليه ، وتمكّن في أعماق نفسه ، ثم هو يريد أن  
يتخلى عنه إلى دين جديد له شعائرٌ تخالف شعائر دينه القديم ، وله تعاليم  
تتعارض مع ما ألف ، هناك يتنازع العقل والشعور ، وهناك تتحارب  
العواطف ، وهناك يحار بين علم المنطق الذي ترجمه ، والتقاليد التي ربي في  
أحضانها ، فما أحوجه في كل ذلك إلى « الصديق » ! وقد أشار فيما كتب إلى  
كل ذلك ، أشار إلى العيوب الاجتماعية ، وإلى ظلم الولاة في عصره ، وإلى  
ما يلحق العامة ، وإلى النزاع بين الدين والرأى - وقد جرّه الكلام في  
الصديق إلى الكلام في العدو ، وكيف يكون داهياً في حربه ويخفي دهاءه .  
وكيف يعمل في هلاك عدوّه أو البعد عنه ، وفي جار السوء وكيف يصبر  
عليه ، وفي آخر الكتاب يعود إلى جمع حكم متفرقة لا يرابطها موضوع .

في الكتابين أثر كبير من الثقافة الفارسية ، ففيهما حكم كثيرة من حكم  
الفرس ، وفيهما بعض نظم الساسانيين في الحكم ، وكثيراً ما يقول : « احفظ  
قول الحكيم » و « قالت الحكماء » وهو يقصد حكماء الفرس . وفيها بعض  
وصايا مأخوذة من عهد أردشير ، كأنظام المتعلق بولى العهد . وفيهما من حكم  
كثيرة ودمنة ، إلى غير ذلك . نعم ! هناك أثر يوناني في هذه الحكم مثل قوله :  
« إن العاقل ينظر فيما يؤديه وفيما يسره ، فيعلم أن أحقّ ذلك بالطلب إن  
كان مما يحب ، وأحقّه بالاتقاء إن كان مما يكره ؛ أطوله وأدومه وأبقاه ، فاذا هو  
قد أبصر ؛ فضّل الآخرة على الدنيا ، وفضّل سرور المروة على لذة الهوى ،  
وفضّل الرأى الجامع العام - الذي تصلح به الأنفس والأعقاب - على حاضر

الرأى الذى يستمتع به قليلاً ثم يضمحلّ ، وفضل الأكلاتِ على الأكلة ،  
والساعاتِ على الساعة « فانك تلح في ثانيا هذا رأى أيقور ، وهو أنه  
يجب أن يراعى - فى تفضيل لذة على لذة - الشدة والمدّة ، وتفضيل اللذائذ  
العقلية والروحية على اللذائذ البدنية ، الخ . ولكن ابن المقفع إنما نقل عن  
الفرس ، وان كانوا قد تأثروا - فيما تأثروا به - بالمذاهب اليونانية . كذلك  
نلح فى بعض حكمه أشياء إسلامية كقوله : « والدنيا دولٌ فما كان منها لك  
أتاك على ضعفك ، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك » فهو قريب فى لفظه  
من حديث مشهور . ونرى وجوه شبه عديدة فى بعض الحكم بين ما ورد  
فى كتب ابن المقفع ، وما ورد عن الإمام علىّ فى كتاب نهج البلاغة . ولكننا  
يعترينا الشك فى كثير مما نسب فى نهج البلاغة إلى الامام علىّ ، وقد أبتأ  
ذلك فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، ونرجح أنها نسبت إليه بعد ابن المقفع  
فى عهد الشريف الرضى ومن قبله . فيمكننا أن نقول إنّ أغلب استمداد  
ابن المقفع فى كتبه من الثقافة الفارسية ، وقليلاً منها من الثقافة العربية  
الإسلامية . وأوضح دليل على ذلك : أن الروح الدينية فى حكم ابن المقفع  
نادرة جداً قلّ أن تلبسها ، على عكس ما ينسب مثلاً إلى الحسن البصرى ، وما  
صح من أقوال علىّ رضى الله عنه . فهى مغمورة بالشعور الدينى الإسلامى ،  
أما ابن المقفع فخكمه مستمدة من تجارب دنيوية ، حتى ما يتصل منها بالدين .

## رسالة الصحابة

ولابن المقفع رسالة سميت بالصحابة ، وليس يعنى صحابة رسول الله - كما هو المشهور في استعمال الكلمة - وإنما عنى صحابة الولاية والخلفاء ، وهم من يقرّبهم الأمراء أو الخلفاء وينادونهم ، ويجعلونهم موضع السر منهم ، ويستشيرونهم في أمورهم . وقد عرض في هذه الرسالة لهذا الموضوع فسميت الرسالة به <sup>١</sup> .

وللرسالة قيمة كبرى فإنها تقرير في نقد نظام الحكم - إذ ذاك - ووجوه إصلاحه ، رفعه إلى أمير المؤمنين ولم يسمه ، والظاهر أنه أبو جعفر المنصور لأنه يذكر دولة بني العباس وقد استقرت ، ويذكر أمير المؤمنين ، وقد أهلك الله عدوه وشفي غليله ، ومكّن له في الأرض ، وآتاه خزائنها . ويذكر أبا العباس ( السفاح ) ويترحم عليه . وإذا علمنا أن ابن المقفع قتل في عهد المنصور ، صح لنا أن نستنتج - من ذلك كله - أن الرسالة إنما كتبت للمنصور . بدأها بمدح أمير المؤمنين بأنه جمع إلى ما عنده من علم الرغبة في السؤال ، والاستماع لنصيحة الناصح ، وفي هذا ما يشجع ذا الرأي على أن يدل برأيه . ثم ذكر موضع الشكوى قبل أن يتولى أبو جعفر المنصور ، فوال لا يهتم بالإصلاح ، وإن اهتم به فليس له رأى يهديه ، أو له رأى ولكن ليس له عزم يُمضى به ما يبتغيه ، وأعوان ليسوا على الخير بأعوان ، ولهم من المسكاة والنفوذ ما يمنع الخليفة من إقصائهم والنيل منهم ، وأمة إن أخذت بالشدّة

١ أورد هذه الرسالة ابن طيفور في كتابه المنشور والمنظوم المخطوط في دار الكتب المصرية ونشرت في مجموعة رسائل البلغاء - واستعمال كلمة الصحابة في هذا المعنى معروف في ذلك العصر كما يدل عليه ما ورد في أوائل كتاب الخطيب البغدادي .

حميت ، وإن أخذت باللين طغت ، وأبان أن أمير المؤمنين وفقه الله المداواة هذه العيوب ، واقتلاع هذه الشرور ، ثم بدأ بتقريره الذي وضعه .  
فأول ما بدأ به شرح حال « الجند » وإذا علمنا أن الدولة في عهد هذا التقرير دولة ناشئة ، ولها أعداء كثيرون ، وذوو أطماع عديدون ، ثم هي واسعة الأطراف ، مترامية الأنحاء لا يخلو فيها يوم من فتنه . أدركنا ما للجند من عظيم شأن ، وعرفنا السبب في أن جزءاً كبيراً من التقرير كان يدور حول هذا الموضوع . واذ كان عماد الجند هم الجند الخراسانية ، وكانوا هم القائميين بحماية الدولة ، وكانوا فرساً ، وكان ابن المقفع فارسياً ، كان محور كلامه الجند الخراسانية .

مدح جند خراسان بأنه لم ير مثلهم في الإسلام ، يمتازون عن غيرهم من الجند بالطاعة والعفاف ، والكف عن الفساد ، والذلل للولاة . ثم شك من أمور : أولها أنه لا بد أن تنظم أفكارهم ، ولا بد لذلك من أن يكون لهم دستور أو قانون ، يحيط بكل شيء يجب أن يعرفوه ، يبين لهم ما يفعلونه وما يتجنبونه ، يحفظه رؤسائهم ، ويقودون به عامتهم . فأما ترك الأمر من غير قانون ، لا يعرفون به ما يجب وما يحرم ، فداع إلى الفوضى . وشكا من أن هذا جرّ قوماً إلى المغالاة في الأمر بالطاعة لأمير المؤمنين ، ووُجد في القواد من يقول : إن أمير المؤمنين لو أمر أن تستدبر القبلة بالصلاة لسمعنا وأطعنا ! وهذا له أثر سيئ في النفوس ، وقد ساقه هذا القول إلى بحث أوامر أمير المؤمنين وما يطاع منها وما لا يطاع ، وذكر المبدأ المشهور « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » وقال : إن قوماً فسروا هذا المبدأ تفسيراً معوجاً . والذي رآه ابن المقفع : أن الخليفة يطاع فيما لا يطاع فيه غيره . وبيان ذلك : أن هناك فرائض وحدوداً بيننا وبينها الله ، وفي هذا لا يطاع أمير المؤمنين لو أمر أمراً يخالفها . وهناك أشياء كثيرة من شؤون الناس لم يأت فيها نص ، بل

تركت لعقل الناس واجتهادهم . وهذه متى اجتهد فيها وولاية الأمر ورأوا فيها رأياً وجبت طاعتهم ، وليس للناس في هذا إلا الإشارة عند المشورة ، والإجابة عند الدعوة والنصيحة لهم - فرأى ابن المقفع إذن - أن هناك نوصاً دينية يجب على الناس والولاية أن يطيعوها ، وليس لولاية الأمر أن يخالفوا . وهناك مسائل كثيرة لم يرد فيها نص ، كإعلان حرب واسترداد جيش وشروط صلح ، وتنظيم أمور الدولة حسب الزمان والمكان . وهذه كذلك لا تترك فوضى ولكن للناس أن يشيروا بأرائهم ، وعلى أولى الأمر أن يفكروا ويتدبروا ، فإذا رأوا رأياً وجب على الناس إطاعته ، وإن رأوا فيه نقصاً أو عيباً أو خطأ نصحوا بولاية الأمور بأرائهم .

ثانياً - مما نصح به أمير المؤمنين في شأن الجند ، أن يحول بين الجنود وبين إدارة الشؤون المالية . وقد دعاه إلى ذلك الرأي أن الخليفة كان يولى بعض قواده خراج بعض الأقطار فيؤلى قائداً خراج مصر ، وآخر خراج خراسان . وبذلك تصبح مالية هذا القطر في يده يحاسب الناس عليها ، ويحاسبه الوالى كذلك . وقد علل ابن المقفع رأيه هذا « بأن ولاية الخراج مفسدة للبقاة » . وهو نظر صائب فان كثيرين من هؤلاء القواد اعتزوا بسطانتهم وجنودهم ، فظلموا الناس . فلما أخذوا على ظلمهم اعتزوا بما في أيديهم من مال ، وما تحت طاعتهم من جند . فخرجوا على الدولة ، وكانوا سبباً لمصايب لا تحصى .

ثالثاً - مراعاة الكفاية في القيادة ، فقد لفت نظر الخليفة - في لطف - إلى أن يعيد النظر في الرؤساء ومرءوسيه ، فكثير من المرءوسين أكفأ من رؤسائهم فلو ولى القيادة خيارهم ، ووضع الجند في منازلهم ، حسب كفايتهم لكان من ذلك خيرٌ عظيم .

رابعاً - تثقيف الجند ثقافة علمية وخلقية ، فيعنى بتعليمهم الكتابة والتفقه

في الدين ، كما يعنى بتعوديهم الأمانة والعفة والتواضع ، واجتناب الترف في الزنى والعطر واللباس ، وما إلى ذلك .

خامساً — تعيين وقت محدد للجند يقبضون فيه أرزاقهم فان ذلك أدمى لظمأنيتهم ، وأمنع للشكوى والاستبطاء .

سادساً وأخيراً — أن يتقصى أحوال الجند ويعرف أخبارهم وحالاتهم ، وباطن أمرهم ، حيث كانوا وأن يعين لذلك الثقات الذين يخلصون له ، ولا يكتمون عنه شيئاً ، وألا يستكثر ما ينفق في هذا السبيل ، وإن عظم فان في ذلك الحزم ، واستئصال الشر قبل استفحاله .

هذه خلاصة موجزة لوجوه الإصلاح التي اقترحها للجند .

ثم ذكر أمير المؤمنين بأهل العراق عامة ، وأهل البصرة والسكوفة خاصة وأنها أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته ومعينيه ، ولأهل العراق من الفقه والعفاف والألباب والألسنة ما ليس في سواهم ، ورجاه في العناية بهم والاعتماد عليهم ، وقال : إنه أزرى بأهل العراق ؛ أن ولاية العراق - فيما مضى - كانوا أشرار الولاة ، وأعوأهم كانوا أشرار الأعوان . فساءت سمعة العراق من أجل هذه الفئة الضالة ، واستغل أهل الشام ذلك ، فشنعوا على أهل العراق عامة بما صنعت هذه الفئة . ولما جاءت دولتهم لم تجد أمامها - من أهل العراق - إلا هؤلاء الظاهرين ممن لا يصح الاعتماد عليهم ، فلو نُحى هؤلاء وأمثالهم ، واستقصى الناس وعرف أهل الفضل ، فأسندت الأمور إلى الأكفاء غير المتصنعين لظهر فضل العراق وأهله .

ثم عرض ابن المقفع في تقريره إلى موضوع من أهم الموضوعات وأعمقها أثراً في حياة المسلمين ، وهو : « فوضى القضاء » فذكر أن القضاء فوضى ، لا يرجع فيه إلى قانون معروف ، وإنما هو متروك لرأى القضاة واجتهادهم . ونشأ من ذلك صدور الأحكام المتناقضة ، حتى في البلدة الواحدة ،

فتستحلّ دماء وفروج وأموال في ناحية من نواحي الكوفة ، وتحرّم في ناحية أخرى - تبعاً لحكم القاضي - وكل ذلك نافذ على المسلمين . والقضاة نوعان : نوع يزعم أنه يلتزم السنّة (يعنى بذلك النص على العموم) وقد تغالى فيما سماه سنّة فكثيراً ما يسفك دماً من غير بيّنة ولا حجة ، ويزعم أنه هو السنّة ، فاذا قيل له : إن مثل هذا الأمر لم يُرق فيه دم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أمة الهدى من بعده ! قال : فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، أو أمير من بعض أولئك الأمراء ! . ونوع يزعم أنه من أهل الرأي ، فيبلغ به الاعتمادُ برأيه « أن يقول في الأمر الجسيم - من أمر المسلمين - قولاً لا يوافقُه عليه أحد ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك ، وإمضائه الحكم عليه ، وهو مُقرُّ أنه رأى منه لا يحتجُّ بكتاب ولا سنة » هذه هي الفوضى - كما شرحها ابن المقفع - ثم اقترح لها علاجاً ، وهو أن يُرفع إلى أمير المؤمنين كل الأفضية والمسائل التي يحدث فيها الخلاف ، ويُدكر ما يحتجُّ به كل فريق من المخالفين من نص أو رأى ، فيعمدُ أميرُ المؤمنين إلى هذه الحجج والبراهين ، ويختار ما يراه صواباً ، ثم يدوّن ذلك في كتاب ، وتعمل منه نسخ ترسل إلى الأمصار ، ويلتزم القضاة بالحكم به ، فاذا جدّت حوادث سير فيها هذا السير ، ووجب على كل إمام يأتي بعدُ أن يدخل على هذا القانون ما يجدّ وما تدعو إليه الحاجة ، وهكذا إلى آخر الدهر .

ويرى « ابنُ المقفع » أن ولاة الأمور يجب أن يرجعوا في المسائل المختلف فيها إلى العدل ومصلحة الناس . وليس هناك ما يمنع من ذلك ، لأن الأحكام المختلفة ؛ إمّا أن يكون اختلاف القضاة فيها ناشئاً من استنادهم على سنن مأثورة مختلفة ، وهذا الاختلاف في السنن دليل على أنها ليست مقبولةً باجماع ، إمّا لسندها وإمّا لأنها مجال لتأويلات مختلفة . وحينئذ يكون الرجوع إلى العدالة أولى . وإمّا أن يكون الاختلاف ناشئاً من مراعاة القياس ،

وقد أفرط الفقهاء في مراعاة القياس الشكلى ، والتزموا به فوقعوا في وراطات  
وأتى ابنُ المقفع بمثل يهزىء به قياستهم فقال : لو أنك سألت أحدهم أتأمرنى  
أن أصدق فلا أكذب كذبة أبداً ؟ لكان جوابهم نعم ! فلو سألت : ما تقول  
في رجل هارب أراد ظالم أن يقتله فسألنى عن مكانه وأنا أعرفه ، أأصدق أم  
لا ؟ فلو ساروا على قياستهم الذى وضعوه لأجابوا بالتزام الصدق مع أن  
المصلحة والعدالة في غير ذلك ، ثم قرر مبدأ قِيَمًا وهو أن القياس ليس إلا  
وسيلة لتحقيق العدالة ، وطريقاً من طرق الوصول إليه ، فتمت رؤيت العدالة  
في غير القياس يجب أن نضحى بالقياس .

فجمل رأى ابن المقفع في إصلاح القضاء ؛ وضع قانون رسمى تجرى عليه  
المملكة الاسلامية في جميع انحاءها ، وهذا القانون يُرجع فيه إلى ما يُرشد  
إليه العقل في معنى العدالة . وهذا فيما عدا ما ورد فيه نص مجمع عليه - من  
كتاب أو سنة - فأما ما ورد فيه نص مختلف فيه أو ما كان مبنياً على قياس ،  
فيجب أن يترك إلى ولاية الأمور ينظرون فيه باعتبار واحد وهو المصلحة  
العامّة . والفقهاء ليس لهم وضع قوانين وإنما عليهم أن يجتهدوا في المسائل  
من الناحية العلمية النظرية ، ثم يدلون بأرائهم إلى ولى الأمر ، وهو  
المقنن وحده .

وهو رأى له قيمته ووجاهته ، وهو يتفق في كثير من نواحيه والآراء  
الحديثة في التشريع ، ولو عمل به المسلمون لكان له أثر كبير في الحالة  
الاجتماعية وخاصة من الناحية القضائية .

ولم تذهب دعوة ابن المقفع سدّى ، فابن سعد في الطبقات يروى عن  
مالك بن أنس أنه قال : لما حج المنصور قال لى : قد عزمت على أن أمر  
بكتبك هذه التى وضعتها فتنسخ ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين  
منها نسخة ، وأمرهم أن يعمّلوا بما فيها ولا يتعدّوه إلى غيره ، فقلت يا أمير



المؤمنين لا تفعل هذا ، فان الناس قد سبقت إليهم أقاويلٌ . وسمعوا أحاديثَ ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، ودانوا به فدع الناس ، وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم .

فلما أتى هارون الرشيد عاودته الفكرة ، فرؤى في كتاب الحلية عن مالك بن أنس قال : « شاورني هارون الرشيد في أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على ما فيه ، فقلت لا تفعل ، فان أصحاب رسول الله اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان وكل مصيب . »

لم يكن في هذه المحاولة تحقيق لكل فكرة ابن المقفع ، فقد كان أكثر حرية مما قصد إليه المنصور والرشيد ، ولكن كانت خطوة من الخطوات المرسومة لم تُحقق !

ولسنا نجزم أن هذه المحاولات نشأت عن تقرير ابن المقفع ، فقد تكون تبلوراً لفكرة عمر بن عبد العزيز في جمع الحديث ، فقد كان يرى هذا الرأي . فبتقدم الزمان رؤى جمع الحديث وجعله قانوناً . وقد تكون فكرة المنصور والرشيد نتيجة العاملين معاً - فكرة جمع الحديث التي ارتآها عمر بن عبد العزيز ، وفكرة تقنين القوانين التي ارتآها ابن المقفع - وهو الذي نميل إليه .

\* \* \*

ثم انتقل بعد ذلك إلى تعطيف المنصور على أهل الشام ، وقد كان العباسيون ينظرون إليهم نظرة عدا و مقّت ، لأنهم كانوا أعوان الأمويين وجندهم المطيع ، فاعترف بأن أهل الشام يكرهون العباسيين ، ولكن ينبغي ألا يؤاخذهم الخليفة بذلك ، وألا يطمع منهم في المودة ، فعداوتهم طبيعية . فقد كانت الدولة دولتهم والملك لهم ، ولكن هذا لا يمنع الخليفة أن يصطنع خيارهم ، فهو لاء لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى ، ويتبعهم غيرهم ، فتتسع دائرة المحبة للعباسيين والتودد لهم . كما نصحه ألا ييخل بالمال

عليهم ، وأن ينفق عليهم ما جُمع من بلادهم - بعد استقطاع الحقوق العامة - « إنه إن فعل ذلك رَجَوْتُُ ألا يكون منهم نَزَوَاتٌ وَلَا وَتَبَاتٌ عَلَى الدَّوْلَةِ ، فإِنْ فَعَلُوا رَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الدَّائِرَةُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمُ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ ، وَقَدْ عَلَّمْنَا التَّارِيخَ أَنَّ الْمَلِكَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَوْمٍ بَقِيَتْ فِيهِمْ بَقِيَّةٌ يَحْنُونَ إِلَى مَجْدِهِمُ الْقَدِيمِ ، فَيَشُورُونَ وَتَكُونُ ثَوْرَتُهُمْ سَبَبَ اسْتِصْلَاحِهِمْ وَتَدْوِيحِهِمْ » .

بعد هذا تكلم في صحابة الخليفة أو ما نسميه نحن الآن « بَمَعِيَّتِهِ » ورجال دولته والمقربين إليه ، وقد كرر شكواه من أن هؤلاء كانوا - قبل خلافة أمير المؤمنين - عملوا أعمالاً مُفْرِطَةَ القَبِيحِ ، مُفْسِدَةَ لِلحَسَبِ وَالنَّسَبِ وَالسِّيَاسَةِ ، دَاعِيَةً لِلأَشْرَارِ طَارِدَةً لِلأَخْيَارِ . ذلك أن الخليفة كان يقرب أوغاد الناس وِسْفَلَتِهِمْ ، فَهَرَبَ الخِيَارُ مِنَ التَّقَرُّبِ لِلوَلَاةِ حَتَّى إِنْ قَوْمًا مِنْ صِلْحَاءِ البَصْرَةِ ، وَفِيهِمْ ابْنُ المَقْفَعِ - أَتَوْا دَارَ الخِلَافَةِ فِي أَيَّامِ السَّفَاحِ ، فَأَبَوْا أَنْ يَزُورُوا الخَلِيفَةَ ؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ بَطَاتِهِ وَسُوءِ سَيْرَتِهِمْ . وَقَدْ سَمِعْنَا النَّاسَ يَقُولُونَ : « مَا رَأَيْنَا أُعْجُوبَةً قَطَّ أَعْجَبَ مِنْ هَذِهِ الصَّحَابَةِ ، مَنْ لَا يَنْتَهِي إِلَى أَدَبِ ذِي نَبَاهَةٍ ، وَلَا حَسَبِ مَعْرُوفٍ ، ثُمَّ هُوَ مَسْخُوطُ الرَّأْيِ مَشْهُورٌ بِالفُجُورِ » . وَنَزَعَةُ ابْنِ المَقْفَعِ فِي اخْتِيَارِ الصَّحَابَةِ نَزَعَةُ أَرِسْتَقْرَاطِيَّةِ فَارَسِيَّةٍ ، فَهُوَ يِرَاعِي فِي اخْتِيَارِ الصَّحَابَةِ مِنْ وَزَرَاءِ وَكُتَّابِ وَغَيْرِهِمْ أَمْرَيْنِ : أَمْرًا وَجِيهًا مَعْقُولًا ، وَهُوَ أَنْ يَكُونُوا ذَوِي رَأْيِ أَمْنَاءِ عَدُولًا . وَلَكِنَّهُ لَا يَشْدُدُ فِي هَذَا تَشْدُدَهُ فِي الأَمْرِ الثَّانِي ، وَهُوَ أَنْ يَكُونُوا ذَوِي حَسَبٍ وَنَسَبٍ وَيَفْرَعُ كُلَّ الفِرْعِ أَنْ يَرَى هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةَ - غَيْرِ المَعْرُوفِينَ بِنَسَبٍ - يُؤْذِنُ لَهُمْ عَلَى الخَلِيفَةِ قَبْلَ كَثِيرٍ مِنْ أبنَاءِ المِهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ، وَقَبْلَ قَرَابَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَهْلِ بِيُوتَاتِ العَرَبِ . وَهُوَ يَرَى أَنَّ الخَلِيفَةَ لَا يَصِحُّ أَنْ يَقْرَبَ إِلَيْهِ وَيَجْعَلَ مِنْ خَاصَّتِهِ إِلَّا رَجُلًا أَتَى بِمَكْرُمَةٍ عَظِيمَةٍ ، أَوْ رَجُلًا لَهُ مِيزَةٌ مِنْ قَرَابَةِ أَوْ حُسْنِ بِلَاءٍ ، أَوْ رَجُلًا لَهُ مِنَ الشَّرَفِ وَجُودَةِ الرَّأْيِ وَالعَمَلِ مَا يُوْهَلُهُ لِذَلِكَ ، أَوْ رَجُلًا ذَا نَجْدَةٍ وَلكِنْ

يجب أن يجمع إلى نجده حسباً وعفافاً، أو رجلاً فقيهاً مصلحاً ينتفع الناس بفقده وإصلاحه. فأما من يتخذون الشفاعات وسيلة للقرب من السلطان، فيجب ألا تمكنهم شفاعاتهم من هذه المناصب. ثم إذا اختير الخازنون على الشروط التي ذكرنا، يجب أن يعين لكل منهم اختصاص في عمله لا يتعداه. فلا يكون للكاتب أمر في رفع رزق ولا وضعه، ولا للحاجب في تقديم إذن ولا تأخيرها.

انتقل بعد هذا إلى الكلام في الخراج، وهو عماد مالية الدولة. ويعنى بالخراج المال المفروض على الأراضى، وقد شكوا من الفوضى فيه كما شكوا قبل من فوضى القضاء، شكوا أن الأراضى - مع اختلافها جودة - ليس مقررأ على كل « وحدة » منها مبلغ معين، ولا سُجِّل ذلك في دفاتر يحفظ أصلها ويحصل بمقتضاها. واقترح للإصلاح أن تُمسح الأراضى، ويفرض عليها المال المناسب، ويعرف كل مالك ما عليه ويدون ذلك في سجلات تحفظ أصولها في دواوين الدولة. ففي هذا « صلاح للرعية، وعمارة للأرض، وحتم لأبواب الخيانة وغشم العمال » وشعر بصعوبة هذا العمل مع ضرورته فقال: « إن مؤونته شديدة، ورجاله قليل، ونفعه متأخر » وختم مطالبه في إصلاح الخراج بتخير الذين يتولون هذا العمل، وشدة الرقابة عليهم، والاستبدال بهم عند ظهور خيانة عليهم.

وقد رأينا - بعد عصر ابن المقفع - أبا يوسف يقول: في كتابه « الخراج » « إن أمير المؤمنين ( يعنى هرون الرشيد ) سألنى أن أضع له كتاباً جامعاً، يعمل به في جباية الخراج، والعشور والصدقات والجوالى وغير ذلك - مما يجب عليه النظر فيه والعمل به - وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم... وطلب أن أبين له ما سألنى عنه مما يريد العمل به،

وأفسره وأشرحه ، وقد فسرت ذلك وشرحته « ١ » .

فهل كان هذا العمل تحقيقاً لمطالب ابن المقفع ؟ قد يكون ذلك ، ولكن بما لا شك فيه أن ابن المقفع عبّر عن أهم المسائل التي تشغل العقلاء في عصره . فلا عجب أن نرى الكلام فيها كثيراً ، وأن نرى كبراءهم يضعون العلاج لتلافيها . كذلك نرى فرقا كبيرا بين معالجة ابن المقفع لمسائله وخاصة الخراج ، ومعالجة أبي يوسف . فابن المقفع يعالجها من الناحية العقلية المحضة ، وأما أبو يوسف فيعالجها من الناحية الدينية ، فهو لا يخطو خطوة إلا يدعمها بسند من كتاب أو سنة أو أثر ، وأحيانا بقياس أو استحسان ، وهذا يرجع إلى الفرق بين ابن المقفع وأبي يوسف في المنشأ والمربي والمنصب .

\*\*\*

ثم انتقل ابن المقفع إلى الكلام في جزيرة العرب من الحجاز واليمن واليمامة وغيرها ، وقد كانت موضع نعمة المنصور إذ خرجت عليه ، فطلب إليه ؛ أن يعنى بهاعناية خاصة ، فمتخير لولايتها الخیار من أهل بيته ، وأن تسخو نفسه عن أموالها . وكان ابن المقفع نظر في هذين الأمرين إلى أن جزيرة العرب منبع النبوة ، ومصدر الاسلام ، وقبلة المسلمين ، وقد تولاها ولادة سوء انتهكوا حرمتها ، فكانت حاجتها إلى خير الولاية أمس وأوجب . وهي فقيرة ليس فيها خصب العراق ، ولا غنى الأمصار . فاذا كانت الأمصار الأخرى تحمل ما زاد من ثروتها إلى دار الخلافة ، فخير للخليفة ألا يتبع هذه السنة في جزيرة العرب فيترك لها مالها إن لم يمدها بمال من عنده .

وختم « ابن المقفع » تقريره ببيان ما للخليفة من أثر عظيم إذا صلح ، ذلك أن العامة لا تصلح إلا بصلاح الخاصة ، والخاصة لا تصلح الا بصلاح إمامها ، سلسلة يأخذ بعضها بحجز بعض . لأن العامة تقلد خاصتها في شؤونها

وتتبعها في سيرها ، فإذا كان الخواص من ذوى الدين والعقل كان في ذلك صلاح للامة ، وموقف الخاصة من الامام موقف العامة من الخاصة « ففسأله أن يعزم لأمر المؤمنين على المرشد ، ويحصنه بالحفظ والثبات »

\*\*\*

هذه خلاصة وتحليل لرسالة الصحابة ، وإن شئت ؛ فقل إنها ترجمة لما فيها من أفكار ، فقد اعترأها من فساد النسخ والتحريف والغموض ما جعل إدراك مرامها بعيد المنال .

ومنها نرى أن ابن المقفع كان ناضج العقل في رسالته قوى الفكر ، شاعراً بوجوه الضعف في الدولة ، ميالاً الى إصلاحها ، ولو عرفنا أنه قُتل ولماً يتجاوز الأربعين من عمره ؛ عرفنا قدر نبوغه ، وعرفنا أى عقل كبير كان يشغل رأسه .

لم يعالج ابن المقفع ما عالج من الناحية الدينية ، كما عالج أبو يوسف مثلاً . فان تربيته لم تكن دينية بل لم يُسلم الا قريباً ، كما ساعده على هذا النوع من التفكير أنه كان فارسياً ، وكان واسع العلم بالتاريخ الفارسي ، وترجم بعض كتب التاريخ الى اللغة العربية . فهو يعلم تمام العلم نظم الفرس في الجند والقضاء والصحابة والخراج . وقد مرت هذه الدولة بأدوار كثيرة . وجرّبت تجارب عديدة ، واستقر نظامها عهداً طويلاً ، وعالجه مصلحون قبله - بأقوالهم وأعمالهم - فكان ابن المقفع ينظر الى المملكة الاسلامية ، وما فيها من نظم ناقصة في بعض نواحيها ، وينقل عقله - بسرعة - الى قومه الفرس ، فيقارن بين ما يرى أمامه ، وما أرشده اليه التاريخ الفارسي ، فتوحي اليه هذه المقارنة مقترحات الإصلاح ، وتصطدم هذه المقترحات أحياناً بنظرات رجال الدين ، كالذي رأينا من مخالفة رأى الامام مالك لمقترحات ابن المقفع في تنظيم التشريع والقضاء . ذلك لأن ابن المقفع ؛ ينزع الى تقنين قانون يعم أنحاء

الدولة ، كما كان الشأن في فارس ، وأن يُحكّم العدالةَ والمصلحةَ العامة - فيما لم يرد فيه نص مجمع عليه - وهو أقرب ما يكون الى النظام الفارسي ، والامام مالك ؛ يرى أن أهل كل مصر وصلت اليهم أحاديث يرون صحتها فيلزمهم العمل بها ، وليس من الحق ولا من الدين أن يلزمهم برأى عقلي يخالف ما لديهم من حديث صحيح ، أو - على الأقل - صحيح في نظرهم ، وابن المقفع ؛ يتكلم في الخراج بمثل ما نقل إلينا عن الأكَسرة ، وأبو يوسف يتكلم فيه بالآثار التي صحت عنده . والخلفاء يرون ألا يلجئوا الى ابن المقفع ، والبرامكة وأمثالهم . وإنما يلجئون الى رجال الدين أمثال الامام مالك وأبي يوسف

### كَلِيلَةُ وَدَمْنَةُ

ليس من قصدنا أن نبحث هنا في كتاب « كَلِيلَةُ وَدَمْنَةُ » ونعرض لأبحاث المستشرقين في أصل الكتاب أمثال « ده ساسي » و « شوفان » و « بيكل » و « فالكونر » و « هرتل » و « نولدكه » و « جويدى » و « برؤ و كلبان » و « رابت » وغيرهم ، فلو استقصينا ما قالوا ، وعمدنا إلى مناقشة آرائهم لاحتاج ذلك إلى كتاب بأكمله . ولكننا نوجز القول هنا ، فيما يتعلق بموضوعنا ، وهو الثقافة الفارسية وآثارها ، وابن المقفع وأعماله .

يقول ابن المقفع : إنه نقل الكتاب من اللغة الفهلوية ، وقد نقل في أيام كسرى أنوشروان من الهندية إلى الفهلوية ، وكان الباحثون في شك من ذلك حتى عثر الأستاذ هرتل Hertel على بعض الأصول الهندية الأولى ، كتبت باللغة السنسكريتية القديمة ، كما عثر غيره على بعض أبواب من الكتاب مفرقة . فعثروا في كتاب على باب « الأسد والثور » و « الحمامة المطوقة » و « البوم والغربان » و « القرد والغيلم » و « الناسك وابن عرس » ، وعثروا في كتاب آخر على باب « الجرذ والسنور » و « الملك والطائر

فنزة» و «الأسد وابن آوى» كما عثروا في كتاب ثالث على باب «ملك الفيران»، و عثروا أيضاً على باب «ايلاذ وبلاذ وايراخت» و باب «السائح والصائح» و «ابن الملك ورفقائه» فجميع هذه القصص هندية الأصل. ولكنهم لم يعثروا إلى الآن - فيما أعلم - على كتاب جمعت فيه هذه القصص كلها يسمى كلية ودمنة، أو أى اسم آخر. فهل كان هناك كتاب هندي حوى كل هذه القصص، ألفه مؤلف واحد، ونقله الفرس إلى لغتهم؟ أو أن الفرس نقلوا هذه القصص المتفرقة في الكتب إلى لغتهم، ووحدوها في كتاب وأسندوها إلى مؤلف واحد؟ هذا مجال خلاف لا يزال بين الباحثين.

ويرجحون أن باب «بعثة برزويه» و باب ملك الجرذان من زيادات الفرس أنفسهم.

كما يرجحون أن هناك فصولاً برمتها من زيادات ابن المقفع نفسه، وهى باب «غرض الكتاب» و باب «الفحص عن أمر دمنة» و باب «الناسك والضيف» و باب «البطة ومالك الحزين».

وكما يذهب بعضهم إلى أن الباب الأول - وهو مقدمة الكتاب - لعل ابن الشاه الفارسى وضع بعد ابن المقفع، ويذهب «ده ساسى» ويوافق «نولدكه» إلى أن بهنود بن سخوان أو على ابن الشاه هو «أبو القاسم على بن محمد بن الشاه الظاهرى» الذى يقول عنه صاحب الفهرست «إنه من نسل الشاه بن ميكال وكان أديباً طيباً مفاكهاً فى نهاية الظرف والنظافة»<sup>١</sup>. وقد توفى سنة ٣٠٢ هجرية. ولهم أدلة على كل ما ذكرنا يطول شرحها، ويخرج بنا عن الغرض الذى إليه قصدنا.

\* \* \*

وقد كان الباعث لابن المقفع على ترجمته - على ما يظهر - ما عهدناه فيه من ميل إلى الإصلاح الاجتماعى، شاهدناه فى الأدب الكبير والصغير،

ورسالة الصحابة. وكتاب كليلة ودمنة يشرح بعض هذه النواحي شرحاً وافياً، فهو يتعرض للنصح بعدم الاصغاء إلى الحاسد والنمّام، ويبين أن هناك جزءاً طبيعياً؛ فعاقبة الخير خير، وعاقبة الشر شر. وينصح بأخذ الحذر من العدو، والاعتماد على الصداقة، الخ.

ويظهر أن تعمق ابن المقفع في دراسة الحياة الاجتماعية أذاه إلى استنكار كثير من الأمور، ورأى أن معظمها يرجع إلى حكام عصره، ورأى أن الحرية السياسية غير متوافرة في زمنه، فهو لا يستطيع أن ينقد الخليفة وبطانته نقداً صريحاً. وقد عاش ابن المقفع وقت نضوج فكره في زمن أبي جعفر المنصور، وهو شديد البطش قوى المنّة، سريع إلى أعمال السيف. وهو - كان - مؤسس الدولة العباسية وواضع نظمها ومحضتها، وكان يرى ألاّ يمكن تثبيت قواعدها إلاّ باخماد كل حركة تُضعف من شأن الدولة، أو يتوهم فيها ذلك، ويقطع رأس كل مخالف. وكان من ضحايا المنصور كثيرون قتلوا بالظنّة، وتذرع في قتلهم بالاتهام بالزندقة أو نحو ذلك، وكان ابن المقفع نفسه أحد هذه الضحايا!

لعل ابن المقفع رأى أن موقفه مع المنصور موقف بيدبا مع دبشليم؛ فقد جاء في مقدمة الكتاب: « فلما استوثق له (لدبشليم) الأمر، واستقر له الملك طغى وبغى، وتجبر وتكبر، وجعل يغزو من حوله من الملوك، وكان مع ذلك مؤيداً مظفراً منصوراً، فهابته الرعية. فلما رأى ما هو عليه من الملك والسّطوة؛ عبث بالرعية واستصغر أمرهم، وأساء السيرة فيهم، وكان لا يرتقى حاله إلاّ ازداد عتواً. فكث على ذلك برهة من دهره. وكان في زمانه رجل فيلسوف من البراهمة، فاضل حكيم يعرف بفضله، ويرجع في الأمور إلى قوله يقال له « بيدبا » فلما رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية، فكّر



في وجه الحيلة في صرّفه عما هو عليه ، وردّه إلى العدل والانصاف الخ .  
فاجعل ابن المقفع لم يستطع أن يواجه « المنصور » بأكثر مما واجهه به  
في رسالة الصحابة ، وقد مزج نقدّه بكثير من المدح للخليفة والثناء عليه ،  
ونسب أكثر الشدة التي يراها إلى غيره . ولكن هذا لم يشف غلته ، فرأى  
أنّ أسلم طريقة ؛ أن يترجم هذا الكتاب ويزيد فيه ليعمل الكتاب في  
الخلفاء والرعية ؛ ما فعله كلية ودمته في الهند وفارس ، ولعل هذا هو الغرض  
الرابع الذي أخفاه في مقدمة الكتاب ولم يصرح به . فقد جاء فيها « ينبغي للناظر  
في هذا الكتاب ، أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض : أحدها ما قصد فيه  
إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ؛ ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من  
الشبان . . . والثاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ،  
ليكون أنسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشدّ للنزعة في تلك الصور .  
والثالث أن يكون على هذه الصورة فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطل فيخلق  
على مرور الأيام ، لينتفع بذلك المصورّ والناسخ أبداً . والغرض الرابع  
وهو الأقصى وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة » وسكت عن هذا الغرض  
الرابع ولم يبينه وهو - من غير شك - غرض ابن المقفع من ترجمته . والظاهر  
أن هذا الغرض يمكن تلخيصه : في أنه النصح للخلفاء حتى لا يخذلوا عن طريق  
الصواب ، وتفتيح أعين الرعية حتى يعرفوا الظلم من العدل ، وحتى يطالبوا  
بتحقيق العدل . ولم يوضحه ابن المقفع لأن في إيضاحه خطراً عليه من  
المنصور ، ولعل هذه النزعة فيه كانت من الأسباب في الإيعاز بقتله !

وتدل المقارنة بين ما عثر عليه من الفصول الهندية ، والترجمة السريانية  
القديمة - التي ترجمت من اللغة الفهلوية القديمة نحو سنة ٥٧٠ م ، والتي وجدت  
في دير في « ماردين » ونشرت سنة ١٨٧٦ م - على أن ابن المقفع لم يترجم  
الكتاب ترجمة حرفية بل حوّر كثيراً في جملة ومعانيه وترتيبه ، حتى يتفق

والذوق العربي الاسلامي ، وذوق المتأدبين في عصره . بل أضاف فصولا من عنده - كما أشرنا قبل - كباب الفحص عن أمر دمنة ، ففيه نفضة إسلامية ظاهرة مثل : « ومن يجزى بالخير خيراً ، وبالأحسان إحساناً الا الله ! » « ومن طلب الجزاء على الخير من الناس كان حقيقاً أن يحظى بالحرمان ، إذ يخطئ الصواب في خلوص العمل لغير الله تعالى ، وطلب الجزاء من الناس ! » ومثل « لآن تعذب في الدنيا بجرمك ؛ خير من أن تعذب في الآخرة بجهمهم مع الإثم ! » ومثل « والعلماء قد قالوا - في شأن الصالحين - إنهم يُعْرَفُونَ بسيماهم » ، وقالت العلماء : مَنْ كَتَمَ حُجَّةَ مَيِّتٍ أَخْطَأَ حُجَّتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، « وقد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حُكماً » ، الخ . وقد أثبت البحث أن ابن المقفع كان يحذف جملة من الأصل الفهلوي ، ويضع مكانها جملة أخرى توافق مزاج عصره . وقد يضع فصلاً كاملاً . ولعل هذا هو السبب فيما حكاه ابن خلكان من أن الكتاب مختلف فيه هل هو ترجمة ابن المقفع أو تأليف له .

وترجمة ابن المقفع نفسها قد دخل عليها كثير من التغيير على توالي العصور بدليل ( ١ ) اختلاف النسخ التي بين أيدينا اختلافاً كبيراً ( ٢ ) وأنا نجد ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار ينقل بعض قطع من كليلة ودمنة ، وهي تخالف في عباراتها ما بين أيدينا من الكتاب ( ٣ ) ونرى في النسخ التي وصلت إلينا من كتاب « نتائج الفطنة » ، في نظم كليلة ودمنة « لابن الهبّارية اختلافاً في ترتيب الأبواب ، وليس فيه « باب الحمّامة ، ومالك الحزين » وسمى فيه « باب ايلاذ وبلاذ » و « هيلار وبيلاز » مع اختلاف في سياق المثل ، الخ .

وقد كان لكتاب كليلة ودمنة أثر كبير في الأدب العربي ، وفي غيره من الآداب . وعنى الناس به عناية كبرى ، وحذوا حذوه . من ذلك أن كثيرين نظموه ، نعرف منهم أبنائنا اللّاحقي ، ولكن لم يصل إلينا من نظمه إلا القليل . ثم نظم ابن الهبّارية في كتابه « نتائج الفطنة » ويذكر ابن الهبّارية في

ترجمته أنها خير من ترجمة أبان<sup>١</sup>. وله نظم ثالث اسمه «در الحكم في أمثال الهنود والعجم» أكمله عبد المؤمن بن الحسن الصاغاني<sup>٢</sup>.  
وحذا حدوه كتاب كثيرين، فابن الهبارية ألف على منواله كتاب «الصادح والباغم»<sup>٣</sup>. وكذلك ألف على منواله كتاب «سلوان المطاع في عدوان الطباع» لأبي عبد الله محمد بن أبي قاسم القرشي المعروف بابن ظفر المتوفي سنة ٥٩٨ صنفه لبعض القواد بصقلية<sup>٤</sup>. وكذلك ألف على هذا النسق ابن عَرَ بَشَاه كتابه «فاكهة الخلفاء، ومناظرة الظرفاء»<sup>٥</sup>. وكتابه «مرزبان نامه» الذي ترجمه من الفارسية<sup>٦</sup>.

ويذكر «كشف الظنون» أن أبا العلاء المعري ألف كتاباً اسمه «القائف» على مثال كليله ودمنة وهو في ستين كراسة ولم يتم، وأن له كتاب «منار القائف» يتضمن تفسيره في عشرة كراريس<sup>٧</sup>.

وفي رسائل «إخوان الصفا» رسالة في المناظرة بين الحيوان والإنسان لا تخلو من لون من كليله ودمنة، بل يظن «جولد زيهير» أن اسم «إخوان الصفا» مقتبس من كليله ودمنة إذ ورد الاسم في أول فصل «الحمامة المطوقة»  
وعلى كل حال فقد أدخل هذا الكتاب على الأدب العربي القصص على السنة الحيوانات - نعم كان للعرب قبله شيء من ذلك كالذي ورد من أمثالهم، أن الأرنب التقطت تمرة، فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا إلى الضب، فقالت الأرنب يا أبا الحصين! قال سمياً دعوت، قالت أتيناك لنختصم إليك، قال عادلاً حكماً. قالت اخرج إلينا، قال في بيته يؤتى الحكم. قالت إني وجدت

١ طبع نظم ابن الهبارية في الهند وبيروت ٢ وهو في مكتبة فيينا ٣ طبع في بيروت ومصر  
٤ وقد طبع في تونس وبيروت ٥ أنظر كليله ودمنة في دائرة المعارف الإسلامية،  
وعيون الأخبار، وكشف الظنون، ونولده ٦ طبع في مصر ٧ جزء ٢: ١٦٠

تمرّة ، قال حلوة فكليها . قالت فاخْتَلَسَهَا مني الثعلب ، قال لنفسه بَعَى الخَيْرَ .  
قالت فلطمته ، قال بحقك أخذت . قالت فلطمني ، قال حر انتصر . قالت  
فاقض بيننا ، قال قد قضيت ! وورد في القرآن الكريم : « قَالَتْ نَمْلَةٌ  
يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنِكُمْ » وقال في الهدهد « فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ  
تُحِطْ بِهِ » ولكن كان لكتاب كليلة ، أثر من ناحية تفصيل القصص على  
السنة الحيوانات تفصيلاً طويلاً ، ووضع الحكم والأمثال والعظة على  
السنتها ، وتبينت الحاجة الشديدة إلى هذا النوع في عصور الاستبداد . يوم  
كان الملوك والحكام يضيّقون على الناس أنفاسهم ، فلا يستطيع ناقد أن  
ينقذ أعمالهم ، ولا واعظ أن يوحى بالموعظة الحسنة إليهم . ففشا هذا  
الضرب من القول والقصص ، يقصدون فيه إلى نصح الحكام بالعدل وكأنهم  
يقولون : اذا كانت الحيوانات تمقت الظلم وتحقق العدل فأولى بذلك الانسان !  
واذا كانت الولاة والرؤساء تأخذهم العزة بالإثم ، ويستعظمون أن يُصرّح لهم  
بنصح أو نقد ، فلا أقل من وضع النصيحة على لسان البهائم ! واذا كان في  
التصريح تعريض الحياة للخطر ، ففي التلميح نجاة من الضرر .

وانما ذكرنا كتاب كليلة ودمنة ، وما كان له من أثر في الثقافة الفارسية ،  
ولم نذكره فيما يأتي من الثقافة الهندية لسبيين :

( ١ ) أن اللغة العربية إنما تلتقت الكتاب من الأصل الفهلوي الفارسي  
ولم تتلقه من الأصل الهندي ، ومترجمه الذي كساه حلة من البلاغة العربية  
حبّته إلى الناس ، هو ابن المقفع الفارسي .

( ٢ ) أن الفرس - وخاصة ابن المقفع - زادوا فيه زيادات كثيرة - كما  
أبنا من قبل - وإن كان من الحق أن نقرر هنا ما للهند في هذا الكتاب من  
فضل ، هو فضل واضع الأساس وصاحب الفكرة .

## زندقة ابن المقفع

اشتهر رميُ ابن المقفع بالزندقة، ومن أقدم النصوص في ذلك ما حكى عن الجاحظ: «أن ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا يتهمون في دينهم» ويروون أن المهدي قال: «ما وجدت كتاباً زندقة إلا وأصله ابن المقفع»<sup>١</sup> ويروى الجهشيارى أن سفيان بن معاوية لما أراد قتله - لما بينهما من عداوة شخصية وبايعاز المنصور - قال له: «والله يا ابن الزندقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة!»<sup>٢</sup> ثم تناقل الناس هذا القول وزادوا فيه. وأصبح من المسلم لديهم زندقته، وكلهم يتداولون الحكاية المشهورة أنه مريبت من بيوت النار، فتمثل بقول الأحوص.

يا بيتَ عاتِكةَ الذي أتَعَزَلَ      حَذَرَ العَدَى وبه الفَوَادُ مُوَكَّلُ  
إني لأَمْنَحُكَ الصَّدُودَ وإِنِّي      قَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصَّدُودِ لَأَمِيلُ

وزاد من أتى بعدُ كالباقلائي، والقاضي عياض اتهامه بمعارضته القرآن الكريم!

ونحن نعلم من حياة ابن المقفع أنه قضى أكثر حياته، وهو مجوسى ظاهراً وباطناً، ولم يسلم إلا وهو كاتب عيسى بن علي، ولم يعمر بعد الإسنيين قليلة، وهو من غير شك لا يؤخذ على زندقته، وما أُلِّفَ فيها - إن كان قد أُلِّفَ - قبل أن يسلم. وإنما يؤخذ على ما أُلِّفَ أو قال بعد إسلامه، فالإسلام يجب ما قبله. ولم ينص هؤلاء الرواة على أنه قال، أو أُلِّفَ كتاباً في الزندقة بعد إسلامه إلا عبارة سفيان بن معاوية. وهو متهم لما بينهما من عداوة شخصية، سببه أن ابن المقفع كان يحتقره ويزدرية، وإلا ماروى من تمثله بيتي الأحوص.

وقد بالغوا في الفحص عما يشتم منه زندقته ، ورموه بها حتى فيما ليس فيه  
زندقة . فقد روى أبو تمام في ديوان الحماسة لابن المقفع أبياتاً له في الرثاء  
وهي :

رُزِينَا أَبَا عَمْرٍ وَلَا حَيَّ مِثْلُهُ      فَلِلَّهِ رَيْبُ الْحَادِثَاتِ بَيْنَ وَقَعٍ  
فَإِنْ تَكُ قَدْ فَارَقْتَنَا وَتَرَكْتَنَا      ذُوِي خَلْمَةٍ مَا فِي أَسْدَادِهَا طَمَعٌ  
لَقَدْ جَرَّ نَفْعًا فَقَدْ نَأَى لَكَ أَنْتَا      أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرِّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ

فقال ثعلب : « البيت الأخير يدل على مذهبه في أن الخير ممزوج بالشر ،  
والشر ممزوج بالخير ، وأنا أقول لثعلب هلا قرأت قوله تعالى « يسألونك عن  
الخنز والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » !  
الحق أن ثعلباً وأمثاله تحاملوا عليه كثيراً .

وقد أخرجت « مؤسسه كائتاني » للأبحاث عن تاريخ الاسلام وحضارته  
كتاباً نشره الأستاذ « ميكائيل انجلوجويدي » سنة ١٩٢٧ عنوانه « كتاب الرد  
على الزنديق اللعين ابن المقفع - عليه لعنة الله - للقاسم بن ابراهيم ، عليه من  
الله أفضل الصلاة والتسليم » .

وهذا القاسم بن ابراهيم كما في « عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب »  
هو « القاسم بن ابراهيم بن طباطبا بن اسماعيل ، الديباج بن ابراهيم الغمر بن  
الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن ابي طالب ، كان يكنى أبا محمد ، وكان يقيم  
في جبال الرسّ ولذا عرف باسم قاسم الرّسّي » وقد مات القاسم سنة ٢٤٦ هـ  
أى بعد ابن المقفع بنحو قرن . وكتاب القاسم كامل ولكن كتاب ابن المقفع  
لم يذكر كله بنصه ، وإنما ذكر المؤلف فقراً منه تمهيداً للرد عليها . ويقع النص  
العربي في خمس وخمسين صفحة ، ثم ترجمه الأستاذ جويدي إلى اللغة الإيطالية ،  
وعلق عليها وقدمه بمقدمة تبحث في الكتاب . وهذه الفقر التي تنسب إلى  
ابن المقفع تدلنا على غرض الكتاب ومنحاه ولغته .

ونحن نشك كل الشك في نسبة الأصل لابن المقفع والرد للقاسم  
من وجوه:

فأما الشك في نسبة أصل الكتاب لابن المقفع:

(١) من الناحية الفنية: فأسلوب الكتاب غير الأسلوب المعروف  
لابن المقفع، والذي تبيّنه من الأدبيّين ورسالة الصحابة وكليّة ودمنة. ففي  
كل هذه الكتب لا يعتمد إلى السجع إلا ما جاء عفواً، أما في هذا الكتاب  
فيتعمد السجع أحياناً تعمداً كقوله: «لأنّ كونَ شيءٍ لا من شيءٍ لا يقوم في  
الوهم له مثالٌ، وما لا يقوم في الوهم له مثالٌ فحالٌ» هذا إلى أن العبارة  
نفسها من نوع التعبير الفلسفي، الذي لم يعرف إلا بعد زمن ابن المقفع.

(٢) يستهزئ هذا المؤلف بالتعبير بأنّ الله يدِين، وبالاستواء على  
العرش، وبأنّه قاب قوسين أو أدنى، ويحمل هذه التعبيرات على ظاهرها. ونحن  
نعلم أن ابن المقفع كان ضليعاً في اللغة العربية، حتى قال الأصمعي: «قرأت  
آداب ابن المقفع فلم أر فيها لحناً إلا قوله (العلم أكثر من أن يحاط بالكلّ  
منه فاحفظوا البعض)»<sup>٢</sup> وألّف ابن المقفع في الكلام - كما حكى الجاحظ -  
وتعرّض للعزلة، فمن البعيد جداً أن يفهم ابن المقفع من اليد والوجه  
والاستواء على العرش المعاني الحقيقية الظاهرية.

(٣) إذا نحن استثنينا أول الرسالة، وهو قوله «باسم النور الرحمن الرحيم»  
وجدنا الرسالة كلها ليست تأييداً لمذهب ماني، ولا لمذهب زرادشت أو مزدك؛  
وإنما هي دعوة إلى الاتحاد المطلق، فهو يهزأ بعلاقة الله بالإنسان، وكيف انقلب  
عليه خلقه وهم عمَلُ يديه! وكيف قتل أعداؤه أنبياءه ورسله! وكيف  
أمراض خلقه وعذبهم بما عرض من الأسقام لهم! وكيف يأمرك بالآيمان

١ ص ٤٤      ٢ المزهر ٢ : ٨٦ وموضع اللحن في نظر الأصمعي إدخال آل علي  
كل وبعض

بما لا تعرف ، والتصديق بما لا تعقل! وكيف صارت الغلبة للشيطان فتبعه الناس إلا أقلهم!، الخ. وهي كما ترى ليست مطاعن في الاسلام وحده؛ وإنما هي طعن في كل دين، ومنها الديانة الثنوية. ونحن نعلم من تاريخ ابن المقفع؛ أنه كان يستمسك بدينه، ولما اعتزم الاسلام أبي أن يبدي ليلة على غير دين، وسواء أكان إسلامه حقاً أم ظاهراً فقط فليس من طبيعته الحرص على دين ما أن يهاجم الأديان كلها بهذه اللغة.

(٤) أنا لم نجد فيما بين أيدينا من الكتب، وخاصة في الكتب التي ألفت في العصور الأولى كالمسعودي، وفهرست ابن النديم من ذب لابن المقفع كتاباً كهذا، وهو حريٌّ بأن ينص عليه، لأنه يهيج شعور المسلمين، ويحملهم على الرد عليه، ودفع مطاعنه.

وأما شكنا في نسبة الرد للقاسم بن ابراهيم فمن وجوه كذلك :  
أولها — من الناحية الفنية، فقد علمنا أن القاسم في النصف الأول من القرن الثالث، والكتاب من أوله إلى آخره كله مسجوع، متكلف السجع. ونحن نعلم أن هذا العصر «عصر الجاحظ» لم يتكلف فيه سجع، ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة كلها، وإن تكلف فيه سجع فققرة أو فقرتان، فأما كتاب كله سجع، فهذا ما لا نعرفه في هذا العصر، هذا؛ إلى إسفاف في السجع، ورداءة في التعبير كقوله «فالانس والخلق ليس بينهما عندكم خلاف، والأعيان والأعراض فقد تجمعهما الأوصاف»<sup>١</sup>

ثانياً — ترجم ابن النديم في الفهرست للقاسم بن ابراهيم، وعدد كتبه، وهي كتاب الأشربة، وكتاب الامامة، وكتاب الأيمان والندور، وكتاب سياسة النفس، وكتاب الرد على الرافضة<sup>٢</sup> وهذه هي كل كتبه التي ذكرها ولم يذكر منها رداً على ابن المقفع.



هذا يجعلنا نخالف ما ذهب إليه الأستاذ « جويدى » من ترجيحه صحة نسب الكتاب والرد عليه .

\* \* \*

وبعد فالقارىء لكتب ابن المقفع وتاريخه ، يخرج منه على أديب تُقَفُّ ثقافة واسعة فارسية وعربية ، ينزع نزعة قوية لقومه من الفرس ، ويحيى أمته بنشر آدابها ، وسياستها وتاريخها ، ويرى عيوب النظم الاجتماعية في عصره فينادى باصلاحها ، بتطبيق الصالح من النظم الفارسية ، ثم هو نبيل شريف النفس يسترعى بنبئه وأدبه أنظار الناس . فيروى الأصمعى أن ابن المقفع « سئل من أدبك ؟ قال نفسى ، إذ رأيت من غيرى حسناً أتيتته وإن رأيت قبيحاً أتيتته » ثم إن نبئه وعلو خلقه أتيا من طريق الفكر والفلسفة ، لا من طريق الدين ، ورجال الخلق قد يكون خلقهم تدينياً ، وقد يكون خلقهم تفسفاً . فأخلاق الحسن البصرى العالية - مثلاً - مبعثها الدين يتجلى ذلك فى حكمه وأقواله وسيرته . فهو يصدق ويحسن ويعدل لأن الله أمر بالصدق والعدل والاحسان . أما ابن المقفع فباعثه الخلق فلسفى يصدق لأن فى الصدق شرفاً ورفعة ، ولو لم يأمر به دين لكان فى نفسه حسناً ! يظهر ذلك فى حكمه ، فقل أن يستند فى قوله إلى آية أو حديث ، وإنما يعلل ذلك تعليلاً عقلياً ، فهو رجل مدنى وعالم مدنى ، لا رجل دين ولا عالم دين . يتجلى فى أقواله إيمان بالله ، وإيمان بدين ؛ لكن لا يتجلى فيها إيمان بتفاصيل دين . فلو سئلنا ما - كانت - منزلة الإسلام من قلبه ؟ نخير ألا نحاول الإجابة ، فنحن لانستطيع الحكم - فى هذا - على من هم تحت سمعنا وبصرنا ، فكيف بمن باعدت بيننا وبينه القرون ، وانغمس فى السياسة وأحزابها ، وحارب وحورب بها ! فلنكفه إلى الله فالله وحده خير الحاكمين .

\* \* \*

إذا - كانت الثقافة الفارسية عنصراً قوياً الأثر في ذلك العصر ؛ في الشعر في الأدب ، في الحكم ، في القصص ، في الخرافات والأوهام ، في العادات والتقاليد ، في نظم الحكم ، في دُعاة الإصلاح ، في رجال اللّهو والغناء ، في الديانات ومذاهب المتكلمين ، في رجال العلم والتدوين ، في قصور الخلاق ، في الخاصة والعامة . وكان لهذا العنصر حُمةً ودُعاة ، يعملون كثيراً بداعي العصبية القومية ، وأحياناً بداعي الخير والإصلاح ، وكان لكثير من هؤلاء الدعاة مناصبٌ تمكّنهم من بسط نفوذهم ، وحماية دعوتهم ، سرّاً إذا دعت الحال ، وجهرّاً إن أمكن الجهر . ولم يكن ابن المقفع إلا زعيماً من زعمائها العديدين ، وأبطالها البارعين . ولم تنتشر دعوتهم في لين وهوادة ، بل قوومت من عناصر أخرى في شدة وعنف ، قاومها العرب إذ أحسّوا الخطر ، وقاومتها الأجناس الأخرى دفاعاً عن قوميتها ، وكان صراع لغوى وديني ، وصراع عادات وتقاليد ، وصراع علمي . وكان النصر في بعض الميادين لهذا ، وبعضها لذلك ، كما سنبيته في الكلام على امتزاج الثقافات إن شاء الله .

---

## الفصل الثاني

### الثقافة الهندية

قديمًا عَرَفَ العربُ «الهند» في جاهليتهم واتصلوا بهم تجاريًا، وأولعوا بالعود الطيب الذي يجلب من الهند، فقال عدى بن الرقاع:

رُبَّ نَارٍ بِيَتْ أَرْمِقُهَا      تَقْضِمُ الْهِنْدِيَّ وَالْغَارَا

قالوا إنما عني بالهنديّ العود الطيب الذي من بلاد الهند. كما أولعوا بالسيوف الهندية، وسمّوا السيف المطبوع من حديد الهند؛ المهند، وقالوا سيف مهند وهندي وهندواني إذا عمل ببلاد الهند وأحكم عمله، واشتقوا منه فقالوا: هند السيف إذا شحذه، وقال قائلهم: «كلّ حسامٍ مُحْكَم التَّهْنِيدِ» قال الأزهري: والأصل في التهنيدي عمل الهند<sup>١</sup>. وسموا كثيرًا من نساءهم «هندًا» كما سموا «هند الهنود» ولا أدري هل أصل التسمية هذه البلاد.

ولما فتح المسلمون فارسَ والعراقَ فكروا في الهند، فيحدثنا البلاذري: «أنه لما ولي عثمانُ بن عفان، وولى عبد الله بن عامر بن كرزٍ العراق كتب إليه يأمره أن يُوجّهَ إلى ثغر الهند من يعلمَ عليه ويتصرف إليه بخبره، فوجه حكيم بن جبلةَ العبديّ، فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال: يا أمير المؤمنين! قد عرفتها وتنحّرتّها. قال: فصفها لي. قال ماؤها وشلٌّ، وثمرها دقلٌّ<sup>٢</sup>، ولصّها بطل. إن قل الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا

٢ الوشل: القليل. والدقل: أردأ التمر

١ لسان العرب

جاعوا. فقال له عثمان : أخابر أم ساجع ؟ قال بل خابر ، فلم يُغزها أحداً<sup>١</sup> وتتابع المسلمون يغزونها، ويصيرون منها المغانم ، حتى وجه الحجاجُ محمد بن القاسم الثقفي إلى الهند في أيام الوليد ففتح جزءاً عظيماً منها ، وهو المسمى بالسند سنة ٥٩١ هـ ، ففتح ديبيل « Daibul » و « نيرانكوت » المسماة الآن « بحيدر آباد » وسار إلى « راور » وأخيراً فتح « ملتان » وكان محمد بن القاسم قائد الجيوش وفتح هذه الفتوح قتي شاباً لم يتجاوز العشرين ، قال فيه القائل :

إنَّ المرءة والسماحة والندى      لمحمد بن القاسم بن محمد  
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة      ياقرب ذلك سوُدداً من مؤلداً !

وقال فيه آخر :

ساس الرجال لسبع عشرة حجةً      ولداته عن ذلك في أشغال !  
وقد غنموا مغانم كثيرة ، وسبوا سبياً كثيراً ، انتشر كشأن السبائيا في المملكة الإسلامية ، وأصبح الجيل السندي عنصراً من العناصر المكوّنة للأمة الإسلامية . حدث الأغانى قال : « بعث الجنيد بن عبد الرحمن المرسي إلى خالد بن عبد الله القسري بسبي من الهند بيض ، فجعل يهب - كما هو - للرجل من قريش ، ومن وجوه الناس ، حتى بقيت جارية منهن جميلة كان يدرها ، وعليها ثياب أرضها : فوطتان : فقال لأبي النجم هل عندك فيها شيء حاضر وتأخذها الساعة ؟ قال نعم أصلحك الله : «<sup>٢</sup> ثم قال فيها رجزه المشهور الذي مطلعها «  
عَلِقْتُ خَوْداً من بنات الرطِّ<sup>٣</sup>

وفي عصرنا الذي تؤرخه تبعت السند للعباسيين ، وولى أبو جعفر المنصور

١ البلاذري ص ٤٣٨      ٢ أغاني ٩ : ٧٩      ٣ الرط : جيل من الهند معرب « جت » ويطلق الآن على سكان إقليم البنجاب

هشام بن عمرو والتغلبى عليها سنة ١٤٢ فتوسع في الفتح شمالاً ، ففتح « كابل » و « كشمير » وأصاب سنيّاً ورقيقاً كثيراً . واتصلت العلاقات التجارية بين الهند والمملكة الإسلامية ، فكان يأتي منها العود والسكر ، والغاب الهندي <sup>١</sup> .

\*\*\*

وما تم الفتح حتى رأينا الحركة العلمية تتبعه ، فكان بعض الفاتحين أنفسهم من العلماء ، فالربيع بن صبيح البصرى أشهر المحدثين ، وأولهم تدويناً للحديث ، كان في الجيش الذي سيره المهدي سنة ١٥٩ لغزو الهند وبهامات <sup>٢</sup> . وقد ترجم الذهبي لبعض المحدثين في السند في كتابه تذكرة الحفاظ <sup>٣</sup> . وهكذا لم يكن الجيش الإسلامي فاتحاً فقط ، بل كان - أيضاً - ناشراً للدعوة ومعلماً . ومن ناحية أخرى سرعان ما رأينا الموالي الذين جلبوا من الهند ، وغنموا في الحرب ووزعوا على الجند ؛ ينبغ منهم ومن أولادهم الشعراء وعلماء اللغة والمحدثون . فمن الشعراء كان أبو عطاء السندي ، وهو شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، وكان أبوه سندياً لا يفصح ، ونشأ ابنه في المسلمين شاعراً كبيراً ، وإن كان في لسانه لُكنة شديدة ولُثغة ، كان يقول في مرحبا « مرهبا » وفي حياكم الله « هياكم الله » وفي الزُجج « الزُز » وفي جرادة « زرادة » وفي الشيطان « سيطان » وفي أظن « أزن » حتى اضطر أن يتخذ له غلاماً ينشد شعره تحامياً من أن ينشده بلسانه وهو القائل :

أَعُوذُ نِي الرُّوَاةُ يَا ابْنَ سَلِيمٍ      وَأَبِي أَنْ يُقِيمَ شِعْرِي لِسَانِي  
وَعَلَاً بِالذِّي أَجْمَعُ صَدْرِي      وَجَفَانِي لِعُجْمَتِي سُلْطَانِي

٢ انظر ابن الاثير ٣ : ١٧  
٤ الجمجمة : إخفاء الشيء في الصدر

١ المسالك والممالك لابن خردادبه ص ٦٢  
٣ جزء ٢ ص ٦٥ و ٢٥٦

وازْدَرَّتِي الْعُيُونُ إِذْ كَانَ لَوْنِي حَالِكًا مُجْتَوَىً مِنَ الْأَلْوَانِ ١  
فَضَرَبْتُ الْأُمُورَ ظَهْرًا لِبِطْنٍ كَيْفَ أَحْتَالُ حِيلَةً لِلِّسَانِ!  
وَتَمَنَيْتُ أَنِّي كُنْتُ بِالشَّعْرِ فَصِيحًا وَبِالنَّاسِ بَعْضُ بَنَانِي

ولما أمر أبو جعفر المنصور الناس بلبس السواد قال :

كُسَيْتُ وَلَمْ أَكْفُرْ مِنَ اللَّهِ نِعْمَةً سَوَادًا إِلَى لَوْنِي وَدَنَا مَلْهُوجًا ٢  
وَبَاعْتُ كُرْهَا بَيْعَةً بَعْدَ بَيْعَةٍ مُبْهَرَجَةً أَنْ كَانَ أَمْرًا مَبْهَرَجًا

وقد كرهه العباسيون لأنه قال كثيراً في مدح الأمويين ، فلما تحولت  
الدولة أراد أن يتحول فلم يقبلوا منه ، فكان يذمهم . ومن ذلك قوله هذا ، وقوله :

فَلَيْتَ جَوْرَ بَنِي مروان عَادَ لَنَا وَلَيْتَ عَدَلَ بَنِي العباسِ فِي النَّارِ! ٣

ولم يصل إلينا من شعره كثير حتى تتبين إن كان فيه معان جديدة كسبها  
من أصله الهندي .

واشتهر من اللغويين بمن أصله هندي ابن الأعرابي ( كان أبوه زياد  
عبداً سندياً ) وكان ابن الأعرابي عالماً من أعلام اللغة والأدب والشعر ، أملى  
على الناس ما يحمل على أجمال ، وألّف تأليف كثيرة ، وتلذذ له كثيرون  
من أشهرهم ثعلبُ وابن السكيت . ولم يبق لنا من كتبه إلا كتاب في أسماء  
البيئر وصفاتها ، وكتاب في أسماء الخيل وأنسابها . ومن كتبه التي ألفها  
كتاب الأنواء . ولو وصل إلينا لعلنا هل تأثر فيها بمعارف الهند أو اقتصر

١ المحتوى : البغيض المكره

٢ الدن والذنية : قلنسوة القاضى ، والملهوج : المتفكك غير المحكم

٣ أقرأ ترجمته في الأغاني جزء ١٦ : ٨١ وما بعدها وفي طبقات الشعر لابن قتيبة

٤ نشر في مجلة المنيس مجلد ٦ جزء ١ ٥ في دار الكتب المصرية من كتب الشنقيطى

على معارف العرب ، على النحو الذي أَلَّفَ فيها غيرُه من علماء العرب .  
ومن المحدِّثين الهنديين : أبو معشر نَجِيحُ السِنْدِي ، صاحب المغازي سمع  
نافعاً ونَفَرًا من التابعين ، وكان أَلَكَنَ يقول : حدثنا محمد بن « قعب » يريد  
كعب ، الخ ، الخ .

هذا نوع يمثل لنا اندماجَ الهنود في المسلمين ، واعتناقهم الإسلام  
وتعلّمهم علماً إسلامياً عربياً ، ونبوغ بعضهم فيه . وقد رأينا قبل فيما نقلنا  
عن الجاحظ : اشتهار السنديين بحسن القيام على المال وتدييره حتى « لا ترى  
بالبصرة صيرفاً إلا وصاحب كيسه سندي »

والآن نريد أن نتعرض للجانب الآخر من الموضوع ، وهو تأثير الهنود  
في الثقافة الإسلامية .

أثر الهنود في الثقافة الإسلامية من ناحيتين - ناحية مباشرة - وذلك  
باتصال المسلمين أنفسهم بالهند من طريق التجارة ، ومن طريق الفتح العربي .  
فان هذا الفتح صيِّ ما فتح من بلاد السند جزءاً من المملكة الإسلامية تخضع  
لنظامها ، وتجرى عليها أحكامها ، وينتقل المسلمون إليها ، وينتقل الهنود إلى  
أنحاء العالم الإسلامي المختلفة . وكل من هؤلاء وهؤلاء يحملون ثقافتهم ،  
ويتبادلونها بعضهم مع بعض تبادل السِّلَع .

وناحية غير مباشرة : وذلك نقل ثقافتهم بواسطة الفرس ، فان الفرس  
اتصلوا بالهنود اتصالاً وثيقاً قبل الفتح الإسلامي ، وأثروا فيهم وتأثروا بهم .  
وأخذوا كثيراً من الثقافة الهندية ، وأدجوها في ثقافتهم ، فلما نقلت الثقافة  
الفارسية إلى العربية ، كان معنى هذا نقل جزء من الثقافة الهندية في ثناياها .

وقد عدَّ المسلمون الهنود إحدى الأمم الأربع ذات الصفات الممتازة ،  
وهي : الفرس والهند والروم والصين : وقال الجاحظ فيهم : « اشتهر الهند

بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب، والخِرط والتجْر والتصاوير، والصناعات  
الكثيرة العجيبة<sup>١</sup>»

وقال المسعودي « ذكر جماعة من أهل العلم والنظر... أن الهند كانت  
قديم الزمان العرّة التي فيها الصلاح والحكمة... ثم ألمَّ بطرفٍ من  
إلهياتهم ورياضتهم وألعابهم الى أن قال: « والهند في عقولهم وسياستهم  
وحكمتهم، وألوانهم وصفاتهم، وصحة أمزجتهم، وصفاء أذهانهم، ودقة  
نظرهم بخلاف سائر السودان »<sup>٢</sup>

وقال الأصفهاني في محاضرات الأدباء: « إن الهند لهم معرفة الحساب  
والخط الهندى، وأسرار الطب وعلاج فاحشِ الأدوية، والرقى وعلم  
الأوهام، وخرط التماثيل ونحت الصور، وطبع السيوف، والشطرنج،  
والخنكلة - وهي وتر واحد يجعل على قرعة فيقوم مقام العود - ولهم ضروب  
الرقص، والثقافة والسحر والتدخين »<sup>٣</sup>

وقال القفطي: « إن الأمم الثماني التي عنيت بالعلوم هم: الهند، والفرس،  
والكلدانيون، واليونانيون، والروم، وأهل مصر، والعرب، والبرانيون.  
وهذه الأمم المذكورة هم الذين اعتنوا بالعلوم واستخرجها، وباقى الأمم لم  
تعن بشيء من ذلك ولا ظهر لها شيء منه »<sup>٤</sup>

وقال في موضع آخر: « والهند هم الأمة الأولى كثيرة العدد فخمة الممالك،  
قد اعترف لها بالحكمة، وأقر بالتبريز - في فنون المعرفة - كل الملل السالفة...  
وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة لفرط عنايتهم بالعلوم... فكان  
الهند عند جميع الأمم معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة. ولبعد الهند  
من بلادنا قلت تأليفهم عندنا فلم يصل إلينا الا طرف من علومهم ولا سمعنا  
الا بالقليل من علمائهم »<sup>٥</sup>

٢ مروج الذهب ١ : ٣٥ وما بعدها  
٤ أخبار الحكماء ص ٢٧ ٥ ص ٢٦٦

١ رسائل الجاحظ ص ٧٣  
٣ ص ١ : ٩٣ ولعله التدجيل



وكان تأثير الهنـد من نواح: أهمها الإلهيات، أو المقالات الدينية، والرياضيات أو الحساب والنجوم، والأدب وما يتبعه من فن.

الإلهيات — كان للهند فلسفة كما لليونان فلسفة، وقد بحث مؤرخو الفلسفة في مبلغ تأثير إحداهما في الأخرى، وما أخذ اليونان عن الهند، وما أخذ الهند عن اليونان. مما لا مجال لبحثه هنا. ولكننا نقول إن للفلسفة الهندية أوصافاً خاصة تميزها عن الفلسفة اليونانية. ذلك: أن الفلسفة الهندية امتزجت امتزاجاً تاماً بالدين، واصطبغت صبغة شعرية لا صبغة علمية، لم تتدرج من المحسوس إلى المعقول، ورضيت في كثير من مواقفها بالتعبير الشعري، المملوء بالمجازات والاستعارات والخيالات، ولم تنهج المنهج العلمي الذي يتطلب التعبير بالحقائق لا المجازات. مثال ذلك أن تقول: إن العالم كله مشتق من شيء واحد أبدى أزلي لا يقبل التغير يسمى « برهمن » ثم اذا شرحت كيف تخلق هذا العالم من « برهمن » قالت: « كما تتشكل الحديد المحمأة في النار إلى آلاف من الأشكال؛ كذلك تتخلق الأشياء من الأزلي الأبدى ثم تعود إليه ». أو تقول: « كما ينبعث النسيج من العنكبوت، أو الشرر من النار؛ كذلك يخرج الحيوانات والعالم وكل شيء، من ذلك الأصل »

فأنت ترى أن هذه تشبيهات تُرضى الخيال، ولا ترضى العقل. وهكذا ملئت الفلسفة الهندية بمثل هذه التعبيرات في كثير من شروحيها. وقد يكون لها العذر في أنها تحاول شرح شيء من الصعب إدراكه، والتعبير عنه تعبيراً رياضياً، أو تعبيراً علمياً، وأنها تنتقل من محسوس يمكن التعبير عنه إلى لا محسوس يصعب توضيحه. ولكن الفلسفة اليونانية — في مثل هذه المواقف — لم تسلك هذا السبيل، وحاولت جهد طاقتها أن تعبر التعبير العلمي، وإن كان في المدرسة الأفلاطونية شيء من الشعر.

كذلك مما تخالف فيه الفلسفة الهندية الفلسفة اليونانية: أن الأولى حددت

الغرض من الفلسفة بخدمة الانسان ، بينما الفلسفة اليونانية تتطلب المعرفة للمعرفة . فالباعث الأساسى للفلسفة عند الهنود شوق الانسان للخلاص من آلام هذا العالم ومصائبه . وعند اليونان الباعث الأول على الفلسفة العجب ، عجب من مظاهر العالم فأراد أن يتعرفها فتفلسف .



انتشرت فى الهند ديانة البراهمة ثم البوذية ، ومن الاطالة أن نعرض لشرح هاتين الديانتين فى عقائدهما وأصولهما . وقد وصف «البيرُونى» ديانة الهند التى رآها فى القرن الرابع الهجرى ، وكان دقيقاً صادق الوصف ، عالماً باللغة السنسكريتية ، عاش فى الهند زمناً طويلاً ، وخبر أحوال أهله ، ووضع فى ذلك كتباً أهمها : « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مردولة »<sup>١</sup> وصف فيه عقائدهم ، وعلومهم وآدابهم ، وأحوالهم الاجتماعية . وقد أبان البحث العلمى الحديث ما للبيرونى من تحرر للحق ، وإخلاص للعلم ، وإصابة فى كل ما وصف - الا فى القليل النادر الذى أوقعه فيه اعتمادُه على نفسه فى فهم كلمة لغوية لم يكن فيها مصيباً ، وأحياناً نقله عن أخطأ فى خبره - وقرب عهد البيرونى من عصرنا الذى نؤرخه يجعلنا نعتقد أن حالة الهند فى عصرنا العباسى الأول تشبه تمام الشبه ما وصفه «البيرُونى» معتمداً على ما شاهد وسمع وقرأ فى كثير من الكتب الهندية باللغة السنسكريتية .

وصف الهنودَ بالاعجاب بأنفسهم ، والاعتداد بآمتهم ، والازدراء بمن عداهم « يعتقدون فى الأرض أنها أرضهم ، وفى الناس أنهم جنسهم ، وفى الملوك انهم رؤسائهم ، وفى الدين انه نحلتهم ، وفى العلم أنه مامعهم . وفى طبيعتهم الضن بما يعرفونه ، والافراط فى الصيانة له عن غير أهله منهم ، فكيف عن غيرهم ! على أنهم لا يظنون ان فى الأرض غير بلدانهم ، وفى الناس غير

سكانها ، وأن للخلق غيرهم علماء ، حتى أنهم إن حُدِّثوا بعلم أو عالم في خراسان وفارس استجهلوا المخبر ، ولم يصدقوه للآفة المذكورة . ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم ! على أن أوائلهم لم يكونوا بهذه المثابة من الغفلة فهذا « برهمن » أحد فضلائهم حين يأمر بتعظيم البراهمة يقول : إن اليونانيين - وهم أنجاس - لما تخرجوا في العلوم وأنافوا فيها<sup>١</sup> على غيرهم وجب تعظيمهم<sup>٢</sup> .

ولما ذكر اعتقادهم في الله ، فرّق بين خاصتهم وعامتهم ، لأن طباع الخاصة تقصد التحقيق في الأصول ، والعامّة تقف عند المحسوس ، ثم شرح عقيدة الخاصة ، فاذا هي توافق عقيدة المسلمين فيه ، فقال : « واعتقاد الهند في الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء ، المختار في فعله ، القادر الحكيم الحى المحي المدبّر المبقى ، الفرد في ملكوته عن الأضداد والأنداد ، لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء »<sup>٣</sup> . ثم استدلّ على أن هذا عقيدة الخاصة من الهند بنصوص من كتبهم القديمة ، ثم وصف عقيدة العامة « وأن الأفاويل عندهم اختلفت وربما سمّجت ، كما يوجد مثله في سائر الملل وفي الاسلام من التشبيه والاجبار ، ومثّل لذلك عند الهند بأن خاصتهم تقول : إنه يحيط بكل شيء حتى لا تخفى عليه خافية ، فيظنّ عاميهم أن الاحاطة تكون بالبصر ، والبصر بالعين ، فيصف الله بألف عين عبارة عن كمال العلم .

وقد أطل البيروني في وصف الفلسفة الدينية للهند ، من الاعتقاد بالله والموجودات العقلية والحسية ، وتعلق النفس بالمادة ، والأرواح وتناسخها ، ومواضع الجزاء من الجنة والنار ، وكيفية الخلاص من الدنيا ، ومنيع السنن والنواميس ، والرسل ، ونسخ الشرائع . وقارن في كثير من المواضع بين عقائد الهند والاسلام ، والصوفية والنصرانية ، والفلسفة اليونانية والأفلاطونية

الحديثة ، مما يخرج بنا عن القصد لو شرحناه .  
غير أن هنا مسألة هامة لا بد من الاشارة إليها ؛ لأنها خاصة من خواص  
الهند ، ولها أثر كبير في المسلمين ، تلك هي مسألة « تناسخ الأرواح » . وقد قال  
فيها البيروني بحق « كما أن الشهادة بكلمة الاخلاص شعار إيمان المسلمين ،  
والتثليث علامة النصرانية ، والإسبات علامة اليهودية ؛ كذلك التناسخ علم  
التحلة الهندية ، فمن لم ينتحله لم يك منها ، ولم يُعدَّ من جملتها ! »  
وشرح نظريتهم في التناسخ : أن الأرواح لا تموت ، ولا تَفنى وأنها أبدية  
الوجود لا سيف يقطعها ولا نار تحرقها ، ولا ماء يَغصها ولا ريح تُبسسها  
ولكنها تنتقل من بدن الى بدن ؛ كما يستبدل البدنُ اللباس إذا خلَق ، وتترقى  
النفسُ في الأبدان المختلفة كما يترقى الانسان من طفولة ، إلى شباب ، إلى كهولة ،  
إلى شيخوخة . ذلك أن النفس طالبة للكمال ، شيقّة إلى العلم بكل شيء ، وهذا  
يحتاج إلى زمن فسيح ، وعمر الانسان وغيره قصير ، فلا بد من تنقل النفس من  
بدن إلى بدن وفي كل بدن تستفيد تجارب جديدة ، ومعلومات جديدة . فالأرواح  
الباقية تتردد في الأبدان البالية ، وهي تتردد من الأذل إلى الأفضل ، دون عكسه ،  
لتترقى النفس في الكمال ، حتى يتحقق شوقها بعلمها ما لم تعلم ، واستيقاضها شرف  
ذاتها ، واستغنائها عن المادة فتعرض عنها « ويتحد العاقل والعقل والمعقول ،  
ويصير واحداً » .

وقد ربطوا الثواب والعقاب والجنة والنار بنظرية التناسخ . فقالوا :  
إن الغرض من جهنم تمييز الخير من الشر ، والعلم من الجهل ، فالأرواح  
الشريرة تتردد في النبات ، وخشاش الطير ، ومرذول الهوام ، الى أن تستحق  
الثواب فتتجو من الشدة وتتردد فيما هو أرقى . وقال بعضهم : « لو لم أكن  
صائراً إلى آلهة حكماً سادة أخيار ، ثم من بعد إلى ناس ماتوا خير بمن هنا

لكان تركي الحزن على الموت ظلماً!»، «وقال بعض من مال إلى التناسخ من المتكلمين، إنه على أربع مراتب: هي «النسخ» وهي التوالد بين الناس، بأن ينسخ من شخص إلى آخر، وضمه «المسخ» ويخص الناس بأن يمسخوا قردة وخنزير وفيلة. و«الرسخ» كالنبات، وهو أشد من النسخ لأنه يرسخ، ويبقى على الأيام، ويدوم كالجبال، وضمه «الفسخ» وهو للنبات المقطوف، والمذبوحات لأنها تتلاشى ولا تعقب»<sup>١</sup>

وقد لعبت نظرية التناسخ دوراً هاماً في الفلسفة اليونانية، وفي الديانة المانوية، وفي المذاهب الإسلامية، وفي التصوف، وفي النصرانية.

فقد قال فيثاغورس بنظرية التناسخ، ويرجح كثيرون من مؤرخي الفلسفة اليونانية أنها مأخوذة - في الأصل - من الفلسفة الهندية، ثم أخذها عن فيثاغورس: إمبدُ كليس، وأفلاطون - قد كان فيثاغورس يرى تناسخ الأرواح بين الانسان والحيوان، وأن تحرير النفس بترقيها في دورة الحياة. وذلك بالشعائر الدينية، وبالفكر والتأمل والفلسفة - وأفلاطون ربط رأيه في عالم المثُل، ونظريته في تذكر المعلومات قبل حلول الروح بالجسم بنظرية التناسخ، وإن اختلفت نظريته في التفاصيل عما حكاه بوذا» من تذكره أشياء كثيرة، حدثت له في مولده الأولى، وقد نقض أرسطو رأى فيثاغورس وأفلاطون في التناسخ، وخاصة في حلول روح إنسان في جسم حيوان، وذهب إلى أن ما كان وظيفة لشيء لا يمكن أن يكون وظيفة لآخر الخ.

وقد حكى «البيروني» أن «ماني» نفي من بلاد فارس فدخل أرض الهند ونقل التناسخ منهم إلى نحلته، وقال: إن الحواريين لما علموا أن النفوس لا تموت، وأنها مترددة في صور مختلفة، سألوا المسيح عن عاقبة النفوس التي لم تقبل الحق فقال: أي نفس لم تقبل الحق هالكة لراحة لها.

وَعَنَى بِهَلَاكِهَا عَذَابَهَا لَا تَلَاشِيهَا<sup>١</sup> .

أما في الاسلام فكان أثر التناسخ في بعض الفرق الدينية كبيراً، فقد قال احمد بن حائظ (وقد كان من المعتزلة ثم تبرءوا منه) وأبومسلم الخراساني، والقرا مطة، ومحمد بن زكريا الرازي: إن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد آخر، وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقت. واحتج احمد بن حائظ بقوله تعالى: «يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ» وبقوله تعالى: «جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ<sup>٢</sup>»

وقد أوضح الشهرستاني قول احمد بن حائظ في التناسخ فقال: إنه كان يقول إن الله أبدع خلقه أسحاء سالمين عقلاء بالغين في دار سوى هذه الدار التي هم فيها اليوم، وخلق فيهم معرفته والعلم به، وأسبغ عليهم نعمه.. فابتدأهم بتكليف شكره، فأطاعه بعضهم في جميع ما أمرهم به، وعصاه بعضهم في جميع ذلك، وأطاعه بعضهم في البعض دون البعض، فمن أطاعه في الكل أقره في دار النعيم التي ابتدأهم فيها، ومن عصاه في الكل أخرج من تلك الدار إلى دار العذاب وهي النار، ومن أطاعه في البعض وعصاه في البعض أخرج إلى دار الدنيا، فألبسه هذه الأجسام الكثيفة، وابتلاه بالبأساء والضراء على صور مختلفة من صور الناس، وسائر الحيوانات على قدر ذنوبهم... ثم لا يزال يكون الحيوان في الدنيا كرتة بعد كرة وصورة بعد أخرى، ما دامت معه ذنوبه<sup>٣</sup> وقبل هؤلاء كان السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ، فقد روا عنه أنه قال لعلي: أنت أنت! أي أنت الإله. وتبعته فرقته فقالت بتناسخ الجزء الألهي في الأئمة بعد علي<sup>٤</sup>، وبمثل ذلك قال الغالية من الشيعة<sup>٥</sup>.

١ البيروني ٢٧ ٢ الفصل في الملل والنحل لابن حزم جزء ١ ص ٩٠ و ٩١ وانظر فيه الرد عليهم كذلك ٣ جزء ١ ص ٧٧ وما بعدها ٤ الشهرستاني على هامش ابن حزم جزء ٢ ص ١١ ٥ الشهرستاني ٢ : ١٠

وبعد هؤلاء كان النصيرية يعتقدون أن مرتكبي الآثام يعودون إلى الدنيا يهوداً أو نصارى، أو مسلمين سُنيّين، أما من لم يؤمن بعلي فيعودون جمالا أو بغالا أو حميراً، أو كلاباً أو نحو ذلك من أصناف الحيوان، وبمثل ذلك يقول عوام الدروز.

وفي بعض قصص ألف ليلة وليلة ما يشير إلى مذهب التناسخ. وقد رأيت قبل؛ أن نظرية التناسخ تُسلم إلى مذهب الحلول، فيتحد العقل والعاقل والمعقول وتصير كلها شيئاً واحداً. وهذا النظر كان له أثر كبير في مذهب الصوفية، كما سنشرحه إن شاء الله عند الكلام في التصوف.

ومن مذاهب الهند القائلة بالتناسخ، مذهب يسمى «السُمْنِيَّة» نسبة إلى «سومنا» وهو اسم صنم كان في الهند، أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين سنة ٤١٦ كما ذكر الجزري في تاريخه، وقد ذكر البيروني أنها فرقة شديدة البغض للبراهمة، وقد كانت خراسان وفارس والعراق والموصل إلى حدود الشام في القدم على دينهم، إلى أن ظهر زرادشت من أذربيجان، ودعا ببلخ إلى المجوسية، وراجت دعوته فأنجالت السمنية عنها إلى مشارق بلخ.

وقد عُرف هذا المذهب بين المسلمين في العصر الذي تُوْرخه، فيحكى لنا الأغاني: «أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام، عمرو بن عبّيد، وواصل ابن عطاء، وبشار الأعمى، وصالح بن عبد القدّوس، وعبد الكريم بن أبي العوّاء، ورجل من الأزدي (قال أبو احمد يعني جرير بن حازم) فكانوا يجتمعون في منزل الأزدي، ويختصمون عنده، فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال، وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة، وأما بشار فبق متحيراً مخبطاً، وأما الأزدي فمال إلى قول السمنية، وهو مذهب من مذاهب الهند وبق ظاهره على ما كان عليه»<sup>٢</sup>.

وقد عرّف علماء المسلمين السمنية ، وناقشوهم طويلاً - في كتب التوحيد أو علم الكلام - وأكثر مناقشتهم كانت حول «نظرية المعرفة» ، فيؤخذ من حكاية قول السمنية أنهم كانوا يقولون : إن العلم أو المعرفة لا تحصل إلا من باب الحواس ، فكل علم ليس أساسه الحس لا يكون علماً صحيحاً ، أما النظر المجرد ، غير المؤسس على الحس فلا يفيد علماً . سواء كان ذلك في الالهيات أو غيرها ، وقد لخص صاحب كشاف مصطلحات الفنون مذهبهم في هذا بقوله «إنهم يقولون بأنه لا يفيد العلم إلا الحس» فكأنهم بذلك سبقوا «لوك» ومن تبعه ، إذ يقولون : إن أداة المعرفة الصحيحة هو الإدراك بالحس ، وكل الأفكار الراقية الجليلة التي تفوق السحاب رفعة ، وتعلو علو السماء إنما أصلها الحواس ، يَسْبَحُ العقل مسافات بعيدة ويفكر ، ويتأمل تأملات رفيعة ، وهو في كل هذا لا يخرج قيد شعرة عما أمدهت به الحواس أو التأمل . وهم يعارضون في ذلك نظرية الذهنين أو العقليين ، الذين يرون أن بعض المدركات ليس سببها الحواس ، وإنما سببها الإدراك العقلي المحض كما في الرياضيات والالهيات .

\*\*\*

أما في الرياضيات فقد اتصل المسلمون بالهند ، وأخذوا عنهم قبل أن يتصلوا - اتصالاً وثيقاً - باليونان . فقد ذكروا : «أن وفدًا من الهند وفد على أبي جعفر المنصور سنة ١٥٤ وفيهم رجل ماهر في معرفة حركات الكواكب وحسابها ، وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته ، وخصوصاً على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه «براهمَسْبَهْ طَسِيدَهَانْت» ألفه سنة ٦٢٨ م أو (٦ و ٧) هجرية الفلكي الرياضي «برهمكيت» فكلف المنصور ذلك

١ انظر حكاية قولهم والرد عليهم في كتاب المواقف جزء ١ ص ١٢٧ وما بعدها والمطلع ص ٦١



الهندي باملاء مختصر الكتاب ، ثم أمر بترجمته الى اللغة العربية ، وباستخراج كتاب منه تتخذ العرب أصلاً في حساب حركات الكواكب ، وما يتعلق به من الأعمال . فتولى ذلك الفزاري ، وعمل منه زيجاً اشتهر بين علماء العرب ، حتى انهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس في الحساب والجداول الفلكية <sup>١</sup> . وقد اقتصر العرب على الجزء الأخير من الاسم السابق وهو « سدّهانت » ثم حرفوه قليلاً وسموه « السند هند » <sup>٢</sup> .

وقد أخذ عن هذا الرجل الهندي الذي وفد على المنصور ؛ إبراهيم بن حبيب الفزاري ، ويعقوب بن طارق <sup>٣</sup> .

وكأخذ المسلمون عن الهند كتاب السند هند ، ترجموا كتاباً ثانياً اسمه « الأَرَكَنْد » ، وثالثاً اسمه « الأَرَجَبَر » <sup>٤</sup> .

وقد قال الأستاذ « نلينو » بعد بحثه العميق « كفت هذه الملاحظات دليلاً على شدة تأثير كتب الهند في أوائل نمو الفلك عند العرب وسنرى فيما بعد ... أن العرب أخذوا طرقاً مهمة كثيرة النفع مجهولة لليونان في حل جملة من المسائل الفلكية المتعلقة بعلم حساب المثلثات الكروية » <sup>٥</sup> وقال في موضع آخر « فاتضح مما بينته أن تأثير علماء الهند والفرس في نشأة ميل العرب إلى ذلك العلم الجليل سبق تأثير اليونان ولو بزمان قليل ، ولكن لم تنل العرب ما نالوا من التقانة والكمال والشهرة في ذلك الفن .. لو قصر واعنايتهم على نقل الكتب الموصوفة الى الآن لأنها ... مصنفات عملية مقتصرة على منطوق القواعد ، وشرح استعمال الجداول ، خالية عن البراهين وبيان العلل » <sup>٦</sup> .

١ الأستاذ نلينو في كتابه القيم علم الفلك ، تاريخه عند العرب ص ١٤٩ وفيه فصول ممتعة عن علم الفلك عند الهنود ، ومبلغ ما أخذه العرب عنهم ، وقد اعتمدنا عليه في هذا الموضوع .

٢ ص ١٥٠ ٣ انظر المصدر نفسه ص ١٥٦ وما بعدها ٤ ص ١٧٢ و ١٧٣

٥ ص ١٨٠ ٦ ص ٢١٤

ويؤيد هذا النظر ما قاله البيروني من قبل ، فانه رأى أن فلكي الهنود لا يبحثون في العلل ، وكان على علم تام بالفلك عند اليونان قبل أن يأخذ عن الهنود ، فقال : « انى كنت أقف من منجميمهم (منجمى الهند) مقام التليذ من الاستاذ لعجمتى فيما بينهم ، وقصورى عما هم فيه من مواضعاتهم ، فلما اهتديت قليلا لها أخذت أوقفهم على العلل ، وأشير الى شىء من البراهين ، وألوح لهم الطرق الحقيقية فى الحسابات ، فاثالوا على متعجبين وعلى الاستفادة متهافتين ... وكادوا ينسبوننى إلى السحر »<sup>١</sup> .

وقد أخذ العرب بعض الاصطلاحات الرياضية من الهنود ، كلفظة «الجيب» فى حساب المثلثات<sup>٢</sup> .

كما اقتبسوا كثيراً من نظريات الهند فى الحساب والهندسة مما ليس من موضوعنا الأدبى<sup>٣</sup> كذلك كان فى بغداد أطباء هنود ، يمثلون الطب الهندى - بجانب الطب اليونانى - اشتهر منهم فى عهد الرشيد «صالح بن بهلة الهندى» ، قال جعفر بن يحيى البرمكى لهرون الرشيد - وقد مرض ابن عمه ابراهيم بن صالح ، فرآه جبريل بن بختيشوع ، وأخبر الرشيد بأنه لا أمل فى شفائه ، وسيموت فى المساء - : يا أمير المؤمنين جبريل طبه رومى ، وصالح بن بهلة الهندى فى العلم بطريقة أهل الهند فى الطب ؛ مثل جبريل فى العلم بمقالات الرومى ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر باحضاره ، ويوجهه إلى ابراهيم بن صالح ليفهمنا عنه فعل . ويقول الجاحظ : إن يحيى بن خالد جاب أطباء من الهند مثل « منكه » و « بازىكر » و « قابرقل » و « سندباذ »<sup>٤</sup> .

١ ما للهند من مقولة ص ١٢  
٢ نللينو ص ١٦٨  
٣ انظر مادى حساب وهندسة فى دائرة المعارف الاسلامية ففها بنذ عما أخذ المسلمون من الهند وفيها اشارة الى مراجع تعين الباحث فى الموضوع .  
٤ أخبار الحكماء للفنطى ص ٧١٥ وفيه أنه رآه وكان نظره أدق من نظر جبريل فلم يمت ابراهيم من مرضه هذا على عكس ما أخبر جبريل  
٥ البيان والتبيين ١ : ٧٨

الأدب وما إليه : كان عند الهنود نحو وصرف ، وقالوا في أولية النحو إن أحد ملوكهم كان يوماً في حوض مع نسائه فقال لا حِداهن « ماود كندهي » أي لا ترشني على الماء ، فظنت أنه يقول « مود كندهي » أي احملي حلوى ، فذهبت فأقبلت بها فأنكر الملك فعلها فخاشته في الخطاب ، فاستوحش الملك لذلك ، وامتنع عن الطعام كعادتهم ، واحتجب إلى أن جاءه أحد علماءهم وسلّى عنه بأن وعده تعليم النحو والصرف ، وذهب إلى « مهاديو » مصلياً مسيحياً وصائماً متضرعاً إلى أن ظهر له وأعطاه قوانين يسيرة ، كما وضعها في العربية أبو الأسود الدؤلي ، ووعدته التأييد فيما بعدها من الفروع . فرجع العالم إلى الملك وعلمه إياها ، وذلك مبدأ هذا العلم .

وأنا أخشى أن تكون حكاية أبي الأسود قد وضعت في العربية على نمط الحكاية الهندية ، ولعل مما يرجح هذا الظن ؛ أن الحكاية العربية مختلفة الأشكال ، متعددة الرواية ، فمن قائل إن علي بن أبي طالب هو الذي أوْعَزَ إلى أبي الأسود بوضع النحو ، ومن قائل إنه عمر بن الخطاب ، ومن قائل إنه زياد بن أبيه . ثم من قائل إن سبب الوضع ؛ أن قارئاً قرأ « لا يأكله إلا الخاطئين » ومن قائل إن قارئاً قرأ « إن الله بريء من المشركين ورسوله » ومن قائل إن ابنة أبي الأسود قالت « ما أحسن السماء » تريد التعجب فقال لها : نجومها - يظنها تستفهم - فقالت يا أبت إنما أخبرتك ولم أسألك ! فقال لها : إذن فقولي « ما أحسن السماء ! » إلى آخر ما قالوا مما يحمل على الشك في القصة ، ثم هناك شبه بين ذهاب العالم الهندي إلى « مهاديو » مصلياً مسيحياً ، وبين ذهاب أبي الأسود إلى علي بن أبي طالب يسأله المعونة في وضع النحو ، وهكذا .

وكان للهنود شعر وولع بالشعر والنظم ، حتى شكوا « البيروني » من نظمهم

لقواعد الرياضة والفلك . لأن ذلك يخرجهم أحياناً عن ضبط القواعد ، وما يستلزمه من دقة في تعبير لا يتسنى في النظم . ووضعوا للشعر بحوراً وأوزاناً ، عكف البيروني على دراستها ، وبينها في كتابه ، ثم قال : «ومن الممكن أن يكون الخليل بن احمد سمع أن للهند موازين في الأشعار ، كما ظن به بعض الناس»<sup>١</sup> .

وأهم ما استفاد الأدب العربي من الهند أمور ثلاثة :

(١) ألفاظ هندية عُرِّبَت ، وقد كان ذلك أيامَ كان العرب يتاجرون مع الهند ، وينقلون سلعاً هندية ، ويحملون مع هذه السلع أسماءها ، وقد حكي السيوطي ألفاظاً هندية عربت ، ووردت في القرآن الكريم ، مثل : زنجبيل وكافور - وما ورد في اللغة العربية من الألفاظ الهندية الآبنوس والبيغاء والخيزران والفلفل والأهليلج وغير ذلك من أسماء النباتات والحيوانات الهندية .

ويضاف الى ذلك آراء في الأدب والبلاغة نقلت إلينا عنهم ، وقد كان من أتى بغداد من أطباء الهند وغيرهم يحملون معهم كتباً وصحفاً في مواضع شتى منها الأدب ، حكى الجاحظ أن معمرأباً الأشعث قال : قلت لهيلة الهندي - أيام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند - ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها ، قال أبو الأشعث فلقيت بتلك الصحيفة الترجمة فاذا فيها : « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يُكَلِّم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة . ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل

التدقيق ، ولا ينفَح الألفاظ كلّ التنقيح ، ولا يُصَفِّها كلّ التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادفَ حكيماً أو فيلسوفاً عظيماً » ١ .

إذن كان مع هؤلاء الأطباء الهنود صحف في موضوعات غير موضوعاتهم الطبية ، وكان العلماء يخالطونهم ، ويسألونهم في شتى المسائل ، وكان هناك ترجمة يترجمون من الهندية إلى العربية ، وكان هناك شوق لتعلم الناس ما عند كل أمة ليقارنوا بينها ، ويأخذوا أحسنها . وقد نُقِلت إليهم هذه الجملة الهندية في البلاغة ، فأينها تصاغ فيما بعد في كتب البلاغة العربية بما سموه «مقتضى الحال» .

وقارن التَّنُوخِي<sup>٢</sup> بين بلاغة الهند وبلاغة العرب ، بأن الأولى مُنَبَّهَةٌ مُسَبَّهَةٌ ، والثانية محتصرة موجزة ؛ إذ ذكر أن خارجياً خرج على بعض ملوك الهند فخرج إليه الملك بنفسه ، فقتله الخارجى ، وملك داره ومملكته ، فأحسن السيرة وسلك سنيل الملوك . فلما طال أمره ، وعزّ ذكره وقوى سلطانه ؛ جمع بعض عقلائهم وحكّاءهم وسألهم ، هل ترون فى عيباً أو فى سلطاني نقصاً ؟ قالوا : لا إلا شيئاً واحداً إن أمّنتنا قلناه ! قال أتمّ آمنون . قالوا : نرى كل شيء لك جديداً ( يُعرِّضون أنه لا عرق له فى الملك ) قال : فما حال مَلِكِكُم الذى كان من قبل ؟ قالوا كان ابن ملك . قال فأبوه ؟ قالوا : ابن ملك . قال : فأبوه ؟ الى أن عدد عشرة أو أكثر وهم يقولون ابن ملك . فانتهى الى الأخير . فقالوا كان متغلباً . قال : فانا ذلك الملك الأخير ، وإن طالت أيامى كان الملك بعدى فى ولدى ! قال التَّنُوخِي : هذا شيء قد سبقت اليه العرب فى كلمتين استغنى بهما عن المثل الطويل العجمى ، فقد رَوَت العربُ أن رجلين منهما تفاخرا ، فقال أحدهما لصاحبه : نسبي منى ابتداءً ، ونسبك إليك انتهى .

( ٢ ) القصص الهندى : وقد أولع العرب به ، فقد علمنا قبل أن أصل

« كليلة ودمنة » هندی نقل إلى الفارسية، ثم نقل من الفارسية إلى العربية، مع زيادات على الأصل الهندي.

وقصة السندباد، كما يدل اسمها هندية الأصل نقلت إلى العربية قال ابن النديم « وكتاب سندباد نسختان كبيرة وصغيرة، والخلف فيه مثل الخلف في كليلة ودمنة، والغالب والأقرب إلى الحق أن يكون الهند صنفته »<sup>١</sup> وقد عدد في الفهرست كتباً كثيرة للهند في الخرافات والأسفار والأحاديث منها كليلة ودمنة والسندباد الكبير والسندباد الصغير، وكتاب هابل في الحكمة، وكتاب الهند في قصة هبوط آدم، وكتاب دبك الهند في الرجل والمرأة، وكتاب حدود منطق الهند، وكتاب ملك الهند القتال والسباح، وكتاب شاناق في التدبير، وكتاب بيدبا في الحكمة<sup>٢</sup>.

كما أن في كتاب ألف ليلة وليلة قصصاً دل البحث العلمي على أن أصلها هندی؛ هذا. إلى قصص صغيرة نثرت في الكتب العربية، مما نقل عن الهند كالذي قال الجهشيارى: « وما أستحسنه من شدة التحرز ما حكي في كتاب من كتب الهند أنه أهدى إلى بعض ملوكهم حلي وكسوة، وبحضرة امرأتان من نسائه ووزير من وزرائه، فخير إحدى امرأتيه بين اللباس والحلية، فنظرت المرأة إلى الوزير كالمستشيرة له، فغمزها باحدى عينيه على أخذ الكسوة. ولحظه الملك؛ فعدلت عما أشار به من الكسوة واختارت الحلي لئلا يفطن الملك للغمزة، ومكث الوزير أربعين سنة كاسراً عينه ليظن الملك أنها عادة وخلقته<sup>٣</sup> ».

وفي كتاب للهند « أن ناسكا كان له عسل وسمن في جرة، ففكر يوماً فقال: أبيع الجرة بعشرة دراهم، وأشتري خمسة أعنز فأولدهن في كل سنة مرتين

ويبلغ النَّسَاجُ في سنين مائتين، وأبتاع بكل أربع بقرة، إلى آخر القصة المشهورة ١ .  
(٣) أما النوع الذي أخذوا منه عن الهنود كثيراً فهو الحِكم ، وهو نوع يتفق والذوق العربي ، فهو أشبه شيء بالأمثال العربية ، والجمل القصيرة ذوات المعاني الغزيرة التي أولع بها العرب . وهي نتيجة تجارب كثيرة ، تركّز في جملة بليغة . والعقل يميل إليها قبل أن يميل إلى مثل الفلسفة اليونانية المنظمة بأبواب وفصول وموضوعات . فالبحث العميق المفصل المتسلسل ، لا يصل إليه العقل إلا بعد أن يمر بطور يعجب فيه بالنظرات المشورة ، والحكم الماثورة . وقد اشتهر الهند بهذا ، وملئت كتب الأدب المؤلففة في هذا العصر بهذا النوع ، يقول ابن قتيبة :

قرأت في كتاب من كتب الهند « شرُّ المال ما لا ينفق منه ، وشر الاخوان الخاذل ، وشر السلطان من خافه البريء ، وشر البلاد ما ليس فيه خصب ولا أمنٌ » ٢ وفي كتاب للهند « ثلاثة أشياء لا تنال إلا بارتفاع همة وعظيم خطر . عمل السلطان ، وتجارة البحر ، ومناجزة العدو » وفيه أيضاً « ذو الهمة إن حطّ بنفسه تأبى إلا علواً ؛ كالشعلة من النار يصوبها صاحبها ، وتأبى إلا ارتفاعاً » ٣ .  
وقرأت في كتاب للهند « ليس من خلّة يمدح بها الغنيّ إلا دُمّ بها الفقير . فإن كان شجاعاً قيل أهوج ، وإن كان وقوراً قيل بليد ، وإن كان لسنّاً قيل مهذار ، وإن كان زميماً قيل عبيّ » ٤ .

وفي كتاب للهند « العالم إذا اغترب فمعه من عليه كافٍ ، كالأسد معه قوته التي يعيش بها حيث توجه » ٥ الخ .

وعقد صاحب كتاب « سراج الملوك » فصلاً من حكم « شاناق » الهندي يتضمن نصحاً للملوك والولاة بالعدل في الرعية ، مع ضرب الأمثال . وقال : إن

١ عيون الأخبار : ١ : ٢٦٣      ٢ عيون الأخبار : ١ : ٣  
والزيمت : الوقور الرزين      ٤ : ٢٣٩      ٥ : ٢١١

هذا الفصل مأخوذ من كتاب لساناق اسمه «متنخل الجواهر»<sup>١</sup>.  
وبكل هذا تأثر الأدب العربي، والشعر العربي. جاء في كتاب للهند  
«لا ينبغي اللجاج في إسقاط ذى الهمة والرأى وإذآلته»<sup>٢</sup>، فانه إما شرس الطبع  
كالحيّة إن وُطِئت فلم تلسع لم يُغترَّ بها فيعاد لوطئها. وإما سبجُ الطبع  
كالصندل البارد إن أُفرِط في حكّه عاد حاراً مؤذياً» تأثر بذلك أبو نواس

فقال: قل لزهير اذا حدًا وشدًا      أقلّ وأكثرفأنت مهذارُ  
سُخِنَتْ من شدّة البرودة حتّى      صرّت عندى كأنك النارُ  
لا يعجبُ السامعون من صفتى      كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

قال ابن قتيبة: «وهذا الشعر يدل على نظره في علم الطبائع، لأن الهند  
تزعّم أن الشيء إذا أفرط في البرد عاد حاراً مؤذياً».

حتى لقد تأثر الشعراء بأقوال الهنود في الفلك، قال أبو نواس في الخمر:

تُخَيَّرَتِ وَالنُّجُومُ وَقَفَّ      لم يتمكّن بها المدارُ

«يريد أن الخمر تخيرت حين خلق الله الفلك، وأصحاب الحساب يذكرون:  
أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعّة واقفة في برج، ثم سيرها من  
هناك. وأنها لا تزال جارية حتى تجتمع في ذلك البرج الذي ابتدأها منه، وإذا  
عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم، والهند تقول: إنه في زمان نوح اجتمعت  
في الحوت الايسيراً منها، فهلك الخلق بالطوفان، وبقى منهم بقدر ما بقى منها  
خارجاً عن الحوت»<sup>٣</sup>.

ولسنا ننسى أن الهنود - كما ذهب كثير من الباحثين - هم واضعو الشطرنج،  
وعنهم انتشر في العالم، ومنهم أخذ المسلمون، وإن اختلفوا هل أخذوه من

١ سراج الملوك ص ٣٣١ (٢) أذاله: أهانه

٢ طبقات الشعراء ص ٥٠٦

٣ طبقات الشعراء ص ٥٠٤



الهند مباشرة أو بواسطة الفرس ، وللهند في الشطرنج أشكال من اللعب مختلفة  
حكاها البيروني في كتابه « الهند » وهي تخالف من بعض الوجوه ما هو  
معروف عندنا اليوم .

انتشرت هذه اللعبة عند المسلمين ، وقد أهدى هرون الرشيد شطرنجاً إلى  
« شارلمان » . واشتهر قوم بلعبه حتى نسبوا إليه مثل : الصولى الشطرنجى ، وأبى  
حفص الشطرنجى . وتكون حوله أدب فارسى وأدب عربى ، فالفردوسى  
نظم فيه صفحات فى لغة شعرية جميلة ، والعرب نظموا فيه الشعر الكثير  
الجميل ، كالذى قال ابن الرومى فى أبى القاسم التوزى الشطرنجى :

تَهَزِمُ الْجَمْعُ أَوْحَدِيًّا وَتُنْزَوِي بِالصَّنَادِيدِ أَيَّمَا إِيَّوَاءِ  
وَتَحْطُّ الرَّخَاخَ بَعْدَ الْفَرَازِينِ فَتَزْدَادُ شِدَّةَ اسْتِعْلَاءِ  
رَبَّمَا هَالَنِي وَحَيَّرَ عَقْلِي أَخْذُكَ اللَّاعِبِينَ بِالْبِاسَاءِ  
وَرِضَاهُمْ هُنَاكَ بِالنِّصْفِ وَالرُّبْعِ وَأَذْنُ رِضَاكَ فِي الْإِرْبَاءِ !  
وَاحْتِرَاسُ الدُّهَاهِ مِنْكَ وَإِعْضَاءُ فِكَ بِالْأَقْوِيَاءِ وَالضَّعْفَاءِ  
عَنْ تَدَايِيرِكَ الْمَلْطَافِ اللَّوَاتِي هُنَّ أَخْفَى مِنْ مُسْتَسْرِ الْهَبَاءِ  
بَلْ مِنْ السَّرِّ فِي ضَمِيرٍ مُحِبٍِّّ أَدَبَتْهُ عَقُوبَةُ الْإِفْشَاءِ  
فَأَخَالُ الَّذِي تُدِيرُ عَلَى الْقَوِّمْ حُرُوبًا دَوَائِرَ الْأَرْحَمَاءِ  
وَأظُنُّ افْتِرَاسَكَ الْقَرْنَ فَالْقَرْنَ نَ مَنَايَا وَشَيْكَةَ الْأَرْدَاءِ  
وَأرى أَنَّ رَقْعَةَ الْأَدَمِ الْأَحْمَرِ أَرْضًا جَمَلَتْهَا بِدَمَاءِ  
غَلِطِ النَّاسِ ؛ لَسْتَ تَلْعَبُ بِالشَّطْرَنِجِ ! لَكِنْ بِأَنْفُسِ اللَّعْبَاءِ  
لَكَ مَكْرٌ يَدِبُّ فِي الْقَوْمِ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ الْفَنَاءِ فِي الْأَعْضَاءِ  
أَوْ دَيْبِ الْمَلَالِ فِي مُسْتَهَا مَيِّنَ إِلَى غَايَةِ مِنَ الْبَعْضَاءِ !

أومسیر القضاء فی ظلم الغیب إلى من یریدہ بالتواء  
تقتل الشاهَ حیثُ شدَّت من الرقعة طباً بالقتلة النكراء  
غیر ما ناظر بعینیک فی الدسنتِ ولا مقبل علی الرُسلَاء  
بل تراها وأنت مُستدبرُ الظنِّ بقلب مُصوِّرٍ من ذِ کِئِ  
ما رأینا سِوَاکَ قریناً یولِّی وهو یردِّی فوارسَ الہیجاءِ  
رُبَّ قومٍ رأوْکَ ریعوا فقالوا هل تكون العیونُ فی الأقفاءِ ؟  
تقرأ الدسنتَ ظاهراً فتؤدِّیہ جمیعاً کأحفظِ القرءاءِ !



وأخيراً كان للهند عادات وتقاليد، وشعائر ونظم وشرائع. فاماتة الحيوان في الأصل محظورة عليهم - قالوا - ولكن الناس نبذوا كل أمر ونهى وراء ظهورهم. ونفذ هذه الأوامر البراهمة لاختصاصهم بالدين، ومنع الدين إياهم عن اتباع الشهوات<sup>١</sup>. وربما كانت هذه التعاليم هي التي أثرت في أبي العلاء، فحرم على نفسه اللحم وكره ذبح الحيوان، وكان لهم شرائع في الزواج والعدة وأحكام الجنين والنفاس، وشرائع في المرافعات وطرق القضاء، ونظام في العقوبات والكفارات، وأحكام في الميراث، وعادات في أيام الأعياد، ومقام في طبقات الناس وتحديد العلاقات بينهم<sup>٢</sup>.

كل هذه الفلسفة الدينية، والتعاليم الرياضية، والقصص والحكم الأدبية، والشعائر والتقاليد الاجتماعية؛ ذابت في المملكة الإسلامية، وكانت عنصراً هاماً من عناصر الآداب العربية.

١ انظر البيروني في كتابه « ما للهند من مقولة » ص ٢٧٦

٢ شرح ذلك البيروني كله حسب ما رأى في كتابه ص ٢٧٦ وما بعدها

## الفصل الثالث

### الثقافة اليونانية الرومانية

إذا نحن وصلنا إلى اليونان ، فقد وضعنا أيدينا على كنز لا يقنى ، وثرورة لا تقدر ، وغنى عظيم فى كل ما ينتجه العقل والعاطفة والذوق . فى الفلسفة ، والرياضة ، والفلك ، فى علوم الطبيعة والحياة والطب . فى الأدب ، فى التاريخ ، فى السياسة ، فى الفنون الجميلة . لقد نفخوا فى كل ذلك من روحهم ، وغدّوا العقول بأرائهم ، وأمدّوا العالم بأفكارهم وآدابهم ، وعلمهم وأساطيرهم ، وربّوا الذوق بفنهم ، ونحتهم وتصويرهم .

فأقليدس ظل إماماً فى الهندسة من القرن الثالث قبل الميلاد الى القرن التاسع عشر الميلادى . والطبّ ظل قائماً فى العصور القديمة ، والقرون الوسطى ؛ على أساس ما دوّن بقراط ، وجالينوس . والفلاسفة إلى اليوم ؛ عيال على تعاليم سقراط وأفلاطون وأرسطو ، ومن إليهم من فلاسفة اليونان ، وجمهورية أفلاطون . وسياسة أرسطو منبع لما جدّ من نظريات فى السياسة ، وهكذا فى كل فرع من فروع العلم والفلسفة والفن . فلسفة المسلمين أسست على فلسفتهم ، والمدنية الحديثة بما فيها من علم وأدب نهضت على أكتافهم ، وأول شرارة للنهضة الأوروبية الحديثة انما انبعثت من كتبهم . تمتاز علومهم وفلسفتهم بميزة يكاد مؤرخو الفلسفة يجمعون عليها ، وهى أن اليونان كانوا يبحثون وراء الحق للحق ، على حين أن كثيراً من الأمم كانت تتفلسف لما يتبع الفلسفة من فوائد مادية ، أو لتأييد قضايا دينية . ومن ثم لم يشاءوا أن يعدّوا الآراء الهندية أو المصرية أو الصينية أو الأشورية والبابلية فلسفة ، لأنهم شرطوا فى الفلسفة البحث وراء الحقيقة المجردة فى

حرية تامة وسُموم عن المادة، ولا عدوا الرومانيين أمثال «ماركوس أوريليوس» و«سنيكا» و«شيشيرون» فلاسفة لأنهم لم يقدموا للعالم آراء فلسفية جديدة، تزيد في ثروة الفلسفة اليونانية.

وليس من غرضنا أن نلم بما وصل إليه اليونان في بحثهم في كل فرع من فروع العلم والفلسفة والفن، فذلك مالا يحتمله فصل في كتاب<sup>١</sup>. وإنما غرضنا أن نعرض لبيان ما اقتبس المسلمون من الثقافة اليونانية الرومانية، ونبحث في إيجاز عن أى طريق وصلت هذه الثقافة للمسلمين.

كانت فتوح الاسكندر المقدوني لسكثير من بلاد آسيا وأفريقية سبباً كبيراً من أسباب انتشار الثقافة اليونانية في الشرق. فقد كانت مملكته بلاد اليونان ومقدونية في أوروبا، ومصر وليبيا في أفريقيا، وسوريا وفلسطين والعراق وما إليه، وبلاد الفرس، وتركستان وأفغانستان وبلوخستان، وقسم من بلاد الهند في آسيا. وكان من سياسته التقريب بين هذه البلاد المفتوحة وبلاد الاغريق، ومزج الجنس الاغريقي بأجناس آسيا وأفريقية في الحضارة والعمارة، ونظم الحكم والثقافة. ولهذا كان يحث اليونانيين على سكنى هذه البلاد، ومخالطة أهلها، وينظم مدنها تنظيماً يونانياً، ويشجع الأدباء والكتاب والعلماء على نشر أدبهم وعلهم، فكان من ذلك، ومن الولاة اليونانيين الذين ورثوا الحكم من الاسكندر في الممالك الشرقية، أن انتشرت الحضارة اليونانية، والثقافة اليونانية من عهد الاسكندر. وكانت البلاد التي بين دجلة والفرات، تغلب عليها الثقافة الاغريقية، حتى ليروون أنه لما وصل موت «كراسوس Crassus الى أوروديس Orodus الملك البرثي<sup>٢</sup> كان يطالع مأساة من روايات يوربيدس Euripides. وظلت هذه الثقافة تنمو وتؤتي ثمرها، حتى بعد أن

١ اقرأ في هذا Legacy of Greece

٢ والبرث أو الفرث هم الفرس الأولى تكونت مملكتهم من سنة ٢٥٥ ق م الى ٢٢٦ م

انسحب الجيش اليونانى من هذه الأقطار، واشتهرت فى الشرق قبل الاسلام الى ما بعده مدن كثيرة كانت منبعاً للثقافة اليونانية، من أشهرها جنديسابور، وحران، والاسكندرية.

جنديسابور: مدينة فى خوزستان أسسها سابور الأول واليه تنسب، واتخذها موطناً لأسرى الروم، ولعل هذا من الأسباب التى جعلتها فيما بعد منبعاً للثقافة اليونانية، وأسس فيها كسرى أنوشروان مدرسة الطب المشهورة. وكانت تُعلم فيها العلوم اليونانية باللغة الآرامية، وقد فتحها المسلمون فيما فتحوا من بلاد الفرس، وظلت المدرسة قائمة الى العصر العباسى. ولم يبق من البلد فى عهد ياقوت الا أطلالها، وقد زالت هذه الأطلال، ولم يبق منها الآن أثر. وموقعها اليوم أطلال « شاه أباد »<sup>١</sup>.

كان الذى أنشأه كسرى فى جنديسابور بيمارستانا، تعالج فيه المرضى، ويدرس فيه الطب، وما إليه. يحكى القفطى: أن المدينة بنيت على شكل القسطنطينية، وأن أول من علم الطب بها أطباء من الروم « ولما أقاموا بها بدءوا يعلمون أحداً من أهلها، ولم يزل أمرهم يقوى فى العلم، ويتزايدون فيه، ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى أمزجة بلدانهم، حتى برزوا فى الفضائل ». « وفى سنة عشرين من ملك كسرى، اجتمع أطباء جنديسابور بأمر الملك، وجرى بينهم مسائل وأجوبتها، وأثبتت عنهم، وكان أمراً مشهوراً - وهذه المسائل والتعريفات اذا تأملها القارى استدل على فضلهم، وغزارة علمهم »<sup>٢</sup> وكان أطباء جنديسابور يعتقدون أنهم أهل هذا العلم، ولا يخرجونه عنهم، وعن أولادهم وبناتهم. وقدروا أن الحارث بن كعدة الثقفى طبيب العرب، تعلم قبيل الاسلام فى مدرسة جنديسابور، وعالج

١ دائرة المعارف الاسلامية فى مادة جنديسابور

٢ أخبار الحكماء ص ١٣٣

٣ المصدر نفسه ١٧٤

بفارس ، وطَبَّ بعض أجلاء الفرس ، فأعطاه مالاّ وجارية ، سماها الحارث  
سُمَيَّة ، وهي أم زياد بن أبيه . ومات الحارث في أول الاسلام ولم يصح  
اسلامه <sup>١</sup> .

وقد كانت تدرس في مدرسة جنديسابور الثقافة الهندية ، بجانب الثقافة  
اليونانية ، وكان يشترك بعض الهنود في التدريس باللغة الفهلوية .

وظلت مدرسة جنديسابور تؤدّي عملها في الاسلام ؛ كما كان في عهد  
الفرس ، وازداد اتصالها بالمسلمين في العهد العباسي ، فان أبا جعفر المنصور  
عند ما بنى بغداد أصيب بمرض في معدته ، لم يستطع أطباؤه معالجته ، فدلوه  
على جورجيس بن بختيشوع ، رئيس أطباء جنديسابور <sup>٢</sup> . ومن ذلك الحين  
اتصلت قصور الخلفاء بمدرسة جنديسابور ، حتى ان الرشيد أمر جبريل بن  
بختيشوع أن يعمل ببغداد بمارستانا على نمط بيمارستان جنديسابور ، وتقلد  
رياسته أطباء جنديسابور وتلاميذهم <sup>٣</sup> .

وقد اشتهر من مدرسة جنديسابور في العصر العباسي ، جورجيس بن  
بختيشوع طبيب المنصور ، وابنه بختيشوع طبيب الرشيد ، وجبريل بن  
بختيشوع طبيب المأمون الخ ، وكانوا كلهم نصارى نساطرة .

حرّان : وأما حرّان فمدينة في الجزيرة شماليّ العراق ، تقع بين الرّها  
(أودسا) ورأس العين . وهي مدينة قديمة ، عاصرت اليونان والرومان ،  
والنصرانية والاسلام ، وفي عهد الاسكندر سكن كثير من المقدونيين هذا  
الجزء الشمالي للعراق ، وكان من أثر ذلك في حرّان أن الآلهة المعبودة عند  
الحرّانيين اتخذت أسماء يونانية — وفي أول عهد النصرانية كان شماليّ العراق

١ اخبار الحكماء ١٦٦ وما بعدها

٣ ص ٢٨٢

٢ الففطى ١٥٨

ومنه حران يسكنه أهله الأصليون ، وهم السريان يون ، وكثير من المقدونيين ، والاغريقيين ، والأرمن ، والعرب . ولما قويت النصرانية ، وأصبحت دين الرومانيين الرسمي ، حاولوا أن يضغطوا على الحرانيين ليتنصروا فلم ينجحوا . ومن أجل ذلك كان رجال الكنيسة يطلقون على حران مدينة الوثنيين « هيلينوبوليس » Hellenopolis<sup>١</sup> وظلت حران (مدينة الوثنيين) يهرب إليها الذين لم يشاءوا أن يدخلوا في النصرانية من اليونانيين وغيرهم . ويظهر أن دينهم كان مزيجاً من الديانة البابلية ، واليونانية القديمة ، والأفلاطونية الحديثة ، حتى كان شأنهم كذلك في العصر الاسلامي ، الى عهد المأمون ، فتسموا - إذ ذاك - بالصابئة ، احتفاء بما يفهم من القرآن الكريم من عد الصابئين من أهل الكتاب ، ولم يكن ذلك الاسم يطلق عليهم من قبل ، إنما كان يطلق على قوم لهم ديانة مزيج من اليهودية والنصرانية ، كانوا يسكنون « البطيحة » كما ذكر القفطي ( وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة )<sup>٢</sup>

روى ابن النديم أن المأمون اجتاز في آخر أيامه ديار مضر ، يريد بلاد الروم للغزو ، فتلقيه الناس يدعون له ، وفيهم جماعة من الحرانيين ( الحرانيين ) . وكان زيهم إذ ذاك لبس الأقبية ، وشعورهم طويلة بوفرات ... ، فأنكر المأمون زيهم ! وقال لهم من أتم من الذمة ؟ فقالوا نحن الحرانيون ( الحرانية ) ، فقال أنصاري أتم ؟ قالوا لا ، قال فيهود أتم ؟ قالوا لا ، قال فمجوس أتم ؟ قالوا لا ، قال لهم أفلكم كتاب أم نبي ؟ فجمعوا في القول . فقال لهم فأتتم إذا الزنادقة عبدة الأوثان ، وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي ، وأتم حلال دماؤكم ، لا ذمة لكم فقالوا نحن نودى الجزية ! فقال لهم إنما تؤخذ الجزية ممن خالف الاسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه ، ولهم كتاب . فاختروا أحد أمرين : إما أن تنتحلوا دين الاسلام ، أو ديناً

١ انظر دائرة المعارف الاسلامية في مادتي حران وصابئة ٢ انظر القفطي ص ٣١١

من الأديان التي ذكرها الله في كتابه ، وإلا قتلتم عن آخركم ، فإني قد  
أنظرتكم إلى أن أرجع من سفرتي هذه ... ورحل المأمون يريد بلد الروم ،  
فغيروا زيّهم ، وحلقوا شعورهم ، وتركوا لبس الأقيّة ، وتنصّر كثير منهم ،  
ولبسوا زناير ، وأسلم منهم طائفة ، وبقي منهم شرذمة بحالهم ، وجعلوا  
يحتالون ويضطربون ، حتى اتدّب لهم شيخ من أهل حرّان فقيه ، فقال لهم  
قد وجدت شيئاً تنجون به ، وتسلمون من القتل فحملوا إليه ما لا عظمياً ...  
فقال لهم إذا رجع المأمون من سفره فقولوا له نحن الصابئون ! فهذا اسم  
دين قد ذكره الله جل اسمه في القرآن ، فاتحلوه فأتمتم تنجون به ، وقضى أن  
المأمون توفي في سفرته ... واتحلوا ذلك الاسم من ذلك الوقت ، لأنه لم  
يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة ، فلما اتصل بهم وفاة المأمون  
ارتدّ أكثر من كان تنصّر منهم وطوّوا شعورهم ، الخ ، وأطلق عليهم  
الصابئة منذ ذلك الحين .

\*\*\*

على كل حال كان هؤلاء الحرائيون منبعاً كبيراً من منابع الثقافة اليونانية  
في العهد الإسلامي ، وقد اتصلت مدرستهم بالخلفاء العباسيين بعد اتصال  
مدرسة جنديسابور ، وبعد العصر الذي نؤرخه . فأول من اتصل منهم ثابت  
ابن قرّة « ٢٢١ — ٢٨٨ هـ » أوصله بالمعتضد بنو موسى بن شاكر الذين  
ربّاهم المأمون . ومن ذلك الحين قرّب الحرائيون من الخلفاء ثم من بنى بويه .  
واشتهر منهم ثابت بن قرّة هذا الرياضي الفلكي ، وابن سنان الطبيب العالم  
بالظواهر الجوية وقد أسلم ، وحفيده ابراهيم بن سنان ، كما اشتهر منهم أسرة  
هلال ، ومنهم هلال بن ابراهيم ، وكان طبيباً ، وابنه الأديب المشهور ابراهيم  
أبو اسحاق الصابئي ، صاحب الرسائل . وكان بليغاً وله اليد الطولى في الرياضة



والهندسة والهيئة. كما كان من الحرانيين «البَتَّانِي» أحد المشهورين برصد الكواكب، والمتقدمين في علم الهندسة، وصاحب الزيج المنسوب إليه. ومنهم أبو جعفر الخازن الرياضي، وابن وحشية المنسوب إليه الفلاحة النبطية الخ. ولئن كانت مدرسة جند يسابور لها الأثر الكبير في نشر الثقافة اليونانية في الطب، وما إليه من فلسفة، فمدرسة حران كان أثرها الأكبر في الرياضيات، وخاصة الهيئة. ولعل ما في ديانتهم من تعظيم الكواكب، وإقامة الهياكل لها كان باعثاً على نبوغهم في العلوم الرياضية والفلكية.



وأما الاسكندرية: فعاصمة مصر اليونانية، وبها ولد مذهب من أكبر المذاهب الفلسفية هو مذهب الاسكندرانيين، أو الافلاطونية الحديثة. مؤسسه مصرى هو «أفلوطين» (٢٠٥ - ٢٦٩ م). وهذا المذهب مدين بأهم أفكاره لفلاسفة اليونان، فعناصره الأولى مستمدة من آراء أفلاطون، وأرسطو، والرواقين<sup>١</sup>. وقد امتاز بروحانيته ونقده للمذهب المادى، حتى لقد حكى أفلوطين أنه وصل في روحانيته الى الاستغراق في الوجدانية أو على التعبير الصوفى «الفناء فى الألوهية» بضع مرات فى حياته، ووصل الى ذلك تلميذه فورفورىوس Porphyry مرة واحدة. وقد ظل مذهبه هو المذهب الفيلسفى السائد فى المملكة الرومانية نحو قرنين ونصف قرن - بعد وفاة مؤسسه - حتى أتى الامبراطور جوستينيان فأمر سنة ٥٢٩ م باغلاق مدارس أثينا الفلسفية، وصادر أملاك الفلاسفة، وغل عقولهم وقيّد ألسنتهم.

١ انظر ما كتب عن هذا المذهب فى فجر الاسلام ص ١٥٣ وما بعدها وانظر فيه كذلك

السلام على السريانين ص ١٥٤ وما بعدها

بجانب هذه الحركة الفلسفية كانت حركة واسعة في الأدب والعلم والفن وأطلق على هذه الحركات كلها مدرسة الاسكندرية، وقد عاشت من سنة ٣٠٦ ق م — ٦٤٢ ب م. وكان يغذى هذه الحركة متحف الاسكندرية، ومكتبتها المشهورة.

ويقسم مؤرخو هذه المدرسة تاريخها إلى عصرين: العصر الأول، من قيام دولة البطالسة إلى غلبة الرومان ( أعنى من سنة ٣٠٦ ق م الى سنة ٣٠ م) وقد عدت الاسكندرية في هذا العصر في مقدمة بلاد العالم في الأدب.

والعصر الثاني: من سنة ٣٠ م إلى سنة ٦٤٢ م وهي سنة فتح العرب للأسكندرية، وتمتاز في هذا العصر بالمذهب الفلسفي الذي أشرنا إليه. وكانت المدرسة في عصرها متصلةً بالعالم الذي حولها تمدّه بنورها.

انتشرت الديانة النصرانية في الاسكندرية، في العهد الروماني كما انتشرت في غيرها، وقامت النصرانية فيها بجانب الفلسفة اليونانية، واختلف النصارى فيما بينهم طوائف وشيعاً، وتجادلوا في طبيعة المسيح، وناسوته، ولاهوته وعلاقة المسيح بالله. فلجئوا إلى الفلسفة يستعينون بما لها من منطق وترتيب في الجدل، وبما لها من أبحاث وراء المادة، ومن ثمّ اتصلت النصرانية بالفلسفة اليونانية، وكانت أول حركة للاتصال في الاسكندرية، كما اتصلت اليهودية بالفلسفة في الاسكندرية أيضاً - من قبل - على يد فيلون. وكان من أوائل النصارى في ذلك « كليمان الاسكندري » « Clement »<sup>١</sup> فمزج النصرانية بالأفلاطونية، ثم من بعده أوريجين « Origen » ( ١٨٥ — ٢٥٤ م) تلميذ أفلوطين، واضطهد أوريجين ففر من الاسكندرية. وأنشأ مدرسة على النمط الاسكندري في قيصرية في فلسطين. ثم أسست بعد مدرسة على هذا النمط في نصيبين، وأغلقت مدرسة نصيبين، فانتقلت إلى الرها. وهكذا

١ ولد كليمان حول سنة ١٥٠ م من أبوين وثنيين في أثينا.

انتشر التَّمَطُّ الاسكندري في مزج النصرانية بالفلسفة في أنحاء الشرق ، وأصبح كثير من رجال الكنيسة يعلمون النصرانية مفلسفة . أو الفلسفة منصرة ، وجدوا في التوفيق بين ما يتعارض بينهما . فمثلاً : قالت النصرارى « إن المسيح ابن الله » والأبوة مقدمة على البُنُوَّة ، تقدّم السبب على المسبّب ، وإذن كان الله قبل المسيح . وترى الفلسفة أن العلة الأولى ، أو عبارة أخرى «الله» لا يلحقه تغير فكيف يكون أباً ، وكان قبلُ غير أب ، فيجب أن يفسّر الابن تفسيراً يتفق والفلسفة ، وهكذا .

وكان أغلب القائلين بهذه الحركة النصرارى النّساطرة ، فبشوا مدارسهم وتعاليمهم في الشرق ، وكانوا يعلمون باللغة السريانية ، وينقلون الكتب اليونانية الى السريانية . وكانت الحرب في ذلك العهد قائمة بين الفرس واليونان في آسيا ، فكان كثير من البلاد يقع حيناً في يد الرومان ، وحيناً في يد الفرس . وأقنع « برَسوما » ملك الفرس « فيروز » بأن النساطرة يكرهون الرومانين ؛ بما لقوا منهم من عنّت ، وأنهم يوالون الفرس ، فقبل منهم فيروز ذلك ، وظلوا هم قائلين بما وعدوا .<sup>١</sup>

\*\*\*

ولعل هذا الذى ذكرنا يلقى ضوءاً على كثير من المسائل الغامضة التى تعترض الباحث : كيف اتصل الفرس بالفلسفة اليونانية ، وكيف عرّفوا « ايساغوجى » وأمثاله من كتب اليونان ؟ وكيف كانت الأديار المبثوثة في الشرق مصدراً للفلسفة اليونانية ؟ وكيف اتصل المسلمون بالفلسفة اليونانية ؟ فظهرت في المجادلات الدينية وغيرها ، وفي مناقشات المعتزلة وغيرهم قبل أن تنقل الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية ، نقلاً منظماً في عهد المأمون ومن بعده . ولم كان المترجمون الأولون - من السريانية أو اليونانية الى العربية - أكثرهم نصرارى

أو وثنيون؟ لعل القارىء يجد طرفاً من الاجابة عن هذه الأسئلة فيما حكينا .  
كانت الكنيسة الاسكندرانية والمصرية - فى الغالب - على مذهب اليعاقبة  
وكانت لغتها السريانية والقبطية ، وكان إنتاج النساطرة فى آسيا فى الفلسفة باللغة  
السريانية ؛ أكثر من إنتاج اليعاقبة فى مصر ، لأن الجدل الدينى فى آسيا - وخاصة  
فى العراق - بين النصارى بعضهم وبعض ، وبين النصارى وغيرهم من أهل  
الديانات الأخرى - كان أكثر منه فى مصر ، وقد اشتهرت مدرسة الاسكندرية  
بالطب والكيمياء . والعلوم الطبيعية ، وكانت كذلك عند الفتح العربى ، ولكن  
أبحاثها إذ ذاك كانت ممزوجة بالسحر والطلاسم والتنجيم . غلب على اليعاقبة  
فى مصر مذهب الأفلاطونية الحديثة ، والميل الى التصوف ، وحب معيشة  
الأديار والرهبة ، على حين غلب على النساطرة فى آسيا ؛ الميل الى التفكير  
الفاسفى ، وحب المنطق من غير إغراق فى الروحانية والرهبة ، وإن كانت لهم أديار .  
وقد اتصل المسلمون بمدرسة الاسكندرية فى العهد الأموى ، فنرى أن  
خالد بن يزيد بن معاوية يترجم له بعض الكتب « اصطفن » ويلقبه القفطى  
اصطفن الاسكندرانى ، ونرى ابن أبجر - وهو طبيب اسكندرى - يُسلم على  
يد عمر بن العزيز ، ويصحبه ويستطبه عمر . ويعتمد عليه فى صناعة الطب .  
وفى العصر العباسى ، نرى ذكراً لبعض تلاميذ المدرسة الاسكندرانية .  
فابن أبى أصبغة يروى أن « بليطيان » كان طبيباً نصرانياً مشهوراً بديار مصر ،  
وكان بطريقاً على الاسكندرية فى أيام المنصور ، فلما ولى الرشيد مرضت له  
جارية مصرية ، فطلب لها طبيباً مصرية ، لأنه أبصر بعلاجها ، فأرسل اليه  
« بليطيان » . وبعده كان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون ، وهكذا ٢  
ولكن مما نلاحظ ، أن مدرسة الاسكندرية لم تتصل بالخلفاء العباسيين  
اتصال مدرسة جنديسابور وخران وأمثالهما ، ولم يكن لها أثر كأثرهما ،

ولعل السبب في ذلك ، بُعد مصر عن العراق ، وقرب حران وجنديسابور ، وأن مدرسة الاسكندرية - كما أشرنا - انغمست في العزائم ، والرهينة والمكاشفة . على العكس من مدارس العراق ، فقد كانت أعلم بشئون الدنيا ، وأكثر اهتماماً بعلومها ، وهذا أنسب لدولة ناهضة كالدولة العباسية ، أما نزعة الاسكندرية هذه فتناسب التصوف ، وسنعرض لذلك عند الكلام في التصوف إن شاء الله . وسبب آخر ، وهو ضعف مدرسة الاسكندرية قبيل الاسلام ، واضطهاد أهلها ، وإحراق كتبها . حتى اضطر كثير من معتقبيها إلى التنصر ، أو الفرار من البلاد .

على كل حال ، فسّر النساطرة واليعاقبة كثيراً من كتب اليونان ، نقلوها من هذه اللغة إلى اللغة السريانية ، فلما اتصلوا بالعرب ؛ كانوا هم أيضاً البادئين بنقل هذه الكتب من السريانية إلى العربية وشرحها ، وتاريخ هذه الحركة التي قام بها هؤلاء النساطرة واليعاقبة ؛ يدلنا على عيين كبيرين فيها . (الأول) قلة الابتكار فلم يزدوا على ما نقلوا علماً جديداً ، ولا نظريات جديدة ، ولا كثيراً من الآراء الجديدة . (الثاني) أنهم حتى في كثير مما نقلوا لم ينقلوا في دقة ما كان عند اليونان ، بل غيروا فيه ، وحرّفوا . وكثير من الأخطاء التي وقع فيها العرب علمياً كان منشؤه هذا الخطأ السرياني . والحق أن العرب في هذا كانوا أكثر ابتكاراً وأدق نظراً . ويكاد مؤرخو علم المسلمين من طب وجبر وهندسة وكيمياء وفلسفة ؛ يقسمون ما وصل اليه المسلمون قسمين : قسم أخذوه عن اليونان ، وقسم ابتكروه بأنفسهم .

نقل إلى العربية في هذا العصر ، أهم تأليف أرسطو ، وشرح الاسكندرانيين عليها . وبعض مؤلفات أفلاطون وأهم كتب جالينوس في الطب ، وعلى الجملة أهم ما وصل اليه العقل اليوناني في العلم والفلسفة . ولسنا نريد أن نفصل الكتب التي ترجموها ، ولكن يمكننا هنا أن نجمل القول بأنه

يمكن تقسيم الترجمة الى أدوار ثلاثة :

الدور الأول : من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أي من سنة ١٣٦ هـ إلى سنة ١٩٣ هـ وفي هذا الدور ترجم كيلة ودمنة من الفارسية ، والسند هند من الهندية ، وترجمت بعض كتب ارسططاليس في المنطق وغيره ، وترجم كتاب المجسطى في الفلك — ومن أشهر المترجمين في هذا الدور ابن المقفع وقد تقدمت ترجمته ، وجورجيس بن جبرائيل ، ويوحنا بن ماسويه وكلاهما كان طبيباً نصرانياً - وفي هذا الدور اتصلت المعتزلة بالكتب التي ترجمت ، فنجد الأولين منهم كالنظام عرف أرسطو وعرف بعض كتبه في الفلسفة وتأثرت أبحاثهم بالمنطق ، وتكلموا في الطفرة والجوهر والعرض ، وما إلى ذلك كما سيأتي بيانه ، وكان كلامهم في هذا قبل المأمون ، مما يدل على اتصالهم بالفلسفة من أول عهد الترجمة .

الدور الثاني : من عهد المأمون من سنة ١٩٨ إلى سنة ٣٠٠ هـ وأشهر المترجمين في هذا الدور يوحنا أو يحيى البطريق - مولى المأمون - وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب ، وترجم كثيراً من كتب أرسطو . والحجاج بن يوسف بن مطر الوراق الكوفي عاش سنة ٢١٤ ، وقسطنطين بن لوقا البعلبكي عاش سنة ٢٢٠ هـ ، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي عاش سنة ٢٢٠ ، وحنين بن اسحاق توفى نحو سنة ٢٦٠ ، وابنه اسحاق بن حنين توفى سنة ٢٩٨ ، وعنى بكتب الفلسفة عناية أبيه بالطب ، وثابت بن قزرة توفى سنة ٢٨٨ ، وحبيش الأعمى ابن أخت حنين ، وغيرهم . وقد ترجم في هذا الدور أهم الكتب اليونانية في كل فن فأعيدت ترجمة المجسطى ، والحكم الذهبية لفيثاغورس ، وجملة مصنفات لقرطوبس وجالينوس ، وكتاب طيماوس لأفلاطون وكتاب السياسة المدنية لأفلاطون ، وكتاب النواميس له أيضاً ، وكتاب المقولات لأرسطو . كل ذلك على يد حنين بن اسحاق ومدرسته ، وترجمت

أغلب كتب أرسطو على يد اسحاق بن حنين .  
الدور الثالث : من أتى بعد هؤلاء ، ومن أشهر المترجمين فيه متى بن يونس ،  
كان في بغداد سنة ٣٢٠ ، وسنان بن ثابت بن قيرة مات سنة ٣٦٠ ، ويحيى  
ابن عدي سنة ٣٦٤ وابن زُرعة سنة ٣٩٨ ، وأهم ما ترجموا الكتب المنطقية  
والطبيعية لأرسطو ، وتفسيرها .

\*\*\*

وقد كان الباعث على هذه الترجمة ، ونشاطها في الدولة العباسية أموراً :  
( الأول ) أن العهد الأموي كان عهداً بدوياً - في الجملة - ظهرت فيه سيادة  
العرب على غيرهم من الأمم أو ضحَ ظهور ، والعرب في ذلك العصر لم يتأصل  
فيهم ميل الى فلسفة ؛ إنما كان يعجبهم الأدب العربي ، والتحدث بأيام العرب .  
ولذة خلفائهم إنما هي في الاصغاء إلى قصيدة عربية ، والاستفسار عن لفظ غامض ،  
وما إلى ذلك . فلما جاء العصر العباسي ، وأمعن المسلمون في الحضارة ، وسادت  
العناصر غير العربية ؛ رأوا أن حياة الحضارة لا بد أن تستند إلى العلم . فإلية  
الدولة تحتاج إلى حساب دقيق ، وعيشة الحضارة المركبة تحتاج الى أدوية  
مركبة ، وعلاج مركب . ومتى لجأ الناس الى نوع أو نوعين من العلوم ، وأخذوا  
يعالجونه عن الأمم الأخرى ؛ دعاهم الشغف الى تعرف ما عند الأمم المختلفة  
من العلوم جميعها ، ولو لم يكن لهم بها حاجة ماسة مباشرة .

( الثاني ) أن الحركة الدينية كانت قد بلغت في آخر الدولة الأموية شأواً  
بعيداً - كما ذكرنا في فجر الاسلام - وجرّهم البحث الى أن يتكلموا في القضاء  
والقدر ونحوه ، ورجحت عند قوم عقيدة الجبر ، وعند آخرين عقيدة الاختيار ،  
وتجادل المسلمون فيما بينهم ، ثم تجادل المسلمون والنصارى واليهود ؛ أي

١ انظر محاضرات الأستاذ سانتلانا واذا أردت استيعاب الكتب المترجمة فراجع فهرست  
ابن النديم وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وأخبار الحكماء للقفطي وقد خصها الأستاذ  
جرجى زيدان في كتابه التمدن الاسلامي

الأديان خير؟ وأي آراء الأديان في المسائل الجزئية أصح؟ وكان المعتزلة يحملون لواء الدفاع عن الاسلام، ومقارعة خصومه، وكان كل من اليهودية والنصرانية تسالح من قبل بالمنطق اليوناني، والفلسفة اليونانية يستخدمها في الجدل. فأحسن المسلمون أن لا بد من محاربتهم بآلاتهم، فعكفوا على المنطق والفلسفة يستخدمونهما في أغراضهم، وفيما هم كذلك شعروا بلذة عقلية من دراسة الفلسفة، فبعد أن كانت تُطلب على أنها وسيلة للدفاع عن الدين أصبحت غاية في نفسها تُطلب لذاتها.

وسبب ثالث: حكاة الأستاذ نالينو وهو أنه « في أواخر مدة الدولة الأموية، ثبتت سلطة الاسلام على جميع الأمصار والأقطار التي دخلتها ألويته عبوة أو صاحباً، أثناء المغازي المتواصلة والفتوح من أقصى بلاد ما وراء النهر في تركستان، إلى منتهى المغرب والأندلس. فعمت اللغة العربية الشريفة أهل تلك الولايات والبلدان، وغلبت على ألسنتهم الأصلية، فأخذ المسلمون كلهم من أي جنس أو أمة؛ لا يستخدمون في الانشاء والتأليف إلا لغة العرب، فابتدأت وحدة الدين تستوجب أيضاً وحدة اللسان والحضارة وال عمران. فصار الفرس وأهل العراق والشام ومصر يدخلون علومهم القديمة في التمدن الاسلامي الجديد »<sup>١</sup>.

وسبب رابع، وهو ميل أفراد من الخلفاء في العصر العباسي الى العلوم الفلسفية، والخلفاء عادة أقدر الناس على الترغيب فيما أحبوا. والناس أسرع ما يكون إلى تحقيق أغراضهم، والولوع بما أولعوا به. وأكثر الخلفاء العباسيين ميلا إلى ذلك في عصرنا؛ كان المنصور والرشيد والمأمون. ويظهر أنه قد كان لكل منهم أسباب خاصة حملته على ذلك. فالمنصور كان معودا. ويظهر أن ذلك حملة على العناية بالطب والأطباء، جاء في الطبري عن علي بن محمد بن



سليمان التّوّفلي عن أبيه أنه كان يقول : « كان المنصور لا يَسْتَمِرِّي طعامه ، ويشكو ذلك إلى المتطبّيين ، ويسألهم أن يتخذوا له الجوارشَنات . فكانوا يكرهون ذلك ، ويأمرونه أن يقلّ من الطعام ، ويخبرونه أن الجوارشَنات تهضم في الحال ، وتحدث من العلة ما هو أشدّ منها عليه . حتى قدّم عليه طبيب من أطباء الهند ، فقال له كما قال له غيره ، فكان يتخذ له سفوفاً جوارشَناً يابساً فيه الأفاويه والأدوية الحارة ، فكان يأخذه فيهضم طعامه ، فأحمده الخ ١ . وكذلك كان يعتقد في التنجيم كما سيأتي بيانه فقرب إليه المنجمين . والرّشيد ربّاه البرامكة على حبّ العلم ، والمأمون ربّاه الرّشيد والبرامكة ، وقد حذا حذو الخلفاء كثيرٌ من أفراد الشعب كبنى موسى بن شاكر . إذا علمت ذلك ؛ علمت فساد رأى من ينسب ترجمة الكتب اليونانية إلى رؤيا رآها المأمون أو نحو ذلك ، فقد ذكر صاحب الفهرست « أن أحد الأسباب التي من أجلها كثرت كتب الفلسفة ، وغيرها من العلوم القديمة : أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون مُشرباً حمرة ، واسع الجبهة ، مقرون الحاجب ، أجلىح الرأس أشهّل العينين حسنَ السّمائل ، جالس على سريره ، قال المأمون : وكأني بين يديه قد ملئتُ له هيبة ، فقلت من أنت ؟ قال أنا أرسطاليس ، فسرتت به وقلت أيها الحكيم ؛ أسألك ؟ قال سل قلت ما الحسن ؟ قال : ما حسُن في العقل ، قلت ثم ماذا ؟ قال : ما حسن في الشرع ، قلت ثم ماذا ؟ قال : ما حسن عند الجمهور ، قلت ثم ماذا ؟ قال لا ثم ! وفي رواية أخرى ، قلت : زدني ، قال : من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب ، وعليك بالتوحيد . فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب » ٢ وروى ابن أبي أصيبعة هذه القصة بشكل آخر ، فقال : إن المأمون رأى في منامه كأن شيخاً بهي الشكل جالس على منبر وهو يخطب ، ويقول « أنا

أرسططاليس « فانتبه من منامه ، وسأل عن أرسططاليس فقيل له رجل حكيم من اليونانيين فأحضر حنين بن اسحاق ، إذ لم يجد من يضاهيه في نقله ، وسأله نقل كتب الحكماء اليونانيين الى اللغة العربية ، وبذل له من الأموال والعطايا شيئاً كثيراً . »

فهذه القصص وأمثالها لا يصح أن تكون سبباً ، وإنما كانت الترجمة لأسباب طبيعية ، هي التي ذكرنا ورواية ابن أبي أصيبعة أبعد عن الحقيقة ، فمن المستحيل ألا يسمع المأمون باسم أرسطو حتى يأتيه في المنام ويقول له أنا أرسطو ! وحكاية ابن النديم إن صحّت دللتنا على أن الحلم كان انعكاس صورة طبيعية لما كان يفكر فيه المأمون في اليقظة .

\*\*\*

قال في طبقات الأمم لصاعد الأندلسي : « كانت العرب في صدر الاسلام لا تُعنى بشيء من العلم إلا بلغتها ، ومعرفة أحكام شريعتها ؛ حاشا صناعة الطب ، فانها كانت موجودة عند أفراد من العرب ، غير منكورة عند جماهيرهم ، لحاجة الناس طرّاً إليها ، ولما كان عندهم من الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحث عليها حيث يقول : « يا عباد الله تداووا فان الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا واحداً وهو الهرم . . . . . »

« فهذه كانت حالة العرب في الدولة الأموية ، فلها أدال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها ، وهبت الفطن من سنتها ، فكان أول من عنى منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور . . . فكان رحمه الله مع براعته في الفقه مقدماً في علم الفلسفة ، وخاصة في علم صناعة النجوم كلفها بها وبأهلها .

ثم لما أفضت الخلافة الى الخليفة السابع منهم ، عبدالله المأمون بن الرشيد ابن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور . تم ما بدأ به جدّه المنصور ، فأقبل

على طلب العلم في مواضعه ، واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة ، وقوة نفسه الفاضلة ، فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة ، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسططاليس وأبقراط ، وجالينوس وأقليدس ، وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فاستجاد لها مهرة الترجمة ، وكلفهم إحكام ترجمتها . فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حض الناس على قراءتها ، ورغبتهم في تعلمها ، فنفقت سوق العلم في زمانه . وقامت دولة الحكمة في عصره ، وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إحضائه لمتحليها ، واختصاصه لمتقليديها . فكان يخلو بهم ، ويأنس بمنظرتهم ، ويلتذ بمذاكرتهم ، فينالون عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية ، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب ، فأتقن جماعة من ذوى الفنون والتعلم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة . وسنوا لمن بعدهم منهاج الطلب ، ومهدوا أصول الأدب ، حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها . وزمان اجتماع شملها <sup>١</sup> .

وقال في موضع آخر : « إن أول علم اعتنى به من علوم الفلسفة ؛ علم المنطق والنجوم ، فأما المنطق فأول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي ، كاتب أبي جعفر المنصور ، فإنه ترجم كتب أرسططاليس المنطقية الثلاثة التي في صورة المنطق وهي كتاب « قاطاغورياس » وكتاب « بارى ارميناس » وكتاب « أنولوطيقا » وذكر أنه لم يكن ترجم منه الى وقته إلا الكتاب الأول فقط ، وترجم مع ذلك المدخل المعروف « بايساغوجي لفورفور يوس الصوري » وعبء عما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة المأخذ

وترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكليلة ودمنة . وهو أول من ترجم  
من اللغة الفارسية الى اللغة العربية ...

وأما علم النجوم فأول من عنى به في هذه الدولة محمد بن ابراهيم الفزارى  
وذلك أن الحسن بن محمد بن حميد المعروف بابن الآدمى ذكر في زيجه الكبير  
المعروف بنظم العقد: أنه قدم على الخليفة المنصور في سنة ١٥٦ رجل من الهند  
عالم بالحساب المعروف بالسند هند في حركات النجوم ... فأمر المنصور  
بترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربية ، وأن يؤلف منه كتاب تتخذة العرب  
أصلاً في حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزارى ... فكان  
أهل ذلك الزمان يعملون به الى أيام الخليفة المأمون<sup>١</sup> .

ونحن اذا استعرضنا ما حكى عن الترجمة ونشأتها أمكننا ان نستنتج منها  
التأيج الآتية :

( ١ ) أن أول نقل حدث في الاسلام كان بفضل خالد بن يزيد بن  
معاوية ، والذي نقل له هو «اصطفن» وهو من الاسكندرية ، وكان هذا النقل  
من اللغة اليونانية والقبطية الى العربية - وأن خالداً إنما كان أهم ما يعنى به  
الصنعة أو الكيمياء ، والغرض بها تحويل المعادن الى ذهب ، ويظهر أن الذى  
دعاه الى ذلك أنه كان شاباً يطمع فى الخلافة اذ كان أبوه ( يزيد بن معاوية )  
خليفة ، وأخوه ( معاوية بن يزيد ) خليفة ، ثم نُحى عن الخلافة ، وغلبه عليها  
مروان بن الحكم . فصدّم من ذلك صدمة قوية فتحوّل الى ملهى شريف يلهو  
به ويناسب أرسنقراطيته ، فكان ذلك هو « الصنعة » رأى أنه اذا استطاع أن  
يحوّل المعادن الى ذهب استطاع أن يحول الناس اليه ، أو على أقل تقدير كان  
له من المنزلة ما يحسده عليها الخلفاء . قال ابن النديم : « كان خالد جواداً ،  
يقال إنه قيل له : لقد فعلت أكثر شغلك فى طلب الصنعة ! فقال خالد ما أطلب

بذاك الا أن أغنى أصحابي وإخواني ، إني طمعت في الخلافة فاخترت دوتى ، فلم أجد منها عوضاً الا أن أبلغ آخر هذه الصناعة ، فلا أحوج أحداً - عرفنى يوماً أو عرفته - إلى أن يقف بياب سلطان ، رغبة أو رهبة !<sup>١</sup> وقد اشتغل بالنجوم على أنها قد تكون وسيلة تساعد على الوصول إلى « الصنعة » إذ كان علم النجوم مزوجاً بعلم أحكامها ، وتأثيرها في العالم السفلى ، فلعله أمل فيه عوناً على الوصول إلى بغيته .

( ٢ ) أنه عنى في الدولة الأموية بالطب بعض عناية ، لأن الناس في حاجة مادية إليه ، ولأنه أبعد العلوم الأجنبية عن أن يؤثر في الدين ، ولهذا لم يتخرج من إجازة الترجمة فيه أتقى بنى أمية عمر بن عبد العزيز .

( ٣ ) أن محاولة الترجمة في العهد الأموى كانت محاولات فردية ، تموت بموت الأفراد القائمين بها ، أما في الدولة العباسية فكانت الترجمة عمل أمة لا عمل أفراد ، وان شئت فقل ؛ كان في الدولة العباسية مدرسة كبيرة للترجمة ، لا يضيرها موت فرد أو أفراد منها .

( ٤ ) كانت الترجمة في العهد الأموى مقصورة على العلوم العملية كالصنعة والطب والنجوم ( بالمعنى الذى فسرناه ) ولم يتعد ذلك إلى العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والهندسة ، وما إلى ذلك ، فهذه لم تكن الا في الدولة العباسية .

( ٥ ) نرى أن المسلمين اتصلوا بالفلسفة اليونانية أول الأمر من طريق الفرس ، فقد ترجم ابن المقفع كتباً من منطق اليونان ، والظاهر أنه نقلها من الفارسية ، إذ لم يعرف عنه أنه يعرف اليونانية ، ثم تولى الترجمة بعد ؛ النصارى من النساطرة واليعاقبة ، من السريانية الى العربية .

( ٦ ) كانت أول عناية الخلفاء العباسيين موجهة الى الطب والتنجيم .

والسبب في ذلك الحاجة الماسة الى ذلك ، فالمنصور احتاج الى الطب لمرضه  
- كما بينا - واحتاج الى التنجيم لأنه كان يعتقد أن هناك ارتباطاً بين حركات  
النجوم وأوضاعها ، وبين ما يحدث في عالمنا من نحس أو سعد . ومن ذلك  
الحين صار الطب والتنجيم عمائين رسميين ، يتولاهما رجال رسميون . فجورجيس  
ابن جبريل بن بختيشوع الجنديسابوري صار طبيباً للمنصور ، ثم لما تقدمت  
به السن عين المنصور مكانه تليذه عيسى بن شهلاثا . واتخذ نوبخت الفارسي  
منجماً له ، فلما ضعف عين المنصور مكانه ابنه أبا سهل بن نوبخت . ولما تولى  
اتخذ المهدي طبيبه عيسى الصيدلاني الملقب بأبي قريش ، واتخذ توفيل بن توما  
النصراني الرهاوي رئيساً لمنجميه . فلما تولى الرشيد اتخذ طبيبه بختيشوع بن  
جورجيس ، ويوحنا بن ماسويه النصراني . ولما استخلف المأمون كثر في بلاطه  
الأطباء والمنجمون ، فمن منجميه حبش الحاسب ، وعبد الله بن سهل بن  
نوبخت ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وما شاء الله اليهودي ، ومن أطبائه  
سهل بن سابور ، ويوحنا بن ماسويه ، وجورجيس بن بختيشوع ، وعيسى بن  
الحكم ، وزكريا الطيفوري . فلما آلت الخلافة للمعتصم كان طبيبه سلمويه ،  
ثم يوحنا بن ماسويه ، الخ .

فترى من هذا أن الطب والتنجيم أصبحا صناعتين تحميها الخلفاء ،  
وكانت حاجتهم اليهما حاجة عملية . فأمر الطب ظاهر ، والتاريخ مملوء بالحكايات  
التي هرع فيها الخلفاء إلى المنجمين ، فالمنصور استشار المنجمين في اختيار الوقت  
التي يبدأ فيه ببناء بغداد ، والمهدي لما هم بالخروج إلى « ماسبدان » استشار  
توفيل بن توما النصراني المنجم<sup>٢</sup> ، والمعتصم نصحه المنجمون ألا يغزو « عمورية »  
الا في أيام نُضج التين والغناب ، فلم يُصغ لقولهم وغزاها وفتحها . وقال أبو تمام  
في ذلك بأئيتسه المشهورة « السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتب<sup>٢</sup> ، والواثق لما

١ ابن العبري في مواقع متفرقة

٢ ابن العبري ص ٢١٩

اشتد مرضه، أحضر المنجمين، منهم الحسن بن سهل بن نوبخت، فنظروا في مولده فقدروا له أنه يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم، فلم يعيش بعد قولهم الا عشرة أيام<sup>١</sup> الخ.

ولسنا ندعى أن الخلفاء لم يشجعوا من علم النجوم الا هذا الضرب، فقد كان علم النجوم يشمل ما يُطلق عليه علم الهيئة الآن، ويشمل كذلك البحث عن التغيرات التي تحدث في الأرض بسبب مواقع النجوم وتأثيرها. وكلا الأمرين كان عند اليونان، وكلا الأمرين عنى به العباسيون، فرصدت الكواكب في عهد المأمون، وأصلحت آلات الرصد. وانما الذي نريد أن نذكره: أن الشغف بمعرفة أحكام النجوم هو الذي جذب الخلفاء أولاً إلى تشجيع هذا العلم، ثم تدرجوا منه إلى تشجيع الفلك الرياضى البحث.

ويظهر لى أن هذين العلمين (الطب والنجوم) هما البابان اللذان أوصلا المسلمين إلى ساحة العلوم الفلسفية، والسبب في ذلك أن التخصص الذي نفهمه الآن ونراه في دراسة الطب والهيئة لم يكن معروفاً في هذا العصر العباسى، فكان الطيب والمنجم يُلمان بكثير من المسائل الفلسفية. وتكاد تعد الفلسفة كوحدة، فروعها: الطب. والالهيات، والحساب، والمنطق، والموسيقى، والهندسة، والهيئة. فالطيب والمنجم يلمان - غالباً - بكل ذلك، ثم يتبحران في الطب أو التنجيم، وكانت رغبة الأطباء والمنجمين في إتقان فنونهم تحملهم على معرفة اللغات الأجنبية، وخاصة اليونانية. فاذا حذقوها أقبلوا على الكتب المؤلفة فيها من جميع فروع الفلسفة. وقد نقلَ الينا ابنُ النديم ثبناً بأسماء الكتب التي كان يدرسها المتطبيون، فاذا فيها طب وتشريح، وما إلى ذلك. ثم فيها منطق وأخلاق وبحث فيما وراء المادة. وكان مما يقرءون كتاب موضوعه «أن الطيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفاً»<sup>٢</sup>. واستمر هذا الحال

٢ فهرست ٢٨٩ وما بعدها

١ ابن البرى ص ٢٤٥

حتى فيمن نبع بعد من الفلاسفة المسلمين، فيعقوب الكندي - مثلاً - « كان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق ، وتأليف اللحن والهندسة ، وطبائع الأعداد والهيئة »<sup>١</sup> وكذلك كان ابن سينا منطقياً طبيياً رياضياً طبيعياً فلسفياً ، الخ .

من أجل هذا نرى أن كثيراً من هؤلاء الأطباء والمنجمين الذين كان الخلفاء يمدّونهم بالمال ، عنوا بترجمة كتب غير طبية ولا فلكية ، أو أشرفوا على ترجمتها فابن العبري يذكر « أن يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني الطبيب ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة . . . وكان له تصانيف جميلة ، وكان يعقد مجلساً للنظر ، ويجرى فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة »<sup>٢</sup> ويقول : « إن يوحنا بن البطريق ( الطبيب ) الترجمان مولى المأمون كان أميناً على ترجمة الكتب الحكيمية حسن التأدية للعاني ، ألسكن اللسان في العربية ، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب »<sup>٣</sup> الخ .

\* \* \*

كان لهذه الثقافة اليونانية أثر كبير في المسلمين ، وما زاد في أثرها أن اتصال المسلمين بها صاحب عصر تدوين العلوم العربية ، ففسرت الثقافة اليونانية إليها ، وصبغت صبغة خاصة ، كان لها تأثير كبير في الشكل ، وفي الموضوع .

أما الشكل فيرجع إلى تأثير المنطق اليوناني ، وقد صبغ العلوم العربية صبغة جديدة صبّت في قلبه ، ووضعت على منهاجه . إذ كان المنطق كما قال ابن سينا « خادم العلوم » - عنى به المسلمون من أول عهدهم بالفلسفة ، وقد رأينا أن ابن المقفع ترجم كتب المنطق لأرسطو ، وتتابع المترجمون بعده يترجمون الكتب المنطقية ، وكان المنطق الذي وصل إلى العرب هو منطق



أرسطو معدّلاً ومضافاً إليه ، ومشروحاً بمنطق الرواقين والاسكندرانيين ، ولم يزد العرب فيه شيئاً يذكر . فكل المنطق الذي بين أيدينا هو منطق اليونان ، لم يزد عليه الا بعض الشروح . وقد نقل نقلاً صحيحاً ، لم يدخله نقص ولا تهويش ؛ كالذي كان في الالهيات اليونانية . وقد كان منطق أرسطو وشروحه العربية أوسع وأعمق مما بين أيدينا من كتب المنطق اليوم ؛ فكان القياس يشغل فيه حيزاً كبيراً . وفيه كتاب واسع في البرهان ، وآخر في الجدل وكيف يكون ، وكيف يسلك في إقحام الخصم ، وكان فيه باب للسفسطة ، وباب في الخطابة ، وباب في الشعر ، وكانت الأبواب الخمسة الأخيرة . وهي البرهان والجدل والخطابة والشعر والسفسطة تُبحث فيه بحثاً وافياً<sup>١</sup> . ولكن المتأخرين حذفوا هذه الأبواب أو ألوا بها إلماماً سيراً ، واقتصروا على الكلام في الكليات الخمس والقضايا والقياس ؛ مع أن الذي حذفوا أهم من الذي أثبتوا<sup>٢</sup> . وبذلك أفقدوا المنطق روحه .

على كل حال كان للمنطق سلطان كبير على العقول في العصر العباسي ، وكان من جراء ذلك أن اصطبغت طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل صبغة غير التي كانت تعرف من قبل . فان أنت قارنت بين أسلوب القرآن الكريم ، وأسلوب المتكلمين ؛ وجدت فرقاً كبيراً يمكنك أن تلخصه في : أن أساليب المتكلمين جارية على أساليب منطق أرسطو ، وليس كذلك أسلوب القرآن . وبحق وضع محمد بن ابراهيم الحسني النيني الصنعاني كتابه المسمى « ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان »<sup>٣</sup> فأسلوب القرآن في إثبات وجود الله تعالى : « قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ

١ انظر في ذلك منطق أرسطو باللغة الانجليزية ، وقد اتبع العرب الأولون شراح أرسطو من اليونان بإضافة الخطابة والشعر  
٢ انظر مقدمة ابن خلدون ٤١٠  
٣ الكتاب ، طبع في مصر بمطبعة المعاهد

وَالْأَبْصَارَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟  
وَمَنْ يَدَّبُّرُ الْأَمْرِ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ! « وقوله تعالى: « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى  
السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ، وَزَيَّنَّاهَا ، وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ،  
وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ  
بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً  
مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ  
نَضِيدٌ! » إلى كثير من أمثال ذلك . أما أسلوب المتكلمين فمثل : « العالم  
حادث ؛ وكل حادث لا بد له من محدث ، فالعالم لا بد له من محدث ، إلى أمثال  
ذلك ، وما يستتبعه من الجوهر والعرض ، والكيفية والكمية ، والعلم  
الضروري والنظري ، وغير ذلك . مما هو من تعبيرات الفلسفة اليونانية .

وكذلك الشأن إذا أنت قارنت بين تعبيرات الفقهاء في عصر الخلفاء  
الراشدين ، والعصر الأموي ، وبين تعبيرات الفقهاء في العصر العباسي - بعد أن  
عرفوا المنطق - فانك تجد التعبير الأول عربياً بحتاً ، وتجد الثاني أرسطوالياً  
بحتاً . فمثلاً تقرأ الباب في موطأ الامام مالك فتجده يذكر الحكم ، ثم يحكي  
ما يدل عليه من حديث أو أثر . ثم لا تجد فيه أثراً لعلم المنطق ، وتقرأ في كتاب  
الهداية مثلاً التدليل الفقهي ، وخاصة في المسائل الخلافية بين أبي حنيفة والشافعي ؛  
فترى أن قواعد الجدل التي وضعها أرسطو ، وقواعد البرهان مطبقة في دقة تامة ،  
فقدمة صغرى ، ومقدمة كبرى ، ونتيجة . وأشكال القياس مستوفاة شروطها .

وتقرأ كتاب سيبويه فتجد ترتيباً وتبويهاً منطقياً ، يبدأ بتقسيم الكلمة إلى  
اسم وفعل وحرف ، ثم يعرف كل قسم ويأتي بأمثلته ويذكر أحكامه ، وهكذا .  
ومن ذلك أن أرسطو قال : « إن الزمان والمكان كالوعاء للأشياء إذ لا بد  
لكل شيء مخلوق أن يكون واقعاً في زمان من الأزمنة ، وفي مكان من

الأمكنة فهما كالوعاء له . وهذا أصل تسمية النحويين للفعال فيه ظرفاً ، أى وعاء « ١ » وكما أُلّف ايساغوجى أى المقدمة أو المدخل فى المنطق ؛ أُلّف ابن فارس « مقدمة فى النحو » .

وهذا القياس الذى شغل جزءاً كبيراً من منطق أرسطو طبق تطبيقاً دقيقاً ، وروعى فى كثير من العلوم . فالقياس فى الفقه وأصوله ، والقياس فى النحو واللغة ، والقياس فى الفلسفة ، وكان لهذا القياس أثر كبير فى تفریع المسائل وتنويعها ، ووضع المسائل المتشابهة تحت قاعدة واحدة ، وطرد أحكامها على ما لم يرد فيه حكم مأثور ، سواء فى ذلك الفقه والنحو واللغة ، وكان لهذا كله أثر فى تضخيم العلم وترتيبه وتبويبه <sup>٢</sup> .

هذا فى الشكل ؛ وأما فى الموضوع ، فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير فى تعاليم المتكلمين ، نعرض له عند الكلام فى المعتزلة . وكان للأفلاطونية الحديثة بعض الأثر فى التصوف ، نوضحه عند الكلام فيه . وكان لهما معاً أثر كبير فى الفلسفة الاسلامية ، وهذا بتاريخ الفلسفة الاسلامية أشبه وأليق . وكان للבלاغة اليونانية أثر فى علم البلاغة العربى ، ولكنه دُونَ بعد عصرنا الذى تُوّرّخه فلا نتعرض له الآن .

١ محاضرات الاستاذ جويدى ٨٥

٢ أما القياس فى الفقه فسأتى الكلام فيه ، وأما القياس فى النحو فقد عرفوه بأنه « حمل فرع على أصل لعلته مشتركة بينهما » ويكاد يكون هو التعريف الفقهى ، وقد طبقه النحاة كما طبقه الفقهاء فيقولون — مثلاً — مفتوح والقياس الكسبر . وكانوا اذا رويوا مسألة عن عربى قاسوا عليها ولذلك يقول ابن الأنبارى : « اعلم أن إنكار القياس فى النحو لا يتحقق لان النحو كله قياس ، فمن انكر القياس فقد أنكر النحو » وكانوا يقسمون مصدر المسائل الى سماع وقياس ويعنون بالسماع ما سمعوه عن العرب ، وبالقياس ما قاسوه على ما سمعوا . وقد ذكروا أن نحة البصرة كانوا أصح قياساً من نحة الكوفة ، لان البصريين لا يلتفتون الى كل مسجع ، ولا يقيسون على الشاذ . ومعنى هذا أن الكوفيين كانوا يستعملون القياس بأوسع من البصريين ، لانهم كانوا يقيسون على الشاذ . وقال الاندلسى : « الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شىء مخالف للاصول جعلوه أصلاً ، وبوبوا عليه بخلاف البصريين » ( انظر مقدمة كتاب الانصاف فى مسائل الخلاف )

ولكن مما لا شك فيه ان العرب أو المسلمين استخدموا ما أخذوا من الثقافة اليونانية استخداماً صالحاً، وأخذوا منها ما أخذوا ثم بنوا عليه، وزادوا فيه وابتكروا، ولم يكن موقفهم موقف الناقل فحسب. وكان كثير منهم ينظر باحدى عينيهِ إلى الثقافة اليونانية، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الاسلامية والثقافة العربية. فيختار من الأولى ما يتفق والثانية، ويؤلف منهما مزيجاً لا هو يوناني بحت، ولا اسلامي بحت. إنما أظهر ما كان ذلك في العصر الذى يلي عصرنا هذا وهو العصر العباسى الثانى، فقد كانت الترجمة قد تمت وركزت، فأعقبها الأخذ بها والبناء عليها. وظهر أمثال اخوان الصفاء، والفارابى، وابن سينا، وابن رشد، وأمثالهم.



وهناك نوع آخر خفيف من الثقافة اليونانية الرومانية، وأعنى به الثقافة التى تنشأ من امتزاج الجنس العربى والجنس اليونانى الرومانى فى الحياة الاجتماعية. فقد كان هؤلاء الرومان يعيشون بين سمع العرب وبصرهم، ولهم عادات وتقاليد، وأفكار وآراء فى نظم الحكم، ولهم فنون من غناء وتصوير وما إلى ذلك. فكان العرب يقتبسون من ذلك ما تيسر لهم لا عن طريق الدراسة المنظمة، ولا عن طريق البحث العلمى؛ وإنما عن طريق المشاهدة والنظر، وعن طريق الحديث والمشاهدة. ولئن كان العراق أهم منبع للثقافة اليونانية العلمية، فقد كان الشام - على ما يظهر - أهم منبع لهذا النوع من الثقافة الاجتماعية وسبب ذلك: أن الشام كان محكوماً بالرومان وقت الفتح الاسلامى، وكانت سلطة الرومان عليه أكبر من سلطتهم على العراق لقرب العراق من الدولة الأخرى القوية - وهى الفرس - ووقوعه تحت سيطرتها فى أغلب الأحيان، وكان فى الشام عرب كثيرون، ورومان كثيرون، اختلطوا اختلاطاً تاماً. وترك الرومان عند خروجهم عادات

وتقاليد وفنوناً ونظماً اقتبس منها العرب .

من الأمثلة على ذلك الغناء ؛ فيحدثنا الأغانى أن المسلمين اقتبسوا من الروم بعض غنائهم ، وكان موضع الاقتباس هو الشام فيقول في « ابن مُحْرَز »  
« انه سقط الى فارس فأخذ غناء الفرس ، وإلى الشام فأخذ غناء الروم ، فتخير  
من نعمهم ما تغنى به غناؤه »<sup>١</sup> ويقول ابن مسجح « إنه رحل إلى الشام  
وأخذ ألحان الروم »<sup>٢</sup>.

وقدرأينا عند الكلام في الرقيق ، أن كثيراً منه كان من الروم . وكان  
هذا الرقيق من غلمان وجوار في قصور الخلفاء والأغنياء ، والشعراء والعلماء .  
فكان للأمون جوار روميات ، يلبسن لبسهن الرومى من زُنَّار ، وما إليه .  
وكان لأبى تمام الشاعر غلام رومى<sup>٣</sup> وهكذا .

ويحكى ابنُ أبى أصيبعة : أن الرشيد كانت له جارية رومية اسمها خرشى ،  
وكان لها من قرابتها أخت أو بنت أخت ، فتفقدها الرشيد فلم يجدها ، فسأل  
خرشى عنها فأعلمته أنها زوّجتها من قريب لها ، فغضب من ذلك وقال : كيف  
أقدمت على ذلك بغير إذنى وأنتِ انما اشتريتها من مالى ! وأمر سلاماً الأبرش  
بتأديب زوجها على عمله ، فما زال سلام يتعرف خبره ، حتى وجده فخصاه ،  
وكانت الجارية الرومية قد علقت منه بغلام ، فلما ولدت الجارية - وكان الرشيد  
قد توفى - تبنت خرشى الغلام ، وأدبته بأداب الروم وقراءة كتبهم . فتعلم اللسان  
اليونانى علماً كانت له فيه رياسة ، وكان يعرف باسحاق ابن الحصى ، وكان يتصل  
به كثير من أهل العلم والأدب<sup>٤</sup> .

وكانت الحروب بين المسلمين والروم متواصلة في عصرنا هذا ، وتقع  
الأسرى من كل من الجانبين في يد الآخرين فأسرى المسلمين قد يذهبون الى

١ : ١٠١ ٢ : ٣٨٤ ٣ : أغانى ١٥ : ١٠٧

٤ : طبقات الاطباء ١ : ١٨٥

القسطنطينية ، وأسرى الروم الى العراق . والحكايات كثيرة في التاريخ عن النوعين من الأسارى ، وخاصة في عهد الرشيد ، فكان هذا سبباً من أسباب امتزاج الحياة الاجتماعية واقتباس كل من كل . وليس من المعقول أن يمر هذا الاتصال - بحكم الروم لكثير من البلاد الاسلامية أولاً ، ثم بالرق والأسر ، ثم بالاحتكاك الدائم السلمى أحياناً ، والحربي أحياناً - من غير أن يترك بعضاً من المسلمين يتكلمون الرومية وبعضاً من الرومانيين يتكلمون العربية . فالرقيق الرومي مثلاً في البيوت كان يتكلم الرومية أولاً بالضرورة ، ثم يتكلم العربية محرقة ، ثم العربية القريبة من الصحيحة ، وهكذا الشأن في أسرى المسلمين في الروم إن استقرّوا ، وهذا يحمل بعض الأفراد الراقين من الجانبين على أن يتبادلوا الآراء والأفكار والكلام في اللغة والأدب . ويروى الأغاني في ذلك خبراً طريفاً فيقول : قدم رسول ملك الروم الى الرشيد ، فسأل عن أبي العتاهية ، وأنشده شيئاً من شعره . وكان ( أي الرسول ) يحسن العربية فمضى ( الرسول ) الى ملك الروم وذكره له . فكتب ملك الروم اليه وردّ رسوله يسأل الرشيد أن يوجهه بأبي العتاهية ، ويأخذ فيه رهائن من أراد وألح في ذلك ، فكلّم الرشيد أبا العتاهية في ذلك فاستعفى منه وأباه<sup>١</sup>

\*\*\*

وهذا يسلمنا إلى مسألة تستوقف النظر ، وهو ضعف تأثير الأدب اليوناني إذا قيس بتأثير العلم والفلسفة اليونانية ، فانك تقرّ أسماء الكتب التي ترجمت من اليونانية الى العربية ؛ فتجد الكثير في كل فرع من فروع العلوم الرياضية والطبية والفلسفة ، ولا تكاد تعثر على كتاب أدبي يوناني ترجم الى العربية مع وفرة ما لليونان والرومان من كتب أدبية . وقد ألمحنا بشيء من أسباب ذلك فيما مضى<sup>٢</sup> . ونزيد هنا سبباً آخر وهو : أن الفلسفة

والعلوم عالمية ، والأدب قومي ؛ ذلك أن الفلسفة والعلم نتاج العقل ، والعقل قدر مشترك بين الأفراد والأمم - وان اختلفوا في أنصباهم منه - والمنطق الذي يضبط هذه العلوم يسيغه عقل الناس جميعاً ، وقواعد الهندسة والطب تطبق على الناس جميعاً . أما الأدب فلغة العواطف ، وليس للعواطف منطق يضبطها ، والأدب ظل الحياة الاجتماعية ، ولكل أمة حياة اجتماعية خاصة بها تمتاز عن حياة الأمم الأخرى في أشكالها ومراميها . من أجل ذلك تذوق العرب منطقَ أرسطو ، وطبَّ جالينوس . ولم يتذوقوا إلياذة هوميروس ، ألا ترانا اليوم حتى في عصرنا الذي اتصل فيه الناس والأمم اتصالاً أوثق مما كان في القديم ؛ لا يتذوق العربي منا الإلياذة ، إلا أن يكون قد وقف على الحياة الاجتماعية اليونانية وأدرك كنهها ، ومرَّ نذوقه طويلاً على أن يستسيغها . وسبب ثالث يصح أن يكون ، وهو : أن الأدب اليوناني أدب وثني ، فيه آلهة متعددة ، وفيه عبادة أبطال . والذوق العربي حين ترجمت العلوم ذوق مسلم ، لم يستسغ هذا النوع من الأدب الوثني .

ومع هذا فقد كان لليونان أثر في اللغة العربية والأدب العربي من وجوه :  
( ١ ) ألفاظ يونانية عربت ، ونلاحظ أنها أكثر ما تكون في أنواع ثياب يونانية أو رومانية لم يكن يعرفها العرب ، ثم عرفوها ولبسوها ، وأطلقوا عليها كلماتها الأصلية مثل « البرُّجْد » Paragauda وهو كساء غليظ مخطط ، وأبو قلمون وهو ثوب رومي يتلون للعيون ألواناً . أو أسماء أشياء عرفها العرب بعد اتصالهم بالرومان ، ولم تكن من نتاج جزيرة العرب ، كالزبرجد والزمرد والياقوت ، ومقاييس أو موازين رومانية كالقيراط والأوقية . أو أسماء طبية أو نباتية ، كالبلغم والقولنج والبرقوق ، واللوييا والترمس ، أو كلمات نصرانية كالجاثليق ، والبطريق ، أو نحو ذلك . ويظهر أن أكثر هذه الكلمات تسربت

الى العرب عن طريق الشام للسبب الذي أبنا قبل .

( ٢ ) قصص يونانية نقلت الى العربية . وقد نقل ابن النديم أسماء كتب للروم في الأسفار والتاريخ ترجمت الى العربية <sup>١</sup> ، وحكى الجاحظ في كتاب الحيوان قال : «كان في اليونانيين مرور له نوادر عجيبة ، وكان يسمى ريسيموس والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة [ما من نادرة] الا وهي غرة وعين من عيون النواذر . فمنها أنه كان كلما خرج من بيته مع الفجر الى شاطئ الفرات - للغائط أو للظهور - ألقى في أصل باب داره ، وفي دورانه ، حجراً كي لا ينصفق الباب فيحتاج الى معالجة فتحه ، وإلى رفعه . وكان كلما رجع من حاجته لم يجد الحجر ، ووجد الباب منصفقاً . فكمن في بعض الأيام ليرى هذا الباب من يصنع به ما يصنع ، فبينما هو في انتظاره إذ أقبل رجل حتى تناول الحجر فلما نحاه عن مكانه انصفق الباب ، فقال له مالك ولهذا الحجر ، ومالك تأخذه ؟ فقال لم أعلم أنه لك . قال : فقد علمت أنه ليس لك !

وقال بعضهم : ما بال ريسيموس يعلم الناس الشعر ولا يقول الشعر ! قال : ريسيموس كالمسنّ الذي يشحذ ولا يقطع .  
ورآه رجل يأكل في السوق فقال : أتأكل في السوق ؟ فقال اذا جاع ريسيموس في السوق أكل في السوق» <sup>٢</sup> الخ .

( ٣ ) الحكم فقد ترجمت حكم نسبت لفيثاغورس ، وسقراط ، وأفلاطون وأرسطو . وملئت بها كتب الأدب في ذلك العصر مثل البيان والتبيين ، وعيون الأخبار . وقال ابن النديم : ان علي بن ربن النصراني نقل كتاباً في الآداب ، والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب <sup>٣</sup> الخ .

والظاهر أن ولوع العرب بهذين النوعين «القصص والأمثال» دون غيرهما

١ الفهرست ٣٠٥ ، ٣٠٦ ٢ الحيوان ١ : ١٤٠ وقد أصاحنا في الحكاية بعض أغلاطها في الاصل ٣ الفهرست ٣١٦



من أنواع الأدب كالألياذة وبقية الروايات ، والأشعار ، والخطب اليونانية ؛  
سببه ما قدمنا . فهذان النوعان من النوع العالمي ، قد جردا مما يلابسهما من حياة  
اجتماعية خاصة ، وليس فيهما أسماء يونانية ثقيلة على سماع العربي ولسانه ،  
وليس فيهما أوزان شعرية لاتسبغها العربية ، ولا فيهما وصف لحياة اجتماعية  
بعيدة عما يألفه العربي المسلم .

وبعد ؛ فقد كان تأثير اليونان واسعاً عميقاً في الفلسفة والعلوم الرياضية  
والطبية ، ضيقاً خفيفاً في الناحية الأدبية .

فان شئنا أن نختار من يمثل هذه الثقافة اليونانية اخترنا لذلك « حنين  
ابن اسحاق . »

### حنين بن اسحاق

حنين بن اسحاق ، ويلقب بأبي زيد ولد سنة ١٩٤ هـ من أب عربي من  
قبيلة عبيد التي تسكن الحيرة ، وكان أبوه اسحاق نصرانياً نسطورياً ، فنشأ ابنه  
كذلك . وكان اسحاق صيدلانياً ، فأعد ابنه لدراسة الطب . بدأ حنين يدرس  
على يوحنا بن ماسويه . وكان حنين يكثّر السؤال على أستاذه ، ويلح في الأسئلة  
فأخرج صدر يوحنا فطرده ، وقال : « ما لأهل الحيرة والطب ، عليك ببيع  
الفلوس في الطريق ! » وكان في يوحنا عصبية لأهل جنديسابور ومدرستها ،  
يعتقد أن العلم لا يخرج عنهم .

فذهب حنين الى بلاد الروم ، وأجاد تعلم اليونانية ، ثم عاد إلى البصرة .  
ولازم الخليل بن أحمد يأخذ عنه العربية . ويروون أنه حمل كتاب العين  
المنسوب للخليل إلى بغداد .

وكان يجيد أربع لغات ؛ الفارسية ، واليونانية ، والعربية ، والسريانية .

وأهم ما امتاز به حنين الترجمة من اليونانية إلى العربية والسريانية ، بدأ ذلك وهو في السابعة عشرة من عمره ، ولكن كانت ترجمته ضعيفة لم ترّضه لَمَّا أن نصبح ؛ فأعاد بعدُ بعضَ ما ترجمَ وصحح بعضاً .

اتصل أول أمره بالمأمون ، وعُيّن في بيت الحكمة الذي كان يزخر بالكتب اليونانية التي نقلت من آسيا الصغرى ، ومن القسطنطينية . فأخذ حنين يترجم منها إلى السريانية أولاً ، ثم إلى العربية ، ثم ترجم للبعثم والواثق والمتوكل . ولم يكتف بما جُمع في بيت الحكمة ، بل رحل في نواحي العراق ، وسافر إلى الشام والاسكندرية وبلاد الروم ؛ يجمع الكتب النادرة . ومات سنة ٢٦٤ هـ بعد أن عمر نحو سبعين عاماً ، بذل فيها من الجهد العلي ما لا يستطيع غيره أن ينهض به في مئات السنين .

كان يترجم بنفسه ، وكان يشرف على جماعات تعمل بارشاده ، فقد « جعل له المتوكل كتباً نحارير ، عالمن بالترجمة . كانوا يترجمون ، ويتصفح ما ترجموا ، كاصطف بن بسيل ، وموسى بن خالد الترجماني ، ويحيى بن هارون » كان يترجم كثيراً ، ويؤلف كثيراً ، وكان أحياناً يضع الشروح لما ترجم ، ويلخص المطولات ، ويصحح تراجم السابقين . وعلى الجملة فقد كان حركة علمية دائمة ، قلّ أن تُبارى بل ظلت حرّكته التي أنشأها تعمل عمله بعد وفاته ، على يد ولديه وتلاميذه<sup>٢</sup> .

أكثر ما ترجمه حنين كتب طبية ، وخاصة كتب جالينوس . فقد ذكروا : « أنه ترجم إلى السريانية من كتب جالينوس خمسة وتسعين كتاباً ، وترجم إلى العربية منها تسعة وثلاثين ، وأصلح ما ترجمه تلاميذه وهي ستة إلى السريانية ، ونحو من سبعين إلى العربية ، وأصلح معظم الخمسين كتاباً التي كان قد ترجمها

١ أخبار الحكماء ١٧١ ٢ انظر فائمة كتبه في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة

الى السريانية سر جيس الرَّأْسَعَيْنِي، وأيوب الرُّهاوى، وسواهما من الأطباء المتقدمين»<sup>١</sup>.

ومع هذا فنجد له كتباً كثيرة في غير الطب. فله كتب في المنطق، وفي الطبيعة والهيئة، وفي فلسفة أفلاطون وأرسطو. وقد أثبت البحث العلمى أن بعض الكتب التى نسبت إليه إنما هى من عمل تلاميذه ومدرسته لا من عمله. وإذا نحن أدركنا أنه أخذ يترجم عن اليونانية، وقد اعترضته مئات الكلمات اليونانية التى لم يُعرف لها نظير فى اللغة السريانية والعربية، من مصطلحات طيبة وفلسفية، وأسماء للنبات والحيوان والهيئة وغيرها. وأنه كان مضطراً أن يوجد لها ألفاظاً عربية تقابلها إن أمكن، وأن يصقل الكلمات الأجنبية صقلاً عربياً إن لم يمكن؛ علمنا أنه اضطلع بعبء ينوء بالعصبة أولى القوة، وأدركنا قدر عتائه، ومبلغ نجاحه.

وقد عاب الأستاذ «سيمون» Simon - عند نشره ترجمة حنين وحبش لكتب جالينوس - عليهما «أن ترجمتهما مملوءة بالفقرات الدخيلة التى لم تكن فى الأصل، وأن طريقتهما فى التعبير حرفية وليست دائماً جميلة» وقد رد عليه الأستاذ برجستراسر، ورأى أن حيناً وتلميذه حيناً تجشما أكبر عناء فى التعبير عن معنى أصول الكتب اليونانية بقدر ما يستطيع من الوضوح، وكانا يترجمان ترجمة حرفية حتى ولو ضحياً فى ذلك بجمال اللغة وتنسيقها. لكن ترجمة حنين أفضل، ودقتها أعظم، ويخيل الى الانسان أنها ليست نتيجة مجهود صادق فقط، ولكنها نتيجة تمكن وثيق من اللغة، وحسن تصرف فى مذاهبها. ويتجلى هذا فى سلاسة التوفيق بين اليونانية والعربية، والدقة المتناهية فى التعبير مع الإيجاز. تلك مميزات فصاحة حنين التى اشتهر بها»<sup>١</sup>.

١ الأستاذ مايرهوف ٢ كتاب الأستاذ برجستراسر عن حنين بن اسحاق ومدرسته وقد نقلنا تعريب هذه الجملة من مقدمة الأستاذ مايرهوف لكتاب العشر مقالات لحنين بن اسحق

ونقرأ ثَبَّتَ الكتب التي ترجمها أو ألفها حنين، والتي ذكرها ابن أبي  
أبي أصيبعة في طبقات الأطباء؛ فبرى أنه تعرض لكثير من فروع العلم  
المختلفة، ففضلا عن كتبه الكثيرة في الطب كانت له كتب في الفلسفة، وغيرها  
فله كتاب في الهواء والماء والمساكن، وكتاب في تولد الفَرْوَج، بين فيه أن تولد  
الفروج إنما هو من بياض البيضة، واغتداؤه من المِحّ الذي فيها، ومقالة في  
المد والجزر، وكتاب في أفعال الشمس والقمر، وكتاب السماء والعالم،  
وكتاب في المنطق، وكتاب في خلق الانسان، ومقالة في تولد النار بين  
الحجرين، وكتاب في أحكام الإعراب على مذهب اليونانيين، وكتاب نوادر  
الفلاسفة والحكماء وآداب المتعلمين، وكتاب في الفلاحة، ومقالة في قوس  
قزح، وكتاب تاريخ العالم والمبدأ والأنبياء والملوك والأمم والخلفاء والملوك  
في الاسلام، ومقدمة لكتاب فرفور يوس في المنطق، وكتاب في الفِراسة،  
وكتاب في إدراك حقيقة الأديان.

ولو عددنا كل ما ترجمه وألفه، لخرج ذلك بنا عن القصد الذي قصدناه،  
ومن هذا نرى أنه هو ومدرسته نقلوا إلى العربية زبدة آثار اليونان، وتناولوها  
بالشرح والاختصار، وجعلوا الثقافة اليونانية في مختلف فروعها بين أعين  
العلماء من المسلمين والنصارى يقتبسون منها، ويتنفعون بها. وكان عملهم هم  
وأمثالهم غذاء للتكلمين في مذاهبهم، وفلاسفة المسلمين، الذين نبغوا في  
العصر الذي بعد عصرنا هذا.

وقد نقل حنين الترجمة نقلة جديدة لا تقاها للغات المختلفة، فكان العلماء  
يدركون الفرق الكبير بين ما ترجمه حنين، وما ترجم قبله. قد كانت ترجمة  
حنين وافية دقيقة، وترجمة من قبله علييلة سقيمة. حتى أن ابن ماسويه لما قرأ  
قطعة من ترجمته أول أمره قال « أترى المسيح في دهرنا هذا أو حى إلى  
أحد! » إعجاباً بترجمته، واعترافاً بأنها خارجة عن المؤلف في الترجمة لعهد

ولنسق الآن مثلاً من ترجمته ، قال في أول كتاب الأسابيع لبقرات ،  
وشرحه لجالينوس الذي ترجمه حنين :  
« قال جالينوس : إن أبقرات شبه الانسان بالدينا ، وسماه الدنيا  
الصغيرة ، لأن تديره على تدير الدنيا ، وهذا الكتاب هو لأصحاب القياس ،  
أعنى الصنف من الأطباء الذين يدعون « دُعْمَاطِيِّين » وهم ذوو الجدل  
والمحاورة ، وقد ذكر ههنا جزءى الطب : الجزء الذى يسمى « فسيولوجيا »  
وهو معرفة الطبائع والتوسم لها ، والجزء الذى يدعى « بَطْلُوغيا » وهو  
معرفة العمل .<sup>١</sup>

وقال فى موضع آخر : قال أبقرات ( إن الفرقدين يشبهان الحرارة التى  
فى الانسان ) قال جالينوس قد وعد هذا الرجل الفائق أن يجرى العالم على  
سبعة أجزاء ، فأجز وعده ، وأحسن فيما قسم وجزأ . فانه بدأ بالعالم الأقصى ،  
وانتهى إلى الأرض ، ثم قرن بعد ذلك كل جزء من أجزاء العالم بأجزاء  
الانسان فألطف النظر ، وأتقن القول ، وأحسن النظم ، فبدأ من الأرض  
حتى انتهى إلى النار . وفسرنا قوله هذا ، والوجه الذى أراد فى ذكره الأرض  
وابتدائه بها . فانه أراد أن يقرن أجزاء الانسان بأجزاء العالم ، والانسان  
أرضى ، يسلك على ظهر الأرض ؛ فابتدأ بالأرض ، وجعلها أول قوله ،  
وكرر القول هنا ليدكر ما قال آنفاً ، فان المعنى إذا رُدَّ ذكره مراراً كان  
الفهم له أرسخ فى القلب والحفظ .<sup>٢</sup>

وقال فى موضع ثالث : « واعلموا أن الغضب ينقاد للعقل ، وإننا إذا تحركنا  
للغضب قدر العقل وقوى على إمساك ذلك الغضب ولزومه ، ومنعه أن يفعل  
أفاعيله ، فان الغضب ربما هيج أفاعيل سيئة مكروهة ، فيحول العقل بينه  
وبين أفاعيله .

واعلموا أيضاً أن الشمس هي المدورة للفرقدين، وليست الفاعلة لذلك،  
لكنها تصعد وتحدّر فتظهر للفرقدين على نحو صعودها وانحطاطها: فقال  
لذلك هذا المرء الفاضل: إن الشمس تدبر الفرقدين، وليست المحركة لهما بالحقيقة،  
لكنها تظهرهما على وجه ما ذكرناه آنفاً ومعناه.  
وقد ذكر ذلك «أراطس» الشاعر ووصفه فأحسن الصفة وأحكمها.  
فمن أراد أن يستقصى معرفة ذلك فليُنظر في كتابه الذي وضع في الفلك  
ويتفهمه»<sup>١</sup>.

\*\*\*

ومن هذا نستطيع أن نحكم أن عبارة «حنين» واضحة المعنى جيدة  
الأسلوب، وأنه - إذا اضطر - يستعمل المصطلحات العلمية بألفاظها مثل  
«دغماطيين» و«فسيولوجيا» و«بطلوغيا». وأن يتبعها بشرح معناها إلى  
أن تؤلف الكلمة في العربية، ويتحدد مدلولها، وأنه يضع المتن بين قوسين،  
ويتبع ذلك بما عنده من شرح. وقد جرى على هذا النمط علماء المسلمين بعد  
في كتبهم.

وعلى الجملة، فقد كان حنين ومدرسته خير من يمثل الثقافة اليونانية، وخير  
من قدم إلى قراء العربية نتائج القرائح اليونانية.

## الفصل الرابع

### الثقافة العربية

لثقافة العربية ناحيتان هامتان (١) ناحية دينية من دراسة للقرآن الكريم وحديث وفقه، ومن انتشار للثقافة الاسلامية بين أهل المملكة، وأثرها في عقولهم وأرواحهم. وهذا كله سنعرض له في مواضع متفرقة من الكتاب. (٢) وناحية لغوية أدبية وهي ما سنتكلم فيه الآن، ذلك أن جزيرة العرب منبع اللغة العربية، ومولد الاسلام، والعرب هم الذين حملوا لغتهم معهم حيث يسكنون، وحيث يفتحون، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عربي، والقرآن عربي، ودعاة الأمم الأولون إلى الاسلام عرب. فمن الواضح بعد أن ينسب الدين واللغة، وما لهما من فضل إلى العرب، وأن نسمى ما نتج عنهما ثقافة عربية.

اللغة - في الحق أن اللغة العربية أرقى اللغات السامية، كما يقرر دارسوا تلك اللغات فلا تعادلها اللغة الآرامية ولا العبرية، ولا غيرها من هذا الفرع السامي. وهي كذلك من أرقى لغات العالم، فهي - تمتاز حتى عن اللغات الآرية - بكثرة مرونتها، وسعة اشتقاقها. فاذا قيس ما يشق من كلمة عربية من صيغ متعددة لكل صيغة دلالة على معنى خاص، بما يقابلها من كلمة افرنجية وما يشق منها، كانت اللغة العربية في ذلك - غالباً - أوفر وأغنى. فمثلاً اشتقوا من الضرب: ضرب، ويضرب، واضرب، وضارب، ومضروب. وسموا آلة الضرب مضرباً، ومضرباً. وقالوا ضارباً أي جالده، وتضرب الشيء، واضطرب؛ تحرك وماج، وحديث مضطرب، وأمر مضطرب، والضرية؛ ما ضربته بالسيف

وضاربه في المال من المضاربة ( وهي أن تعطى انساناً من مالك ما يتجر فيه على أن يكون له سهم معلوم من الربح ) واشتقوا منه مُضَارِباً ، ومُضَارِباً ، الخ الخ . هذا إلى المعاني المجازية التي يستعملون فيها الكلمة ، فيقولون : ضَرَبَ الدراهمَ والدنانير ( أى صَكَّهَا ) واضطرب خاتماً من ذهب ( أى أمر أن يصاغ له ) وضربَ في الأرض ؛ اذا سار فيها مسافراً ، وضربت الطير ؛ ذهبت . وضرب في سبيل الله ؛ نهض ، وضرب على يده ؛ كفته عن الشيء ومنعه . وأضرب عن العمل ؛ كف . وأضربَ البردُ النبات ، وضربه ؛ إذا اشتد عليه البرد حتى يبس ، والضربية ؛ الصوف أو القطن يُضربُ بالمطرقة ، والضربُ من اللبن ؛ الذي يُحلبُ من عدة لقاح في إناء واحد ، فيضرب بعضه ببعض ، ثم أخذوا منه فلان ضريب فلان أى نظيره ( والضرباء ؛ الأمثال والنظراء ) والضرائب ؛ الأشكال ، وضرب المثل ذكره وقوله ، الخ الخ . هذا قليل من كثير مما يدل على غنى اللغة العربية ، غنى تاماً في الاشتقاق والمجاز ، قل أن تجارياً فيهما لغة أخرى . وكذلك ما لها من طرق متعددة في القلب والاببدال والنحت مما يطول شرحه . وقد أبنانا في « فجر الاسلام » ما كان للعرب من ملاحظات دقيقة فيما يقع عليه حسهم ، فالابل والخيل والأرض لكل شيء منها اسم ، فاذا طرأ أى تغيير وضعوا له اسماً خاصاً ، فاذا قصرت اللغة في شيء ، ففي ما لم يكن يقع تحت حسهم كستخرجت البحار ، وأنواع النباتات والحيوانات التي تنتج في غير إقليمهم .

هذه المرونة التامة ، وهذا الاشتقاق والمجاز والقلب والاببدال والنحت ؛ هو الذي جعل اللغة العربية تستطيع أن تكون لغة القرآن الكريم والحديث وما فيهما من معان في منتهى السمو والرفعة ، وما فيهما من تعبيرات دينية واجتماعية وتشريعية ، لا عهد للعرب بها في جاهليتهم ، كما استطاعت بعد



أن تكون أداة لكل ما نُقل من علوم الفرس ، والهند واليونان وغيرهم .  
وفي نحو ثمانين سنة من بدء العهد العباسي كانت خلاصة كل هذه الثقافات  
مدونة باللغة العربية ، والعرب الذين لم يكونوا يعلمون شيئاً من مصطلحات  
الحساب والهندسة والطب ، ولا شيئاً من منطق أرسطو وفلسفته ؛ أصبحوا  
في قليل من الزمن يعبرون بالعربية عن أدق نظريات أقليدس ، وحساب  
الجيب الهندى ، وما وراء المادة لأرسطو ، ونظريات الهيئة لبطليموس ، وطب  
جالينوس ، وحكم بزرجهر ، وسياسة كسرى . وما كانت تستطيع ذلك كله لولا  
ما بها من حياة ومرونة وورقى .

واجه العرب في العصر العباسي صعوبة شديدة في نقل هذه الذخيرة العلمية  
الأجنبية الى اللغة العربية ، بل وفي وضع مصطلحات لعلومها كالنحو والفقه ،  
ورأوا أنهم أمام علوم جديدة وأفكار جديدة ، وأن رقعة المملكة الإسلامية  
قد اتسعت ، واختلفت أقاليمها . ولكل إقليم نباتات ، وحيوانات لم تكن  
تعرفها . ورأوا أنها قدمت على أنماط من النظم الاجتماعية ، لم تكن تألفها ،  
فقد أنشئت دواوين لم تنشأ في العهد الأموي ، واخترت في الأغاني نغمات  
لا تعرف لها اسماً عربياً ، وآلات الموسيقى فارسية ورومية ، ولكل اسمه .  
وملابس مختلفة الأنواع ، لأمم مختلفة . وما كل ومشارب كذلك . وعلى الجملة  
فقد واجه العرب الحضارة العباسية ؛ كما يواجه اليوم العرب الحضارة الغربية  
وهكذا ، فماذا تصنع أمام هذا السيل الجارف ؟ أتتطق بكل هذه الأسماء كما  
ينطق أهلها ؟ وفي ذلك إهدار لشخصيتها . أو تضع لها أسماء عربية من عندها ؟  
وفي تعميم هذا صعوبة شاقة . لقد تغلبت على ذلك كله في دقة ومهارة . وفي  
الحق إن معجم اللغة العربية تضخم في العصر العباسي ، من طريقتين :

الأول — وهو الأكثر ، التوسع في مدلول الكلمات العربية ، فالعربي لم  
يكن يعرف الفاعل ، والمفعول ؛ بالمعنى الذي يفهمه النحوي ، ولا يعرف

القضية ولا الموضوع والمحمول؛ بالمعنى الذى يعرفه المنطق . ولا يعرف الطويل والخفيف والمديد ؛ بالمعنى الذى يفهمه العروضى وهكذا . وقد ملئت الكتب بحكايات ظريفة كانت تجرى بين النحويين والأعراب الوافدين، فلا يستطيع الأعرابي أن يفهم النحوى، لأنه يكلمه بمصطلحات لا علم له بها . وكان علماء اللغة يُعْمَلون جهدهم فى الأخذ عن الأعراب، ويجتهدون فى وضع الصيغة التى يفهمها الأعرابي ، فاذا قيل له صنع من وفى على وزن مَفْعَل لم يفهم ، لأنه مصطلح علمى .

وبهذا كثرت معانى الكلمات العربية ، فلو عمل معجم لغوى فى العهد الأموى ما وجدنا للطويل معنى أنه بحر من بحور الشعر ، ولا وجدنا فيه فاعلا وظرفا بمعناها النحوى وهكذا — وقد سد هذا الباب أكثر الحاجات العلمية ، فانك تقرأ النحو والصرف والفقه فلا تجد فيها لفظاً أعجمياً ، بل تقرأ المنطق كله — وهو يونانى الأصل — فلا تكاد تجد فيه كلمة أجنبية إلا مثل سفسطة ، وكذلك الشأن فى الفلسفة والرياضة فاستعملوا كلمة كيميّة وكميّة وجوهر وعرض ، والمثلث والمربع والزاوية الخ، ولم ينقلوا الكلمات الأعجمية إلى اللغة العربية .

والثانى : نقل الكلمات الأعجمية نفسها إلى العربية ، وأكثر ما كان ذلك فى أسماء البلدان والنباتات والحيوانات ، والآلات والأمراض والمآكل التى لم يكونوا يعرفونها من قبل ، وفى هذه تصرفوا تصرفات مختلفة طوعا للسانهم ولم يجروا فى ذلك على سنن واحد ، قال الجواليقي : « إن العرب كثيراً ما يجترئون على الأسماء الأعجمية فيغيرونها بالابدال ، قالوا : اسماعيل وأصله

---

١ مثال ذلك ما حكى الربيع بن عبد الرحمن السلمى قال : قلت لأعرابي أتهمز اسرائيل ؟ قال : إنى إذا لرجل سوء ! قال فتجر فلسطين ؟ قال أنى إذا لقوى ! . وقال خلف : قلت لأعرابي ألقى عليك بيتا ساكنا ؟ قال على نفسك فألقه !

اشمائيل فأبدلوا القرب المخرج . . وقد يبدلون مع البعد من المخرج وقد ينقلونها الى أبنيتهم ويزيدون وينقصون « ١ . وفي الواقع لو قارنا بين أصل الكلمات الأجممية وما عربت به ؛ وجدنا أنهم لم يتبعوا قواعد ثابتة فتارة يبدلون الشين سيناً وأحياناً يبقونها ، وأحياناً يقلبون الثاء تاء وأحياناً يبقونها ، وتارة يغيرون تغييراً خفيفاً وتارة تغييراً كبيراً ٢ . والذي نلاحظه في ذلك أن النقل كان من مصدرين : مصدر العلماء الذين واجهوا كتب اليونان ، فعربوا بعض أسماء النبات والحيوان . وهؤلاء تعريبهم أقرب الى الأصل ، وأقرب لأن يكون على نمط واحد . ونقل لم يكن من عمل العلماء ، ولكن كان العرب الأميون وأمثالهم متروكين فيه لسليقتهم . فالعربي يسمع اسم بلدة فارسية أو شيء يوناني فينطقه كما يسهل عليه حسبما اتفق له . وقد يسمع عربي آخر اسماً آخر في ناحية أخرى ، فينطقه نطقاً ليس على نمط الأول ، بل إن الكلمة الواحدة قد ينطقها قوم من العرب نطقاً خاصاً وينطقها آخرون نطقاً مخالفاً ، فيكون في الكلمة لغتان أو أكثر . ومن أجل هذا صعب على الباحث أن يضع قواعد ثابتة لما اتبعه العرب في نقل الكلمات مما ليس من موضوعنا .

\* \* \*

خرجت اللغة العربية من هذا المأزق سليمة قوية واسعة ، هي لغة الدين ولغة العلم والفلسفة ، ولغة الأدب ، واضمحلت بجانبها كل لغات البلاد المفتوحة . فاللغة السريانية التي ترجمت إليها الكتب اليونانية ؛ أخذت تتدهور بعد أن نقل ما فيها الى اللغة العربية . والفرس في ذلك العصر أصبحت لغتهم العلمية والأدبية هي اللغة العربية ، إن ألفوا أو شعروا أو كتبوا فبالعربية . وحياتة اللغة الفارسية إنما كانت عند التسكلم العادي ، أو في أوساط الديانة المجوسية .

١ المزهري ١ : ١٣٣ ٢ للامشة على ذلك انظر كتاب الفروق للامانس ، وكتاب الألفاظ الفارسية والمزهر للسيوطي ، وفقه اللغة للثعالبي

وكذلك اللغات الأخرى من رومانية وقبطية ، في الشام ومصر . وكسبت اللغة العربية من ذلك أنها أصبحت في تآليفها وأدبها وعلومها تتاج كل هذه الأمم ، تلبس كل أفكارهم ، وتعبّر عن قرائحهم . وكسبوا هم منها ما لها من ثقافة إسلامية وأدبية .

ولئن أغنى الأعاجم اللغة العربية التحريرية ؛ فقد أفسدوا اللغة اللسانية بما أدخلوا من لحن . كانت جزيرة العرب سليمة المنطق قبل الفتح ، وقبل دخول الأعاجم في الاسلام ، ثم بدأ اللحن يفسد فيها ، وللحن تاريخ من عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والأمويين ؛ لانعرض له الآن ، وإنما نريد أن نذكر كلمة عن اللحن في عصرنا ، فقد زاد بغلبة الأعاجم سياسياً ، وأصبحنا نرى بدء تكتون لغتين : لغة السكتانية ، والأعراب الفصحاء ، ومن جرى مجراهم ، ولغة يسميها الجاحظ لغة المولدين والبلديين ، يقول : ومتى سمعت بنادرة من كلام الأعراب ؛ فإياك وأن تحكيها الا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها فانك إن غيرتها بأب تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية ، وعليك فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نواذر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فإياك وأن تستعمل فيها الاعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو أن تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً » ويقول : « ولأهل المدينة السنة ذلقة وألفاظ حسنة ، وعبارة جيدة ، واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب »<sup>١</sup> ويقول : واللحن من الجوارى الظرف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر ، وربما استملح الرجل ذلك ممنه ، ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف »<sup>٢</sup>

وقال في موضع آخر : « وزعم أبو العاصي : أنه لم ير قرّياً يقطع لا يلحن

في حديثه ، وفيما يجري بينه وبين الناس ؛ الا ما تفقده من أبي زيد النحوى ،  
ومن أبي سعيد المعلم .

وذكر ابن قتيبة : أن أعرابياً دخل السوق ، فسمعهم يلحنون . فقال : سبحان  
الله ! يلحنون ويربحون ، ونحن لانلحن ولا نربح !<sup>١</sup> .

كان هذا اللحن أنواعاً : فلحن في الإعراب فلا يصححون آخر الكلمات  
كما تقتضيه قواعد النحو ، كالذى رووا : أن رجلاً قال لآخر : أحضرني قال  
قد دعوتك لكل ذلك يابى - برفع كل -<sup>٢</sup> ولحن في بناء الكلمة كالذى قيل : إن  
نَبَطِيًّا سَأَلَ : لم اشتريت هذه الأتان ؟ قال أركبها ، وتَدَدَ لى ( بفتح  
اللام )<sup>٣</sup> . ولحن في تركيب الجمل كالذى حكى الجاحظ قلت لخدوم لى : فى أى  
صناعة أُسَلِّمُ هذا الغلام ؟ قال : أصحابَ سَندٍ ، نَعَالٍ ، يريد فى أصحاب النعال  
السندية<sup>٤</sup> . وأحياناً يلجأ الرجل منهم إلى إسكان آخر الكلمات ، وترك  
الإعراب خوفاً من اللحن ، كان مهدي بن مهلهل يقول حدثنا هشام بن  
حسان ، ويجزم ذلك كله لأنه حين لم يكن نحوياً رأى أن السلامة فى الوقف .  
وكان هذا اللحن فاشياً ، حتى فى العلماء فقد لحن أبو حنيفة ، ولحن عمرو بن  
عبيد ، وبشر المريسي<sup>٥</sup> . وهذا لا يطعن فى علمهم ، فهناك فرق بين معرفة  
اللغة علماً والنطق بها كلاماً ، فقد يجيد الرجل معرفة قواعد لغة وضبطها وفهمها ،  
ثم هو لا يحسن التكلم بها ، كالذى حكى عن بعض أئمة النحو<sup>٦</sup> .

نستنتج من هذا كله : أن فساد اللغة من الناحية اللسانية كثير - فى ذلك  
العصر - وأنه قد بدأ يكون للناس لغتان ؛ لغة عامية هى التى يسميها الجاحظ  
لغة المولدين والبلديين ، وهذه لها ألفاظ غير منتقاة ، وتتساح فى الإعراب ،

١ عيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ٢ المصدر نفسه

٣ البيان ١ : ١٢١ ٤ البيان ١ : ١٢٢ ٥ البيان ٢ : ١٦٢

٦ البيان ٢ : ١٥٦ والعقد الفريد ١ : ٢٩٦ وطبقات الأديباء ص ١٧٩

٧ كان الثلويين اماماً فى النحو ، وكان لا يحسن الكلام .

وتميل الى إسكان أو اخر الكلمات<sup>١</sup>. ولغة الطبقة الراقية والمتعلمة، وهذه لغة معرّبة متخيّرة - وإن كان اللحن يصدر منهم - وهذه اللغة الأخيرة هي لغة الكتابة.

\*\*\*

ومن ثمّ لم يكن علماء اللغة والنحو يأخذون إلا عن سكان البادية، لأنهم رأوا الحضرة قد فسد بالاختلاط، بل كانوا لا يأخذون عن البدوي إلا إذا لم يفسده الحضرة. فكانوا لا يأخذون عن الأعرابي إذا فهم القول المملحون « ومتى وجد النحويون أعرابياً يفهم هذا (اللحن) وأشباهه بهرجوه (زيّفوه)، ولم يسمعوا منه، لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت واطرّدت، وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة، وفي تلك الجزيرة. ويقول الجاحظ: « ولقد كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا البصرة، وبينه يوم مات بون بعيد، على أنه كان قد وضع منزله في آخر موضع الفصاحة، وأوّل موضع العجمة، وكان لا ينفكّ من رُواة ومذاكرين<sup>٢</sup>. وكان البصريون يفتخرون على الكوفيين فيقولون: نحن نأخذ اللغة من حرّشة<sup>٣</sup> الضبّاب، وأكلة اليرابيع، وأنتم تأخذونها عن أكلة الشوّاريز، وباعة الكواميخ<sup>٤</sup>، وكان العلماء يمتحنون الأعرابي قبل أن يأخذوا عنه، من ذلك: أن أبا عمرو بن العلاء ارتاب في فصاحة أبي خيرة الأعرابي، فسأله كيف تقول حفرت الاران؟ قال حفرت إراناً. قال أبو عمرو « لأنّ جلدك يا أبا خيرة! »<sup>٥</sup>.

١ ذكر الأغاني أن الرشيد كان مما يعجبه غناء الملاحين في الزلاّلات إذا ركبها، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يفتنون فيه، فقيل له ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية فعمل قصيدته « خانك الطرف الطموح »

أغاني ٣: ١٧٧ ٢ البيان ١: ١٢٢ ٣ حرش الضب: صاده

٤ الشواريز، جمع شيراز: اللبن الرائب المستخرج مائده، والكواميخ جمع كامخ نوع من الأدام ٥ يريد أنه تحضر ففسدت لغته لأنه جمع « إرة » فكان الواجب أن يقول

حفرت الارين كعزة وعزين

كان كثير من الأعراب يفدون على مدن العراق ، فيأخذ العلماء عنهم اللغة ، وقد عدَّ ابن النديم في الفهرست عدداً منهم أبو زياد الكلابي ، وأبو سوار الغنوي - وقد أخذ عنه أبو عبيدة - وثور بن يزيد - وقد أخذ عنه ابن المقفع - وأبو خيرة العدوي ، وأبو مهديّة ، وأبو مسحل ، وأبو ضمضم الكلابي .  
وقد اتصل بهم علماء اللغة يأخذون عنهم ومن هؤلاء الأعراب من كان يكتب ويؤلف كتباً ، كأبي زياد الكلابي ألّف كتاب النوادر ، وكتاب الفرق ، وكتاب الابل ، وكتاب خَلَقَ الانسان . ومنهم من كان بعلم اللغة ويتعلم النحو على علمائه ، كأبي مسحل فقد أخذ النحو عن الكسائي . ومنهم من كان يميل إلى الغريب النادر ، ويتقعر في كلامه ، ويغلظ طبعه ليرهن على إمعانه في البداوة ، كأبي مُحَلَّم الشيباني . وكانوا يتكسبون بذلك فمنهم من كان يعلم الصبيان بأجرة كأبي البيداء الربّاحي ، ومنهم من كان يفد على الأمراء كأبي ضمضم وقد على الحسن بن سهل ، وكثير من الأعراب كانوا يفدون على اسحاق الموصلي ٢ .

وكما كانت الأعراب ترحل إلى الحضرة للكسب أو طلب العلم ، كان العلماء والأدباء يرحلون إلى البادية في طلب اللغة والأدب ، فيحدثنا الأغاني أن بشاراً « قيل له ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم ، وشكّ فيه ، وإنه ليس في شعرك ما يشكّ فيه . قال : ومن أين يأتيني الخطأ ؛ وولدت هاهنا ونشأت في حُجُور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عَقِيل ، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نساءهم ، فنسأوهم أفصح منهم ، وأيقَعْتُ فأبديتُ إلى أن أدركت ، فن أين يأتيني الخطأ ! » ٣ . ويقول نزل في ظاهر البصرة قوم من أعراب قَيْس عَيْلان ،

١ الفهرست : ٤٣ وما بعدها ٢ أغاني ٥ : ٧٧ ، ٨١ ، ٩٠ ، ١٢٠

٣ أغاني ٣ : ٢٦ ، وأبدى أقام بالبادية

وكان فيهم بيان وفصاحة، فكان بشار يأتهم (وكان يأتهم أبان اللّاحق) <sup>١</sup> وكان علماء اللغة من بصرين وكوفيين يتسابقون في الرّحلة إلى البادية، والأخذ عن العرب. وقد اشتهر في عصرنا بهذه الرحلة أبو زيد الأنصاري، وأبو عمرو بن العلاء، والأصمعي والكسائي. فأبو زيد يقول في أول كتابه النوادر « ما كان فيه من شعر القصيد؛ فهو سماعي من المفصّل بن محمد الضبي، وما كان من اللغات، وأبواب الرّجز؛ فذلك سماعي من العرب ». وسأل الكسائي الخليل بن أحمد، من أين علمك هذا؟ فقال من بوادي الحجاز، ونجد وتهامة. فخرج الكسائي وأنفذ خمس عشرة قينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه <sup>٢</sup>. وأما أبو عمرو بن العلاء، فقد روى: أن كتبه عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف <sup>٣</sup> وتاريخ الأصمعي مملوء بالقصص عن الأعراب في البادية، وما سمع منهم من لغة وشعر وقصص. ولم يكن عمل علماء اللغة في ذلك العصر، إلا نقل ما يسمعون من العرب مشافهة إلى التقييد بالكتابة، فأكثر اللغة كتبت في العصر العباسي الأول لا قبله، وكانت أهم وسائل النقل هي ما ذكرنا من رحلة العرب إلى العراق، ورحلة علماء العراق إلى البادية، وتحرير اللغويين لما سمعوا من العرب مباشرة أو بواسطة.

وبعد، فهل كان كل الذي دونوه صحيحاً؟ وهل كان الآخذون وهم علماء اللغة والمأخوذ عنهم وهم العرب كلهم ثقة؟ الحق أن لا! وأن بعض العرب كانوا يخطئون أحياناً ويكذبون أحياناً، وأن بعض علماء اللغة كانوا يخطئون أحياناً ويكذبون أحياناً، كان العلماء شغوفين بأن يقفوا على جديد لم يعرفوه، وكانت المنافسة بينهم شديدة، وحب الفخر والتظاهر شديداً خصوصاً في مجالس الخلفاء والأمراء. وكان يُقضى على العالم في جهله بكلمة

١ أغاني ٣: ٥٢ ٢ طبقات الأدباء لابن الأنباري ص ٨٤ ٣ ابن خلكان ١: ٥٥٠



أو خطئه في كلمة ، فدعا ذلك بعضهم لأن يتزيدوا ويختلفوا إذا أخرجوا ،  
وأحس بعض الأعراب بهذه النفسية فكانوا يُغَرَّبون أحياناً ، ويختلفون  
أحياناً . وسبب آخر وهو أن العداء بين البصريين والكوفيين بلغ مبلغاً عظيماً ،  
فكان علماء كلتا المدينتين يتشيعون لمذهبهم ، ويبرهنون عليه بالمصنوع أحياناً ،  
وكتب النحوي واللغة مملوءة بالأدلة على ما نقول .

أما خطأ العربي فقد يكون من عدم فهمه لمعنى الكلمة ، كقول عربي  
يصف امرأة بالغفلة :

لَمْ تَدْرِي مَا نَسَجَ الْيَرَنْدَجُ قَبْلَهَا      وَدِرَاسٌ أَعْوَصَ دَارِسٍ مَتَخَدِدِ  
ظن أن اليرندج يُدَسِّجُ ، وإنما هو جلد يصنع .  
وقال عمرو بن كلثوم :

علينا البَيْضُ وَالْيَدْبُ الْيَمَانِي      وَأَسِيَّافٌ يَقْمَنُ وَيَنْحَنِينَا  
قال ابن السكيت: سمعه بعض الأعراب ، فظن أن اليلب أجود الحديد ،  
فقال : « وَمَحْوَرٌ أُخْلَصَ مِنْ مَاءِ الْيَلْبِ » وهو خطأ . وإنما هو جلود تنسج<sup>٢</sup> .  
وأحياناً يكون خطأ العربي ناشئاً من عدم فهم طبائع الأشياء ، كقول عربي  
يصف درة :

فجاء بها ما شئتَ مِنْ لَطْمِيَّةٍ      يَدُومُ الْفَرَاتُ فَوْقَهَا وَيَمُوجُ  
فجعل الدر من الماء العذب ، وإنما يكون في الماء المالح .  
وقد يكون خطأ في الحوادث التاريخية ، فقد قال الكميت :  
كَأَنَّ الْغُطَامَطَ مِنْ غَلِيهَا      أَرَا جِيزُ أَسْلَمَ تَهْجُو غِفَارًا<sup>٣</sup>  
فقال نُصَيْبُ : مَا هَجَّتْ أَسْلَمَ غِفَارًا قَطُّ ! وقد يكون من سوء التصريف

٢ لسان العرب ٢ : ٣٠٦

١ الزهر ٢ : ٢٤٨

٣ الغطامة : صوت القدر

العربي ، فقد قال عربي - وكانت قد ماتت زوجاته تباعاً - :

عَدَا مَالِكٌ يَرْمِي نِسَائِي كَأَنَّمَا نِسَائِي لِسَهْمِي مَالِكٍ غَرَضَانِ  
فِيَارِبٍ فَاتَرَكَ لِي جَسِيمَةً أَعَصْرًا فَمَا لَكَ مُوْتٌ بِالْقَضَاءِ دَهَانِي !

ذلك ؛ أن هذا الأعرابي لما سمعهم يقولون « مَلِكُ المَوْتِ » سبق إليه أن هذه اللفظة على زنة فَعَلٍ - كفلك - فاشتق منها كلمة على وزن « فاعل » مع أن مَلِكَ على وزن مَفْعَلٍ لأن أصله مَلَأَكَ فالاشتقاق خطأ . وكهمزهم مصائب ، قياساً على صحائف ، وهو غلط لأن ياء مصيبة أصلية ، وياء صحيفة زائدة ، الخ .

وأما أكاذيبهم ، فقد عقد المبرد باباً في كتابه الكامل ، سماه « أكاذيب العرب » - هذا شأن العرب . وأما خطأ العلماء فنروى منه ماروي ابن الأعرابي قال لقيني أبو محلم ومعه أعرابي ، فقال جئتكم بهذا الأعرابي لتعرفوا منه كذب الأصمعي ، أليس كان يقول في بيت عنبرة ؛

شَرِبَتْ بِمَاءِ الدُّحْرُضِيِّنِ فَأَصْبَحْتُ زَوْراً تَنْفِرُ عَنْ حِيَاضِ الدَّيْلِمِ ؛  
إن الديلم الأعداء لأنهم أعاجم ، والعرب كانوا يعدون جميع الأعاجم أعداءهم . فسألوا هذا الأعرابي ، ما معنى الديلم ؟ فسألناه فقال : الديلم حياض بالغور أو زردتها إيلي غير مرة !

والظاهر أن معاجم اللغة بعد ذلك جمعت كل ما رُوي وتأولت الخطأ ، وصححت الغلط ، وأخذت آراء العلماء على اختلافهم من غير تدقيق ، فقد تأولوا كلمة « مالك » الواردة في البيت السابق ، وقالوا في اليلب إنه الحديد أو الجلد ، وصححوا الشطر الذي روينا « يدوم الفرات فوقها ويموج » بقولهم تدوم البحار فوقها وتموج ، وفسروا الديلم بأنها الأعداء أو حياض بالغور ، واسبغوا على العرب نوعاً من العصمة ليس بصحيح ، حتى زعموا أن العربي لا يطاوعه لسانه في الخطأ ولو تعمد ، ورووا

لذلك الحكاية المشهورة التي كانت بين سيوييه والكسائي، والحق أن العربي الصميم؛ مثله كمثل الانجليزي الصميم، والفرنسي الصميم. ولو أراد الفرنسي مثلاً أن يحوّر لسانه؛ لينطق بالخطأ عمداً لاستطاع ذلك في يسر، وهو كذلك يخطيء في استعمال بعض الكلمات والتراكيب، ونحو ذلك، فالعربي مثال ذلك. ولكن مهما قلنا في الخطأ أحياناً وفي الكذب أحياناً فهو صفة عارضة ونادرة، وكان الأغلب فيما نقل من اللغة الصدق والصواب.

وقد جد العلماء الأولون في تمحيص ما جمع من ألفاظ اللغة، فقد رأوا أن هناك كلمات كثيرة أخذت عن قبائل مختلفة، لكل قبيلة لفظ أو لهجة، وبعضها أفصح من بعض. ورأوا ألفاظاً لم يستوثق من صحتها، والذي جاء بها لا يوثق به، ورأوا كلمات اختلفت في تحديد معانيها، لأنها رويت في جمل، واللفظ فيها يحتمل أكثر من معنى واحد. ورأوا ألفاظاً صُحِّفَتْ، وألفاظاً كان كان ينطق بها عربي أشع؛ فيظنها الآخذ عنه لغة، وهكذا. فاضطروا أن يحرروا ذلك كله ويمحصوه، فبدلوا من الجهد ما يستدعي الإعجاب، وبينوا من اللغة ما هو صحيح وفصيح، وضعيف منكر، وردى مذموم فقالوا مثلاً: ثَبَّطَتْ شَفَّةُ الْإِنْسَانِ وَرَمَتْ، وليس ثَبَّتَتْ — أرض حشواء كثيرة التراب، وليس ثبتت وهكذا. وألف ابن خالويه كتاباً سماه «ليس في كلام العرب» بين فيه ألفاظاً تستعمل ولم يصح سماعها عن العرب، وقالوا: قال الأصمعي ما سمعنا العام قابة أي صوت رعد، ولم يروه أحد غير الأصمعي، وإنما روى العلماء ما أصابتنا العام قابة أي قطرة، وقالوا الغرز لغة أهل البحرين والغرز اللغة العليا، وهكذا. وقد تكون الكلمة واحدة، ويختلف العرب في النطق بها. فقبيلة تقول، الطَّبَّء. في الطَّبَّع، وأما والله، وهما والله، وحما والله، والآبواب والعياب. وأن له وعن له، والإعاء والوعاء. وهضم عليهم وهجم عليهم، إلى مئات من مثل ذلك. وليس لاختلافها من سبب الاختلاف

القبائل العربية في النطق، وأحياناً يكون الخطأ من العلماء في الكتابة، وهو ما يسمى بالتصحيف، فقالوا: وبها سُودة من شباب، أى بقیة من شباب، ثم قالوا وبها سُورة من شباب أى بقیة، وليست الأولى الا تصحيفاً للثانية. وأحياناً يكون العربي ألثغ، فيقول في الشابة الثابة، وفي الديك الديش. وقد تعرض العلماء لشيء من ذلك ولم يستوفوه، ولكن المتأخرين وبخاصة صاحب القاموس المحيط كدسوا ذلك كله من غير تمحيص، وغفروا بأنهم زادوا مواد كثيرة عن قبلهم، وكان الأولى أن تستبعد اللغات، ويحقق التصحيف، ونترك اللهجات. وإذن لا تتضخم هذه المعاجم، وتملأ فراغاً كبيراً نحن أحوج إليه في ألوف الأشياء التي ليس لها اسم واحد.



وكان المدونون الأولون للغة في هذا العصر يدونون المفردات حيثما اتفق، وكما يتيسر لهم سماعها، فقد يسمعون كلمة في الفرس، وأخرى في الغيث، وثالثة في الرجل القصير. وهكذا، فكانوا يقيدون ما سمعوا من غير ترتيب. وكانت الخطوة الثانية، أن جمعوا الكلمات الخاصة بموضوع واحد، وأظهر ما كان ذلك في كتب الأصمعي، فله كتاب الأنواء، وكتاب الميشر والقِداح، وكتاب خلق الفرس، وكتاب الأبل، وكتاب الشاء، وهكذا، يجمع ما ورد من الألفاظ اللغوية في موضع واحد، ويسميه كتاباً، وقد يكون الكتاب بضع ورقات، ثم كانت الخطوة الثالثة عمل المعاجم.

هذا موجز من القول في الناحية اللغوية للثقافة العربية، وهناك ناحية أخرى هي الناحية الأدبية، فقد كان للعرب أدب غزير ممتع، وكان بجانب رواية اللغة رواية الأدب، بل كثيراً ما تكون رواية اللغة في ثنايا رواية الأدب، وكان عرب البادية في ذلك العصر مصدرراً للغة والأدب معاً. كان الناس إذ ذاك يتلذذون من سماع حديث الأعراب، لحفة روحهم

وعذوبة نطقهم وبساطتهم ، قال الجاحظ : « ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ، ولا آتق ولا ألد في الأسماع ، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ؛ من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء ، والعلماء البلغاء »<sup>١</sup> وقال ابن عبد ربه - في كلام الأعراب - : « هو أشرف الكلام حسباً ، وأكثره رونقاً ، وأحسنه ديباجاً ، وأقله كلفة ، وأوضحه طريقة ، إذ كان مدار الكلام كله عليه ، ومنتسبه إليه »<sup>٢</sup> وقد عقد فصلاً طويلاً ، نقل فيه شيئاً من كلام الأعراب في الزهد والمدح والذم والغزل والخيل والغيث ، والنوادر والمسلح ، والطعام ، الخ<sup>٣</sup> . وعقد الحصري فصلاً متعاً عنوانه : « فقر من كلام الأعراب في ضروب مختلفة »<sup>٤</sup> وفي الحق ، إنك تقرأ هذه الفصول فتؤمن بأن أدبهم جيد اللفظ ، قريب المعنى ، قليل الكلفة . يقول أعرابي في امرأة يحبها : « لقد نَعِمْتَ عَيْنٌ نَظَرَتْ إِلَيْهَا ، وَشَقِيَ قَلْبٌ تَفَجَّعَ عَلَيْهَا ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَزُورُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا ، فَيُرْحَبُ بِي طَرْفُهَا ، وَيَتَجَمَّئُنِي لِسَانُهَا » وكره أعرابي البصرة وأهلها ، فقال :

« دخلت البصرة ، فرأيت ثياب أحرار على أجساد عبَّيد ، إقبال حظهم إدبار حظ الكرام ، شجر أصله عند فروعه ، شغلهم عن المعروف رغبتهم في المنكر » ووصف أعرابي أميراً ، فقال : « إذا ولي لم يطابق بين جفونه ، وأرسل العيون على عيونه ، فهو غائب عنهم ، شاهد معهم ، فالمحسن راج والمسيء خائف » وقدم أعرابي البادية - وقد نال خيراً من البرامكة - فقيل كيف رأيتهم ؟ قال : « رأيتهم وقد أنست بهم نعمة كأنها من ثيابهم » إلى كثير من أمثال ذلك . ولهم النادرة الحلوة ، والفكاهة العذبة يتفكك بها الخلفاء في مجالسهم ، والخاصة في أحاديثهم ، والأدباء في سمرهم . وروى الأصمعي - مثلاً - في ذلك

١ البيان والتبيين ١ : ١١٠ ٢ العقد ٢ : ٩٢ ٣ المصدر نفسه ٩٢ — ١٣٢

٤ زهر الآداب هامش العقد ٢ : ٢

الشيء الكثير، يفرّج به همّ الولاية، ويضحك به السّمّار — سافر أعرابي إلى رجل فخرمه، فقال لمّا سئل: « ما ربّنا في سفرنا إلا ما قصرنا من صلّاتنا، فأما الذي لقينا من الهواجر، ولقيت منا الأباغر؛ فعقوبة لنا فيما أفسدنا من حسن ظننا! » وقيل لأعرابي ما عندكم في البادية طيب؟ قال حمّر الوحش لا تحتاج إلى بيّطار!. وسأل أعرابي رجلاً فاعتل عليه فقال: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً! وقال الأصمعي: أصابت الأعراب جماعة، فمررت برجل منهم قاعد مع زوجته بقارعة الطريق، وهو يقول:

ياربّ إني قاعد كما ترى      وزوجتي قاعدة كما ترى

والبطن مني جائع كما ترى      فما ترى يا ربنا فيما ترى؟ الخ.

ثم لهم الحكمة الرائعة يجرون فيها على سننِ حكيم أكشم بن صيفي والأحنف بن قيس هي أشبه ما يكون بالأمثال، قال أعرابي: « الدنيا تنطق بغير لسان، فتخبر عما يكون بما قد كان » « لم أر صاحباً أغرّ من الدنيا، ولا ظالماً أغشّم من الموت، ومن عصف عليه الليل والنهار أُردياه، ومن وكّل به الموت أفناه! » وقال أعرابي: « الدراهم مياسم، تسم حمداً وذكماً، فن حبسها كان لها، ومن أنفقها كانت له، وما كل من أعطى مالا أعطى حمداً، ولا كل عديم ذمّ! » وقال أعرابي: « إذا كان الرأى عند من لا يُقبل منه، والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا ينفقه ضاعت الأمور! » وقيل لأعرابي لم لا تطيل الهجاء؟ قال: « يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق » الخ.

ولهم الشعر الرقيق العذب، كالأعرابي يقول في رثاء ولده:

دفنتُ بنفسي بعضَ نفسي فأصبحتُ      وللنفس منها دافنٌ ودفينٌ

وكالأعرابي يقول في سوداء:

كأنها والكحل في مرودها      تكحل عينها ببعض جلدّها

وأُشِدَّ الرِّياشِي لِأَعْرابِي :

ما كنت للقلب إلا فتنة عرَضتْ      يا حَبْدًا أنتِ من معرُوضَةِ الفتنِ  
تسِيءُ سَلْمِي وَأَجْزِيها به حَسَنًا      فن سِوایِ يَجْازِي السَّوءَ بِالْحَسَنِ  
وقال أعرابي قتل أخوه ابنأله، فقدم إليه أخوه ليقتاد منه؛ فرمى السيف  
من يده، وقال :

أقولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعَزُّيَةً      إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتِي وَلَمْ تُرِدْ  
كلاهما خَلَفٌ مِنْ فَقْدِ صاحِبِهِ      هذا أَخِي حينَ أَدْعُوهُ وَذِوَالِدِي  
ولهم القصص عن حروبهم وأيامهم، فكانوا يروون أيام العرب في  
جاهليتها واصلامها، وما كان فيها من أحداث، فيتحدثون بيوم الفجار، ويوم  
ذي قار، وحروب قيس في الجاهلية، وحرب داحس والغبراء، ومقتل  
كليب بن وائل. كما يتحدثون بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته،  
والصحابية وما كان بينهم، ويروون شعر الشعراء من جاهليين واصلاميين،  
وخطب الخطباء، وأمثال الحكماء، ونوادير الظرفاء.

كل هذا كان في البادية، فهم رواة الأدب القديم، ولهم إنشاء في الأدب  
الحديث، لذلك قصدهم العلماء يأخذون عنهم كل ذلك.

وفي الحق كانت سكناتهم في البادية، وقلة امتزاجهم بغيرهم من الأمم  
أدعى لأن يسلكوا سبيل الأولين، ويتذوقوا ذوقهم، ويعجبوا بما آثرهم،  
ويسيروا في الأدب على منهاجهم. فان تأثر شعراء العراق وأدباؤهم بالفرس  
ومن إليهم: فان هؤلاء تأثروا آباءهم في الجاهلية وآباءهم في الاسلام، وكان  
أدبهم صورة حية للأدب القديم، وصدورهم واعية لآثار الأقدمين،  
ونوع معيشتهم أشبه بمعيشة الأولين، قال عمر بن عبد العزيز: « ما قوم أشبه  
بالسلف من الأعراب، لولا جفاء فيهم! »

فما لا شك فيه ، أنه كان في هذا العصر أدبان : أدب عربي صرف ليس فيه كبير أثر من حضارة ، ولا من ثقافات الأمم المختلفة . وهذا أدب - كما قلنا - خفيف الروح ، رشيق اللفظ ، لا ترى فيه خمراً كثيراً ، ولا ترى فيه تشبيهاً بغيره ، ولا ترى فيه غزلاً بغيره ، ولا ترى فيه جفراً فاجراً . ولا فحشاً داعراً . كما لا ترى فيه عمقاً في تفكير ، ولا إمعاناً وفلسفة في تعبير . يعجبني في ذلك قول النمرى ، فقد قال : مما يدل على أن قصيدة

إِنَّ بِالشَّعْبِ الَّذِي دُونَ سَلْعٍ لِقْتِيلاً دَمُهُ مَا يُظَلُّ

ليست لتأبط شراً وإنما هي لخلف الأحمر ، قوله فيها :

خَبْرٌ مَا نَابَنَا مُضْمَلٌ جَلَّ حَتَّى دَقَّ فِيهِ الْأَجَلُ

فان الأعرابي لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا .

وأدب آخر حضري ، كالذي تراه في كتابة عمرو بن مسعدة ، وابن المقفع ، وقد تأثر بالفرس أثراً كبيراً . وفي ذوقه انه ليس في خفة روح الأول ، ولا رفته وعدوبته ، يحتاج الذهن فيه إلى أن ينحرف بعض الانحراف ليفهمه ، وكالذي تراه في شعر بشار ، وأبي نواس ؛ فيه العمق وفيه الفجر . والقصيدة التي كان يُعنى بها العربي ، ليعبر عن عاطفة قوية بسيطة : أصبحت في الحضرملة يتصنع صاحبها العاطفة ويغلو فيها . والأدب الذي كان يشرح حياة البادية ، وما فيها من بطولة وشجاعة وقوة ؛ أخذ يعبر عن حياة المدن ، وما فيها من نعومة ولين ، وانتقل النثر من جمل صغيرة مفصولة مقطعة أو خطبة قوية تقال شفاهاً ، إلى كتابة يتنوع موضوعها بتنوع مرافق الحضارة . ويفصل فيها الكلام ويربط . وقد كان العربي الذي يعبر بلسانه خريج الطبيعة والبيئة ، فأصبح الذي يكتب بقلبه وليد التربية العلمية ، وخريج الكتب والدفاتر والمحار . وعلى الجملة فكلا النوعين من الأدب ظل لحياته الاجتماعية ، هذا في حضرته وذاك في باديته . وإذا كانت البادية لم تتغير ،



وكانت في العهد العباسي مثلها في العهد الأموي : كان أدبهم كذلك يجري في واد واحد ، واذ كان الحضرمي متغيراً . فالعراق العباسي غير العراق الأموي ؛ كان الأدب الحضرمي مختلفاً عما قبله ، فكتابة في أنواع جديدة ، وغزل جديد ، والكتب المؤلفة في الأدب تصف حياة اجتماعية جديدة ، وهكذا .

\* \* \*

وكما كان خطأ ووضع في اللغة ؛ كان كذلك في الأدب ، بل الباعث في الثاني أقوى منه في الأوّل ، فالولادة والأمرء يعجبهم الشعر اللطيف ، والقصص الغريب ، أكثر مما يعجبهم اللفظ ، والتزيد من القصائد لفخر قبيلة أو ذمها ، والنوادر في القصص تسترعى الأسماع ، والحكايات لاعلاء شأن فرد أو قبيلة ، والتوسع في المثالب والمناقب . كل هذا يجد مجالاً في الأدب أكثر مما يجد في اللغة ، وقد كان هؤلاء الوضّاع من العرب أحياناً ومن العلماء أحياناً . « تكاذب أعرابيان ، فقال أحدهما : خرجتُ مرّةً على فرسٍ لي ، فاذا أنا بظلمة شديدة فيمتمتها حتى وصلت إليها ، فاذا قطعة من الليل لم تنتبه ، فمازلت أحمل عليها بفرسي حتى أنبهتها فأنجّبت ! فقال الآخر : لقد رميت ظبياً مرةً بسهم ، فعَدَل الظبي يَمَنَةً فعَدَل السهم خلفه ، فتياسر الظبي فتياسر السهم ، ثم علا الظبي فَعَلَا السهم ، ثم انحدر فأنحدر حتى أخذه ! » قال التوزي : سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب فقال : إن العجم تكذب أيضاً فنقول : كان رجل نصفه من نحاس ، ونصفه من رصاص ! فتعارضها العرب بهذا وما أشبهه .

وقد عقد الثعالبي - في كتابه فقه اللغة - فصلاً في خرافات العرب ، فوضعوا إسم الخُسّ لمن يتولد بين الانسي والجنية ، والعُمْلوق بين الآدمي والسَعْلَة . والعلبان بين الآدمي والمَلَك . ومن ذلك ما زعموا أن جرّهما كانوا من نتاج حدث بين الملائكة والانس ، وأن بلقيس ملكة سبأ كانت من مثل ذلك النَّجَل ،

وأن يأجوج ومأجوج هم نتاج ما بين النبات وبعض الحيوان ، الخ ١ .  
واشتهر بالوضع من العلماء : حمادُ الراوية ، وخلف الأحمر ، وهشام بن  
الكلبي النسابة وغيرهم ، فهؤلاء ملئوا كتب الأدب العربي قصصاً وقصائد  
وأخباراً وأنساباً لم يتحروا فيها الحق والصدق . فخذروى كثيراً من أخبار  
الجاهلية وشعر الاسلاميين ، وحروب القبائل ، وروى المعلقة السبع ، وكان  
له من المقدرة ما يستطيع بها أن يقلد الشعراء الأولين ، ويُعَمِّي بها على الناس .  
روى الأغاني : « أنه اجتمع في دار المهدي بعيساباذ ، وقد اجتمع فيها عدة من  
الرواة والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب  
الحاجب ، فدعا بالمفضل الضبي الراوية ، فدخل فكث ملبياً ، ثم خرج إلينا  
ومعه حماد والمفضل جميعاً - وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم ، وفي  
وجه المفضل السرور والنشاط - ثم خرج حسين الخادم معهما ، فقال : يا معشر  
من حضر من أهل العلم ؛ إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر  
بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس  
ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته ؛ فمن أراد  
أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة  
فليأخذها عن المفضل » ٢

وخلف الأحمر يقول : « أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا عليّ به  
فكنت أعطيهم المنحول ، وأخذ الصحيح ، ثم مرضت فقلت لهم : ويلكم ! أنا  
تائب إلى الله ؛ هذا الشعر لي ، فلم يقبلوا مني ، فبقي منسوباً إلى العرب لهذا  
السبب » ٣

وابن الكلبي كان عالماً بالنسب ، وأخبار العرب وأيامها ووقائعها ، مكثرأ

١ ص ١١٧ فقه اللغة طبع مصر وقد حذف هذا الفصل من الآباء اليسوعيين

٢ أغاني ٥ : ١٧٢ وانظر بقية الحكاية وسبب هذا التشهير ٣ ابن خلكان ١ : ٣٩٤

في التصانيف ، تزيد تأليفه على مائة وخمسين مصنفاً ، عدها ابن النديم في  
الفهرست . وقد قال فيه أحمد بن حنبل : « كان صاحب سير ونسب ، ما ظننت  
أن أحداً يحدث عنه » وقال الدارقطني « هشام متروك وقال غيره ليس بثقة »<sup>١</sup>  
هؤلاء الوضاعون ؛ أفسدوا العلم والرواية ، وأجهدوا الثقات من العلماء  
بنقد ما رووا ؛ يتبنون صحيجه من فاسده ، فوفقوا أحياناً ، ولم يوفقوا  
أحياناً ، لأن قولهم فشا في الناس ، وتفرق في البلدان ، وتساهل الناس في  
الأدب والأخبار مالم يتساهلوا في الحديث .

\*\*\*

كان نتاج الأمة العربية اللغوى والأدبى في هذه القرون الثلاثة - أعنى  
قرناً ونصفاً قبل البعثة ، وقرناً ونصفاً بعدها - نتاجاً عظيماً ، ولكن نتاجها  
لا في فلسفة ولا في علوم رياضية ونحوها ، بل نتاج أدبى ، وليس محرراً  
في كتب كالتى دونها الفرس واليونان وإنما هوشفوى - إلا فى القليل النادر -  
يتناقله جيل عن جيل ، والذاكرة لا تعي كما يعي الكتاب ، فدخل على هذه  
الثروة نقص وتزيد وتغيير وتبديل . ولكنها على العموم ثروة كبيرة وقيمة  
إذا قورنت بثروة أمة أخرى فى مثل هذا الزمن ، وفى موقف كموقف الأمة العربية .  
وهذه الثروة متعددة النواحي ، فشعر تدهشك كثرته ؛ حتى ليخيل اليك  
أن كل عربى شاعر ، وأن لسانه ينطق بالشعر كما ينطق بالكلام ، ثم هو  
متنوع الأغراض ، متنوع الوزن ، متنوع المعانى . فكان لنا من امرئ  
القيس ، الى بشَّار بن بُرْد دواوين ضخمة لا تجمع كل ما قالوا ، ولكن تجمع  
أقله ، أودعوا فيه نخرهم وهجاءهم ، وتغنَّوا فيه بعواطفهم وشعورهم ،  
ووصفوا فيه لوعتهم وحنينهم الى وطن ، ووفاءهم لميت ، ووصفوا طبيعة  
أرضهم ، ونباتهم وحيوانهم .

وثروة من الخطب لا تقل شأنًا عن الشعر، يستعينون بها في تسيج القبائل في الجاهلية، وفي تنظيم الأحزاب السياسية في الاسلام، ويصلون بها في الجاهلية والاسلام الى تحقيق أغراضهم، وبث أفكارهم في السلم والحرب، وجمع الكلمة وتفريقها، ولهم الأمثال والحكم، وقد برعوا فيها وأكثروا منها، وقامت لهم مقام الفلسفة لليونان؛ أمدهم بها كثرة تجاربهم ودقة ملاحظتهم وحسن صياغتهم.

ولهم الأخبار الكثيرة عن أبطالهم في الكرم، وأبطالهم في الحرب، وأبطالهم في الوفاء، وأبطالهم في القيادة والكهانة، الخ. ولهم القصص عن وفودهم وأسواقهم، وحكامهم وفرسانهم، وعدائهم ولصوصهم، ولهم أساطيرهم وخرافاتهم، وتفاؤلهم وتشاؤمهم وتخيلاتهم. ولهم الأخبار الطويلة عن أيامهم، وأصنامهم وعبادتهم، وحنفاءهم ويهودهم ونصاراهم.



ولما جاء الاسلام اتصلت به الثقافة العربية اتصالاً وثيقاً، حتى كان من الدين التثقف بها، والعلم بلغتها وأخبارها، بل عمل الاسلام عملاً كبيراً في رقيها وتقنينها. ذلك أن القرآن الكريم والحديث عريبان، ومن حسن الاسلام تعلم لغته، فكان الاسلام أكبر البواعث على نشر هذه الثقافة. والعناية بها. دخل اللحن في العربية، فخاف المسلمون على القرآن أن يتسرّب إليه لحن فوضعوا النحو، وحملتهم وضع النحو على مشافهة الأعراب، والأخذ عنهم، حتى يصلوا إلى قاعدة في الرفع والنصب والجر والجزم يضعونها، وكانت حركة عنيفة ومجهود كبير توجّج بكتاب سيديويه. وما كان يكون لولا القرآن<sup>١</sup>.

١ قال ابن خلدون: « لما فسدت اللغة بما ألقى إليها مما يغيرها وخشى أهل العلوم أن تفسد تلك الملكة رأساً، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على الفهوم استنبطوا من مجارى

ووردت في القرآن والحديث ألفاظ لغوية، فضرَبوا أكبَادَ الإِبِلِ إلى البادية يستفسرون عن لفظ، أو يقفون على تعبير، ودعاهم ذلك إلى حفظ الأشعار، ففيها أحياناً ما يفسر لفظاً قرآنياً، أو يساعد على فهم تعبير قرآني. فأكثرُوا من رواية اللغة والأشعار لذلك، ودققوا فيها وتحروا الموضوع من الصحيح. وما كان يبذل هذا الجهد، وذلك التحري لولا ما وراه من باعث ديني<sup>١</sup>.

وعنوا بلهجات العرب، وكيف تنطق تميم وقريش، ومن الذي يُميل ومن لا يميل، ومن يبدل ومن لا يبدل: لتفهم قراءات القرآن، كما عنوا بالمعرب والأصيل لما في القرآن من معرب وأصيل. بل وجدَّ بعض العلماء بعد في البلاغة، يضعون لها القواعد، ويستنتجون القوانين تفهماً لمواضع الإعجاز في القرآن، وتذوقاً لبلاغته<sup>٢</sup>.

كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة، شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب « الخ مقدمة ٤٨٠ ١ قال الثعالبي في أول كتابه فقه اللغة « أما بعد فإن من أحب الله أحب رسولَه المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومن أحب النبي العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عنى بها وثابر عليها وصرف همته إليها » ويقول « والعربية خير اللغات والألسنة والاقبال على تفهمها من الديانة إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين، الخ »

وقال ابن عباس: الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه، وسئل عن قول الله تعالى « عن اليمين وعن الشمال عزين » قال عزين الحلق الرقاق قال عبيد بن الأبرص:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزيزاً

انظر الاتقان ١: ١٤٩ وما بعدها

٢ « يقول عبد القاهر في البلاغة « وهو باب من العلم إذا أنت فتحتة اطلمت منه على فوائد جليلة، ومعان شريفة، ورأيت له أثراً في الدين عظيماً وفائدة جسيمة. ووجدته سبباً إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل وإصلاح أنواع من الحلل فيما يتعلق بالتأويل » دلائل الإعجاز

وهكذا كان القرآن منبعاً لثقافة روحية وعقلية . سنيذها بعد . وكان منبعاً لثقافة عربية وعلبية ، أشرنا إليها الآن .

\*\*\*

وغنيت الثقافة العربية في الاسلام بما كان فيه من أحداث ، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار الخلفاء ، والغزوات والفتوح ، وما تخللها من شعر وأدب وقصص ، وما كان يقد على الخلفاء والولاة من شعراء وما كانوا يقولون ، وما تكون من مذاهب دينية من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة ، وما كان لذلك من أدب ، وما كان من أحزاب سياسية وانحياز الشعراء والخطباء إلى هذه الأحزاب .

كل هذا كان ثقافة عربية ، يتقّف بها من كانوا عرباً في أصلهم ، ومن كانوا فرساً أو روماً أو يونانيين ، وعلى الجملة من كانوا في المملكة الاسلامية ، وخاصة من أسلبوا وتعلبوا . وما كان ينبغ النابغ الا إذا عرفها ، وأحاط بطرف منها ، فكانت بذلك عنصراً من عناصر الثقافة العامة في ذلك العصر .

\*\*\*

هجم العلماء - في عصرنا الذي تؤرخه - من عرب وموال على هذه الثقافة يبحثون عنها من نواحيها المتعددة ، ويرحلون الى البادية أحياناً ، والى الأمصار أحياناً ، ويسمعون للرجال والنساء والصبيان ، والخاصة والعامة . حتى اختلفوا ؛ هل يأخذون اللغة عن المجنون أو لا . يدخلون على المرأة في خباياها ، وعلى راعي الابل في مرعاه ، فأبو حاتم يسأل أمّ الهيثم ، والأصمعي يقول : سمعت صبية يتراجزون . والجاحظ : يروى عن عبدأسود لبني أسد . والواقدي : يروى عن فاطمة بنت المنذر زوجة هشام بن عروة . وكان أهم عمل لهؤلاء تحويل الثقافة العربية من ثقافة لسانية شفوية - في الغالب - إلى ثقافة كتابية تحريرية ، وكانت هذه هي الخطوة الأولى ليتناول العلماء بعد ما جمع ينقحونه ،

ويعززون خطاه من صوابه ، ويضعون له القواعد .

وكان هؤلاء العلماء فرقة ، كل فرقة يغلب عليها الميل إلى ناحية من نواحي هذه الثقافة . فالخليل بن أحمد ، وأبو زيد الأنصاري ، والأصمعي ، وأمثالهم ؛ غلب عليهم مفردات اللغة وجمعها والبدء بتبويبها . والمفضل الضبي ، وخلف الأحمر ، وحماد الراوية ، وغيرهم غلب عليهم جمع القصائد والأشعار والأمثال ، وما إلى ذلك . ومحمد بن اسحاق ، والواقدي ، وأبو مخنف ، والهيثم بن عدي ، والمدائني ، مالوا إلى تدوين الروايات عن الأحداث التاريخية ؛ كفتوح الشام ، وفتوح العراق ، ووقعة الجمل ، ووقعة صفين ، ونحو ذلك ، وفي أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وكتبه إلى الملوك والمغازي ، وأسماء المنافقين ، والوفود . وابن الكلبي ، وأمثاله عنوا بالأنساب وما يتبعها من بيوتات ومنافرات وموارد . وفي أخبار الأوائل من عاد الأولى والآخرة ، والمعمرين والأصنام والقديح ، وأيام العرب وأسماهم ، الخ .

\*\*\*

وبعد ، فإذا حاولنا أن نختار من يمثل هذه الثقافة العربية بفروعها ، فلسنا نختار الأصمعي وما بين أيدينا من كتبه ؛ فليست تمثل إلا الناحية اللغوية ، ولا المفضل الضبي وكتابه المفضليات والأمثال ؛ فهما لا يمثلان إلا الناحية الأدبية . ولا كتب الجاحظ وابن قتيبة ؛ فانها تمثل نوعاً آخر من الثقافة سيأتي بيانه ؛ إنما الذي يمثل الثقافة العربية هو « المبرد » وكتابه الكامل أولاً ، ثم أمالي القالي ثانياً . وليست الأمالي مما أُلّف في عصرنا ، فلندعها الآن ونجتزئ بالمبرد والكامل ، وإن كان قد عاش زمناً في عصرنا ، وزمناً في العصر الذي بعده ، وقد اخترنا الكامل لأنه خير كتاب وصل إلينا من تراث ذلك العصر ، يمثل شيئين هامين ؛ يمثل الثقافة العربية في عناصرها المختلفة ، ويمثل طريقة تعليم المعلمين في ذلك العصر لتلك الثقافة ومنهج التأليف فيها .

## المبرد والكامل

كذلك لا نطيل في ترجمة المبرد، فالذي يهمننا كتابه .  
هو محمد بن يزيد، عربي الأصل من قبيلة ثُمالة . وثمالة من الأزد، والأزد من قحطان، فهو من عرب اليمن . وكان للأزديين أثر كبير في الدولة الأموية . أعانوا زياد بن أبيه وابنه من بعده، وتحالفوا مع ربيعة يناهضون حلفاء آخر هو حلف تميم وقيس، ووقفوا بجانب المهلب بن أبي صفرة - وهو أزدى كذلك - يحاربون الخوارج .

وُلد المبرّد بالبصرة سنة ٢١٠ وأخذ العلم عن الجرّمي والمازني « وكان إمام العربية ببغداد، وإليه انتهى علمها، وكان حسنَ المحاضرة فصيحاً بليغاً مليح الأخبار، ثقة فيما يرويه كثير النوادِر، فيه ظرافة ولباقة »<sup>١</sup> وكان يتنازع رئاسة العلم في بغداد هو وثلعب، ومن أسباب نزاعهما اختلاف مدرستهما، فالمبرد بصرى تعلم على المذهب البصرى وطريقته، وثلعب كوفي تعلم على المذهب الكوفي وطريقته، وبينهما اختلاف كبير في النحو والصرف واللغة، وما يقاس عليه وما لا يقاس، الخ . وقد ظفر المبرد بثلعب؛ لأن المبرد كان حسنَ العبارة حلوَ الإشارة فصيح اللسان ظاهر البيان، وثلعب متحفظ منكمش ليس في لباقة المبرد وفصاحته، وكان المبرد يحب الاجتماع بثلعب للمناظرة، وثلعب يراوغ . كان يحفظ كثيراً من اللغة وغريبها، وأحفظ الناس في عصره للأخبار، وواسع الاطلاع في النحو، وكان لا يعنى بالأسانيد فيما يروى من لغة وأدب كما يعنى غيره من علماء عصره . وقد ألف كتباً كثيرة في فروع الثقافة العربية المختلفة . ألف في النحو «المقتضب» وغيره، وألف في إعراب القرآن، وفي قواعد الشعر وضروب الشعر وشرح كلام العرب وتخليص ألفاظها، وفي قحطان وعدنان الخ<sup>٢</sup> . وأهم كتبه الكامل . وقد مات ببغداد سنة ٢٨٥ في خلافة المعتضد .

١ معجم الادباء ٧ : ١٣٧ ٢ تجد أسماء الكتب التي ألفها في الفهرست ومعجم الادباء



## كتاب الكامل

المبرّد مسلم عربي، أزدي يمانى، وهو لغوى نحوى، وهو لبق ظريف، وهو لم يتقف بغير الثقافة العربية - على ما يظهر -

كان لكل كلمة من هذه الكلمات لون في كتابه الكامل، فهو صورة تامة لكل ما ذكرنا.

قال في صدر الكتاب: « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب؛ ما بين كلام مشور، وشعر مرصوف، وممثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة. ورسالة بليغة، والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنياً » ويقول في صدر باب من أبوابه: « نذكر في هذا الباب من كل شيء؛ لتكون فيه استراحة للقارىء، وانتقال ينفي المَلَّ، لحسن موقع الاستطراف، ونحاط ما فيه من الجذب بشيء يسير من الهزل ليستريح إليه القلب وتسكن إليه النفس »<sup>١</sup> فالكتاب تغلب - في مختاراته - الناحية التي تبعث السرور والفرح والضحك؛ الا قليلا من ذكر الموت والرتاء.

اختلف فيه من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أقوال الصحابة والتابعين مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وعمر بن عبد العزيز، ومن أمثال الحكماء كأكرم بن صيفي في الجاهلية، والأحنف بن قيس في الاسلام، وشعراً كثيراً من الشعر الجاهلي وصدر الاسلام، وقليلاً من شعر المحدثين، وأدباً لحوادث تاريخية ومذاهب دينية كأدب الخوارج، والكتب التي دارت بين أبي جعفر المنصور ومحمد بن عبد الله بن حسن العلوي.

أكثر ما يعجبه ما جمع بين أشياء ثلاثة؛ معنى جيد، في التعبير عنه شيء من غريب اللغة. وشيء من مسائل النحو أو مشكلاته. يورد ما اختار ثم يعني بشرح ما فيه من لغة ونحو - ويورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدح الأنصار: «إنكم لتسكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع» فلا يتعرض إلا لكلمة الفزع ومعانيها المختلفة، ويستشهد على كل معنى، وإذا ورد في الاستشهاد كلمة لغوية أو نحوية شرحها.

يعنون كل بضع محتارات بكلمة «باب» ومن العسير في كثير من الأحيان أن تفرق بين باب وآخر، وتدرک أن هذا الباب وحدة مستقلة تجمع محتارات ذات صبغة خاصة تخالف ما في الباب الآخر، اللهم الا في القليل النادر كباب الخوارج، حتى ليخيل إلينا أن كلمة «باب» يستعملها في معنى «درس» فكأنه يعنون كل درس أو جملة دروس بباب، والدرس أو الدروس تكون حينما اتفق له، لا يتقيد فيها إلا بأنها مختار فيه أدب، وفيه لغة وفيه نحو.

والكتاب يمثل الثقافة العربية في جميع نواحيها؛ فهو يختار من الحديث ومن أقوال الصحابة مثل كلمة أبي بكر في مرض موته، ورسالة عمر في القضاء إلى أبي موسى الأشعري، وكتاب عثمان إلى علي بن أبي طالب حين أحيط به، وكلمة علي حين بلغه أن خيلاً لمعاوية وردت الأنبار وقتلوا عامله حسان بن حسان، ثم يذكر باباً يعنى فيه بما كان من كلام العرب مختصراً مفهماً، بين اللفظ حسن الوصف، جميل الرصف كقول الخطيب:

وذاك فتى إن تأتته في صنعة إلى ماله لا تأتته بشفيح

وقول عنتر:

يخبرك من شهد الواقعة أننى أعشى الوغى وأعف عند المغنم

ويقارن بين ماورد لبعض العرب؛ من ضرورة قبيحة، وألفاظ مستهجنة،

وبين ما هو أوضح لفظاً وأبين معنى، ثم ينتقل إلى نبذة من كلام الحكماء فينقل عن ابن عمر أنه كان يقول: «إنا كنا معشر قريش نعدُّ الجود والحلم؛ السؤدُّ، ونعد العفاف واصلاح المال؛ المروءة. وينقل عن الأحنف بن قيس قوله كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزح تذهب المروءة، ومن لزم شيئاً عُرِفَ به» ثم يسترسل في ذلك، فينقل عن عبد الملك بن مروان، وأبي سفيان ومعاوية، ثم ينتقل إلى شعر لرجل يهجو بلال بن البعير المحاربي، ولأبي الطمَّحان يمدح بجير بن إياس وآخر ينفي نسب آخرين، الخ. ويعقد باباً ثالثاً، يذكر فيه بُدْأ من حكم العرب لمعاوية والأحنف بن قيس.

ثم باباً رابعاً يذكر فيه مختاراً لرجل من بني سعد يرثى رجلاً ولِحَضْرَمِيِّ ابن عامر، وقد عُيِّطَ بميراث ورثه من أحد أهله. وانتقل فجأة إلى قول جميل يَشَبُّ فيه بِبُشَيْنَةَ ثم لأمية بن أبي الصَّلْتِ في الغناء، ثم للبيشم بن الربيع في الغزل، ويأتي بعد ذلك باب خامس فيه نبذة من كلام حكماء العرب.

وعلى هذا النحو كل الكتاب؛ يتعرض في بعض فصوله لما قال العرب في الحجر، وما قالوه في السؤدُّ وما قال جرير والفرزدق في الفخر، ووعظ الوعاظ أمثال عمر بن عبد العزيز وعلي بن أبي طالب، وينقل مختاراً في مجالس العرب؛ فينقل عن الأحنف بن قيس وقد سئل، أي المجالس أطيب، وعن المهلب بن أبي صفرة، وقد قيل له ما خير المجالس وعن ابن عباس في الجليس ويذكر نبذة من أمثال العرب مثل: لم يذهب من مالك ما وعظك ورب عجلة تهب ريشاً، وأن ترد الماء بما أ كيس. ويذكر ما قاله بعض العرب في الرثاء، وما قالوه في اللغة والعيش الرغد، ويعرض لطرف مما دار من الكلام الحسن في الحروب الإسلامية الأولى كوقعة الجمل وما كان بين الحكَّامِين. ويذكر طرفاً من الخطب المختارة؛ كخطبة زياد والحجاج. ثم الغزل وطرائفه، فأعرابي يشكو حبيبتة، وعمر بن أبي ربيعة في النخافة، وأقوال في دهاء العرب

وحلهم وكرمهم وشجاعتهم ، وما بينهم من مدح وهجاء ، وعدائهم ولصوصهم  
وتكاذبيهم ، ونوادير الأعراب في زواجهم وطلاقهم ، وطول الحية وقصرها ،  
وبعض طرائف العشاق ، وتهاجي القبائل . ثم ما ورد من العرب في الوصف : في  
وصف جمل وحمار وحمامة وحاد ، ثم باب طويل في أخبار الخوارج ، وحرورهم  
وعقائدهم وخطبهم وأشعارهم ونواديرهم . وبين هذا وذاك : أبواب علمية بعضها  
نحوى مثل « باب ما يجوز فيه يفعل فيما ماضيه فعَل مفتح العين » وبعضها  
بلاغى مثل باب في التشبيه .

\*\*\*

هذه نظرة الطائر ، الى كتاب الكامل ، أردنا بها أن نستدل على أن الكتاب  
يمثل الثقافة العربية ، وتبين منها الاتجاهات المختلفة التي اتجهتها هذه الثقافة ،  
وعلى أن أنظار المعلمين في ذلك العصر كانت أنظراً فردية لمسائل فردية ،  
فالموضوع الواحد كالسؤدد عند العرب ، مفرق في ثنايا الكتاب من أوله إلى  
آخره . لا يجمع الباب ولا الكتاب إلا أنه مختار فيه معنى جميل أيّاً كان ،  
وفيه لغة نحو ، فأما أن تكون أبيات المديح في جانب ، والذم والرياء ونحو  
ذلك في موضع واحد ؛ فليس هذا شأن الكتاب ، ولا شأن معلمى ذلك العصر .  
قلنا إن المبرد - على ما يظهر - لم يتقف الا الثقافة العربية . وذلك واضح  
في كتابه ، فلم يتعرض لغيرهم الا قليلاً نادراً ، لقد نقل عن بُزْرِجَمِه وأردشير  
ولكن في مواطن معدودة ، وورد فيه كلام عن الموالي ولكن نظره اليهم نظر  
عربي . وقص ما كان بين عبد الله بن عبد الأعلى وأليون ملك الروم وقد أرسله  
عمر بن عبد العزيز اليه يدعوه الى الاسلام . وقص ما كان بين الشعبي وملك  
الروم ، وقص ما كان من استئذان ملك الروم معاوية في أن يغالبه ، فبعث اليه  
ملك الروم برجلين أحدهما طويل ، والآخر قوى جسيم الخ ، ولكن هذه أمور  
لا تدل على ثقافة أجنبية لأنها حوادث متصلة بالمسلمين العرب ، وقد رواها  
المبرد كما نقلت اليه عن العرب .

وقلنا إن المبرّد عربي أزدي يمانى، وكتاب الكامل يمثل هذا النوع من  
العصية القبليّة تمثيلاً صحيحاً، فهو يتعصب للأزد واليمانيين، ويروى الكثير  
من الصحيح والسقيم لاعلاء شأنهم، فهو يعقد باباً يعنونه «باب ذكر الأذواء  
من اليمن في الاسلام» فيذكر فيه الأذواء في الجاهلية، كذى كلالع وذى نواس  
وذى رعيّين، وفي الاسلام كخزيم بن ثابت ذى الشهادتين، ويذكر خبراً عن  
كان بينه وبين الملائكة سبب من اليمانية؛ فسعد بن معاذ الأنصارى هبط لموته  
سبعون ألف ملك لم يهبطوا الى الأرض قبلاً. وحنظلة بن أبي عامر الأنصارى  
غسلته الملائكة، الخ. — هذا في آخر الكتاب. — وأما في أوله فيختار قول  
رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار «انكم لتسكثرون عند الفزع وتقولون  
عند الطمع» والأنصار من الأوس والخزرج وهما قبيلتان يمانيتان أزديتان في  
قول النسّابين، ويختار قول أبي بكر في المهاجرين «ولمّا لقيت منكم يا معشر  
المهاجرين أشدّ على من وجعنى، إني وكليّت أموركم خيركم فكلّكم ورم أنفه أن  
يكون له الأمر من دونه» ويختار الكلام في الخوارج ويطيّل لسببين — على  
ما يظهر — (١) فهو يعارض الجاحظ، وقد ذكر في كتابه الشعوية، والشعوية  
حركة أجمية تناهض العرب، والخوارج أكثرهم عرب خلّص، لهم أدب عربي (٢)  
والذى قاتل الخوارج المهلب بن أبي صفرة وبنوه، وهو أزدي كالمبرّد، وكان  
يعاونه الأزديون قبيلة المبرّد، فالاشادة بالتنكيل بالخوارج اشادة بقبيلته. وهو  
في كتاب الكامل يعلى شأن المهلب ويتأوّل له، «لقد رمى المهلب بالكذب  
حتى في حديث رسول الله» فهو يذكّر أنه انما كذب في الحرب، والحرب خُدعة  
والكذب في الحرب جائز، والكتاب مملوء بالأخبار التي تعظم آل المهلب  
وترفع من شأنهم، ويروى في أخبار الخوارج قول أعشى همدان:

إنّ المكارم أكمّلت أسبابها لابن الليوث الغرّ من قحطان

لفارس الحامى الحقيقة معلماً زاد الرفاق إلى قرى نجران

الحارث بن عُمَيْرَةَ اللَّيْثِ الَّذِي يَحْمِي الْعِرَاقَ إِلَى قَرْيَةِ كَرْمَانَ  
وَدَّ الْأَزَارِقُ لَوْ يُصَابُ بِطَعْنَةٍ وَيَمُوتُ مِنْ فِرْسَانِهِمْ مَائَتَانِ ١  
ويروى المبرد عن علي أنه قال «لأزد أربع ليست لحي»: بذل لما ملكت  
أيديهم، ومنع لحوزتهم، وحى عمارة لا يحتاجون إلى غيرهم، وشجعان  
لا يجبنون» ٢.

وهكذا كان كتاب الكامل يمثل كل ناحية، حتى التزيد في الأخبار للعصية  
القومية والقبلية.

\*\*\*

وبعد؛ فإن كانت الثقافة الفارسية تمثل حياة كسروية فيها مدنية معقدة  
موظم مركبة، وفيها مرافق المدينة الممغننة في الحضارة، وفيها محاسن المدنية  
ومساوئها. فالثقافة العربية تمثل حياة بسيطة سهلة لا تركب فيها ولا التواء، فيها  
بساطة العيش، وفيها بساطة القول، وفيها محاسن البادية ومساوئها؛ كما تمثل قوماً  
عاشوا في جاهليتهم في نزاع قبلي، يفخرون ويمدحون ويهجون، ويدنون  
بالأصنام، ثم يجمعهم دين واحد هو الإسلام فيرفع من نفسياتهم وعقليتهم.  
ويأخذون في حياة فيها أثر للقديم، من عصية قبلية ونحوها، وفيها كثير من  
جديد، فتوحيد وتقوى وخوف من الله وعذابه ورغبة في ثوابه، وفيها شعور  
بعزة الفاتح وسلطان الحاكم، وفيها اعتداد بأنفسهم وخاصة من ناحيتين: لسانهم  
وسيفهم، واعتماد على غيرهم في مرافق مدنية دُربوها ومرنوا عليها.

ولئن كانت الثقافة الفارسية قد دونت من قديم وتعاورها التاف والتجديد،  
وإذخرت في كتب سلم منها شيء إلى العهد الإسلامي فالثقافة العربية كانت  
كلها في جاهليتها ثقافة شفوية تعتمد على الذاكرة والرواية، وفي الإسلام إنما  
عنى بتدوين القرآن وبعض الحديث، فأما الأدب واللغة فظل أغلبهما كما كان

الحال في الشعر الجاهلي والأدب الجاهلي يتناقل من طريق الحفظ والرواية، حتى كان آخر الدولة الأموية وأول العباسية فأخذ العلماء في تدوينه. ولئن كانت الثقافة اليونانية قد مرت بالأدوار الطبيعية للعلم من بحث في مسائل متفرقة، فتنظيم وتبويب، وجمع للمسائل المتشابهة وقواعدها في باب واحد، ووصلت إلى المسلمين بعد أن هذبها المنطق، ورتبها الأجيال المتعاقبة من فلاسفة اليونان. فالثقافة العربية في عصرنا الذي نؤرخه من لغة وأدب وتاريخ ونحوها كانت في أول دورها من حيث الترتيب والتبويب، فنرى الفوضى في كتب اللغة المؤلفة في ذلك العصر، كما رأينا في كتاب الكامل، ولم تجتز الثقافة العربية هذا الدور إلا بعد أن انتهى عصرنا أو كاد. ومهما يكن من شيء، فالثقافة العربية كانت ركنا من أركان الثقافات في ذلك العصر، وعنصر هاماً من عناصرها، لا تقل عن غيرها من العناصر، إن لم تزد عليها، لأن لسانها لسان الحاكمين، ولغتها لغة الدين.

# الفصل الخامس

## الثقافات الدينية

### اليهودية والنصرانية والاسلام

بجانب هذه الثقافات المدنية - إن صح هذا التعبير - ثقافات أخرى رُوحية ، نشرها الأديان المختلفة ، وأهمها الاسلام والنصرانية واليهودية .  
اليهودية والنصرانية - يقول الأستاذ « متز » « إن مما يميز المملكة الاسلامية عن أوروبا النصرانية في القرون الوسطى ؛ أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الأديان الأخرى غير الاسلام ، وليست كذلك الثانية ، وأن الكنائس والبيع ظلت في المملكة الاسلامية ، كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، وكأنها لا تكوّن جزءاً من المملكة ، معتمدة في ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق ، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فأعان ذلك على خلق جوّ من التسامح لا تعرفه أوروبا في القرون الوسطى . كان اليهودى أو النصرانى حراً أن يدين بدينه ، ولكنه إن أسلم ثم ارتدّ عوقب بالقتل . وفي المملكة البيزنطية كان عقاب من أسلم القتل »<sup>١</sup> .

كانت الكنيسة تحرّم على النصرانى أن يتزوج غير نصرانية إلا اذا تنصرت ، وكذلك النصرانية لا تتزوج إلا نصرانياً . أما الاسلام فقد حرم على المرأة المسلمة أن تتزوج غير مسلم ، وأحل للرجل المسلم أن يتزوج كتابية

١ لخصنا هذه الكلمة من كتاب متز « نهضة الاسلام » الذى ترجمه « خداجش » من الالمانية الى الانجليزية



يهودية أو نصرانية، وإن بقيت على دينها لقوله تعالى: « الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ  
الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ  
وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ،  
فكان كثير من المسلمين يتزوجون يهوديات أو نصرانيات. ومنهن من تسلم،  
ومنهن من تبقى على دينها. وكان هذا سبباً من أسباب اتصال المسلمين باليهود  
والنصارى.

وقد كان بين الحنفية والشافعية خلاف شديد في قتل المسلم بالكافر، فكان  
الحنفية يرون أن المسلم إذا قُتِلَ ذِمِّيًّا قُتِلَ به، وخالفهم في ذلك الشافعي.  
وكان بين الفريقين جدال وحجاج، تراه مبسوطاً في كتب الفقه. وكان مما  
احتج به الحنفية: أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب - لما قتل أبوه - اتهم في  
الاشترار في تدبير قتل « جُفَيْسَةَ » وكان نصرانياً، فذهب إليه عبيد الله  
وقتله، ولما علاه بالسيف صلب بين عينيه، فلما استخلف عثمان بن عفان،  
دعا المهاجرين والأنصار. فقال: أشيروا عليّ في قتل هذا الرجل (يعنى  
عبيد الله بن عمر) فتفق في الدين ما فتق، فاجتمع المهاجرون والأنصار فيه  
على كلمة واحدة، يأمرونه بالشدة عليه، ويحثونه على قتله. فإشارة المهاجرين  
والأنصار دليل على أن المسلم يقتل بالذمي، ولم يفعل عثمان ذلك؛ لأن  
عمر بن العاص أشار عليه بالأيفعل؛ لأن الحادثة كانت قبل أن يتولى  
عثمان ويكون له على الناس سلطان<sup>١</sup>، الخ.

وقد وقع في أيام أبي يوسف القاضي؛ أن مسلماً قتل كافراً، فحكم على  
المسلم بالقوّد، فقال أحد الشعراء:

يَا قَاتِلَ الْمُسْلِمِ بِالْكَافِرِ جُرَّتْ وَمَا الْعَادِلُ كَالْجَائِرِ

١ ويقول ابن قتيبة إن عبيد الله بن عمر بن الخطاب لما قتل أبوه - مجرد سيقه فقتل بنت أبي لؤلؤة  
وقتل الهرمزان وجفينة - رجلاً أعجمياً - وقال لا أدع أعجمياً الا قتلته فأراد على قتله بمن قتل  
فهرب الى معاوية فقتل في صفين. المعارف ٦١، ٦٢

يَا مَنْ بِيَعْدَادِ وَأَطْرَافِهَا مِنْ عُلَمَاءِ النَّاسِ أَوْشَاعِرِ  
اسْتَرْجِعُوا وَابْكُوا عَلَى دِينِكُمْ وَاصْطَبِرُوا فَالْأَجْرُ لِلصَّابِرِ  
جَارَ عَلَى الدِّينِ أَبُو يُوسُفَ بِقَتْلِهِ الْمُؤْمِنَ بِالْكَافِرِ  
وخاف الرشيد الفتنة ، فأمر أبايوسف أن يتدارك الأمر بحيلة لئلا  
تكون فتنة ، فطالب أبو يوسف أصحابَ الدم بيئته على الذمّة وثبوتها ،  
فلم يأتوا فأسقط القوّد ٢ .

وكان الشافعي يرى ؛ أن القوّد لا بد فيه من تساوى القاتل والمقتول في  
الحرية والاسلام ، فإن فضلَ القاتلُ المقتولَ بحرية أو اسلام ، فقتل حرُّ  
عبداً ، أو مسلم كافراً فلا قوّد عليه .

وكان الشافعي يرى ؛ أنه يصح أن يشترك أهل الذمة من يهود ونصارى  
في الحروب مع المسلمين - أى أن يجندوا في الجيش الاسلامى - إذا رأى  
الامام ذلك - واستدل بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعان في غزاة  
خيبرَ بعدد من يهود بنى قَيْسُقَاع كانوا أشدّاء ، واستعان في غزاة حُنَيْنِ  
بصَفْوَانَ بن أمية وهو مشرك ، فلا بأس أن يستعان بالمشركين على قتال  
المشركين ، اذا خرجوا طوعاً ، ويرضخ لهم ولا يسهم لهم ٣ .

ولسنا نتعرض هنا لعلاقة اليهود والنصارى بالحكومة الاسلامية من حيث  
الضرائب ، وعلاقتهم برؤسائهم ، وعلاقة الرؤساء بالخلفاء ، ومدى استقلالهم ،  
والمقارنة بين حال النصارى في المملوكة الاسلامية ، والمسلمين في الممالك

١ في الأصل ( الدية ) وهو خطأ على ما يظهر

٢ الاحكام السلطانية ٢١٩ وقد قال الجاحظ : « إن قضاتنا أو عامتهم يرون أن دم  
الجاليتى والمطران والاسقف وفاء بدم جعفر وعلى والعباس وحزمة » ثلاث رسائل : ١٨  
٣ الام ٤ : ١٧٧ ومعنى يرضخ لهم ؛ يعطيهم عطاء ليس بالسكنية  
وقد روى الخطيب البغدادي عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل معه قوم  
من اليهود في بعض حروبه فأسهم لهم مع المسلمين . تاريخ بغداد جزء ٤ : ١٦٠

النصرانية ، وكيف كان اليهود والنصارى يتقاضون في الأصدقات الإسلامية ، وعلاقتهم بالقضاة المسلمين ، ونحو ذلك من الشؤون . فهذا بالتاريخ السياسي أشبه ، وإنما غرضنا هنا شرح ما كان لهم من أثر في الثقافة .

كان اليهود والنصارى منتشرين في المملكة الإسلامية ، وكانوا عددا كبيرا ، فقد ذكر بنيامين أحد الرحالة اليهود الذين رحلوا سنة ١١٦٥ م أي نحو سنة ٥٦٠ هجرية « أن عدد اليهود في المملكة الإسلامية غير العرب كانوا نحو ثلاثمائة ألف » وكانوا منتشرين على نهر دجلة والفرات ، وفي جزيرة ابن عمر والموصل وعكبرة وواسط . وفي بغداد والحلة ، والكوفة والبصرة ، وفي كثير من بلاد فارس ، في همذان واصفهان وشيراز ، وكانوا في غزنة وسمرقند ، وكان في فارس بلدتان تسمى كل منهما « اليهودية » ، إحداهما ، بجرجان ، والأخرى بأصبهان . وكان ببغداد إذ ذاك نحو ألف يهودي ، وكان فيها درب يسمى درب اليهود ، نسب إليه قوم من المحدثين منهم أبو محمد عبد الله بن عميد الله بن يحيى اليهودي <sup>١</sup> وفي أوائل القرن الثالث الهجري كان يحيى من الجزية من أهل بغداد مائة وثلاثون ألف درهم ، وفي أوائل القرن الرابع كان يحيى منهم ستة عشر ألف دينار . والعددان يدلان على أن من كان ببغداد إذ ذاك من غير المسلمين ممن يدفع الجزية نحو خمسة عشر ألفا <sup>٢</sup> ويقول ابن حوقل : إن النصارى في مدينة الرها وتكريت أكثر عدداً .

وكان أغلب المالين في الشام يهودا ، وأغلب أطباء القصور في بغداد نصارى ، واشتهر اليهود باحترافهم حرفاً خاصة ، كالصيرفة ودباغة الجلود والصياغة <sup>٣</sup> . وقال الجاحظ : « إن النصارى اتخذوا البراذين الشهرية ، والخيل

١ معجم البلدان في مادة يهودية

٢ متر نقلا عن ابن خردادبه

٣ Mez وكذلك ذكر الجاحظ في رسالة الرد على النصارى ص ١٧

العتاق ، واتخذوا الجوقات ، وضربوا بالصَّوَالِجَةَ ، وتحدقوا المديني ، ولبسوا  
المُكْحَمَ والمطْبَقَةَ . واتخذوا الشاكرية ، وتسموا بالحسن والحسين والعباس  
والفضل وعلي<sup>١</sup> .

على كل حال كان بين المسلمين كثير من أهل الأديان الأخرى ، وخاصة  
اليهود والنصارى ، وقد خالطهم المسلمون ، بل اتخذوا منهم أصدقاء . قال  
الجاحظ : أشدنا أبو صالح مسعود بن قنديل الفزاري في ناس خالطهم  
من اليهود :

وَجَدْنَا فِي الْيَهُودِ رَجَالَ صِدْقٍ عَلَى مَا كَانَ مِنْ دِينِ مُرِيبٍ

لَعَمْرُكَ إِنِّي وَابْنِي غَرِيضٌ لِمِثْلِ الْمَاءِ خَالِطُهُ الْحَلِيبُ

خَلِيلَانِ اكْتَسَبْتُهُمَا ، وَإِنِّي لِخَلَّةٍ مَاجِدٍ أَبَدًا كَسُوبُ

وقال أبو الطمَّحان الأسدي - وكان نديماً للناس من بني الحدياء ، وكانوا

نصارى فأحمد ندامتهم - فقال :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ فِي الْقَصْرِ قَصْرٌ مَقَاتِلٍ وَزَوْرَةٌ ظِلٌّ نَاعِمٌ وَصَدِيقٌ

وَلَمْ أَرِدْ النَّبْطَحَاءَ أَمْزُجُ مَاءَهُ بِخَمْرٍ مِنَ الْبَرِّ وَقَتَيْنِ عَمِيقُ

مَعِي كُلُّ فَضْفَاضِ الشَّيَابِ كَأَنَّهُ إِذَا مَا جَرَى فِيهِ الْمُدَامُ فَتَمِيقُ

بَنُو الصَّلْبِ وَالْحَدَاءُ كُلُّ سَمِيدَعُ لَهُ فِي الْعُرُوقِ الصَّالِحَاتِ عُرُوقُ

وَإِنِّي وَإِنْ كَانُوا نَصَارَى أَحِبُّهُمْ وَيَرْتَاحُ قَلْبِي نَحْوَهُمْ وَيَتَوَقُّ<sup>٢</sup>

ويقول أبو نواس :

سَأَلْتُ أَخِي أَبَا عَيْسَى وَجَبْرِيلُ لَهُ عَقْلُ<sup>٣</sup>

١ ثلاث رسائل ص ١٨ والملحم نوع من الثياب سداه حرير ولحمه غير حرير ،

والشاكرية جمع شاكرى معرب « چاكر » وهى بالفارسية بمعنى الأجير

٢ الحيوان ٥ : ٥٢ ٣ أبو عيسى هو جبريل بن بختيشوع بن جورجيس بن بختيشوع

النصراني ، كان طبيباً للرشد

فقلت : الرَّاحُ تُعْجِبُنِي فَقَالَ كَثِيرٌ هَا قَتْلُ  
رَأَيْتُ طِبَاعَ الْإِنْسَانِ أَرْبَعَةٌ هِيَ الْأَصْلُ  
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةٍ لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رَطْلٌ

وبعد ، فقد كان لكل من اليهودية والنصرانية ثقافة ، وقد تسرب إلى  
المسلمين شيء منها ، فلنحاول بيان ذلك .

اليهودية : - أهم منبع للثقافة اليهودية التوراة ، وقد ذكرت في القرآن  
الكريم ، ووصفت بأنها كتاب من كتب الله المنزلة « إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ  
فِيهَا هُدًى وَنُورٌ » وورد فيه أن عيسى أتى بعدُ مُصَدِّقًا لِمَا فِي التَّوْرَةِ  
« وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ،  
وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ،  
وَهِدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ » وقد نص القرآن على بعض أحكام وردت  
في التوراة « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ  
وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ »  
وأشير في الأحاديث كذلك إلى التوراة ، وذكر فيها بعض أحكامها .

من ذلك ما روى أبو داود عن ابن عمر ، قال : أتى نَقْرٌ من اليهود فدَعَوْا  
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القَفِّ ، فأتاهم في بيت المدراس ، فقالوا :  
يا أبا القاسم ؛ إن رجلاً منا زنى بامرأة فاحكم ، فوضعوا الرسول الله صلى الله  
عليه وسلم وسادة فجلس عليها ، ثم قال : ائتوني بالتوراة فأتى بها ، فنزع  
الوسادة من تحته ، ووضع التوراة عليها ، ثم قال : آمنت بك وبمن أنزلك ،  
ثم قال : ائتوني بأعلمكم ، فأتى بفتى شاب ، ثم ذكر قصة الرجم .  
وقد اختلفت أنظار المسلمين إلى التوراة على أقوال ثلاثة ، فقال قوم :

١ انظر كذلك البخاري في باب التوحيد وباب الاعتصام وباب التفسير

إنها كلها أو أكثرها مبدلة مغيرة ، ليست هي التوراة التي أنزلها الله على موسى .  
وتعرض هؤلاء لتناقضها ، وتكذيب بعضها لبعض <sup>١</sup> . وذهبت طائفة أخرى  
من أئمة الحديث والفقه والكلام : الى أن التبديل وقع في التأويل لا  
في التنزيل ، وهذا مذهب البخارى ، قال في صحيحه : « يحرّفون الكلم عن  
مواضعه » يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله تعالى . ولكنهم  
يتأولونه على غير تأويله ، وهذا هو ما اختاره الرازى في تفسيره . ومن  
حجة هؤلاء أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها ، ولا يعلم عدد  
نسخها الا الله ، ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير في جميع  
تلك النسخ ، بحيث لا يبقى في الارض نسخة الا مبدلة مغيرة ، والتغيير على  
منهاج واحد وهذا ما يحمله العقل ويشهد بطلانه ، قالوا : وقد بين الله تعالى  
لنبيه عليه السلام محتجاً على اليهود بها : « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن  
كُنْتُمْ صَادِقِينَ » الخ . وذهبت طائفة ثالثة : إلى أنه قد زيد فيها ، وغير ألفاظ  
يسيرة ، ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه ، والتبديل في يسير منها جداً .  
ومن اختار هذا القول ابن تيمية في كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين  
المسيح » ومثل لذلك بما جاء فيها « ان الله سبحانه وتعالى قال لابراهيم عليه  
السلام : اذبح ولدك برك أو واحدك اسحاق » فاسحق زيادة منهم في لفظ  
التوراة ، لأدلة ذكروها <sup>٢</sup> .

وكلمة التوراة يستعملها المسلمون كثيراً للدلالة على كل الكتب المقدسة  
عند اليهود ، فتشمل الزبور وغيره ، كما يستعملها اليهود أنفسهم أحياناً .

وكان لليهود بجانب ذلك سنن ونصائح وشروح ، لم تنقل عن موسى عليه  
السلام كتابةً ، وإنما تدوول نقلها شفاهاً ونمت على تعاقب الأجيال ، ثم

١ من أشد من ذهب الى هذا رأى ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والنحل وقد  
بحث فيه بحثاً مفصلاً وأطال في التدليل على ما في التوراة التي بين أيدينا من تناقض فارجع اليه

٢ انظر ذلك مطولاً في كتاب اغاثة اللفغان لابن القيم الجوزية ص ١٥ وما بعدها

دوت بعد ، وهذا هو المسمى بالتَّلمود ، والتلمود مختلف فيه فيما بينهم ، فمنهم من يقبله وهم طائفة الربانيين ، ومنهم من لا يقبله وهم طائفة القرآنيين . فأما التوراة بالمعنى الدقيق فخمسة أسفار : السفر الأول سفر التكوين أو الخلق ، وقد ذكر فيه خلق العالم ، وقصة آدم وحواء وأولادهما ، ونوح والطوفان وتبلبل الألسن ، ثم قصة ابراهيم عليه السلام وابنه اسحاق وابنيه يعقوب ويعصو ، ثم قصة يوسف .

والسفر الثاني يسمى الخروج - أى خروج اليهود من مصر - وفيه قصة موسى من ولادته وبعثته ، وفرعون وخروج بني اسرائيل من مصر ، وصعود موسى الجبل وإيتاء الله له الألواح .

والسفر الثالث سفر اللاويين - أى الأحبار - وفيه حُكم القسربان والظهاراة وما يجوز أكله ، وغير ذلك من الفرائض والحدود .

والسفر الرابع سفر العدد ، بعضه فى الشرائع ، وبعضه فى أخبار موسى وبني اسرائيل فى التيه وقصة البقرة .

والسفر الخامس سفر التثنية - أى إعادة الناموس -

وفى العهد القديم غير التوراة ، سفر يوشع وهو فى استيلاء بني اسرائيل على فلسطين ، ثم سفر القضاة أى الحكام ، ثم أربعة أسفار الملوك الأول فى أخبار شمويل أو سمويل وشاول أى طالوت ، والثانى فى ذكر داود ، والثالث والرابع فى سليمان بن داود ومن ملك بني اسرائيل من بعده .

وأما التلمود فمجموعة من المناقشات الدينية الأولى ، مع شروح لرجال الدين من الأجيال المتعاقبة ، فيه القوانين اليهودية من قانون عقوبات وقوانين مدنية ، وبعبارة أخرى فيه تحديد العلاقات الدينية والدنيوية . يسجل أفكار اليهود فى حياتهم وتقاليدهم فى نحو ألف عام ويمزج مزجاً تاماً نواحي الشعب الخلقية بنواحيهم الدينية .

وقد جُمع التلمود في نحو ثلاثة قرون ، ابتداءً وجمعه في أوائل القرن الرابع للميلاد ، وتم في نحو نهاية القرن السادس . ويسمى القسم الأول منه المشنأ « Michna » وهو مجموعة أحكام استندت على العهد القديم ، وقد كتب باللغة العبرية الأولى . والقسم الثاني يسمى الجيمارة « Gemara » ويتضمن مباحثات لربانيينهم - أى فقهاءهم - وقد كتب باللغة الآرامية .

وحول هذه الكتب الدينية نسج كثير من الأدب اليهودى والقصص ، والتاريخ والتشريع والأساطير .

وكان بين اليهودية والوثنية اليونانية ، وبين اليهودية والمسيحية نزاع شديد في الشرق ، وخاصة في الاسكندرية - أهم مراكز الثقافة اليونانية - واضطر كثير من اليهود أن يتعلموا اللغة اليونانية ويتكلموا بها . وكان هذا النزاع في نوع الحياة الاجتماعية وفي الثقافة وفي الدين ، فاضطر كثير من اليهود أن يبدلوا حياتهم وأنظارتهم نحو الحياة اليونانية - كانوا يجرمون غشيان معاهد التمثيل تمثل فيها روايات يونانية . فنشأ جيل جديد لا يرى في ذلك من بأس ، وهكذا . واضطروا أن يأخذوا بحظ من الثقافة اليونانية ، وواجهوا مشكلة جديدة وهى الى أى حد يقبلون تعاليم اليونان مع الاحتفاظ بأصول اليهودية ؟ وكان من أشهر هؤلاء « فيلو » الذى حاول أن يوفق بين المعتقدات الدينية اليهودية ، وبين العلم اليونانى . فكان من ذلك يهودية مفلسفة ، لا هى يهودية صرفة ولا فلسفة صرفة . اقتبس « فيلو » من أفلاطون والرواقيين ، واستعمل المصطلحات الفلسفية . ولكنه استخدم ذلك كله لاحياء العاطفة الدينية ، وتدليل الصعاب التى تواجهها اليهودية . وقد انتفعت الكنيسة النصرانية بعد بموقف اليهود إزاء الفلسفة اليهودية ، لأنهم واجهوا ما واجه اليهود قبلهم .

١ انظر الفصل الذى كتب في العلاقة بين اليهودية والفلسفة اليونانية في كتاب



وعلى الجملة فقد كان لليهود ثقافة دينية وأدبية وتاريخية وقانونية ، مزجت بعدئذٍ بالثقافة اليونانية .

وقديماً تسربت الثقافة اليهودية الى من جاورهم من العرب ؛ جاء في الحديث عن ابن عباس : « كان هذا الحى - من الأنصار - وهم أهل وثن مع هذا الحى من اليهود وهم أهل كتاب ، فكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم وكانوا يقتدون بكثير من فعلهم »<sup>١</sup> وكان ذلك قبيل الاسلام كما يدل عليه تنمة الحديث .

وكان بعض المسلمين في العصور الأولى يطلعون على الكتب الأخرى المنزلة ويتلونها ، روى ابن سعد في الطبقات أن أبا الجلد واسمه جيلان ابن فروة ؛ كان يقرأ الكتب . وروى عن ميمونة بنت أبي الجلد قالت كان أبى يقرأ القرآن في كل سبعة أيام ويختم التوراة في ستة ، يقرؤها نظراً ، فإذا كان يومٌ يختمها حُشِدَ لذلك ناس ، وكان يقول : كان يقال تنزل عند ختمها الرحمة<sup>٢</sup> .

وفي الحديث عن أبى هريرة قال : « كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها لأهل الاسلام بالعربية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالذى أنزل الينا ، وأنزل اليكم وإلها والحكم واحد »<sup>٣</sup> ويروون عن وهب بن مئنه أنه كان يقول « لقد قرأت اثنين وتسعين كتاباً ، كلها أنزلت من السماء ، اثنان وسبعون منها فى الكنائس ، وفى أيدي الناس ، وعشرون لا يعلمها الا قليل »<sup>٤</sup> تسربت هذه الثقافة اليهودية الى المسلمين من طرق أهمها : من دخل فى

١ أخرجه أبو داود  
٢ طبقات ابن سعد جزء ٧ قسم أول ص ١٦١  
٣ وفى البخارى أيضاً حديث آخر يخالف هذا وينهى عن سؤال أهل الكتاب فانظره  
٤ ابن سعد ٥ : ٣٩٧ فى باب شهادة أهل الكتاب

الاسلام من اليهود، وخاصة مُسلمة الين؛ ككعب الأحبار، ووهب بن منبه وأمثالهما. وقد دخل في الاسلام من اليهود كثيرون، كان منهم بعض الصحابة وبعض التابعين، وظلوا يتتابعون الى عصرنا الذي نُورِخه، وكان منهم محدثون ومنهم قصاص. ومنهم قراء، ومنهم أخباريون. وأشهر من عرفنا في عصرنا هذا من أصله يهودي: أبو عبيدة معمر بن المثنى - والآن نعرض لأنواع المعارف التي تأثرت باليهود.

فأول ذلك تفسير القرآن: ذلك أن القرآن الكريم والتوراة يتفقان - كما رأيت - في إيراد بعض المسائل، وخاصة في قصص الأنبياء. ولكن للقرآن منحي يخالف منحى التوراة، فانه يقتصر على مواضع العظة. ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل، فهو لا يذكر - غالباً - تاريخ الوقائع ولا أسماء البلدان التي حصلت فيها، ولا أسماء الأشخاص الذين جرت على يدهم بعض الحوادث، ولا يدخل في تفاصيل الجزئيات. انما يتخير ما يمس جوهر الموضوع وموضع العبرة - لناخذ لذلك مثلاً قصة آدم، فقد وردت في القرآن الكريم في مواضع أطولها ما ورد في سورة البقرة منها « وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. »

فقرى من هذا أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة ولا لنوع الشجرة التي نهى آدم عن الأكل منها، ولا بين الحيوان الذي تقمصه الشيطان ليزلها ولا

ما كان من تفصيل الحوار بين الله تعالى وآدم ولا للبقعة التي طرد اليها آدم بعد خروجه من الجنة، الخ. ولكن التوراة تعرضت لكل ذلك وأكثر منه فأبانت أن الجنة في عدن شرقاً، وأن الشجرة التي نهيا عنها كانت في وسط الجنة، وأنها شجرة الحياة، وأنها شجرة معرفة الخير والشر، وأن الذي خاطب حواء هو الحية، وذكرت ما انتقم الله به من الحية التي أغوتها بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب وانتقم من حواء بتعبها هي ونسلها في حبسها الخ، فجاء المفسرون للقرآن ينقلون عن مُسَلِّمة اليهود ما جاء في كتبهم ويضعونه شروحاً. فيحكى الطبرى مثلان وهب بن منبه أن هذه الشجرة كان لها ثمرة تأكله الملائكة لخلدهم، فلما أراد ابليس أن يستزلها دخل في جوف الحية، وكانت للحية أربع قوائم كأنها نحتية من أحسن دابة خلقها الله، فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها ابليس، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته الخ فلما أكلا قال الله لحواء يا حواء أنت التي غررت عبدى فانك لا تحمليين حملا الا حملته كرها فاذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مراراً، وقال للحية أنت الذي دخل الملعون في جوفك حتى غر عبدى، ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزق الا التراب، الخ. وروي عن ابن عباس نحو هذه القصة<sup>١</sup>. وتقرأ تفسير الطبرى على هذه الآيات فيتجلى لك بوضوح أنهم أخذوا ما في التوراة وشروحها، والأخبار التي رويت حولها، ووضعوها تفسيراً لآيات القرآن الكريم. وهم يروون ذلك عن وهب بن منبه تارة، وعن اسرائيل عن أسباط عن السدي مرة أخرى. وهكذا فعلوا في كل ما ورد في القرآن من قصص وردت في التوراة. ولم يكن

١ تفسير الطبرى ١ : ١٨٦ وما بعدها وقد روى الجاحظ في الحيوان ٤ : ٦٤ عن كعب الأحبار أنه قال مكتوب في التوراة أن حواء عوقبت بعشر خصال وأن آدم عوقب بعشر خصال وأن الحية عوقبت بعشر خصال ثم ذكرها، وشك الجاحظ في ذلك لأنها ليست في التوراة وقال إن سمحت الرواية عن كعب فإنه إنما كان يعني كتب اليهود جميعها

كبل هؤلاء اليهود علماء باليهودية مدققين ، بل كان منهم عوام يعرفون - كما يقول ابن خلدون - ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ، وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات<sup>١</sup> . وما زالت هذه الاسرائيليات تسكثر وتنمو ، حتى امتلأت بها الكتب أمثال قصص الأنبياء للثعلبي .

وعنى المسلمون بنقل تاريخ بني اسرائيل وأنبيائهم كما فعل الطبري في تاريخه ، وكما فعل ابن قتيبة في كتابه المعارف . وقد أثبت العلم أن كثير مما نقل من تاريخ بني اسرائيل غير صحيح ، مما يدل على أن الروايات التي نقلت كان كثير منها ينقل عن العوام وأشباههم . ونجد ابن قتيبة يقارن بين ما يرويه وهب ابن منبه وبين ما في التوراة ، ويبين أحياناً ما بينهما من خلاف .

وكان لليهود أثر غير قليل في بعض المذاهب الاسلامية ، فابن الأثير يروى عند الكلام على احمد بن أبي دؤاد « أنه كان داعية الى القول بخلق القرآن وغيره من مذاهب المعتزلة وأخذ ذلك عن بشر المريسي ، وأخذ بشر عن الجهم بن صفوان ، وأخذه الجهم عن الجعد بن درهم وأخذه الجعد عن أبان بن سمعان ، وأخذه أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم وختمه وأخذه طالوت عن ختمه ، لبيد بن الأعصم اليهودي الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لبيد يقول بخلق التوراة ، وأول من صنف في ذلك طالوت ، وكان زنديقاً فأفشى الزندقة<sup>٢</sup> » وروى صاحب العقد الفريد عن الشعبي أنه قال للمالك بن معاوية « أحذرك الأهواء المضلة ، وشرها الرافضة ، فانها يهود هذه الأمة ، يبغضون الاسلام كما يبغض اليهود النصرانية . ولم يدخلوا في الاسلام رغبة ولا رهبة من الله ، ولكن مقتاً بأهل الاسلام وبغياً عليهم ، وقد حرقهم علي بن أبي طالب . . . . . وذلك أن محبة الرافضة محبة اليهود . قالت اليهود لا يكون المملك الا في آل داود ، وقالت الرافضة لا يكون المملك الا في آل علي بن أبي طالب ، وقالت اليهود لا يكون

جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر وينادي مناد من السماء ، وقالت  
الرافضة لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينزل بسبب من السماء .  
واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم ، وكذلك الرافضة .  
واليهود لا ترى الطلاق الثلاث شيئاً ، وكذا الرافضة ، واليهود لا ترى علي  
النساء عدّة . وكذا الرافضة ، واليهود تستحل دم كل مسلم ، وكذلك الرافضة .  
واليهود حرقوا التوراة ، وكذلك الرافضة حرفت القرآن . واليهود تنتقص  
جبريل وتقول هو عدونا من الملائكة ، وكذلك الرافضة تقول غلط جبريل  
في الوحي الى محمد بترك علي بن أبي طالب ، واليهود لا تأكل لحم الجوزور  
وكذلك الرافضة الخ<sup>١</sup> .

واجه اليهود كثيراً من المسائل وبجثوا عنها واختلفوا فيها ، فقد بجثوا في  
النسخ ، وقالوا إن الشريعة لا تكون إلا واحدة ، وقد بدأت بموسى وتمت به ،  
فلا يجوز النسخ لأن النسخ في الأوامر بقاء ولا يجوز البقاء على الله .  
وتكلموا في التشبيه لأنهم وجدوا التوراة مملوءة بألفاظ تشعر بالتشبيه  
مثل الصورة والمشافهة والتكلم جهراً والنزول على طور سيناء والاستواء على  
العرش وجواز الرؤية .

وتعرضوا للرّجعة أي رجوع بعض الأفراد الى الحياة بعد الموت ، وجاءهم  
ذلك من أن عزيراً أماته الله مائة عام ثم بعثه . وقالوا إنه مات وسيرجع  
وقال بعضهم غاب وسيرجع<sup>٢</sup> .

وهذه الأقوال والخلافات كلها تسربت إلى المسلمين عمن أسلم من اليهود ،  
فأرأينا المسلمين يبجثون في جواز النسخ في القرآن ، كما بجث اليهود في نسخ  
التوراة . ويذهب جمهور المسلمين الى جواز نسخ الحكم دون النص ، والى أن

١ العقد ١ : ٢٦٩

٢ حكى هذه الأقوال كلها عن اليهود الشهرستاني في الملل والنحل ص ٨٥ و ٨٦ فانظرها

ذلك وقع فعلا ، ويخالف في وقوعه أبو مسلم الأصفهاني . ونرى المسلمين في كتب أصول الفقه - عند الكلام على النسخ - يناقشون اليهود في رأيهم ، ويجادلونهم ويردون عليهم <sup>١</sup> مما يؤيد وجهة نظرنا في أن اليهود هم السبب في إثارة هذه المسألة ، ورأينا بعض الشيعة يرى البداء الذي أنكروه اليهود . وأقدم من قال به المختار بن عبيد الذي كان يدعو لمحمد بن الحنفية . ويقول الشهرستاني « انما صار المختار الى البداء لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال اما بوحى يوحى اليه ، وإما برسالة من قبل الامام . فكان اذا وعد أصحابه بكون شيء وحدث حادثة فان وافق كونه قوله جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لرؤسكم . وكان لا يفرق بين النسخ والبداء فاذا جاز النسخ في الأحكام جاز البداء في الأخبار » <sup>٢</sup> وقد اعتنق كثير من الشيعة مذهب البداء وطبقوه في كثير من مسائلهم التاريخية وقال أحد أئمتهم « لا يعبد الله بأحسن من القول بالبداء » لأنه يفتح باب التوبة في طلب العفو من الله وكان اليهود أقوى المعارضين في البداء <sup>٣</sup> .

كذلك انتقل الى المسلمين ما دار بين اليهود في التشبيه . فقد وضعت للبحث الآيات القرآنية التي تُشعر بذلك مثل « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » الخ وما ورد في الحديث كقوله « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » وانقسم المسلمون فيها أقساما فقال قوم من السلف تؤمن بذلك ولا تتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعاً أن الله لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، وذهب جماعة من غلاة الشيعة وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية الى التشبيه ، وقالوا إنه يجوز عليه

١ أنظر أصول ابن الحاجب ٢: ١٨٨

٢ الشهرستاني ٥٥ وقد اشتقت كلمة البداء من بداله

٣ انظر حكاية يحيى بن زكريا في التذية والاشراف للسعودي

الاتقال والنزول والصعود والاستقرار، الخ. فخذوا في ذلك حذو اليهود في اختلافهم. ويقول الشهرستاني- في الكلام على المشبهة- إنهم أجروا (الأحاديث الواردة في ذلك) على ما يتعارف في صفات الأجسام، وزادوا في الأخبار أكاذيب وضعوها، ونسبوها الى النبي عليه السلام، وأكثرها مقتبس من اليهود، فان التشبيه فيهم طباع حتى قالوا (في الله تعالى) اشتكت عيناه فعادته الملائكة، وبكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه، وإن العرش لِيَسِطَّ من تحته كأطيِّب الرِّحْلِ الجديد. وروى المشبهة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لقيني ربي فصافني وكافني، ووضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله الخ» ويقول في موضع آخر «ولقد كان التشبيه صرفاً خالصاً في اليهود لا في كلهم، بل في القرآئين منهم، إذ وجدوا في التوراة ألفاظاً كثيرة تدل على ذلك»<sup>٢</sup>.

وقال الشيعة- في الرجعة- على نحو ما قال اليهود، قد كان عند اليهود أن النبي «الياس» صعد الى السماء وسيعود فيعيد الدين والقانون، فقال ابن سبأ اليهودي- كما حكى ابن حزم- لما قتل علي: «لو أتيتمو نابداً ماغته ألف مرة ما صدقنا موته، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً» ونمت هذه الفكرة عند الشيعة، فقالوا كذلك في بعض الأئمة الذين اختفوا، ثم قالوا كذلك في المهدي المنتظر.

فترى من هذا أن كثيراً من المسائل الكلامية وغيرها كان منبعها اليهود، وأنها قيلت على مثال ما قالوا. وحق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر صب، تبعتموهم قلنا يا رسول الله أليهود والنصارى؟ قال فمن! وكان بعض المتكلمين في العقائد من أصل يهودي كبشر المريسي، وله

آراء كثيرة انفرد بها، وكرهه الناس من أجلها حتى كادوا يقتلونه، وكان من أشهر القائلين بخلق القرآن.

وروى ابن قتيبة « أن هرون الأعور بن موسى - أحد القراء - كان يهودياً ثم أسلم، قال الأصمعي قال هرون: كنت أقرأ ايزام بالعبرانية يعني آدم »<sup>١</sup>. ودخلت كتب الأدب نصائح يهودية تروى عن أنبيائهم وصلحاءهم، كالذي روى أن شعيباً قال لبني إسرائيل « إن الدابة تزداد على كثرة الرياضة لينا، وقلوبكم لا تزداد على كثرة الموعظة إلا قسوة. إن الجسد إذا صلح كفاه القليل من الطعام، وإن القلب إذا صلح كفاه قليل من الحكمة! كم من سراج أطفأته الريح، وكم من عابد أفسده العجب! يا بني إسرائيل اسمعوا قولي، فإن قائل الحكمة وسامعها شريكان، وأولاهما بها من حققها بعمله »<sup>٢</sup>. وقد ذهب بعض الباحثين - كالاستاذ شوفان - أن بعض قصص ألف ليلة وليلة من أصل يهودي،

وعلى كل حال، فقد كانت هناك ثقافة يهودية، بعضها صحيح علمياً وبعضها غير صحيح - بعضها أخذ عن أهل العلم بالكتاب، وبعضها أخذ عن عوام اليهود، وهذا وذلك نفذ منه إلى المسلمين شيء غير قليل. وتجادل اليهود والمسلمون كل يدعو إلى دينه وقيم الحججة على صحته، وقد حكى لنا الكتب الكثير من هذا الجدل، من أقدمها ما روى عن أوس من بني قريظة، فقد أسلمت امرأته ودعته أن يسلم فأبى وقال:

دَعَتْنِي إِلَى الْإِسْلَامِ يَوْمَ لَقَيْتَهَا      فَقُلْتُ لَهَا لَا بَلْ تَعَالَى تَهَوَّدِي  
فَنَحْنُ عَلَى تَوْرَةِ مُوسَى وَدِينِهِ      وَنَعْمَ لِعَمْرَى الدِّينِ دِينُ مُحَمَّدٍ  
كَلَّا نَا يَرَى أَنَّ الرَّشَادَةَ دِينُهُ      وَمَنْ يَهْدُ أَبْوَابَ الْمُرَاشِدِ يَرَشُدُ  
وكالذي حكى الصفدي في « الغيث » من مناقشة بين يهودي ومسلم يقول



بالجبر<sup>١</sup>. كل هذه المناقشات كانت تضطر كل جانب أن يكون على علم بدين مناظريه، يستمد منه حجته ويدفع به حجة خصمه. فكان ذلك من أسباب انتشار الثقافتين.

النصرانية — كذلك ورد في القرآن الكريم آيات تشير الى الانجيل، وتعدده كتاباً من كتب الله السماوية « ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرِيسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ » « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ » « وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ » الخ. وكان موقف المسلمين إزاء الانجيل واختلافهم في صحته وتحريفه كاختلافهم في التوراة، بل ذهب ابن حزم وابن تيمية وغيرهما في عدم الاعتراف بالانجيل الذي بين أيدينا الى أكثر مما ذهبوا اليه في التوراة<sup>٢</sup>.

على كل حال كان للنصرانية ثقافة دينية أهمها الانجيل، وما أحاط به من شروح، وما زاد عليه من قصص وأخبار. وقد تسرب ذلك كله الى المسلمين من طرق: أهمها نصارى العرب، وقد كانت النصرانية انتشرت بين بعض قبائلهم، ولا سيما قبيلة تغلب ونجران. وكذلك من طريق من أسلم من النصارى. ونلس هذا الأثر في كثير من النواحي، فأول ذلك تفسير القرآن.

ذلك أن القرآن الكريم اشتمل على مواضع وردت في الانجيل، كقصة عيسى ومريم ومعجزات عيسى عليه السلام، وأسلوب القرآن - كما ذكرنا - أسلوب موجز، يقتصر على موضع العظة. فجاء المفسرون ينقلون عن مسلمة اليهود والنصارى شروحا لهذه الآيات — إن شئت فاقرأ تفسير سورة مريم

في الطبرى تجده ينقل شروحا كثيرة من الانجيل وتفسيراته ، وما وضع  
 حوله ، ينقل ذلك عن وهب بن منبه وعن أسباط وعن ابن جريج  
 وعن زكريا بن يحيى بن زائدة . وانظر كذلك تفسيره لقوله تعالى - في سورة  
 آل عمران - في تعداد معجزات عيسى عليه السلام : « وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي  
 إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ  
 كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ » الآية فيأتى ابن جريج  
 فيفسر الطير بالخفّاش ، ويروى الطبرى عن ابن حميد عن سلمة عن ابن  
 اسحق قصة في كيفية ذلك الى آخره ١ وتضخم ذلك بعد حتى رأينا القمص  
 الطويلة عن زكريا ويحيى بن زكريا ومريم وعيسى عليهم السلام والحواريين  
 وحديث المائة في كتاب قصص الأنبياء للشعبي ٢ وأمثاله .  
 كذلك أدخل مسلمة النصارى أقوالاً من الانجيل دسّت على أنها أحاديث  
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد مثل الأستاذ جولد زيهير لما دخل عن النصرانية في الحديث بحديث  
 « ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وحديث  
 قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انكم سترون بعدى أثره ، وأمورأتسكرونها  
 قالوا فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : أدّوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم ، فقد أخذ  
 مما ورد في انجيل متى « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وكذلك الامعان في  
 تفضيل الفقراء على الأغنياء ، فان هذا نظر نصرانى ، وقد ورد في الحديث « يدخل  
 فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائها بخمسة عشر عاماً » ومثل حديث « كونوا بلها كالحمّام »  
 فقد ورد مثله في انجيل متى « ها أنا أرسلكم في وسط ذئب ، فكونوا حكماء  
 كالحيات ، وبسطاء كالحمّام » وكذلك حديث أبى داود عن أبى الدرداء ، قال  
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من اشتكى منكم شيئاً أو اشتكاه

أخ له فيقول : ربَّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِ ، كَمَا رَحِمْتِكَ فِي السَّمَاءِ فَاجْعَلْ رَحِمَتَكَ فِي الْأَرْضِ ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا  
وَخَطَايَانَا أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحِمَتِكَ ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى  
هَذَا الْوَجْعِ فَيَبْرؤُ « فَانْه دَعَاءُ نَصْرَانِي مَشْهُور .

ونحن مع موافقتنا للاستاذ جولد زيهير في أن بعض الأقوال النصرانية  
دخلت في الحديث ، ونسبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . لانوافقته  
على كل ما قال ، ولا على نسبة كل الأحاديث التي ذكرها الى النصرانية ، فمثلا  
نظرة تبجيل الفقر وتعظيمه ليست نصرانية بحتة ، فكل الديانات الالهية - من  
يهودية ونصرانية واسلام - ترى هذا النظر . وطبيعي لها أن تراه ، فمن أركان  
الأديان اتخاذ المقياس العمل الصالح لا المال ، وهي تهاجم ما ألف الناس من  
تقديرهم الانسان بغناه ، فالدين يرى أن العمل الصالح له قيمته الذاتية سواء أتى  
من غنى أو فقير ، بل طبيعي أن يكون بعض الأعمال من الفقير أفضل  
كالأعمال الخيرية المالية ، إذ تضحية الفقير أعظم ، فعدل أن يكون ثوابها  
أعظم ، ومحمد رسول الله عَفَّ عن الغنى ولم يشأ أن يكون غنياً ، وكان في امكانه  
أن يكونه . ووردت في القرآن نفسه . آيات تمجّد الفقراء الصالحين : « لِلْفُقَرَاءِ  
الْمُهَاجِرِينَ السَّادِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ » « لِلْفُقَرَاءِ  
الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ » فاتحاد  
الاسلام والنصرانية في مدح الفقر لا يدل على أخذ الاسلام ذلك من النصرانية ،  
قالوا : إن العربي كان يفضل الغنى على الفقر ، فقد قال عروة بن الورد .

دَعَيْتِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمْ الْفَقِيرِ

ولكن ، قد قال عربي غيره ، وهو قيس بن الخطيم :

غَنَى النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ غَنَى وَفَقْرُ النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ شَقَاءُ

وليس في هذا ولا ذاك دليل على قولهم ، فكلامنا في الاسلام . والاسلام حكمه ما بيننا « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ رَءِةٍ شَرًّا يَرَهُ » « مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ رَوَيْتَ فِي النَّصْرَانِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ أَخْبَارَ كَثِيرَةٍ ، وَقَصَصَ عَنِ الْفُقَرَاءِ وَفَضْلِهِمْ ، أَدْخَلَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي كِتَابِهِمْ . كَالَّذِي رَوَى فِي الْإِحْيَاءِ « أَنَّ الْمَسِيحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ فِي سِيَاحَتِهِ بِرَجُلٍ نَامٍ مَلْتَفٍ فِي عِبَادَةٍ ، فَأَيْقَظُهُ وَقَالَ : يَا نَامُ قُمْ فَادْكُرْ اللَّهَ تَعَالَى ، فَقَالَ مَا تَرِيدُ مِنِّي : إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا . فَقَالَ لَهُ فَنِمَّ إِذَا » وَمَرَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِرَجُلٍ نَامٍ عَلَى التُّرَابِ وَتَحْتَ رَأْسِهِ لِسِنَّةٌ ، وَوَجْهُهُ وَلِحْيَتُهُ فِي التُّرَابِ وَهُوَ مَتْرَبٌ بِعِبَادَةٍ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ عَبْدُكَ هَذَا فِي الدُّنْيَا ضَائِعٌ ! فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : يَا مُوسَى أَمَا عَلِمْتَ أَنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَى عَبْدٍ بَوَّجَهِي كَلَّهَ زَوَيْتَ عَنْهُ الدُّنْيَا كُلَّهَا ، وَقَالَ الْمَسِيحُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بِشِدَّةٍ يَدْخُلُ الْغِنَى الْجَنَّةَ ، وَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ مَنْ أَحْبَبَاؤُكَ مِنْ خَلْقِكَ حَتَّى أَحْبَبَهُمْ لِأَجْلِكَ ؟ فَقَالَ كُلُّ فَقِيرٍ فَقِيرٍ الْحَاجِّ . وَيُظْهِرُنَا أَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارَ وَأَمْثَالَهَا لَوَلَّيْتُ حَيَاةَ الْمُسْلِمِينَ بِلُونٍ خَاصٍ ، فَقَدْ كَانَ الْإِسْلَامُ فِي أَصْلِهِ يَدْعُو إِلَى الْعَمَلِ فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا يَحِبُّ الرَّهْبَانِيَّةَ . وَيَقْدِرُ الْعَمَلُ مِنْ عَمَلٍ ، غَنِيًّا كَانَ أَوْ فَقِيرًا . ثُمَّ رَأَيْنَا الْأَخْبَارَ الَّتِي وَرَدَتْ بَعْدُ مِنْ مِثْلِ مَا حَكَى فِي الْإِحْيَاءِ تَحْتَ عَلِيٍّ نَزْعَةَ جَدِيدَةٍ ، هِيَ الْهَرَبُ مِنَ الْغِنَى ، وَحُبُّ الْعِبَادَةِ ، وَإِنْ تَرَكَ صَاحِبُهَا الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا . وَهِيَ نَزْعَةُ أَشْبَهَ مَا تَكُونُ بِالرَّهْبَانِيَّةِ لَمْ نَعْرِفْهَا كَثِيرًا فِي الْأَيَّامِ الْأُولَى مِنْ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ .

رَوَى أَنَّ رَفِيقَةَ مِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ كَانُوا فِي سَفَرٍ ، فَلَمَّا قَدَمُوا قَالُوا مَا رَأَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَكَ أَفْضَلَ مِنْ فُلَانٍ كَانَ يَصُومُ النَّهَارَ ، فَإِذَا نَزَلْنَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى نَرْتَحِلَ . قَالَ فَمَنْ كَانَ يَمْنَهُ لَهُ وَيَكْفُلُهُ ؟ قَالُوا كَسَلْنَا قَالَ : كَلِمَتُكُمْ أَفْضَلُ مِنْهُ . وَفِي التَّارِيخِ عَنِ مَوْرُخِ الْمُسْلِمِينَ بِتَارِيخِ النَّصَارَى ، وَكَانَ مِنْ أَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ

اليعقوبي ، فقد ذكر في تاريخه مقتبسات من الانجيل . وفي تاريخ الطبري طرف من تاريخ النصارى ، ففيه خبر طائفة من الحواريين وخبر جرجيس وهو - كما يقول الطبري - عبد صالح من أهل فلسطين ، أدرك بقايا من حواريتي عيسى وأطال في قصته . وفيه خبر أصحاب الكهف ، الخ . وكذلك فعل المسعودي . وقد خلطوا فيما كتبوه بين الأخبار الصحيحة ، والأقاصيص المتداولة على الألسنة ، كما فعلوا فيما نقلوا من تاريخ اليهود .

وغير هذا الذي ذكرنا كانت المناقشات الدينية بين المسلمين والنصارى ، فقد فتح المسلمون البلاد كالشام والعراق ، وكانت مملوءة بالنصارى ، فلها بدأت الحرب بالسيف بدأت الخصومة باللسان . كان المسلمون يدعون الى الاسلام ، فيضطرهم ذلك إلى ذكر الحجج والبراهين على صحة هذا الدين . فكان رؤساء النصرانية يقابلون الحجج بحجج ، فنشأ من هذا جدل كثير ، وكثر ذلك في الدولة الأموية . وكان أكثر ما يكون في الشام ، إذ دمشق عاصمة الخلافة ، وفي الشام كثير من النصارى ، لأنها كانت في يد الرومان النصارى . ولأن قصور الخلفاء الأمويين في دمشق كان فيها نصارى ، يتولون مناصب كبيرة - من ذلك ما حكى لنا عن يحيى الدمشقي ، فقد كان نصرانياً شديداً التمسك بنصرانيتها ، وعمل هو وأبوه في قصر عبد الملك بن مروان ، وألف يحيى كتاباً للنصارى يدفع به دعوة المسلمين ، من أمثال ما جاء فيه : « إذا قال لك العربي ، ما تقول في المسيح ؟ فقل له : انه كلمة الله ، ثم ليسأل النصراني المسلم بمسمى المسيح في القرآن ، وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم ، فانه سيضطر الى أن يقول « كلمة الله ألقاها الى مريم ورُوح منه » فان أجاب بذلك فاسأله : هل كلمة الله وروحه مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فان قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله اذن كان ولم تكن له كلمة ولا روح قال يحيى : فان قلت ذلك فسيفحهم العربي ، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين . والمسلمون ردوا على هذا

الاعتراض بأن المراد بالكلمة أنه وجد بكلمة الله وأمره، من غير واسطة كما قال: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» وأما الروح فتستعمل بمعنى الرحمة، كقوله تعالى «وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ» وأن عيسى لما لم يتكون من نطفة الأب، وإنما تكون من نفخة الملك وُصف بأنه روح، وقد سمي الله جبريل رُوحاً، ولم يقل أحد فيه ما قالوا في عيسى، وقال الله في آدم (ونفخت فيه من روحي) كما قال في عيسى وسمى القرآن روحاً فقال: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا»، الخ. قالوا وحيث لا يرد اعتراض يحيى الدمشقي لأنه اعتراض وارد على فهم ظاهر لفظ «كلمة» وروح. على كل حال كان هناك جدال بين المسلمين والنصارى، وكان ذلك يضطر كلا لقراءة كتب الآخر، يستعين بها على تأليف حججه.

وفي الفرق الإسلامية نجد ظلاً للتعاليم النصرانية، فقد تجادلت الكنائس النصرانية مثلاً في خلود العذاب، وذهب آباء الكنيسة اليونانية إلى إنكار أبدية عذاب النار<sup>١</sup>. فرأينا جهنم بن صفوان يقول: إن الجنة والنار يفتيان ويقضى أهلها<sup>٢</sup>.

ويذهب الأستاذ فون كريمير «إلى أن فرقة المعتزلة نشأت من النصرانية، لأن آباء الكنائس كانوا يتجادلون في حرية الإرادة، وأن الإنسان مجبور أو مختار. وبعبارة أخرى في مسألة القدر، كما كانوا يتجادلون في صفات الله. وقد تسربت هذه العقائد إلى المعتزلة من طريق النصارى - بعد فتح المسلمين للشام - ومن أشهر من احتك بالمسلمين في ذلك العصر الأموي يحيى الدمشقي وثيودور ابوكا<sup>١</sup> Abucara وقد تكلم يحيى في أن الله مصدر الخير، وقال إن الخير يصدر من الله كما يصدر الضوء من الشمس، فتكلم المعتزلة الأولون في القدر وفي صفات الله أخذاً عن النصارى.

ولكني لا أرى هذا الرأي ، بل أرى أن مسألة القدر صدرت عن المسلمين أنفسهم ، وكان سبب ذلك أن القرآن الكريم وردت فيه آيات ظاهرها الجبر مثل قوله تعالى « وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » « أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » وبجانب هذا آيات ظاهرة الاختيار ، وأن الانسان مسؤل عن عمله مثل « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » « فَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ » « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْمَرْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ، وَمَنْ يَكْسِبِ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهَا عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » ووردت أحاديث كثيرة تتعرض للقدر ، وكان ذلك قبل فتح المسلمين للشام والعراق ، مثل ما روى عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » وعن علي قال « كنا في جنازة ببيقبع الغرقد ، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويده مخضرة فجعل ينكت بها الأرض ، ثم قال : ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ، فقالوا يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فسيصير الى عمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فسيصير الى عمل الشقاء . ثم قرأ « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » اوروى

١ اقرأ في هذا كتاب شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم

أن علياً - لما انصرف من صفين - قام اليه شيخ ، فقال أخبرنا عن سيرنا الى الشام أكان بقضاء وقدر ؟ « أخ ، الى كثير من أمثال ذلك .  
فنى من هذا أن فكرة القضاء والقدر كانت عند المسلمين قديما ، ويظهر أنها فكرة تحدث حول كل دين تقريبا ، فقد كانت فى اليهودية والنصرانية والمجوسية ، فلم كانت لما ظهرت فى الاسلام ، وكان شأنها شأن الديانات الأخرى عدت نصرانية الأصل ؟ بل تاريخ المعتزلة يدلنا على أن جداهم مع مجوس الفرس كان أكثر من جداهم مع اليهود والنصارى ، وأن كثير من أصول مذهبهم وضع للرد على الفرس لاعلى النصارى ، وأكبر ردهم كان على الجهمية أصحاب جهم بن صفوان الخراسانى الأصل ، لهذا نرى أن المعتزلة كانت نشأتهم الأولى اسلامية بحتة . وإن تأثروا بغيرهم من أهل الديانات الأخرى ، فمن ناحية أن هذه الديانات كانت تقترح على المعتزلة موضع النزاع : فاذا قال المجوسى الذى دخل الاسلام بالتجسيم ، أو قال بالجبر نازلها المعتزلة . ولكنهم يستندون فى حججهم على الاسلام والعقل ، أما بعد عصرهم الأول فهذا موضوع آخر سنتناوله عند الكلام فى المعتزلة فى العصر العباسى إن شاء الله .



واستمر الجدل بين المسلمين والنصارى فى عصرنا العباسى ، وقد حكى لنا الكتب منها الشيء الكثير كرسالة الجاحظ « فى الرد على النصارى »<sup>١</sup> فهى تصور لنا ما كان يثيره النصارى واليهود من شبهات ، وما كاد يدفع به المسلمون تلك الشبهات . كما تذكر لنا طرفا من أخبار اليهود والنصارى ، والسبب الذى من أجله كانت العداوة بين المسلمين والنصارى أقل من العداوة بين المسلمين واليهود ، الخ - ونقول لينا أن عبد الله بن اسماعيل الهاشمى كتب رسالة إلى

١ وردت هذه الرسالة باختصار فى رسائل الجاحظ على هامش الكامل ووردت بأطول من ذلك فى مجموعة ثلاث رسائل للجاحظ وهى التى نشرها يوشع فنيكل



عبد المسيح بن اسحاق السكندی يدعوها بها إلى الاسلام، فرد عليه عبد المسيح يدعوها إلى النصرانية، وكان ذلك في عهد المأمون<sup>١</sup>.

وحكى الجاحظ في الحيوان جدالاً كان بينه وبين النصراني في القرايين والذبايح<sup>٢</sup>، الى كثير من أمثال ذلك. وكل هذا الجدال يدل على معرفة اليهود والنصارى لكتب المسلمين يأخذون منها حججهم، ومعرفة المسلمين لكتب اليهود والنصارى كذلك.

وفي الأدب تسرب بعض ما للنصرانية إلى الأدب العربي من وجوه عدة:

١ — أن بعض الشعراء كانوا نصاري، فأدخلوا في شعرهم العربي شيئاً من النصرانية، وكان أوضح مثل لذلك في العصر الأموي «الأخطل» فقد ورد في شعره أثر من النصرانية مثل قوله:

ولقد حلفتُ بربِّ موسى جاهداً      والبيتِ ذِي الحُرُمَاتِ والأستارِ  
وبكلِّ مُهْتَبِلٍ عليه مُسُوْحُهُ      دُونَ السَّمَاءِ مُسَبِّحِ جَارِ  
لأَحْبِرْنَ لابنِ الخليفةِ مِدْحَةَ      ولأَقْدِفَنَّ بها إلى الأَمْضَارِ  
ويقول «والصليب والقربان لأتخلصنَّ إلى كليب خاصة — دون مضر —

يما يلبسهم خزيه ويلزهم عاره»<sup>٣</sup> وروى ابن الأثير أن الأخطل لما قال:  
لما رأونا والصليب طالعاً      ومارسرجيسَ وسمّاً ناقعا  
والخيلَ لا تحمل إلا دارعا      وأبصروا راياتنا لوامعاً الخ  
قال جرير:

أفبالصليب ومارسرجيسَ تتقي      شهباءَ ذاتِ مناكِبِ جمهوراً؟!

١ ورد اسم الرسالة والاشارة اليها في كتاب الاثار الباقية للبيروني، فاستشهد بكلام عبد المسيح على ذبح الصابئة للأدمين قرباناً للقمر، وقال: ان هذه الرسالة كتبت جواباً على كتاب عبد الله بن اسماعيل الهاشمي. وقد طبعت هذه الرسالة جمعية ترقية المعارف المسيحية بأوروبا ولكننا نشك كل الشك في أن هذه الرسالة كلها بعينها هي التي رآها البيروني لأسباب ليس هنا موضع ذكرها.

٣ أغاني ٧ : ١٧٣

٢ الحيوان ٤ : ١٣٨ وما بعدها

وقال أيضاً :

يستصرون بمارِ سرجسَ وابنه بعد الصليب ، وما لهم من ناصر !  
ولكن أثر النصرانية في شعره قليل ، كما لاحظ الأستاذ « لا مانس » بل  
هو متأثر في أيمانه بالاسلام أكثر من تأثره بالنصرانية ، كقوله :

إني حَلَفْتُ بربِّ الرَّاقيصَاتِ وَمَا أَضْحَى بِمَكَّةَ مِنْ حُجْبٍ وَأَسْتَارِ  
وبالهدى إذا احمرَّت مَدَارِعُهَا فِي يَوْمِ نُسْكِ وَتَشْرِيقِ وَتَنْحَارِ  
وما بزَمَزَمَ مِنْ شَمْطِ مُحَلَّقَةٍ وَمَا يَشْرِبَ مِنْ عُونِ وَأَبْكَارِ  
وقوله :

وقد حَلَفْتُ يَمِيناً غَيْرَ كَاذِبَةٍ بِاللَّهِ رَبِّ سِتُورِ الْبَيْتِ ذِي الْحُجْبِ  
وكلُّ مَوْفٍ بِنَذْرٍ كَانَ يَحْمِلُهُ مُضْرَجٍ بِدَمَاءِ الْبَدَنِ مُخْتَضِبِ  
وكذلك هو في حياته مضطرب بين عادات من حوله من النصارى  
والمسلمين ، فهو يشرب الخمر ويعلق الصليب ، وهو يطلق امرأته ويتزوج  
أخرى بل ويتسرَّى !

وفي العصر العباسي لم يشتهر كثير من النصارى بالشعر العربي ، وعرف  
منهم أبو قابوس قال في العمدة « كان أبو قابوس الشاعر رجلاً نصرانياً من  
أهل الحيرة » وكان منقطعاً إلى البرامكة يمدحهم ويمنحونه ، روى من شعره  
قليل ، من ذلك أنه استمنح جعفر بن يحيى البرمكي ثوباً يلبسه يوم العيد في  
الكنيسة ، فقال من قصيدة :

أبا الفضل لو أبصرتنا يومَ عيدنا رأيتَ مُباهاةً لنا في الكنائسِ  
فلا بدَّ لي من جُبَّةٍ من جِبَابِكُمْ وَمِنْ طَيِّلسَانٍ مِنْ خِيَارِ الطَّيَالِسِ

١ رقص البعير إذا أسرع في سيره ، والهدى النعم تهدي إلى الحرم ، والأشمط الذي شعر  
رأسه أبيض وأسود ، والعون جمع عوان وهي المرأة النصف والتي كان لها زوج .

ولكن - على العموم - شعراؤهم في عصرنا قليلون، وليس لهم كبير أثر في الشعر العربي، ولم يكن لهم مثل الأخطل، أو ما يقرب منه<sup>١</sup>.

٢ - كان أكبر من ذلك أثراً ما نقل - من المواعظ - عن الرهبان في الأديار، وما نقل عن الكتبت النصرانية. كالذي حكى ابن قتيبة « قال بعضهم أتيت الشام فمررت بدير حرملة وبه راهب كأن عينيه عدلاً مزاد، فقلت ما يبكيك؟ فقال يامسلم، أبكي على ما فرطت فيه من عمرى، وعلى يوم مضى من أجلي لم يحسن فيه عملي! قال ثم مررت بعد ذلك فسألت عنه فقالوا أسلم وغزا فقتل في بلاد الروم»<sup>٢</sup> ويقول ابن قتيبة أيضاً قرأت في الانجيل « لا تجعلوا كنوزكم في الأرض حيث يفسدها السوس والدود، وحيث ينقب السراق، ولكن اجعلوا كنوزكم في السماء، فانه حيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم، الخ»<sup>٣</sup> وفي العقد الفريد « قال عيسى عليه السلام للحواريين لا تنظروا في أعمال الناس كأنكم أرباب، وانظروا في أعمالكم كأنكم عميد. فانما الناس رجلان مبتلى ومعاقى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية»<sup>٤</sup> « ولقي رجل راهباً فقال ياراهب صف لنا الدنيا، فقال الدنيا تخلق الأبدان وتجدد الآمال وتباعد الأمنية وتقرّب المنية»<sup>٥</sup> الى كثير من أمثال ذلك.

ومن غريب الأمر أن هذه الأديار كانت منبعاً لشيين متناقضين أشد التناقض، كانت منبعاً لزهده وورع وبعد عن الدنيا وشؤونها، ومحطاً لبعض زهاد المسلمين، يروون عن الرهبان أقوالهم في الهرب من اللذات كالذي رويها. وكانت كذلك مناخ الخليعين من الشعراء والأدباء يخرجون اليها، ويتشبهون بفتيانها وفتياتها، ويقولون في ذلك القول الخليع والشعر الجميل. ذلك أن

١ انظر مصداق ذلك « كتاب شعراء النصرانية بعد الاسلام » للأب لويس شيخو

٢ عيون ٢ : ٢٧٠

٣ عيون الأخبار ٢ : ٢٩٧

٤ عقد ١ : ٢٧١

٥ العقد ١ : ٣٥٦

الأديار كانت غالباً في أجمل المواضع، وأحسنها هواء وأجملها منظرًا، تحيط  
بها أنواع البساتين وتجميل فيها الأزهار والرياحين، قال البُحْتَرِيُّ:  
ما تُقْضَى لُبَانَةٌ عِنْدَ لُبْنَى وَالْمَعْنَى بِالْغَانِيَاتِ مَعْنَى  
نزلوا رِبْوَةَ الْعِرَاقِ ارْتِيَادًا أَيُّ أَرْضٍ أَشْفُ دَارًا وَأَسْنَى ؟  
بَيْنَ دَيْرِ الْعَاقُولِ مُرْتَبِعٍ أَشْرَفَ مُحْتَلُهُ إِلَى دَيْرِ قُتَيْ  
حَيْثُ بَاتَ الزَّيْتُونُ مِنْ فَوْقِهِ النَّخْلُ عَلَيْهِ وَرُقُّ الْحَمَامِ تَعْنَى  
وشاع عند الشعراء ما فيها من خمر معتق، وشراب جيد مصفى .

إِنَّ عَجْزًا كَمَا نَكُونُ وَغَبْنَا أَنْ نُرَى صَاحِبِينَ فِي دَيْرِ قُتَيْ  
حَبْدًا رَوْضَهُ الْمُدْبِجُ لَيْلًا وَهَوَاهُ ذَاكَ الْمَمْسُكُ رُدْنَا  
قَدْ جَرَى السَّلْسِيلُ بِالْمِسْكِ فِيهَا فَحَوْتَهُ الدَّنَانُ ، دَنَا فَدَنَا

ويظهر أن الحنَّارين استغلوا شهرة الأديار بالشراب، فأنشئوا حولها الحانات،  
قال ابن فضل الله العُمَرِيُّ « وكانت حول دير العذارى حانات للخمارين  
وبساتين ومنتزهات »<sup>١</sup> وكانت تقام لبعض الأديار أعياد سنوية، قال الخالدي  
في دير الكلب « وله عيد في وقت من السنة يخرج إليه خلق من النصارى  
نساء ورجال للاقامة عنده وخلق من المسلمين للنظر إليه والنزهة فيه، ويجتمع  
إليه أهل الرفث والمُجَّان، وتُسمع به الأغاني وأنواع الملاهي، وتذبح به الذبائح  
وتشرب الخمر »<sup>٢</sup>

اغتم المجَّان من الشعراء هذا كله، فأنشئوا حول الأديار أدبًا غزيرًا، وشعرًا  
كثيرًا، هو من الناحية الفنية بديع ممتع، مثل قول ابن المعتز:  
يا لِيَالِيَّ بِالْمَطِيرَةِ وَالسَّكْرِ خُودَيْرُ السُّوسِيِّ بِاللَّهِ عَوْدِي

كنتِ عندي أُمُودَجاتٍ من الجنة لكنها بغيرِ خلودِ !  
أشربُ الرَّاحَ وهي تشربُ عقلي وعلى ذاك كان قتلُ الوليدِ  
وقول آخر:

ما ترى الدَيْرَ، ما ترى أسفلَ الديرِ وقد صار وردةً كالدّهانِ ؟  
لو رآه النُّعْمانُ شقَّ عليه ما يرى من شقائقِ النُّعْمانِ  
وآخر:

فتننا صورةً في بيعةٍ فتنَ اللهُ الذي صورها  
زادها الناقدُ في تحسينها فضلَ حُسنِ إلهِ نضرها  
وجهها لاشك عندي قنته وكذا هي عند من أبصرها  
أنا للقسِّ عليها حاسدٌ ليت غيري عبثاً كسرها

وسرت هذه العادة في كل الأقطار ، فتجد شعراء العراق والشام ومصر  
يتشبهون بالأديار ومن فيها وما فيها ، وتقرأ كتاب الديارات للشابشتي ومسالك  
الأبصار لابن فضل الله العمري ، فتعجب من كثرة ما قيل من الشعر فيها وسكانها ،  
وتراهم قد سلكوا في ذلك كل مسلك ، وتفنونوا كل فن ، وهم بين مستهتر ومحتشم  
وظريف مؤدب وخليع ماجن . وهكذا كانت الأديار مصدراً لنغماتين كان  
الناس يسمعونهما كثيراً في ذلك العصر : نغمة حزينة زاهدة ، تدعو إلى الفرار  
من الحياة وارتياب الموت . ونغمة مرحة لاهية ، تدعو إلى احتساء الكأس إلى  
آخر قطرة من قطراته ، كلٌّ يوقع على الوتر الذي يهواه ، وكلٌّ يغني على لسبلاه .

\*\*\*

كذلك نفذ إلى المسلمين بعض عادات اليهود والنصارى الدينية ، فقد اتخذ  
بعض المسلمين أعياد النصارى عيداً فيوم السَّعَّانين عرف في العصر العباسي

١ السعَّانين عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع

وما بعده، وقالت فيه الشعراء شعراً كثيراً. من ذلك ما يقوله عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع :

يا شادِنَا رَامَ اذْ مَرَّ في السَّعَانِينِ قَتْلِي

يقولُ لي كيفَ أَصْبَحْتَ، كيفَ يُصْبِحُ مِثْلِي؟!

ويقول :

يا ليلَةَ ليسَ لها صُبحٌ وموعداً ليسَ له نُجْحٌ

من شادِنِ مرَّ على وَعْدِهِ السَّمِيلادُ والسَّلَاقُ والذَّبْحُ<sup>١</sup>

وفي السَّعَانِينِ لو اني به وكانَ أَقْصَى الموعِدِ الفِصْحُ

فاللَّهِ اسْتَعْدَى على ظالمٍ لم يَغْنِ عنه الجودُ والشَّحُّ

ويقول :

إِنَّ في القَلْبِ من الظَّبِّي كُلوْمُ فدَعِ اللومُ فإبِ اللومِ لومُ

حَبَّذا يومُ السَّعَانِينِ وما نَلْتُ فيه من نعيمٍ لو يدومُ!

ان تكنَ أعْظَمْتَ أن هَمَّتُ به فالذي تركبُ من عدلِي عَظِيمُ

لم أكنَ أولَ من سنَّ الهوى فدَعِ اللومُ فذا داءٌ قديمُ<sup>٢</sup>

ويقول :

ان كنتَ ذا طِبِّ فداويني ولا تلمِ فاللومُ يغريني

يانظرة أبقت جوى قاتلاً من شادن يوم السَّعَانِينِ، الخ

ويرى ابن تيمية أن اتخاذ المسلمين القبور مساجد كان تقليداً لليهود والنصارى، وروى في ذلك الأحاديث الكثيرة مثل « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد » ويقول الشافعي

١ الميлад والسلاق والذبح أعياد للنصارى ٢ انظر كذلك ضحى الاسلام ص ٨٨

« وأكره أن يعظَّم مخلوق حتى يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس »<sup>١</sup> وعدد كثير من البدع التي أدخلت على زيارة القبور من أبنية الأضرحة وإيقاد المصابيح والتوجه بالدعاء نحو القبور، وختم ذلك بقوله « وكل هذه الأشياء من البدع التي تضارع دين النصارى »<sup>٢</sup> وعلى الجملة، فنظرة إلى هذا كله ترينا أن قد تسرّب إلى المسلمين - في العصر العباسي - شيء غير قليل من اليهودية والنصرانية في التفسير والحديث، والمذاهب الدينية والعادات والتقاليد، وأنهما كانتا عنصرين من عناصر الثقافة العامة في ذلك العصر.

\*\*\*

الاسلام - - : ليس من غرضنا - هنا - أن نبين تعاليم الاسلام وما دعا اليه، وما أتى به من أصول وفروع؛ فوضع ذلك قد مر في فجر الاسلام، وإنما غرضنا أن نبين تاريخ الاسلام في العصر العباسي، فهو بموضوعنا أليق. ليس من شك أن العباسيين لم يضيفوا كثيراً من البلدان والأقطار إلى رقعة المملكة الاسلامية، فنحن إذا قارناها في ذلك بالدولة الأموية رأينا العهد الأموي أكثر فتحاً، وأعظم نشرًا للاسلام؛ ففيه فتح السند وبُخارى وسمرقند إلى كاشغر، في حدود الصين. وفتحت الأندلس وكان الفاتحون - كما رأينا - فيهم الدعاة إلى الدين، وفيهم العلماء، فلم يكن الفتح فتحاً سياسياً حريباً فقط، بل كان أيضاً نشرًا للدعوة الاسلامية، وتعليماً لأصول الاسلام وفروعه، ووضعاً للنظم الاسلامية وتعليماً للغة العربية وما إليها. وتبع ذلك دخول عدد كبير من أهل البلاد المفتوحة في الاسلام<sup>٣</sup>، وكان أكبر همّ

١ ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٦٠ وما بعدها  
٢ ص ١٧٥ وقد عدد في هذا الكتاب أشياء كثيرة من العادات والتقاليد التي أخذت عن أهل  
الكتاب والمجوس فأرجع اليه ٣ روى بعض المؤرخين أن العراق كان يدفع من الجزية  
في عهد عمر بن الخطاب نحو مائة مليون درهم أو ١٢٠ مليوناً فقطص في عهد عبد الملك بن  
مروان إلى نحو ٥٠ مليوناً من كثرة دخول الذميين في الاسلام

العباسيين أن يُقوا على التراث الذى ورثوه عن الأمويين، ويحافظوا على وحدته، فنجحوا بعض النجاح أولاً وفشلوا أخيراً، وعلى العموم لم يزيدوا شيئاً يذكر من الأقطار الأجنبية على المملكة الإسلامية.

ولكن - مع هذا - كان للعباسيين أثر كبير فى دخول عدد عديد فى الاسلام، من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، مما فتح فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين.

وفى نظرى أن العباسيين من حيث هم أصحاب السلطان وأولياء الأمر والقابضون على زمام الدولة؛ بذلوا فى هذا الباب جهداً أكثر من الخلفاء الأمويين - اذا استثنينا عمر بن عبد العزيز - فقد كان نشر الدعوة فى العهد الأموى عمل قواد وعلماء وأفراد متدينين أكثر منه عمل حكومة، ولم يكن للخلفاء الأمويين - غالباً - مظهر دينى من هذا القبيل. أما الخلفاء العباسيون فقد صبغوا صبغة دينية ظاهرة، ونظر إليهم كأنهم حماة الاسلام. وكان أبو جعفر المنصور أكبر من أحاط الخلافة بالاجلال الدينى، وقوى من حرمة البيت العباسى، لامن ناحية القوة المادية - فحسب - بل من ناحية القوة الروحية كذلك. وكان من أثر هذا أن الخلفاء العباسيين لما ضعف نفوذهم المادى، وفقدوا السلطان على الرعية، ولم يك شىء من القوة فى أيديهم ظلت هذه السلطة الروحية فيهم، يستغلها القواد والأمرء والوزراء وأصحاب السلطان المادى. فيستجلبون رضى العامة باعلان رضى الخليفة عنهم وإمداده الروحى لهم. ومن مظاهر ذلك فى هذا العهد أن رأينا البيعة للخلفاء تحاط بأنواع من المراسم والشعائر لم تكن معروفة، وتؤكد البيعة فى الحرم، ويعلى شأن اجماع أولى الحل والعقد ونحو ذلك.

صبغة الخلفاء العباسيين بهذه الصبغة جعلتهم يشرفون على الدين من نواح مختلفة، ويتدخلون فى المسائل الدينية بأكثر مما كان الأمويون. من ذلك أنا



نرى المهدي - كما سبق - يتعقب الزنادقة ، ويعين من يلي أمرهم ، ويعاقب من ظهر منهم ، ويبحث العلماء على وضع الكتب في الرد عليهم . ويسير من بعده من الخلفاء سيرته ، وذلك ما لم نعهده من قبل المهدي . ونرى الرشيد يتصل بالقضاة والعلماء اتصالاً لم نعرفه في العهد الأموي ، فلا نجد - مثلاً - قاضياً كان من الخليفة الأموي من القرب والاتصال ؛ ما كان أبو يوسف من الرشيد .

ويصور أبو يوسف نظر الناس الى الخليفة في عصره ، فيقول للرشيد في أول كتابه الخراج « وإن الله بمنه ورحمته وعفوه جعل ولاية الأمر خلفاء في أرضه ، وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم ، ويبين ما اشتبه من الحقوق عليهم » وقعد ابراهيم بن السندي أمام المأمون على ركبته ، فقال له المأمون تمكن في قعودك ، فقال ابراهيم : والله لا أضع قدر الخلافة ، ولا أجلس إلا جلوس العبد بين يدي مولاه !

ويقول البحتري للبتوكل ويذكر خروجه يوم عيد الفطر :

أظهرت عزَّ الملك فيه يجحفل	لجِب يحاطُ الدينُ فيه وينصرُ
خلينا الجبال تسير فيه وقد غدت	عددٌ يسير بها العديدُ الأكثرُ
والخيلُ تصهلُ والفوارس تدعى	والبييضُ تلمعُ والأسنةُ تزهرُ
والأرضُ خاشعة تميلُ بثقلها	والجوُّ معتكرُ الجوانبِ أغبرُ
حتى طلعت بضوء وجهك فانبجلت	تلك الدُّجى وانجاب ذاك العشيرُ
واقتنَ فيكَ الناظرون فاصبغُ	يؤمى إليك بها وعينُ تنظرُ
يجدون رؤيتك التي فازوا بها	من أنعم الله التي لا تكفرُ
ذكروا بطلعتك النبي فهلألوا	لماطلعت من الصفوف وكبروا

حتى انتهيت الى المصطفى لا بساً نور الهدى يبدو عليك ويظهر  
ومشيت مشية خاشع متواضع لله لا يزهو ولا يتكبر  
فلو ان مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لمشي إليك المنبر  
أبديت من فصل الخطاب بحكمة تنبى عن الحق المبين وتخبر  
ووقفت في بُردِ النبي مذكراً بالله تنذر تارةً وتبشّر  
حتى لقد علم الجهول وأخلصت نفس المروى واهتدى المتحير  
صلوا وراءك آخذين بعصمة من ربهم وبدمة لا تخفر

وكان من أثر ذلك نشاط الخلفاء في نشر الدعوة إلى الاسلام ، مع ما كان من حمية الناس وحماسهم للدعوة . ولذلك رأينا كثيراً من أهل الملل الأخرى يدخلون في الاسلام أفواجا ، ولم يكن السبب لدخولهم واحداً ، فهناك - من غير شك - أسباب لذلك متعددة .

فمنهم من كان يسلم اقتناعاً بالاسلام ، وايماناً ببساطة عقيدته ويسرها وسهولة فهمها . فيكفي أن يقول الرجل « لا اله الا الله محمد رسول الله » ليعد مسلماً من غير مراسم ولا طقوس ، وفي أى مكان وعلى يد أى انسان . وساعد على ذلك ما لاحظته الأستاذ أرنولد « من أن المذاهب النصرانية من يعاقبة ونساطرة وملكانية وغيرها ، كان بينها من العداة واضطهاد بعضها بعضاً أشد مما كان بين أهل دين ودين آخر . فليس عجيباً أن يهرب آلاف من هذا الاضطهاد والعذاب ، ويلجئوا إلى عقيدة سهلة هي عقيدة الوجدانية »<sup>١</sup> وقد عمل - بجد - في نشر الدعوة في ذلك العصر المتكلمون من المسلمين وعلى رأسهم المعتزلة ، ذلك أن هؤلاء المتكلمين هم الذين كانوا يبحثون في الاسلام ، ويعلمون آراءه وتعاليمه من طريق العقل ؛ على حين أن المحدثين

١ انظر Preaching of Islam لأرنولد ص ٦١ وما بعدها

والمفسرين وأمثالهم كانوا يخدمون الإسلام من طريق النقل . فاضطر المتكلمون تمشياً مع العقل أن يتسلحوا بكل ما يعينهم في سبيلهم ، فاستعانوا بالمنطق اليوناني يصوغون في قوالبه قضاياهم ، وعرفوا آداب الجدل والمناظرة وتقيدوا بقوانينها ، وقرأوا بعض كتب الفلسفة اليونانية . فيذكر المرتضى « أن التَّظَام كان قد نظر في شيء من كتب الفلاسفة ، فلما وردَ البصرة كان يرى أنه قد أورد من لطيف الكلام ما لم يسبق علمه إلى أبي الهذيل العلاف . قال فناظرت أبا الهذيل في ذلك ، فخيلَ إليّ أنه لم يكن متشاغلاً قط إلا به لتصرفه فيه وحذقه في المناظرة فيه »<sup>١</sup> ويقول في موضع آخر : « إن جعفر بن يحيى البرمكي ذكر أرسططاليس . فقال النظام : قد نقضت عليه كتابه ، فقال جعفر كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه ؟ فقال أيما أحب إليك أن أقرأه من أوله إلى آخره ، أم من آخره إلى أوله ؟ ثم اندفع يذكر شيئاً فثبثاً وينقضه عليه فتعجب منه جعفر »<sup>٢</sup> ثم نظروا في كتب الديانات الأخرى وتبحروا فيها ، فيقول المرتضى أيضاً : « إن النظام كان يحفظ القرآن والإنجيل وتفسيرها »<sup>٣</sup> ووصف رجل واصل بن عطاء فقال « ليس أحد أعلم بكلام غالبية الشيعة ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين والرد عليهم منه »<sup>٤</sup> وبعد أن أعد المتكلمون - وخاصة المعتزلة - أنفسهم هذا الأعداد نزلوا في الميدان وقاموا بعمليتين ، أحدهما : أنهم نازلوا الطوائف الأخرى الإسلامية المخالفة لهم يجادلونهم ويردون عليهم ، ويدعونهم إلى عقائدهم الخاصة . فالمعتزلة تحارب المجبرة ، والمعتزلة تنازل الرافضة . تجادلوا جميعاً في الجبر والاختيار ، وفي صفات الله وفي التجسيم ، وفي الثواب والعقاب . وروت لنا الكتب الشيء الكثير من هذا الجدل ، وليس هذا الموضع محله . وثانيهما : منازلتهم لأهل الديانات الأخرى

من مجوس ويهود ونصارى ، ودعوتهم إلى الاسلام . وكانت هذه الحركة عنيفة في عصرنا ، على أشد ما يكون من العنف ، مانوية يدعون إلى دينهم ويظهرون محاسنه ، ويهاجمون الاسلام ويأتون بالحجج ، ويهود ونصارى كذلك . ولم يكن المحدثون وأمثالهم يستطيعون أن يقوموا بمناهضتهم ، إنما الذين استطاعوا ذلك واتتدبوا أنفسهم للقيام به هم المتكلمون ، حتى المرتضى « أن ملك السند طلب الى الرشيد أن يبعث اليه من يناظره في الدين فبعث الرشيد اليه قاضياً لا متكلماً - لأن الرشيد كان قد منع الجدل في الدين وحبس علماء الكلام - فانتدب ملك السند سُمْنِيّاً ليجادل القاضى فسأل السمنى القاضى ، أخبرنى عن معبودك هل هو القادر ؟ قال نعم ، قال أفهو قادر على أن يخلق مثله ؟ فقال القاضى : هذه المسألة من علم الكلام ، وهو بدعة وأصحابنا ينكرونه . فقال السمنى للملك : قد كنت أعلمتكم دينهم . وكتب ملك السند بذلك الى الرشيد فقامت قيامته وضاق صدره ، وقال أليس لهذا الدين من يناضل عنه ؟ ! قالوا بلى ياأمير المؤمنين ، هم الذين نهبتهم عن الجدل في الدين ، وجماعة منهم في الحبس . فقال : أحضروهم فلما حضروا قال ما تقولون في هذه المسألة ؟ فقال صبي من بينهم : هذا السؤال محال ، لأن المخلوق لا يكون إلا محدثاً ، والمحدث لا يكون مثل القديم ، فقد استحال أن يقال يقدر على أن يخلق مثله أو لا يقدر ، كما استحال أن يقال يقدر أن يكون عاجزاً أو جاهلاً ، فقال الرشيد : وجهوا اليه بهذا الصبي ، فقالوا إنه لا يؤمن أن يسأله على غير هذا ، فقال اختاروا غيره ، فاختاروا معمر بن عباد السلى ( من شيوخ المعتزلة ) فسَمِّ في الطريق »<sup>١</sup>

عرف المعتزلة المانوية واليهودية والنصرانية معرفة واسعة ، كما عرف علماء هؤلاء الطوائف الاسلام . وبذل كل فريق الجهد في الدعوة إلى دينه والرد

على مخالفه فأسلم على يدهم كثيرون : يقول ( المرتضى ) انه أسلم على يد  
أبي الهذيل العلاف - شيخ المعتزلة - أكثر من ثلاثة آلاف رجل<sup>١</sup>  
ويقول ابن خلكان « إن لأبي الهذيل كتاباً يعرف بميلاس ، وكان ميلاس  
رجلاً مجوسياً فأسلم ، وكان سبب اسلامه أنه جمع بين أبي الهذيل المذكور ،  
وجماعة من الثنوية قطعهم<sup>٢</sup> أبو الهذيل ، فأسلم ميلاس عند ذلك »<sup>٣</sup> وحكى  
الجاحظ « أن قساً نصرانياً راهن على أن الصليب الذي في عنقه من خشب  
لا يحترق ؛ لأنه من العود الذي كان المسيح عليه السلام صلب عليه ، وكاديفتن  
بذلك ناساً من غير أهل النظر حتى فطن له بعض المتكلمين ، فأتاهم بقطعة  
عود تكون بكرمان ، فكانت أبقى على النار من صليبه »<sup>٤</sup> . وحكى المرتضى في  
أماله « أن أبا الهذيل في حدائته بلغه أن رجلاً يهودياً قدم البصرة ، وقطع  
جماعة من متكلميها ، فقال لعمه ياعم امض بي الى هذا اليهودي حتى أكله ،  
وأخ عليه في ذلك ، فذهب اليه وما زال به حتى أخفمه<sup>٥</sup> . ويذكر ابن خلكان  
أن واصلاً ألف فيما ألف كتاباً في الدعوة ، والظاهر أنه في الدعوة الى  
الاسلام ، أو الدعوة الى مذهب الاعتزال . وقد رأينا قبل أن الجاحظ  
يؤلف رسالة في النصارى ، يذكر حججهم ويرد عليها ويروي ابن النديم :  
أن المأمون أرسل الى يزدانخت - أحد رؤساء المانوية - فأحضره من  
الرى - بعد أن أمنه - فقطعه المتكلمون . فقال له المأمون : أسلم  
يا يزدانخت فلولا ما أعطيناك إياك من الأمان لكان لنا ولك شأن ! فقال  
له يزدانخت : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ، ولكنك

١ ص ٢٦

٢ يعنى ألزمهم الحججة وقد استعملت كلمة قطعهم في هذا المعنى كثيراً في ذلك العصر

٣ ابن خلكان ١ : ٦٨٥ ؛ الحيوان ٥ : ٩٥

٥ انظر الحكاية بطلوها في أمالي المرتضى ١ : ١٢٤

من لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم . فقال المأمون أجل ، و وكل به حفظة  
خوفا عليه من الغوغاء ، وكان فصيحا لساناً <sup>١</sup>

وبجانب هؤلاء العقليين الذين يدعون الى الاسلام - من طريق العقل  
والحجج المنطقية - كان من يدعو الى الاسلام من طريق السيرة  
الطاهرة ، والخلق النبيل ، والحياة الصالحة ، فكان داعياً من طريق المثل .  
ومن ذلك ما حكى ابن خلكان « قيل إنه أسلم يوم مات احمد بن حنبل  
عشرون ألفاً من النصارى واليهود والمجوس » <sup>٢</sup> أو من طريق الوعظ  
والتصوف ، فأبو القاسم الجنيد يقف على حلقة في المسجد غلام نصراني  
ويسلم <sup>٣</sup> ، وبعد هذا العصر كان أبو الفرج بن الجوزي واعظاً مؤثراً وقد أسلم  
على يده كثيرون .

وكان الخلفاء العباسيون من أنشط الخلفاء في الدعوة الى الاسلام للصيغة  
الدينية التي شرحناها قبل .

وكان المأمون من أحرصهم على ذلك ، فحوله المتكلمون ، يدعون  
الى الاسلام . وهو بجنده ينشر دعوته ، روى البلاذري قال : « لما  
استخلف المأمون أغزى السغد وأشرو سنة ، ومن انتقض عليه من أهل فرغانة ،  
الجنند وألح عليهم بالحروب وبالغارات أيام مقامه بخراسان وبعد ذلك ، وكان  
مع تسريته الخيول اليهم يكتبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب  
فيهما » وقال « وكان المأمون - رحمه الله - يكتب الى عماله على خراسان  
في غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من أهل ما وراء النهر ، ويوجه  
رسله فيفرضون لمن رغب في الديوان ... ويستميلهم بالرغبة فاذا  
وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم ، ثم استخلف المعتصم بالله

١ الفهرست ٣٣٨ ٢ ابن خلكان ١ : ٢٣ ٣ ابن خلكان ١ : ١٦٥

فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ماوراء النهر من السعد والأشروسنة وأهل الشاش ، وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه وغلب الاسلام على من هناك <sup>١</sup>

وكان رجل من خراسان ، نصرانياً فأسلم فارتد ؛ فأمر المأمون بحمله الى بغداد ، فسأله ما الذى أوحشك من الاسلام ؟ فقال المرتد : أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف فى دينكم ! قال المأمون : فان لنا اختلافين ، أحدهما كالاختلاف فى الأذان وتكبير الجنائز والاختلافات فى التشهد وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ، ووجوه القراءات . واختلاف وجوه الفتيا ، وما الى ذلك ، وليس هذا باختلاف إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة فمن أذن مثنى وأقام فرادى ، لم يؤثّم من أذن مثنى وأقام مثنى ، لا يتعايرون ولا يتعايرون ، أنت ترى ذلك عياناً ، وتشهد عليه بياناً . والاختلاف الآخر كنجو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم مع إجماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فان كان الذى أوحشك هذا ، حتى أنكرت كتابنا ؛ فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التوراة والانجيل متفقاً على تأويله كالاتفاق على تنزيهه ، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصارى اختلاف فى شيء من التأويلات . . . ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه ، وورثة رسله لا تحتاج الى تفسير لفعل ، ولكنا لم نر شيئاً - من الدين والدنيا - دُفع اليه على الكفاية . ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة . فرجع الرجل الى الاسلام فخر المأمون ساجداً لله ، ثم قال لأصحابه : لا تبرؤوه فى يومه ريثما يعتق اسلامه كيلا يقول

عدوه إنه يُسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيحتكم من براه ونصرته وتأنيسه<sup>١</sup> .  
على كل حال نشط الخلفاء العباسيون الأولون في الدعوة إلى الاسلام ،  
ولكن قل أن كان منهم إكراه على الدخول في الاسلام ، كما رأينا في موقف  
المأمون نحو يزدان بخت ، فقد اعترف بأن المأمون لا يجبر الناس على ترك  
مذاهبهم ، وأقره المأمون على قوله ، يقول الأستاذ « فَنَسْنِكَ » : « ومع أن  
نصارى الشرق كان يقل عددهم باعترافهم الاسلام ، فقل منهم من  
أسلم كرهاً »<sup>٢</sup>

نعم ، صدر من بعض الخلفاء في ذلك العصر من اشتد في معاملة  
المسيحيين ، كالذي رواه الطبري في حوادث سنة ١٩١ فقد قال « إن الرشيد  
أمر بهدم الكنائس بالثغور ، وكتب الى السدي بن شاهك يأمره بأخذ  
أهل الذمة - بمدينة السلام - بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم  
وركوبهم »<sup>٣</sup> ولكن هذا وأمثاله كان أثراً من آثار سوء العلاقات السياسية  
بين الدولة الاسلامية والمملكة البيزنطية ، لا أثراً للتعاليم الدينية ، والافلم  
كان أمر الرشيد محتصاً بأهل الذمة في بغداد ، دون سائر الأقطار الاسلامية ؟  
وظلت الأوامر بمخالفة الذميين في لباسهم والتشديد عليهم تنمو مع نمو سوء  
العلاقات السياسية ، حتى بلغت أشدها في أيام الحروب الصليبية ، صدى لما  
كان من معاملة الروم للمسلمين .

كذلك لا تنكر أن بعض من أسلم إنما أسلم لنيل الجاه والمنصب ،  
كالذي كان من كاووس ملك أشروسنه ، فانه لما غلب في الحرب أظهر  
الاسلام ، وكذلك ابنه حيدر المعروف بالأفشين ، والذي مات في سجن  
المعتصم لزندقته كما أبنا من قبل<sup>٤</sup> . وحكى الجهشيارى أن الفضل بن سهل ( وكان

١ طيفور ص ٦٠ ووردت الحكاية في العقد الفريد مع خلاف في بعض ألفاظها

٢ Muslim Creed ص ٢٨ ٣ طبرى ١٠ : ١٠٠

٤ انظر البلاذرى ص ٤٣٦ و ٤٣٧



مجوسياً) نقل ليحيى بن خالد البرمكى كتاباً من الفارسية الى العربية ، فأعجب بفهمه وبجودة عبارته ، فقال له يحيى إني أراك ذكياً وستبلغ مبلغاً رفيعاً ، فأسلم ، حتى أجد السبيل إلى إدخالك في أمورنا ، والاحسان اليك ، فقال

نعم ، أصلح الله الوزير ، أسلم على يدك فقال له يحيى لا ، ودعا بسلام مولاة فقال خذ بيد هذا الفتى وامض به الى جعفر وقل له يدخله على المأمون - وكان المأمون في حجر جعفر - حتى يسلم على يديه ، ففعل وأسلم على يد المأمون . وهو الذى صار فيما بعد وزير المأمون ، والذى لقب بذي الرياستين . كما أسلم بعض الناس فراراً من الجزية ، حتى إن بعض الولاة كتب الى الحجاج « إن الخراج قد انكسر ، وإن أهل الذمة قد أسلبوا ، ولحقوا بالأمصار ، فأخذ الحجاج منهم الجزية مع إسلامهم ، وجعل قراء البصرة يبكون لما يرون ! »<sup>٢</sup> ولكن هذه الجزية لم تكن بالمرهقة « فهى لا تؤخذ من المسكين الذى يتصدق عليه ، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ، ولا من ذمى يتصدق عليه ، ولا من المترهبين الذين فى الديارات إذا لم يكونوا من أهل اليسار .. ولا تؤخذ الجزية من الشيخ الكبير الذى لا يستطيع العمل ولا شىء له »<sup>٣</sup> ويدفع الغنى ٤٨ درهما كل سنة ، ويدفع الوسط ٢٤ درهما ، والعمال والصناع ونحوهم ١٢ درهما<sup>٤</sup> . وهذا مقدار محتمل ، لا يدعو كثيرين أن يهربوا من دينهم .

\*\*\*

وكما أثر النصارى فى المذاهب الاسلامية ، والعادات - كما أسلفنا - أثر المسلمون فى النصارى ، فقد ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الاسلام . من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى أى فى القرنين الثانى والثالث الهجرين ظهرت

٣ الخراج لابن يوسف

٢ ابن الاثير ٤: ١٢٩

١ الوزراء ٢٨٧

٤ الدرهم نحو قرشين مصريين ونصف قرش

في سبتمانيا (Septimania) <sup>١</sup> حركة تدعو الى انكار الاعتراف أمام القسس، وأن ليس للقسس حق في ذلك، وأن يضرع الانسان الى الله وحده في غفران ما ارتكب من إثم، والاسلام ليس له قسيسون ورهبان وأخبار، فطبعي ألا يكون فيه اعتراف <sup>٢</sup>

وكذلك كانت حركة تدعو الى تحطيم الصُور والتماثيل الدينية «Iconoclasts» ذلك أنه في القرن الثامن والتاسع الميلادي أو القرن الثالث والرابع الهجري ظهر مذهب نصراني يرفض تقديس الصور والتماثيل، فقد أصدر الإمبراطور الروماني ليو الثالث أمراً سنة ٧٢٦ م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل، وأمراً آخر سنة ٧٣٠ م، يعد الاتيان بهذا وثنية. وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع، على حين كان البابا جريجوري الثاني والثالث وجرمانوس بطريك القسطنطينية والامبراطورة ايريني من مؤيدي عبادة الصور، وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة الى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالاسلام، ويقولون ان كلوديوس Claudius أسقف تورين (الذي عين سنة ٨٢٨ م وحول ٢١٣ هجرية) والذي كان يحرق الصور والصلبان، وينهى عن عبادتها في أسقفيته، ولد وربى في الأندلس الاسلامية <sup>٣</sup> - وكرهية الاسلام للتماثيل والصور معروفة. روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت «قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل، فلها رآه هتكة وتلوّن وجهه، وقال يا عائشة أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاھون بخلق الله، قالت فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين» <sup>٤</sup> والأحاديث في هذا الباب مستفيضة.

كذلك وُجدت طائفة من النصارى، شرحت عقيدة التشليث بما يقرب

١ سبتمانيا مقاطعة فرنسية قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط  
٢ خداجش  
٣ خداجش  
٤ السهوة النافذة بين الدارين والقرام الستر

من الوحدانية ، وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام<sup>١</sup> ،

\* \* \*

ومسألة أخرى كبيرة الأهمية في عصرنا الذي نؤرخه . تلك هي أن تصور كثير من المسلمين للأسلام في ذلك العصر يختلف عن تصور المسلمين له في العصور الأولى ، فحياة العربي الساذجة البسيطة السهلة تعقدت ، والديانات المختلفة تسربت والأعاجم الذين كانوا وثنيين أو مانويين أو نحوهم دخلوا في الاسلام ولم تنقروء وسهم من كل ما علق بها من الديانات القديمة . وقد عاشوا في المدن المركبة المعقدة ، فنظروا الى الاسلام بعيونهم ، لا بالعين العربية الأولى . وحق ما يقال : إن الأمم وإن اتحدت ديناً فكل أمة يختلف نظرها في تفاصيل دينها عن الأمم الأخرى ، وهي تنظر الى الدين من خلال تاريخها ونظمها الاجتماعية ، من خلال أديانها المتعاقبة . ومن خلال لغاتها وتقاليدها ، ومن خلال ثقافتها وتربيتها ، الى غير ذلك . كل المسلمين يقولون « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولكن نظر العالم الواسع الثقافة الى الاسلام غير نظر العامى الجاهل ، وكلاهما غير نظر الصوفي ، وهكذا . بل نظر المسلمين من المصريين - على وجه العموم - الى الاسلام ؛ يختلف في تفاصيله عن نظر الهنود المسلمين والأتراك المسلمين . لأن كل أمة تداول عليها من العوامل ما يخالف غيرها ، وذلك - من غير شك - خالف بين أنظارتهم وعقلياتهم ، والناس كانوا ينظرون الى الاسلام نظراً يختلف باختلاف العصور ، يعجبني في ذلك ما رواه البخارى والترمذى عن أنس بن مالك المتوفى سنة ٩٠ هـ قال « ما أعرف شيئاً مما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل : الصلاة ؟ قال أليس صنعتم ما صنعتم فيها ! » فأنس رضى الله عنه قد شاهد عصر النبي

١ Haine's Christianity of Islam in Spains ص : ١١٦

٢ باب الاعتصام بالسنة

صلى الله عليه وسلم وعصر الأمويين ومع قرب العصرين لاحظ اختلاف  
الانظار والأعمال ، فكيف اذا شاهد العباسيين ومن بعدهم . قد كان الاسلام  
سهلا يسيرا ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إن هذا الدين يسر ، وإن  
يشادَّ الدينَ أحدٌ إلاَّ غلبه » . ويقول : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدَّد  
عليكم ، فان قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع  
والديار ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم »<sup>١</sup> ، « وكان القاسم بن محمد  
يلبس الخنز ، وسالم بن عبد الله يلبس الصوف ، ويقعدان في مسجد المدينة ،  
فلا ينكر هذا على هذا ، ولا ذا على هذا »<sup>١</sup> وكان هناك نزعة لبعض الصحابة  
في الغلو في الدين ، فقاومها رسول الله صلى الله عليه وسلم . كالذي كان بينه  
وبين عبد الله بن عمرو ، فقد بلغه أنه لا ينام ولا يفطر ، ولا يؤدي حقوق  
أهله انهما كافي العبادة . فقال له رسول الله يا عبد الله إن لك في رسول الله أسوة  
حسنة ، فرسول الله يصوم ويفطر ويأكل اللحم ، ويؤدي الى أهله حقوقهم .  
يا عبد الله إن لله عليك حقا ، وإن لبدنك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك  
حقاً »

وبعد هذا رأينا تشدداً في دين ، وابتداعاً لتقاليد ، وغلوا في نواح  
مختلفة ، منهم من يلبس الصوف ويلتزمه ، ومنهم من يعلو في الافكار عليهم  
» قدم حماد بن سلمة البصرة ، فجاهه فرَّ قد السنجي ، وعليه ثياب صوف .  
فقال له حماد دع عنك نصرانيتك !<sup>٣</sup> وقال ابن السماك لأصحاب الصوف ، والله  
لئن كان لباسكم وفقا لسرا تترك ، فقد أحببتهم أن يطالغ الناس عليها ، وإن كان  
مخالفا لقد هلكتم !<sup>٤</sup> وكان بعض الموالى يتشدد في الوضوء والطهارة ، ويغلو  
في ذلك غلواً لا يعرفه العرب . فكان العرب يكرهون منهم ذلك<sup>٥</sup> ، الى كثير  
من أمثال هذا .

١ أخرجه أبو داود ٢ العقد الفريد ١ : ٢٥٠ ٣ العقد ١ : ٢٥٠

٤ انظر العقد ٢ : ٩١

وهناك ما هو أهم من هذا، ذلك أن الناس في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبعده كانوا يقرءون القرآن أو يسمعونه فيُعَنُونَ بتفهّم رُوحه ، فإن عنى علماءؤهم بشيء وراء ذلك فما يوضح الآية من سبب للنزول ، أو استشهاد بأبيات من أشعار العرب تفسر لفظاً غريباً ، أو أسلوباً غامضاً . وأكثر ما روى لنا في الطبري وغيره عن الصحابة في تفسير القرآن هو من هذا القبيل ، وما عرفنا في العصر الأول انحياز الصحابة الى مذاهب دينية ، وآراء في الملل والنحل . فلما كنا في آخر العصر الأموي رأينا الكلام في القدر ، ورأينا المتكلمين فيه ينظرون الى القرآن من خلال عقيدتهم ، فن قال بالجبرِ أوّل كلّ آيات الاختيار . ومن قال بالاختيار أوّل كلّ آيات الجبر . وسال بعد ذلك السيل في العصر العباسي ، فصارت كل طائفة وأصحاب كل مذهب ينظرون إليه من خلال مذاهبهم . ولئن كان هذا النظر أفاد من ناحية الجدال بين المسلمين وغيرهم والدعوة الى الاسلام - كما بينا في موقف المعتزلة - فقد أساء باضعاف الروح الدينية وما كانت توحيه من احياء القلب . أصبح علماء الكلام والمذاهب الدينية ، ينظرون الى القرآن من خلال الفلسفة اليونانية ، وذلك إن كان فيه مران عقلي وتوسيع لبعض مناحي الفكر ، ففيه إضعاف لقوة الروح وحماسة القلب ؛ سواء في ذلك المعتزلة والأشعرية والماتريدية ، فكلهم استخدموا الأدلة اليونانية في العقائد الدينية، وهي غير الطريقة التي نحاهها القرآن الكريم في الدعوة الى الدين ، لقد كادوا بعلمهم هذا يقطعون الصلة بين العقل والقلب ، وينمّون الناحية العقلية على حساب قوة العاطفة ، ان شئت فاقراً - لا ثبات قدرة الله - قوله تعالى « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الشَّجَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاًَّ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ثم اقرأ - في

كتب علم الكلام - الجدل بين الأشعرية والماتريدية في أن القدرة صفة أزلية تتعلق وفق الإرادة ، بمعنى صحة صدور الأثر والتمكن من الترك كما يقول الماتريدية ، أو هي صفة تؤثر في المقدورات عند تعلّقها بها كما يقول الأشاعرة . فكم من الفرق بين المنهجين والروحين ! أهمُّ غرض للقرآن الكريم أن يحيي الشعور ببيان علاقة الانسان القوية بالله والعالم ، وأن يعمل على ذلك بتغذية الحياة الروحية . أما المتكلمون فأرادوا أن يصلوا إلى ذلك من طريق المنطق ، وشتان بين الطريقتين ! حياة المنطق لا تملأ القلب حماسة ، ولا تبعث في النفس حرارة إيمان ، إنما تفعل ذلك الحياة الروحية .

نقد كثرت المذاهب والنحل في ذلك العصر كثرة مدهشة ، حتى يصفهم المأمون فيقول : « وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلساً ، اعتقد به رئاسة ، لعله يدعو فئة الى ضرب من البدعة . ثم لعل كل رجل منهم يعادى من خالفه في الأمر الذي عقد به رئاسة بدعة ويشيط بدمه ، وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك ، الا أن ذلك أمر لا رئاسة له فيه فسألته عليه » الخ . ونستعرض أسماء الفرق والمذاهب في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، فدهش لكثرتها واختلافاتها . وهذه كلها كانت تنظر الى القرآن الكريم بعين مذهبها وتفسره بما يلائمه . فالمعتزلي يطبق القرآن على مذهبه في الاختيار والصفات والتحسين والتقيح العقليين ، ويؤوّل ما لا يتفق ومذهبه ، وكذلك يفعل الشيعي ، وذلك يختلف كل الاختلاف عن نظر المسلمين الأولين الى القرآن . كان القرآن يدعو إلى الايمان من طريقتين : طريق النظر الى العالم نفسه وطريق التاريخ . فهو يرى أن نظر الانسان الى العالم يدعم إيمانه ويقوى يقينه ، ففي الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، والابل كيف خلقت والسماء كيف رفعت والأرض كيف سطحت آيات على الله : كما أن في الأحداث

التاريخية من الأنبياء وأعمهم ما يدعو الى الايمان، وهذا النظر يناسب الناس على اختلافهم . ففي استطاعة العالم والجاهل أن ينال الايمان من هذا الطريق ، والدعوة الى الحياة الروحية وحدها هي الدعوة التي يمكن أن توجه الى الناس كافة . فلما أولع العلماء بالفلسفة اليونانية في العصر العباسي حولوا اتجاه القرآن نفسه الى نوع من الثقافة العقلية والبراهين المنطقية ، ودرسوا القرآن على النحو الذي يدرسون به الحساب والهندسة والهيئة ، فكان في ذلك إضرار بالدين من ناحيته القلبية . ونتج عن ذلك تعقيد العقيدة الاسلامية السهلة السمحة ، حتى صار يمثلها تعاليم المتكلمين من معتزلة وأشعرية ، وأصبح أخيراً يمثلها « العقائد النسفية » و « متن السنوسية » وشعر بهذا النقص قوم من الصوفية المخلصين ، فدعوا إلى الاسلام من منهجه الأول . ولكن سرعان ما تحول بعضهم أيضاً إلى الفلسفة يستمد منها ، كما سنبينه إن شاء الله .

وكان كلما تعمق المسلمون في العلوم والفلسفة نظروا الى القرآن من خلالها ، فاذا أتت آية في الرعد والبرق شرحوها بكل ما وصل إليه علمهم في الظواهر الجوية ، وإذا أتت آية في النجوم والسماء طبّقوا ما علموا من علم الهيئة ، وإذا أتت إشارة في آية الى جبر أو اختيار عدّدوا مذاهب المتكلمين فيها ، واذا أتت مسألة نحوية أفاضوا في الخلافات النحوية بين البصريين والكوفيين . وعلى الجملة ، فقد كدّسوا كل ما عرفوا من علوم حول الآيات القرآنية ، وتضخم ذلك على توالي الأزمان ، كما ترى بعد في تفسير الفخر الرازي ، ففيه كل شيء وصل إليه المسلمون إلا شيئاً واحداً ، هو شرح روح القرآن .

\*\*\*

ولكن إن كانت هذه نقطة ضعف في الفلسفة والعلوم من ناحية الدين فقد كان لها فضل كبير من الناحية الدينية أيضاً ، ذلك أن الناس واجهوا

مشكلة كبرى في العصر العباسي ، رأوا مدنيات عظيمة للأمم مختلفة ، ورثتها المملكة الاسلامية ، ورأوا عادات مختلفة للأمم متعددة في جميع مناحي الحياة ، ورأوا معاملات تجارية ونُظماً للأحوال الشخصية تأثرت بديانات الأمم المختلفة . وهكذا في كل ناحية من النواحي الاجتماعية ، سواء كانت نواحي اقتصادية أم سياسية أم قانونية . ورأوا - من ناحية أخرى - أن الاسلام أتى بأصول يجب المحافظة عليها ، وأتت فيه نصوص كذلك على جزئيات يجب مراعاتها ، ولكن في كل عصر تحدث من الأفضية والأحداث ما لم يكن حدث من قبل ، ولم يرد فيه نص . فكان أمام العلماء أن ينظروا باحدى العينين الى قواعد الاسلام وتعاليمه ، وبالعين الأخرى إلى المدينة العباسية ، وما جدَّ فيها من مظاهر وأحداث شتى ، وكان لابد من أن يطبقوا قواعد الاسلام على تلك الأحداث - ولم يكن هذا بالأمر الهين - نعم عرضت هذه المشكلة في تاريخ الاسلام من قبل العباسيين ، قد واجهها عمر بن الخطاب رضی الله عنه ، بعد أن فتحت الفتوح ومُصرت الأمصار ، ودخلت أُمم مختلفة العقائد والنظم واللغات تحت حكم الاسلام ، وبذلك من الجهد هو ومن حوله من العلماء ما لا يقدر ، وضرب مثلاً صالحاً لمن يأتي بعده . ولذلك نص المشترعون على العمل برأيه في كثير من نظام الفتح والجهاد والضرائب ، ونحو ذلك ، وعدوه مثلهم الذي يحتذى . وواجه هذه المشكلة الأمويون ، فحوروا في نظم الدواوين والنقود ونحوها ، فخطوا بذلك خطوة ثانية . ولكن المشكلة أمام العباسيين كانت أعقد لأن دهشة الفتح قد زالت ، والأمم التي دخلت في الاسلام استقرت ونسَلت جيلاً جديداً ، ورث من آباءه وورث من المسلمين . والعباسيون - كما رأينا قبل - لم يشاءوا أن يعيشوا عيشة ساذجة كمن قبلهم من الأمويين ، وتغلبت العناصر الأخرى كالفرس ذات الحضارة المركبة ، فكان من ذلك كله أن أرادوا أن يضعوا نظماً كاملة شاملة ،



وأن يواجهوا هذه المشاكل ويحلوها حلاً بقوانين ومبادئ، لا بأمر جزئي ولا برأى فرعي، فأعاتهم العلوم في ذلك العصر على هذا كله، ولولا العلوم ما استطاعوا. فرأينا أبا يوسف في كتابه «الخراج» يضع النظام المالي لدولة الرشيد، فيقرر نظام الأرض ومسحها، وما يؤخذ منها وكيف يكون ذلك، ويضع نظام الضرائب غير الأرض مما يخرج البحر ونحوه، ويضع نظام الري من الآبار والأنهار. ونجد الأئمة الأربعة وغير الأربعة يجتهدون في وضع القوانين من مالية وجنائية وما يسمى بالأحوال الشخصية، وغير الفقهاء يضعون نظاماً إدارية كنظام الشرطة والجنود والجيش، وقد تتعارض نظم الفقهاء مع نظم الإداريين فينظر في التوفيق بينهما، ويوضع نظام البريد والمصانع والتجارة ونحوها، كل هذه حركات كانت في الدولة العباسية نشيطة قوية، وكانت خاضعة في مبادئها للقواعد الأساسية للإسلام. وبذلك نستطيع أن نقول: إنه في هذا العصر قنن الإسلام وأصبح هو النظام لحكومة مدّنة - بالمعنى العصري - نعم كان هناك خروج عن الإسلام في بعض التصرفات، وكان هناك نقص في تنفيذ الأحكام القضائية، وكان هناك نقص في إعطاء الأحكام الفقهية سلطة القانون، ولكن هذا لا ينقض ما ذكرنا من أن الروح العامة - في التشريع ووضع النظم - كانت تتقيد بأصول الإسلام. وأنه لو لا اشتغال المسلمين بالعلم في فروعه المختلفة ما كان يمكن ذلك. وهذا الإسلام بتعاليمه ونظم حكمه أظل كل الأمم الإسلامية على اختلاف أنواعها من آريين وساميين وحاميين يخضعون لسلطانه، ويجرون في نظامهم وقضائهم ومعاملاتهم على ما قنن من أحكامه. ومن أجل هذا أخذت الفروق بين الأمم تتقلص ويحل محلها وحدة إسلامية. ومن أجل ذلك أيضاً كانت هذه الوحدة متجلية في العصر العباسي أكثر مما كان في العهد الأموي، ودخل الإسلام في الحياة العامة وفي السياسة وفي الإدارة،

وتأثر التشريع بعادات الناس ، وتأثرت عادات الناس بالتشريع .  
كان الاسلام ديناً في مكة ، وكان ديناً وحكماً في المدينة ، وكان ديناً وحكماً  
ومدنية في بغداد وسائر المملكة الاسلامية في العصر العباسي . ولعل هذا من  
الأسباب التي دعت إلى دخول كثيرين في الاسلام في ذلك العصر ، فقد  
كان الناس يتنفسون اسلاماً أينما حلوا ، في البيت ، في الشارع ، في المحكمة ، في  
المعاملات التجارية ، في الضرائب ، في التعليم ، في كل مرافق الحياة .

\*\*\*

وبعد فقد كان للاسلام ثقافة واسعة من تفسير للقرآن واشتغال بالحديث  
وتشريع للأحكام ، ولكن محل ذلك كله الكلام في الحركة العلمية إن  
شاء الله .

## الفصل السادس

### امتزاج الثقافات

هذه الثقافات التي ذكرنا من فارسية وهندية، ويونانية وعربية. ومن يهودية ونصرانية واسلام، التقت كلها في العراق في عصرنا الذي نورخه. ولكن كل ثقافة في أول أمرها كانت تشق لنفسها جدولاً خاصاً بها يمتاز بلونه وطعمه، ثم لم تلبث الا قليلاً حتى تلاقى، وكوّنت نهراً عظيماً تصب فيه جداولٌ مختلفة الألوان والطعوم، مختلفة العناصر.

والعلماء - على اختلاف أنواعهم - لم يكونوا كلهم يستسيغون ماء النهر الأعظم، ولا يتذوقون طعمه، فكان منهم من يخرج الى بادية العراق يردُّ الجدول العربي صافياً قبل أن تكدره الحضارة، يستقي منه ما شاء أن يستقي، ويعود الى الحضرة وقد تزود بما استساغ من ماء يعيش عليه ولا يشرب الا منه، واذ استسقى فلا يسقى الا منه، أولئك أمثال الأصمعي الذي حفظ - كما يقولون - اثني عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب، وحفظ الكثير من قصائدهم ونوادرهم ولغتهم، وتخصص لذلك يؤلف فيه ويعلم في المسجد ويحاضر الخلفاء والولاة وأمثالهم. وكأبي زيد الأنصاري الذي يجيد نوادر اللغة وغريبها. وحكماد الراوية وخلف الأحمر والمفضل الضبي وأبي عمرو والشيباني ومحمد ابن سلام الجُمحي، فهؤلاء كانوا لا يعجبهم الا الجدول العربي، يرحلون اليه ويأخذون منه، ويتنقلون في قبائله، ويروون شعره ولغته وأدبه، ويقصون نوادره مهما تفهت، ويحبون كل شيء له. ثم يذهبون الى العراق يعلنون عن مائه، ويبشرون بعذوبته وصفائه. فان عرض لهم ماء من جدول

آخر عافوه واستكرهوه ومجّته نفوسهم .

ومنهم من كان لا يحب الا الجدول اليونانى ، يتعلم كتبه ولغته ، ويستلمهم مؤلفاته ، ولا يرى العقل الا فيه ، ولا الحكمة الا صادرة عنه ومقتبسة منه ؛ كاطباء السريان فى ذلك العصر ، وهكذا .

ومن الناس من يستقى من جدولين ، يردها مرة وذاك مرة ، حتى إذا علّ ونهل ملاً منهما كلّ آنيته ، وعاد فمزج العنصرين وكوّن منهما شراباً جديداً يستسيغه الناس فيعجبون به ويستطعمونه ؛ كالذى فعل أبو عبيدة معمر بن المثنى فهو مؤلّى فارسى ، اطّلع على آداب الفرس وأخبارها وملوكها وحكامها ومحاسنها ومساوئها ، وعرف أخبار العرب وقبائلها ولغتها وأقاصيصها وحقائقها وخرافاتهما ، وروى أيام العرب التى يتناقلها المؤرخون الى اليوم . فكان واسع الاطلاع فى الأديب - العربى والفارسى - وكان يجلس الى الناس فيحدث بأخبار هؤلاء وهؤلاء ، ويقارن بين مفاخر العرب ومفاخر الفرس ، ويؤلف الكتب فى هذا وفى ذلك ، يؤلف فى « فضائل الفرس » و « مآثر العرب » ومثالبهم فطّلع على الناس بثقافتين فى وعاء واحد ، فكرهه من تعصّب للعرب ، ورأوا ماءه ليس صافياً ، ولا طعمه بالذى ألفوه واعتادوا الرى به . وأحبه من ينزع الى الفرس كالمهوصلى وأبى نواس ، ومن يفسح صدره لكل علم وخبر ، ويرى الحكمة ضالة المؤمن ينشدها حيث وجدها كالجاحظ .

ومنهم من تتقف بأكثر من ثقافتين ، وتأدب بأكثر من أديب كما سيأتى بيانه .

وفى الحق ، أن الجدول العربى كاد يكون مستقى الناس جميعاً ، إذا نحن استثنينا طائفة من السريانين الذين يتقفون بالثقافة اليونانية ، أو المجوس الذين يتأدّبون بالآداب الفارسية ، ويدينون بالديانة الزردشتية وأمثالهم .

أما غير هؤلاء فكانوا يأخذون بحظ من الجدول العربي قل أو كثير، ذلك لأن الدولة السياسية عربية بخلفائها ولغتها ودينها، ودولة الأدب عربية، فلا يحيا فيها الا ما كان عربياً، فاضطر كل ذى أدب وكل ذى علم، وكل ذى لغة أن يتعلم اللغة العربية، يصوغ فيها أفكاره وأدبه وعلمه. فمن تبحر في العلوم اليونانية وجب أن يُخرَج ما علم الى اللغة العربية. ومن تأدب بالأدب الفارسى فلا قيمة له الا أن يخرج أدبه باللغة العربية. واذا كان رياضياً هندياً، أو طبيباً هندياً فليس له حظوة الا أن يعرّب ما علم، وهكذا. لذلك كان هذا الجدول مورداً عاماً للأدباء والعلماء، وكان من ذلك أن قوماً وفروا جهدهم له، يتبحرون فيه ولا يستقون الا منه. وقوماً تبحروا في غيره، ولكن اضطروا الى وروده فورده، يستعينون بمائه على إساعة ما عندهم للناس.

\*\*\*

وهنا يعترضنا سؤال لا بد منه، وهو: أى أنواع الثقافات كان أكبر أثراً وأشد نفوذاً وأقوى سلطاناً، الثقافة العربية بما لها من لغة وأدب ودين؟ أم الثقافة الفارسية بما لها من نظام وأدب؟ أم الثقافة اليونانية بما لها من علم وفلسفة؟ وان شئت وضعت السؤال بهذه الصيغة: أى الثقافات كان أكثر تأثيراً في الثقافة العربية، الثقافة الفارسية، أم الثقافة اليونانية؟ نعم، كلتا الثقافتين لونت الثقافة العربية بلون ما كان يكون لولاها، ولكن أى اللونين كان زاهياً ناظراً، وأنيباً كان ضعيفاً شاحباً.

ذلك سؤال عويص، ولكن يظهر لي أن أسدّ طريق الانحياز اجابة مطلقة، وأن نقول: ان كل ثقافة من هذه الثقافات كانت لها «منطقة نفوذ» لا تكاد تزامنها فيها الثقافة الأخرى، فالعلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة وفلك وطب وما اليه وفلسفة وما اليها كانت منطقة النفوذ

اليوناني، تزامها فيها الثقافة الهندية، ولكن مزاحمة غير عنيفة. فأساس هذه الأشياء كلها عند المسلمين هو الأساس اليوناني - وان كان بعض أركانه هندية - والمنهج الذي اتبع في هذه العلوم منهج يوناني في منطقه وطريقة تأليفه، وما علق عليه من شروح. وكتب هذه العلوم عليها مسحة خاصة هي غير المسحة الأدبية، وهي غير المسحة الجغرافية والتاريخية، هي مسحة يونانية بحتة، لأنها تأثرت كل التأثر بما ترجم من اليونان، وظلت حافظة لشكلها، حتى بعد أن ألفت المسلمون فيها. وقد بدأت الرياضة الهندية والفلك الهندي تدخل في ثنايا ما ألفت المسلمون في هذه العلوم، ولكنها ما لبثت أن ذابت.

أما الأدب، فلم يتأثر كثيراً بالأدب اليوناني، وهذا ظاهر فيما ألفت من الكتب في هذا العصر، فمنهجها غريب لا يتصل بسبب الى المنهج اليوناني، فلا أثر للترتيب المنطقي فيه، ولا ترى وحدة للكتاب ولا للباب، كما رأينا في كتاب الكامل للمبرد، وكما نرى في البيان والتبيين للجاحظ، إنما هي جزئيات جمعت حينما اتفق، هي أشبه بسمر العلماء في المجالس. فأما موضوع واحد يرتب فيه كل ما يراد أن يقال وتسلسل أفكاره، وتسلمك ألفه الى يائه بالتدرج، كما يفعل العقل اليوناني، فذلك ما لا نجده في كتب الأدب العربي.

هذا من ناحية الشكل، وأما من ناحية الموضوع، فان ما فيها من أدب شرقي فارسي أو هندي أكثر مما فيها من أثر يوناني. ففيها الحكم عن أردشير وبزرجمهر أكثر مما عن أفلاطون وأرسطو، وفيها نظام الحكم الفارسي لا نظام الحكم اليوناني، وفيها تصور للعدل وطبقات الناس، كما يتصوره الفرس، وفيها توقيعات الملوك وقصصهم مع رعيتهم على النحو الفارسي لا النحو اليوناني، وعلى الجملة فننوذ الفرس في الأدب أكثر من

نفوذ اليونان . وقد حاولنا فيما سبق بيان السبب في ذلك .  
وما يجب التنبيه له أن كثيراً من حاملي لواء الأدب في ذلك العصر ، من شعراء وكتاب كانوا من أصل فارسي من ناحية الأبوين معاً أو أحدهما ثم تعلموا اللغة العربية وحدثوها . فكان تجددهم للأدب مديناً للفرس والعرب معاً ، فأدخلوا على الأدب العربي عناصر جديدة لم تكن ، فبشائر الفارسي يبتدع تشبيهات جديدة لم يستعملها العرب ، وأبو العتاهية زعيم الشعر الديني والسابق اليه من الموالى ، وأبو نواس المتخصص في الخمر وما إليه ، والفتاح للناس باباً من الهجاء لم يلجوه من قبل هو نصف فارسي . وكذلك الشأن في الكتاب وما أدخلوا من أسلوب ، كان المقفع وسهل بن هارون . كل هؤلاء كانوا من أصل فارسي أو ما يقرب منه فما أتجوه - من غير شك - نتاج للأصل الفارسي والثقافة العربية ، ومولون بالحياة الاجتماعية التي كان يعيشها العراق . وقل أن نجد من هؤلاء الأدباء من كان من أصل رومي ، يتلون بلون الروم ، ويشقف بثقافتهم ، واذ كان الأدب العباسي أساساً كبيراً من أسس الأدب جرى الناس بعد على منواله وحدثوا حذوه . واذ كان من ساهم في هذا الأساس هم الفرس لا اليونان ، أمكننا أن نستنتج أن نفوذ اليونان في الأدب العربي ضعيف .

ثم من الحق أن نقول : إن نفوذ العرب في أدبهم - وخاصة في شعرهم - كان أقوى من أي نفوذ آخر ، فقد ظل الشعر حافظاً لأوزانه الجاهلية وتقاليدته إلى عصرنا هذا ، ولم تستطع أمة بنفوذها مهما عظم أن تحوله . وكل ما قلنا من أثر فارسي ، فإنما كان في بعض العناصر - التي تصب في القالب - لافي القالب نفسه ، وأبو نواس يحاول أن يخرج على الجاهليين ، ويقول :  
صِفَةُ الطُّلُوبِ بِلَاغَةُ الْقُدْمِ فَاجْعَلْ صِفَاتِكَ لِابْنَةِ الْكِرْمِ  
ولكنه - مع هذا - لا يستطيع أن يتحرر من قيوده ، ولو فعل لما قرىء

ولا سمع . ويصف الجاحظ شعور الناس - في عصره - نحو الشعر الجاهلي  
والتراث الجاهلي ، فيقول : « إنهم يفضلونه على الشعر الاسلامي ، وهم به  
أكثر ولوعا ، وأشد تقديرا » . ويقول : « انهم يعدون حاتمًا أجود العرب ،  
ولو كان الأمر مفوضاً الى تقدير الرأي لكان ينبغي لغالب بن صعصعة  
أن يكون من المشهورين بالجدود ، دون هرم وحاتم . فان زعمت أن غالباً  
كان اسلامياً ، وكان حاتم في الجاهلية ، والناس بما أثر العرب في الجاهلية  
أشد كلفاً فقد صدقت ! » ويقول : « ان أيام الاسلام ورجالها لم تكن أكبر  
في النفوس ، وأحل في الصدور من رجال الجاهلية مع قرب العهد . . . ومع  
الاسلام الذي شملهم . وجعله الله تعالى أولى بهم من أرحامهم » كل هذا  
جعل تأثير الأدب الجاهلي في الأدب الاسلامي ، شديداً قويا ، وجعل  
الاسلاميين يحتذون حذوه ولا يخرجون - كثيراً - عن قيوده . فلئن كانت  
الثقافات الأجنبية في العلوم واضحة الأثر فأثرها في الأدب خفيف ، ولو  
كان شديداً قويا لأدخلوا على محور الشعر الجاهلية محوراً فارسياً أو يونانياً  
ولتحرروا أحياناً من القافية ، ولأدخلوا ضرب الشعر القصصي والتشبيلي  
ولرسموا طريقة جديدة لنهج القصيدة ، فلم يتقيدوا ببيكاء أطلال ولا وقوف  
على ديار ، ولهجروا الغزل الطويل يدخلون به على مدح الممدوح . ولفعلوا  
كثيراً من أمثال ذلك ولحدثت ثورة في الشعر والأدب ، فنقلته نقلة جديدة  
كما حدثت في العلوم . نعم ، حدث تغيير من دخول بعض الفنون الشعرية ،  
واصطبغها بصبغة الحياة الاجتماعية ونحو ذلك ، ولكنه تغيير خفيف ، لا يكاد  
يرى الا بالمجهر . كم بين طب العرب في الجاهلية وطب حنين بن اسحق وبختيشوع  
من فرق ! وكم بين نظر العربي الى الأنواء والنجوم ونظر نوبخت ! بل كم بين  
ما روى من فقه عن ابن مسعود وما روى عن محمد بن الحسن ، ونحو أبي



الأسود الدؤلى كما يروون ونحو سيديويه ! . ولكنك لا تجد هذه المسافات الواسعة بين الشعر الجاهلى والشعر الاسلامى والعباسى .

وعلى الجملة فقد كانت نواحي التأثير ومصادره ومقداره مختلفة اختلافاً كبيراً وعلى أشد ما يكون من دقة ، إن أنت حاولت أن تعبر عن ذلك بأرقام خانتك قوتك ، ولم تجد شيئاً لذلك . كل ما نستطيع أن نقوله : ان طبيعة الثقافة اليونانية عقلية منطقية ؛ تحاول أن تجعل لكل شيء مقدمات ونتائج . وهذا الضرب تجلى عند المسلمين فى الرياضيات والفلسفة وما اليهما ، وأتت هذه الأشياء فى العهد العباسى ومواقعها خالية - تقريباً - فكان من السهل أن تصبغ بالصبغة اليونانية من غير كبير مزاحمة ، وطبيعة الثقافة الفارسية على ما وصلت اليها فلسفة عملية ، من حكم تصاغ حول العدل والظلم ونظام الحكم ، ونحو ذلك مما تراه فى الأدب الكبير والصغير لابن المقفع ، ليس فيها مجال كبير للنظريات كما هو الشأن عند اليونان ، ولكن تجارب عملية تجرب فتصاغ فى قالب حكمة أو مثل . وهذا النوع استساغته العرب فى أدبهم لأنه أشبه بأمثالهم ، وطبيعة الثقافة الهندية مزيج من حكمة ، كالتى قلنا فى الفرس تتجلى فى مثل كليلة ودمنة ، ومن نظريات فلسفية ورياضية كالتى عند اليونان ، ولكن يلاحظ البيرونى أنهم لا يجيدون تحليلها ، ولا البرهان عليها - كما يفعل اليونان - وطبيعة الثقافة العربية الأدبية لسانية ، أبين شىء فيها جماها الفنى ، وانها بنت البديهة ونتيجة السليقة ووليدة الفطرة . وهذا هو السبب فيما حكى الجاحظ ، اذ يقول : «وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً . ولو حولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن ، مع أنهم لو حولوها لم يجدوا فى معانيها شيئاً لم تذكره العجم فى كتبهم ، التى

وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم<sup>١</sup>، وسبب ذلك : أن أسهل شيء في الترجمة المعاني المحددة . وأصعب شيء جمال الأسلوب . واذ كانت طبيعة الأدب العربي ما بيننا كان نقله أصعب نقل ، وكان أداؤه بلغة غير اللغة العربية ذاهبا ببهجته ، مضيعاً لجماله .

عمل على نشر نتاج هذه الطبائع المختلفة قوم مختلفون ، فوزراء العباسيين ومن نحا نحوهم يؤيدون الثقافة الفارسية ، ومدرسة جند يسابور وما تفرع منها تؤيد الثقافة اليونانية ، والعرب والأدباء وعلماء اللغة والنحو يؤيدون الثقافة العربية ، وأطباء الهند يؤيدون الثقافة الهندية . وقد نشر هؤلاء جميعاً في الجوهذه الثقافات المختلفة ، يتنفس كل منها حسب ميوله واستعداده ونوع تعلمه ، وكان الوزراء والكتاب أكثر الناس ثقافة فارسية عربية ، وكان أطباء القصور النساطرة أكثرهم ثقافة يونانية عربية ، وكان المتكلمون - على ما يظهر - أكثرهم ثقافة من كل نوع ، يقول الجاحظ : « والمتكلمون يريدون أن يعلموا كل شيء ويأبى الله ذلك »<sup>٢</sup>

وفي الحق ، إن المتكلمين كانوا أكبر عامل من عوامل المزج بين الثقافات المختلفة ، من نواح متعددة . فقد كانوا بطبيعة موقفهم الذي شرحناه قبل من دعوة الى الاسلام مضطرين أن يطلعوا على الأديان الأخرى : من مجوسية ويهودية نصرانية . وكانت اليهودية والنصرانية قد تسلحت بالفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني . فاضطر المتكلمون أن يتسلحوا بنفس سلاحهم ، فكانوا أول من أدخل الفلسفة اليونانية في الاسلام ، وكان المتكلمون حلقة الاتصال بين من قبلهم من المسلمين الذين وقفوا عند نصوص القرآن والحديث ، وبين من أتى بعدهم من فلاسفة المسلمين كالفارابي وابن سينا وابن رشد ، وكان موقفهم جديداً لأنهم سلكوا غير طريق السلف وتعرضوا لمسائل كثيرة

لم يتعرض لها من قبلهم . فقام في وجوههم طبقة المحافظين ، وعلى رأسهم رجال الحديث ، وكانت حرب عوان نشرها عند الكلام في المتكلمين إن شاء الله . كذلك كانوا صلة بين الفلسفة اليونانية والأدب ، فقد تتفقوا ثقافة يونانية - كما رأينا - وتتفقوا ثقافة عربية من لغة وأدب ، ومزجوا الاثنين مزجاً تاماً . رأوا معاني يونانية وأسماء يونانية ، فوضعوا لها كلمات عربية . كما أنهم - لدعوتهم الى الاسلام - مضطرون أن يتخيروا خيراً الألفاظ وخير التعبيرات ، فبنوا على الخطابة والبلاغة ، ووضعوا أسسها كما وضعوا أساس آداب البحث والمناظرة ، قال الجاحظ : « كان كبار المتكلمين ورؤساء النظارين فوق أ كثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء ، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف ، وقدوة لكل تابع . ولذلك قالوا العَرَضُ والجَوْهَرُ وأيس وليس ، وفرقوا بين البُطلان والتلاشي ، وذكروا الهَدْيِيَّةَ والهَوِيَّةَ والمَاهِيَّةَ ، وأشبه ذلك »<sup>١</sup> و قدموا معاني للأدباء والشعراء لم تكن معروفة من قبل ، كما قدموا لهم تعبيرات لم تكن ، يقول أبو نواس :

تَكَلُّهُ عَنِ إِدْرَاكِ تَحْصِيلِهِ      عَيْونُ أَوْهَامِ الضَّمَايِيرِ  
تَنْتَسِبُ الْأَلْسُنُ مِنْ وَصْفِهِ      إِلَى مَدَى عَجْزٍ وَتَقْصِيرِ

ويقول :

تَنَازَعِ الْأَحْمَدَانَ الشَّبْهَ فَاشْتَبَاهَا      خَلْقاً وَخُلُقاً كَمَا قَدَّ الشَّرَاكَانَ  
إِثْنَانِ لَا فَصْلَ لِلْعَقُولِ بَيْنَهُمَا      مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَالْعِدَّةُ اثْنَانِ

ويقول :

كَمَنْ الشَّنَّانِ فِيهِ لَنَا      كَكُمُونِ النَّارِ فِي حَجَرٍ

ويقول أبو تمام :

جَهْمِيَّةُ الْأَوْصَافِ الْأَنْهَمِ      قَدْ لَقَّبُوهَا جَوْهَرَ الْأَشْيَاءِ

وقال سعيد بن حميد :

قَدْ قَلْتُ بِالْعَدْلِ وَلَكِنِّي      عَدَلْتُ فِي الْحَبِّ عَنِ الْعَدْلِ

فَقَلْتُ بِالْإِجْبَارِ مُسْتَغْفِرًا      لِلَّهِ مِنْ قَوْلِي وَمِنْ فَعْلِي

ويقول ابن الرومي :

مَا عَذْرُ مُعْتَزِلِيٍّ مُوسِرٍ مَنَعَتْ      كَفَّاهُ مُعْتَزِلِيًّا مِثْلَهُ صَفْدًا

أَيَزُومُ الْقَدْرَ الْمُحْتَوَمَ يَبْسُطُهُ      إِنْ قَالَ ذَاكَ فَقَدْ حَلَّ الدِّيَّ عَقْدًا

ويقول الناشئ يفخر بالكلام والمتكلمين :

وَنَحْنُ أَنْاسٌ يُعْرِفُ النَّاسَ فَضَلْنَا      بِالسُّنَنِاتِ زَيْدَتِ صُدُورُ الْمَحَافِلِ

نُسِيرُ وَجُوهَ الْحَقِّ عِنْدَ جَوَابِنَا      إِذَا أَظْلَمَتْ يَوْمًا وَجُوهَ الْمَسَائِلِ

صَمَمْنَا فَلَمْ تَتْرُكْ مَقَالًا لِصَامِتٍ      وَقَلْنَا فَلَمْ تَتْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلِ

ويقول أبو نواس :

وَذَاتِ خَدِّ مَوْرَدٍ      قُوْهِيَّةِ الْمُتَجَرِّدِ

تَأْمَلُ الْعَيْنُ مِنْهَا      مَحَاسِنًا لَيْسَ تَنْفَذُ

فَبَعْضُهَا قَدْ تَنَاهَى      وَبَعْضُهَا يَتَوَلَّدُ

وَالْحُسْنُ فِي كُلِّ عَضْوٍ      مِنْهَا مَعَادٌ مَرْدَدُ

ويقول :

تَرَكْتُ قَلْبِي قَلِيلًا      مِنْ الْقَلِيلِ أَقْلًا

يَكَادُ لَا يَتَجَزَّأ      أَقْلٌ فِي اللَّفْظِ مِنْ لَا

الى كثير من أمثال ذلك .

وعلى الجملة كان المتكلمون صلة لأشياء مختلفة، كانوا صلة بين الأديان بعضها وبعض، وصلة بين الفلسفة والدين، وصلة بين الفلسفة والأدب. فلو قلنا إن المتكلمين كانوا من أظهر القائمين بعملية المزج لم نبعد عن الصواب.

\* \* \*

ولئن كان المتكلمون هم الصلة بين اليونان والمسلمين، فقد كان الفرس المتعربون صلة بين الفرس والعرب، مزجوا ما نشؤوا عليه من أدب فارسي بما تعلموا من أدب عربي، مزجوا القصة الفارسية بالقصة العربية كما في ألف ليلة وليلة، وغيره، ومزجوا الحكم الفارسية والتشبيهات الفارسية بالحكم والتشبيهات العربية. « كان كسرى أنوشروان مشتهراً بالترجس، وكان يقول: هو ياقوت أصفر بين در أبيض، على زمرد أخضر » فيقول الشعر العربي:

وَيَافُوتَةٌ صَفْرَاءُ فِي رَأْسِ دُرَّةٍ      مِرْكَبَةٌ فِي قَائِمٍ مِنْ زَبْرَجِدٍ  
كَانَ بَقَايَا الطَّلِّ فِي جَنَابَتِهَا      بَقِيَّةُ دَمْعٍ فَوْقَ خَدِّ مُورِدٍ

وكان أردشير بن بابك يصف الورد، ويقول: « هو در أبيض، وياقوت أحمر، على كرسى زبرجد أخضر، توسطه شذور من ذهب أصفر، له رقة الخمر ونفحات العطر » فيقول محمد بن عبد الله بن طاهر:

كَانَهُنَّ يَوَاقِيْتُ يُطِيفُ بِهَا      زُمْرُدٌ وَسَطُهُ شُدْرٌ مِنَ الذَّهَبِ  
فَاشْرَبَ عَلَى مَنَظَرٍ مُسْتَظَرِّفِ حَسَنٍ      مِنْ خَمْرَةٍ مُزَّةٍ كَالنَّجْمِ فِي اللَّسَبِ  
ويضع الفرس الأساطير فينحو العرب نحوهم، فقول العرب في العنقاء يشبه قول الفرس في « سيمرغ » ومن أساطير الفرس أن مسكن السيمرغ على الشجرة التي تقي كل البذور، وهي في المحيط الواسع على مقربة من شجرة الخلد، تجتمع عليها البذور التي أنتجتها النباتات كلها.

طول السنة»<sup>١</sup>

ولا تزال تنتقل الأسطورة بين العرب ، حتى يدخلها الفيروزابادي في القاموس المحيط فيقول : والجزائر الخالدات ، ويقال لها جزائر السعادة ست جزائر في البحر المحيط من جهة المغرب ، منها يبتدىء المنجمون بأخذ أطوال البلاد ، تنبت فيها كل فاكهة شرقية وغربية وريحان وورد ، وكل حب من غير أن يغرس أو يزرع»<sup>٢</sup> ويقرأ القارىء الشاهنامه ، وما فيها من أساطير فتوحى إليه بمقارنات ومشابهات بينها وبين الأساطير العربية لا تكاد تحصى . كأسطورة «ازدهاك» وهو روح شريرة في الأساطير الآرية ، وفي الألبستاق هو شيطان يمنع ماء السحاب أن ينزل الى الأرض ، وعند الفرس الفرس ملك ظالم جبار يتمثل فيه الشر كله .

وتتحول الكلمة في العربية الى الضحاك ، ويزعمون أنه عربي من اليمن ، ويفتخر به أبو نواس في قصيدته التي يفخر فيها بقحطان على نزار فيقول :

وكان منّا الضحاك يعبده الخابل والطيّر في مسارها<sup>٣</sup>

ويقول صاحب القاموس والضحاك رجل ملك الأرض ، وكانت أمه جنية فلقح بالجن ، الخ

ويتنقل مذهب تناسخ الأرواح من الهند ، فينتشر في العراق ، ويدعو اليه غلاة الشيعة وبابك الحرّمي وأصحابه .

وهكذا تمتزج في العراق كل الثقافات ، وتبادل كل الآراء ، وتعرض كل الآداب فيروى الأغاني : « أنه كان في مسجد البصرة حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون في المقالات والحجج فيها »<sup>٤</sup> وبجانهم حلقة للشعر والآداب

١ انظر الشاهنامه والتعليق عليها ص ٥٦

٢ القاموس مادة ج زر

٣ انظر تعليقات الشاهنامه ص ٢٥ وما بعدها ، والخابل الجن .

وهكذا . وكان الذين يحضرون هذه الحلقات من أجناس مختلفة وديانات مختلفة وآراء مختلفة ، وكانوا يتلاقون في المسجد وفي المنازل ، وفي قصور الولاة والخلفاء ، ويتحاجون ويتجادلون ، يخرج الجاحظ صباحا الى المسجد لطلب الحديث ، ويلتقي بعد بجنين بن اسحق وسليويه ، ويلقى النصراني واليهودي فيجادلها ، ويلقى البدوي العربي فيأخذ عنه . يتقابل أصحاب الديانات فيحكى كل ماورد في كتبه عن خلق العالم، ويتجادلون في رؤية الله هل تكون أولا تكون؟ وفي صفات الله هل هي زائدة على الذات أولا؟ على حين يتجادل الآخرون في أى الأمم خير ، ويتعصب هذا للعرب وهذا للعجم ، وغير هؤلاء في لغة وفي أدب ، ويقارن العلماء بين اللغات المختلفة والآداب المختلفة . فكان من هذا كله حركة عنيفة ، لم تدع نوعا من المذاهب والأديان واللغات والآداب يعيش وحده ، بل لم تدع جزءاً من الأجزاء الا مزجته بأجزاء أخرى حتى صعب على الباحث أن يرد الأشياء الى أصولها ، ولم تكن هذه العملية كعملية مزج الزيت بالماء ، يعود كل عنصر ملتصقا مع نوعه مفارقا لغيره ، ولكنه كامتزاج السكر بالماء ، أو نفحات الأزهار بالهواء . تمتزج فتبقى أبداً ، وتتلاقى فلا تفرق أبداً . وكذلك كانت الثقافات ، التقت في هذا العصر فكان أول تلاق ، وصارت على توالى العصور أشد تلاقياً ، وأكثر امتزاجاً .

وكان للإسلام أثر كبير في هذا الامتزاج ، فان من أسلم من الأمم الأخرى - وأعنى الخاصة - يرى أن لا يكمل دينه ، ولا يقوى إيمانه الا اذا قرأ القرآن ودرسه . فكان ذلك يدعو الى تعلم العربية والتثقف بأدابها ، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية وثقافته العربية . وفي هذا مزج - على الأقل - لثقافتين ، وجمع بين عقليتين . فكثير من الفرس تعربوا ، وكثير من الروم والهنود تعربوا ، وكثير من الأنباط تعربوا . ومعنى تعربهم أنهم أفسحوا رءوسهم

وألستهم لثقافة عربية ، تتزوج مع ما نشئوا فيه وشبوا عليه ، وأفسحوا صدورهم للإسلام ليحل محل دين ولدوا عليه ، وعاشوا حينا في شعائره وتقاليده . كل هذا وذلك كان سببا في التزوج والانتاج ، ومن أجل هذا لا تسكاد ترى في هذا العصر ثقافة مدنية أو دينية عاشت وحدها في عزلة عما حولها ، بل كان كل مؤثراً متأثراً ، وفاعلاً قابلاً ، وان اختلفت - فيما بينها - في مقدار فاعليتها وانفعالها ، ونواحي تأثيرها وتأثرها .

وبعد ، فان نحن أردنا أن نختار من يمثل هذه الثقافات متميزة لانجد خيراً من الجاحظ . وابن قتيبة وأبي حنيفة الدينوري . كل واسع الاطلاع ، غزير العلم ، كثير التأليف ، نال حظاً وافراً من نواحي العلوم المختلفة . أولهم زعيم المتكلمين من المعتزلة ، وثانيهم زعيم أهل السنة ، وثالثهم زعيم علماء النبات . كل أديب وعالم ولغوى ومؤرخ . وعلى الجملة فكانوا هم ثلاثتهم « دائرة معارف » زمنهم ، نستطيع اذا ألمنا بكتبهم أن نعرف أى شيء من العلم كان في عصرهم وأى شيء لم يكن . وهم مع هذا كله مختلفون تمام الاختلاف طعماً وذوقاً وروحاً وعقلية ونظراً الى الحياة ، كما سيتضح عند الكلام فيهم . ولسنا نريد أن نتوسع في تاريخ حياتهم . ولا تحليل كل كتبهم . ولا الاحاطة بكل نواحيهم ، فذلك ما لا يسعه كتاب كهذا . وانما نتكلم من الناحية التي قصدنا اليها فحسب . وهي أنهم يمثلون الثقافات متميزة . وجداول العلم مجتمعة . ونختار من كتبهم أدلها على ذلك الغرض ، وأوفاهها لهذا المقصد . الجاحظ - : هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى ، والأرجح أنه كنانى بالولاء . لا كنانى صليبية ، فقريب الجاحظ - وهو يَمُرْت بن المزرع - يقول « الجاحظ . خال أمى ، وكان جد الجاحظ أسود يقال له فزارة ، وكان جمالا عمرو بن قلع الكنانى »<sup>١</sup> وقد اختلف في تاريخ مولده ولكنهم



يكادون يتفوقون على تاريخ وفاته وهو ٥٢٥٥ هـ وأنه عُمِّرَ نحو ٩٦ عاماً فيكون ميلاده حول سنة ١٥٩ هـ ولد بالبصرة وأخذ اللغة والأدب عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري . وأخذ النحو عن الأخفش . وأخذ الكلام عن النظام وكان يذهب الى مريدِ البصرة يأخذ عن العرب شفاهاً . وأولع بالقراءة فقالوا انه لم يقع بيده كتاب الا استوفى قراءته كأننا ما كان . وكان يكتري دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للنظر) تتقف الثقافة العربية من المرء . ومن علمائها أمثال الأصمعي وأبي زيد . وأتت له الثقافة اليونانية من طريق علماء الكلام ومشافهته لحنين بن اسحق وسلمويه وأمثالها . وحذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وأخذَه عن أبي عبيدة ، وتوسَّع في الثقافات كلها بما كان يقرأ من الكتب كلها . ولد في خلافة المهدي ، وكان صديقاً في خلافة الهادي . وأتته خلافة الرشيد وهو شاب ، وشاهد الصراع بين الأمين والمأمون ، وكان ناضجاً وقت سلطة المعتزلة في عصر المأمون ، واتصل بما كان في أيامه من حركة علمية وفلسفية . في كل ذلك شاهد سلطان الفرس وغلبتهم ، وشاهد في أيام المعتصم سطوة الترك ، وحلولهم محل الفرس ، كما شاهد دولة الواثق وسيره سيرة المعتصم والمأمون في مناصرة الاعتزال ، وحضر دولة المتوكل وقد هزم المعتزلة وأبطل دولتهم ، ومرت عليه دولة المنتصر والمستعين والمعتز وهو يعانى الفالج والنقرس ، الى أن مات في خلافة المهدي بالله . فتاريخ الجاحظ تاريخ قرن كامل ، هو زهرة الدولة العباسية ، وقل أن تعلم أحد من أحداثها ما تعلم الجاحظ . أحسَّ بيؤس الفقراء فقد نشأ فقيراً ، حتى يحكى من رآه يبيع الخبز والسمك بسينحان ، ويخالط العلماء على اختلاف مذاهبهم ومناحيهم . ثم يكون كاتباً وقتاً قصيراً ويتعرف ثقافة الكتاب ودخائلهم ، ويغتنى بما ألف ، فتكون له ضيعة تنسب اليه ، ويقتنى مالا ويبتا يجرب فيه زرع شجر الأراك ، ويعنى بأبوابه حتى يختار لتركيبها أمهر النجارين ،

ويقتنى من العبيد من سبق أن خدم الملوك<sup>١</sup> ويتصل بالوزراء أمثال محمد بن عبد الملك الزيات ، ويتنقل في البلاد فيعيش في بغداد زمنا ، ويرحل الى دمشق وانطاكية . كل هذا أورثه نوعا من الثقافة قيما ، ليس من نوع ما يؤخذ من الكتب والدفاتر ، أورثه معرفة بطبائع الناس وأخلاقهم ، وطرق معاشهم وفضائلهم ووزائلهم . وكان الجاحظ على استعداد تام لهذا النوع من الثقافة فنال منه حظا وافرا - وكما كان حسن الاستعداد في الأخذ منه ، كان كذلك في العطاء . فمن أكبر ما يمتاز به كتبه أنه يأخذ بيدك ليطلعك على الحياة الاجتماعية ، ويجعلك تلمسها وتدوقها - على قلة الكتاب الذين يعنون بهذه الناحية - فإذا أنت قرأت « الكامل » أو « أمالي القالي » أو « عيون الأخبار » لم تحس فيه شيئا من ذلك . ومن أجل هذا كانت كتب الجاحظ أغزر مصدر لدارس الحياة الاجتماعية في عصره .

كَتَبَ الجاحظ في كل موضوع تقريبا من المعلمين الى بني هاشم ، ومن اللصوص الى الذئاب ، ومن الكلام في صفات الله تعالى إلى القيان ، ومن القضاة والولاية إلى أمهات الأولاد ، ومن الامامة الى الحول والعور . فان نحن قلنا إن كتبه « دائرة معارف » لزمانه ، غير مرتبة على أحرف الهجاء ، ولا على أى أساس . كان ذلك صوابا . وللجاحظ أسلوب يمتاز به ، ولا ينسب الا اليه . هو أسلوب الجاحظ . تظهر فيه شخصيته ظهورا تاما ، حتى لتستطيع من غير كثير عناء أن تعرف أى الكتب له وأيها ليست له . هو في تأليفه أنيس محاضر ، تحرر من قيود كثيرة تقيد بها علماء عصره ، تحرر من التزام الجد وثقل الغموض الذى كرهه من أستاذه الأخفش ، فهو دائما يخط جذاً بهزلاً ، ويسيعك اللقمة الجافة بكثير من الحلوى ، ويجد حتى اذا أعدك للبكاء رماك بنادرة تمنع منها في الضحك ، ويأخذ بيدك حتى اذا كنت

١ هذه الحقائق مأخوذة من كتابه الحيوان في مواضع شتى

في أصعب موضوع وأعمق قرار قفز بك فجأة الى السماء ، وحدثك حديثاً خفيفاً أنسائك جهدك وعناءك ، قال المسعودي : « ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه . . . . وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلوا صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لانه نظمها أحسن نظم ، ورفضها أحسن رفض ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان اذا تخوف ملل القارىء وسامة السامع خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة» كما تحرر من طريقة العلماء ، في قصر نفسه على الموضوع الذى يتكلم فيه . فالجاحظ لا يؤمن بذلك ، وأنت عرضة لأن تجد في كتبه أدق الموضوعات وأجلها في أتفه العناوين وأسخفها . غلبت عليه النزعة الأدبية في كل ما كتب حتى فى الحيوان ، فهو يتخير خير الألفاظ وأحسن التعبيرات ويفر سريعاً من التحقيق العلمى الى مناحى الأدب من شعر أو حكمة أو نادرة .

ألف فى مواضع المتكلمين مثل : كتاب خلق القرآن ، وكتاب فى الرد على المشبهة ، وكتاب فى الرد على النصارى ، وكتاب الاعتزال ، وكتاب الأمامة ، الخ . كتب فى موضوعات سياسية تاريخية ككتاب العرب والمولى ، وكتاب العرب والعجم ، ورسالة فى فضائل الأتراك - بمناسبة دخول الأتراك فى جند المعتمد - وكتاب السودان والبيضان ، وكتاب الصرحاء والهجناء ، الخ . وألف فى الأخلاق التى كان يشعر بها فى عصره وطبقات الناس فألف كتاب البخلاء ، والسلطان وأخلاق أهله ، وكتاب الجوارى ، والحاسد والمحسود ، والنساء ، والاخوان ، والحزم والعزم ، والأمل والمأمول ، والاستبداد والمشاورة فى الحروب ، والقضاة والولاة ، وغش الصناعات الخ .

وألف فى النبات كتاب الزرع والتخل ، وألف فى الحيوان كتاب الأسد والذئب وكتاب البغل وكتاب الحيوان .

وفي كل هذه الكتب - كما يدل على ذلك ما بين أيدينا منها - مزج العلم بالأدب، ولم يقتصر على ذكر البراهين النظرية، بل استعان بالتاريخ والشعر، وبما يعرف من أحداث، وما جرب هو نفسه من تجارب. ومزج ما تعلم بما قرأ، بما سمع، بما شاهد، بما جرب. كما مزج الشعر الجاهلي بالشعر الاسلامي، بعلم أرسطو، بطب جالينوس. كما مزج آي القرآن الكريم بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم برأى الطبيعيين والدهريين، باليهودية والنصرانية، برأى الزردشتين والمانويين. وفي الحق أن هذا كله مزيج عسر الهضم، لولا ما حظى به من أسلوب سمح فضفاض، ونفس مرحة تقدر كل التقدير النادرة الحلوة، والفكاهة العذبة.

وبعد؛ فغير كتبه التي يظهر فيها هذا الامتزاج واضحا قويا كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان.

كتاب البيان والتبيين :- هو كتاب في الأدب من آخر ما ألف الجاحظ<sup>١</sup>. مختارات من الأدب من آية قرآنية أو حديث أو شعر أو حكمة أو خطبة، ممزوجة بما له من آراء في مسائل عدة. ويذكر ياقوت أن الكتاب نسختان «أولّة وثانية والثانية أصح وأجود»<sup>٢</sup>، ولست أدري أية النسختين هي التي في أيدينا.

بدأه بالتعوذ من العي، وساق الأشعار في ذمه وحكاية موسى عليه السلام في طلبه من الله تعالى أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وانتقل إلى فصاحة اللسان ونعمتها، والعي ورداءته، وعاب التشديق والتفجير والتقعيب وفضّله على العي المتزيد والحصر المتكلف، واستطرد من ذلك إلى فصاحة

١ من الأدلة على ذلك انه لم يشر اليه في ثبت كتبه في أول الحيوان مع أن كتاب الحيوان من آخر كتبه تأليفا كما يستفاد من كلامه وأنه ألفه وهو مريض مسن وقد أشار في البيان والتبيين الى كتابه الحيوان مما يدل على أنه ألفه بعده ٣ : ١٧٣ و ١ : ١٣٨

٢ معجم الأدباء ٦ : ٧٦

واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ولثغته في الراء ، وانه كان يقول القمح بدل البر وجره ذلك إلى الكلام في أن البر أفصح أو القمح ، وانتقل منه إلى اختلاف لغات العرب في استعمال الألفاظ . فقبيلة تستعمل غرفة وأخرى عليّة وهكذا ، ثم رجع إلى واصل وما كان بينه وبين بشار ، وذكر قصائد في مدح المعتزلة ، وإذ كان واصل ألتغ ، فقد عقب ذلك بالكلام على اللثغة والحروف التي تدخلها اللثغة والتي لا تدخلها ، واستطرد من اللثغة إلى عيوب اللسان على العموم من فأفة وتمتمة ، ثم ما يعرض للخطيب من نحنة وسعلة ، وربط ذلك بالخطابة والخطباء من القبائل المختلفة ، وعدد كثيراً منهم ومن الخطباء الشعراء . وكان أحد الخطباء الذين ذكروهم ، في كلامه صغير يخرج من موضع ثناياه فجره ذلك إلى الكلام في الأسنان وعلاقتها بالخطابة ، والجدال في أن سقوط الأسنان كلها أقل عيباً للخطيب أو سقوط بعضها ، ثم انتقل من ذلك إلى الكلام في الألفاظ المتنافرة والحروف المتنافرة ، وأسلمه ذلك إلى الكلام في اللكنة ، وعد قوم من اللكناء ، وبذلك تم الباب الأول . ويطول بنا القول لو سرنا معه في الكتاب كله نتبع خطاه ونرصد انتقالاته ، وحسبنا أن نذكر هذا مثلاً بين الفوضى في تأليفه ، ولا تظن أن موضوعاً من هذه الموضوعات التي ذكرنا قد فرغ من الكلام فيه ، فسترى في ثنايا الكتاب الرجوع إليه مرة بعد مرة .

بعد ذلك عقد باباً لليان ، وباباً في ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأنبياء والفقهاء والأمراء ، ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل . ثم فصلاً عرض فيه للبلاغة ماهي وباباً في اللسان وباباً في الصمت ، وأبواباً أخرى في الشعر والخطب ، ثم باباً في الأسجاع من الكلام ، ثم عاد إلى الخطباء والبلغاء وبيان قبائلهم وأنسابهم ، وباباً في أسماء الكهّان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان . وقال في أول الجزء الثاني : انه أراد أن يرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب ، ولكنه أحب أن يصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول

رب العالمين والسلف المتقدمين ، والجملة من التابعين واسترسل في مختار من الحديث والخطب والحكم والألغاز ، وتكلم فيه في اللحن والحمق والمجانين وكتب وصايا ونوادير لبعض الأعراب ، حتى أتم الجزء الثاني ، فإذا جاء الجزء الثالث فأوله كتاب العصا في الرد على الشعوية . ثم كتاب في الزهد تكلم فيه على النساك وكلامهم وأخلاقهم ومواعظهم ، ثم باب في دعاء الصالحين والسلف المتقدمين ، ودعاء الأعراب ، ثم مقطعات من نوادر الأعراب وأشعارهم . وفي كل فصل من فصول الكتاب فوضى لا تضبط ، واستطراد لا يحد . والحق أن الجاحظ مسئول عن الفوضى التي تسود كتب الأدب العربي ، فقد جرت على منواله ، وحذت حذوه فالمررد تلميذه قد تأثر به في تأليفه ، والكتب التي ألفت بعد كعيون الأخبار والعقد الفريد فيها شيء من روح الجاحظ وإن دخلها شيء من الترتيب والتبويب . ذلك أنا نرى أن الكتب التي ألفت في العصر العباسي الأول كانت أساس التأليف ، وهي التي حددت نوع القالب الذي يصب فيه العلم ، فكتاب سيبويه في النحو حدد الطريقة التي يتبعها النحاة في التأليف ، وكل ما عملوا بعده أن أوضحوا أو بسطوا أو اختصروا . وكتب محمد بن الحسن الشيباني حددت طريقة التأليف في الفقه ، وكتب المنطق الأولى هي التي سارت عليها كتب المنطق الأخيرة . ولما كان كتاب البيان والتبيين أول كتاب ألف في الأدب على هذا النحو كان أثره في الأدب كأثر هؤلاء الذين ذكرنا في علومهم ، وكان الجاحظ مسئولاً عما فيها من نقص وعيب . وأوضح شيء من آثار الجاحظ في كتب الأدب إذا قورنت بالعلوم الأخرى الفوضى وكثرة المزاج . ومجون يصل إلى الفحش أحياناً ، ولسنا نريد أن نحمل الجاحظ كل مسؤولية في هذا فقد تكون طبيعة الأدب نفسها داعية إلى ذلك ولكن مما لا شك فيه أن الجاحظ كبير الأثر ، ولو كان قد وضع الأساس غيره لكان قد تشكل الأدب شكلاً آخر .

والذى يهمننا هنا مظهر امتزاج الثقافات فى هذا الكتاب، والحق ان  
لثقافة العربية فيه المظهر الأ كبر، والسبب فى ذلك أن الكتاب كتاب أدب  
وقد أبنا قبل أن أثر تلك الثقافات فى الأدب أقل منها فى العلوم، ومع هذا  
فخط الثقافات الأخرى فى هذا الكتاب غير قليل، انظر اليه وهو يقارن  
بين آراء الأمم فى تعريف البلاغة فيقول « قيل للفارسى ما البلاغة؟ قال معرفة  
الفصل والوصل، وقيل لليونانى ما البلاغة؟ قال تصحيح الأقسام واختيار  
الكلام، وقيل للرومى (الرومانى) ما البلاغة؟ قال حسن الاقتضاب عند  
البداهة والغزارة يوم الاطالة، وقيل للهندي ما البلاغة؟ قال وضوح الدلالة  
وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة<sup>١</sup> وينقل صحيفة عن الهنود فى البلاغة  
وشروطها<sup>٢</sup> وينقل عن قتي من النصارى الشروط التى يجب أن تتوافر فيمن  
يختار جاثليقا<sup>٣</sup> وينقل أن كسرى أنوشروان قال لبرزجمهر أى الأشياء خير  
للمرء العبي؟ قال: عقل يعيش به، قال فان لم يكن له عقل، قال فاخوان يسترون  
عليه، قال فان لم يكن له اخوان، قال فمال يتجيب به الى الناس، قال فان لم يكن  
له مال، قال فعى صامت قال فان لم يكن ذلك قال فموت مريح!<sup>٤</sup> وينقل عن  
المسيح ابن مريم أنه سئل من نجالس؟ قال من يزيد فى علمكم منطقه، وتذكر كم  
الله رؤيته، ويرغبكم فى الآخرة عمله. ويحكى أن المسيح مر بقوم يبكون فقال  
ما لهؤلاء يبكون؟ قالوا يخافون ذنوبهم، قال اتركوها يغفر لكم<sup>٥</sup> ويحكى  
أسطورة الخطباء الذين تكلموا عند الاسكندر لما مات<sup>٦</sup>. ويقارن بين  
مقدرة العرب على الخطابة ومقدرة الفرس والزنج، ويحكى أن للفرس كتابا  
فى صناعة البلاغة وأن لليونان « منطقاً » يعرف به السقم من الصحة والخطأ  
من الصواب، وأن للهنود كتباً فى الحكم والأسرار من قرأها عرف غور تلك

١ البيان والتبيين ١ : ٧٥      ٢ : ٧٩      ٣ : ٩٦  
٤ : ١٥٨      ٥ : ٢٥١      ٦ : ٢٥٥

العقول وغرائب تلك الحكم<sup>١</sup> ويرى أن كلام الفرس يصدر عن فكرة وطول روية واجتهاد وخلوة ومشاورة ومعاونة، وكلام العرب صادر عن بديهية وارتجال، حتى كأنه إلهام<sup>٢</sup> ويذكر عادة الرهبان في اتخاذ العصا وعادة الجاثليق في اتخاذ القناع والمظلة والعكازة والعصا<sup>٣</sup>. ويحكى مذهب التناسخ الذي أنبأ قبل أنه للهند<sup>٤</sup> وينقل في باب الزهد كلاماً طويلاً لعيسى عليه السلام<sup>٥</sup> ويحكى مواعظ<sup>٦</sup> لداود عليه السلام<sup>٦</sup> ويحكى عن أردشير أنه قال «احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع»<sup>٧</sup> الخ

عدا مثل من أمثلة المزج بين الثقافات، فقد رأيت أنه عرض أدب العرب وأدب الفرس، وحكم الهند ونصائح اليهودية والمسيحية. هذا إلى أنه ينقل عن فرس تعربوا ويذكر حكمهم، كسهل بن هارون وابن المقفع والأسوارى وهى - ولا شك - وليدة فرس وعرب. ولكن بالمقارنة نرى - كما أشرنا - أن للأدب العربي في هذا الكتاب الحظ الأكبر والنصيب الأوفر، لأنه موضوعه. وهناك نواح أخرى لدراسة كتاب البيان والتبيين، كبحث أى مثال احتذى في تأليفه، والفكرة التي عرضت له في ترتيبه، ومقدار الثقة به والاعتماد عليه، وشيوخه الذين أخذ عنهم ومصادر الكتاب إلى غير ذلك ولكن موضع هذا كله البحث الأدبي.

كتاب الحيوان :- كذلك هو كتاب ألفه الجاحظ أخيراً بدليل ثبت كتبه التي عددها في صدره، وإن كان ألفه قبل البيان والتبيين. وقد ذكر في مواضع عدة من الكتاب أنه ألفه لبيان ما في الحيوان من الحجج على حكمة الله العجيبة وقدرته الباهرة، وهذه الناحية من النظر أبانها القرآن الكريم في غير موضع «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمَنْ

١ البيان والتبيين ٣ : ٦ ، ٧ ، ٢ : ١٥ ، ٣ : ٥١  
٤ ٣ : ٥٩ ، ٥ : ٨١ ، ٩٢ و ٩٩ ، ٦ : ٣٠  
٥ ٣ : ١٠١ ، ٧



الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ» «وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ» «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» «أَلَمْ تَرَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ» «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا» إلى أمثال ذلك، وسميت سور من القرآن بأسماء بعض الحيوانات، كسورة البقرة والأنعام والنحل والنمل والفيل. ونسب إلى الامام علي وصفه البديع للطاوس ودلالته على قدرة الله، وإن كنا في شك من صحة نسبتها إليه. واتجه المعتزلة في العصر العباسي هذا الاتجاه، وأجاد فيه قبل الجاحظ بشرُّ بن المعتز، أحد زعماء المعتزلة ومما قال في ذلك قصيدتان طويلتان تقع احدهما في ستين بيتاً والأخرى في سبعين، وقد أوردهما الجاحظ في كتابه الحيوان اوشرحهما شرحاً مطولاً، من احدى القصيدتين قوله :

تَبَارَكَ اللَّهُ وَسُبْحَانَهُ      مِنْ بِيَدَيْهِ النِّفْعُ وَالضَّرُّ  
مَنْ خَلَقَهُ فِي رِزْقِهِ كُلُّهُمْ      الذِّبْحُ وَالتَّيْتُلُ وَالغُفْرُ ٢  
وَسَاكِنُ الْجَوْءِ إِذَا مَاعَلَا      فِيهِ وَمَنْ مَسَكْنَهُ الْقُفْرُ  
وَالصَّدْعُ الْأَعْصَمُ فِي شَاهِقِ      وَجَابَةِ مَسَكْنِهَا الْوَعْرُ ٣  
وَالْحِيَةُ الصَّمَاءِ فِي جُحْرِهِمَا      وَالتَّتْفُلُ الرَّائِعُ وَالذَّرُّ ٤  
وَهِقْلَةٌ تَرْتَاعُ مِنْ ظِلِّهَا      لَهَا عِرَارٌ وَلَهَا زَمْرُ ٥

١ الحيوان : ٩٢ وما بعدها      ٢ الذبائح : ذكر الضبع والتيتل : شبيه بالوعل والغفر : ولد الأروية وهي الأثني من الأوعال      ٣ الصدع : الشاب من الأوعال ، والجأبة : الأنان الغليظة  
٤ التتفل هو الثلب      ٥ الهقل : الفتى من النعام أو الظليم والهقلة الأثني منهما

تَلْتَمِسُ المَرُوَ على شَهْوَةٍ وَحَبُّ شَيْءٍ عِنْدَهَا الجَمْرُ<sup>١</sup>  
ووظيفة تَخْضُمُ في حَنْظَلٍ وَعَقْرُبٌ يُعْجِبُهَا التَّمْرُ  
والقصيدتان على هذا النمط يذكر خصائص الحيوان، ويستخرج منه  
الحكمة، يعجب من جرادة تحرق متن الصفا، ومن خنفس تحيا بالروث  
ويقتلها الورد

وحكمة يُبْصِرُهَا عَاقِلٌ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهَا سِتْرٌ  
ثم يرج في آخر القصيدة على مهاجمة خصومه من أباضية ورافضية  
وغيرهم، ويعيهم بأن لا تتجع الحكمة فيهم، والقصيدة الأخرى رائية مكسورة  
على نمطها. وقد أخذ الجاحظ هاتين القصيدتين عن بشر بن المعتمر، وقد عاصره  
زمناً، ويظهر أنهما أوحتا إليه أن يؤلف كتاباً في الحيوان من هذه الناحية.  
ولكن الجاحظ لا يصبر على موضوع واحد فاذا تكلم في شيء خرج منه الى  
أشياء، كما لا يصبر على الجد، فسرعان ما يخرج منه الى الهزل. ولذلك صبغ  
الموضوع بصبغته الخاصة فاستطرد لا إلى حد، وأخرج الموضوع من عظة  
واعتبار الى معلومات واسعة في الحيوان وغير الحيوان، علمية أحياناً وأدبية  
أحياناً. وكان هزله فيه من أغرب الهزل، فالموضوع جد كل الجد تخشع له  
النفس، ويدعن له القلب، وتثور له العاطفة الدينية، كما تشعرا اذا قرأت الآيات  
السابقة أو وصف الطاووس أو قصيدتي بشر، ولكن هذا الجلال يضع  
تماماً في كتاب الحيوان، ويتلون بلون الجاحظ العجيب فيخرج شيئاً آخر  
غير العظة وغير العبرة، فيه ألوان الحرباء وفيه روايات مختلفة مأساة ومهزلة،  
وفيه الكلام على الخصيان بجانب فوائد الكتاب، وفي الكلام على الخصيان  
معلومات قيمة نادرة ربما لا تعثر عليها في كتاب آخر من الناحية التاريخية  
والاجتماعية، وبجانبا لذع وإحماض وفكاهة ومجون مكشوف، وكل هذا

١ المرو : حجارة بيض براقه تكون فيها النار وتقدح منها

مزج مزجا غريباً ، وهكذا شأنه في كل موضوع .  
وقد ذكر الجاحظ نفسه في كتاب الحيوان طريقة تأليفه في عدة مواضع  
فهو يقول « متى خرج ( القارىء ) من آى القرآن صار الى الأثر ، ومتى  
خرج من أثر صار الى خبر ، ثم يخرج من الخبر الى الشعر ، ومن الشعر الى  
نوادير ، ومن النوادر الى حكم عقلية ومقاييس شداد ، ثم لا يترك هذا  
الباب ولعله أن يكون أثقل ، والملاال اليه أسرع حتى يفضى به الى مزح  
وفكاهة والى سخف وخرافة ، ولست أراه سخفاً »<sup>١</sup> ويقول « انى أوشح هذا  
الكتاب بنوادير من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ليخرج قارئه من  
باب الى باب ، ومن شكل الى شكل فانى رأيت الاسماع تمل الأصوات المطربة  
والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة اذا طال ذلك عليها ، واذا كانت الأوائل  
قد صارت فى صغار الكتب هذه السيرة . كان هذا التدبير لماطال وكثيراً أصلح ،  
وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً »<sup>٢</sup> ويأسف لسووكه هذه  
السييل ، ويعترف بعيبها ولكنه يقول إنه اضطر الى ذلك اضطراراً فيقول  
« وسند كر قبل ذكرنا لهذا الباب أبو ابان من الشعر طريقة ، تصلح لهذا كره وتبعث  
على النشاط . . . ولولا سوء ظنى بمن يظهر التماس العلم فى هذا الزمان ويظهر  
اصطناع الكتب فى هذا الدهر لما احتجت الى مداراتهم واستماتهم ، وترقيق  
نفوسهم وتشجيع قلوبهم - مع فوائد هذا الكتاب - الى هذه الرياضة الطويلة  
والى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأن الذى أفيدته إياهم أستفيده منهم ، وحتى كأن  
رغبتي فى صلاحهم رغبة من رغب فى دنياهم »<sup>٣</sup> ويعترف بأنه عانى فى هذه  
الطريقة أكثر مما يعانى لو كتب كتاباً فى موضوع واحد من غير استطراد  
« ولو كنت تكلفت كتاباً فى طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتب  
العرض والجوهر والطرفة والتوليد والمداخلة والغرائز والنحازل كان أسهل

وأقصر أياماً وأسرع فراغاً، لأنى كنت لا أفرغ فيه الى تلقط الأشعار وتتبع  
الأمثال واستخراج الآى من القرآن والحجج من الرواية، مع تفرق هذه الأمور  
فى الكتب وتباعد ما بين الأشكال، فان وجدت فيه خلا من اضطراب لفظ  
ومن سوء تأليف ومن تقطيع نظام . . . فلا تسكر بعد أن صورت لك حالى التى  
ابتدأت عليها كتابى. ولولا ما أرجو من عون الله على اتمامه اذ كنت لم ألتمس به إلا  
افهامك مواقع الحجج لله وتصارييف تديره والذى أودع أصناف خلقه من  
أصناف حكمته لما تعرضت لهذا المكروه<sup>١</sup>

ومصادر الكتاب كثيرة فأى من القرآن أو التوراة أو الانجيل، وحديث  
وخبر تلقاه من الرواة، وشعر عربى كثير وأمثال مضروبة وكتب عديدة  
قرأها فى فنون شتى، ومحادثة لمن يثق بهم من أطباء وتجار وذوى حرف،  
وتجارب يجرّبها بنفسه فى الحيوان والنبات، وسفر وسماع لمن قد مارس  
الأسفار وركب البحار، وسكن الصحارى وسلك الوديان، وهذا - من غير  
شك - يدل على سعة اطلاع قل أن يكون له نظير.

والحق أن عقله كان قوياً قلّ أن يقبل خرافة، بل هو يهزأ بمن يقبلها. ثم  
هو فى كثير من الأحيان يقف عن الاعتقاد حتى يجرّب ويشك ويدعو الى  
الشك حتى تثبت صحة النظرية، ويستغرب القارىء من صحة منطقته وسبقه  
الى نظرات فى منهج البحث لم تعرف إلا فى العصر الحديث، كقوله « اعرف  
مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها موضع اليقين، والحالات  
الموجبة لها. وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلماً، فلو لم يكن ذلك الا تعرف  
التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه<sup>٢</sup> كما أنه سبق الى اتجاهات  
قيمة فيما يسمى الآن سيكولوجية الحيوان، فهو يراقب نداء الديك بالليل  
ويبحث: هل اذا كان فى قرية وحده يصيح أولاً؟ ليعلم هل تصيح الديكة

بالتجارب أو بطبعها، ويراقب الدجاج هل تكثر أفرانها اذا كثر عديدها أو تقل؟ ويلاحظ الكلب ملاحظة دقيقة ليعلم مقدار ذكائه ووجوه تنبهه والفروق الدقيقة بين أصنافها الى كثير من أمثال ذلك .

وبعد، فظهر امتزاج الثقافات المختلفة في الحيوان أبين منها في البيان والتبيين، وذلك يرجع الى موضوعه والى مسلكه في تأليفه، والى علاقته المتشعبة بأولى العلم والصناعات والطبقات من كل نوع .

من أهم العناصر التي اعتمد عليها في كتابه هذا كتب أرسطو، وقد عُرِف عن أرسطو أنه ألف في موضوعات عديدة في حياة الحيوان، وكان مشغولاً بهذا العلم ودراسته، حتى أحصى المتأخرون ما كان يعرفه أرسطو من أنواع الحيوان، فوجدوه نحواً من خمسمائة نوع. ومع أنه لم يرتبها الترتيب العصري، فقد كان له فضل السبق في وضع هذا العلم الذي لم يكن مؤسساً من قبله. وقد وصلت هذه الكتب الى العرب، وتقلت الى العربية فيما نقل، فيقول ابن النديم « إن كتاب الحيوان لأرسطو تسع عشر مقالة نقله ابن البطريق . . . و لنيقولاوس اختصار لهذا الكتاب . . . وقد ابتدأ أبو علي بن زرعة بنقله الى العربي وتصحيحه »<sup>١</sup>.

ولكن يظهر أن العرب في هذا الكتاب - كما هو الشأن في غيره - لم يميزوا بدقة بين ماهو لأرسطو حقاً وما ليس له - على كل حال وقع الكتاب في يد الجاحظ وقرأه، وكان مصدراً كبيراً من مصادره. واذ نقل منه فكثيراً ما يسمى أرسطو « صاحب المنطق » وقد يصرح باسمه، وقد نقل عنه في هذا الكتاب عشرات المرات - وكان موقف الجاحظ تجاه أرسطو موقفاً بديعاً، فلم يُصَبِّ أمامه بشكل الفكر كما أصيب في أكثر الأحيان ابن سينا وغيره من فلاسفة الشرق والغرب، وإنما وضعه في المخبر يمتحنه ويجربه، فقد نقل عن أرسطو أن

إنّاث العصافير أطول أعماراً وأن ذكورها لا تعيش إلا سنة<sup>١</sup>. وانتقده بأنه لم يأت بدليل على ذلك، وكيف يستطيع أن يأتي بدليل جازم والعصافير قد تكون في المزارع، والميازب مملوءة بها وبييضها وفراخها، والناس القرييون منها لم يروا عصفورا قط ميتاً، ولو قال أرسطو وأمثاله بذلك على جهة التقريب والظن لم يلهم أحد من العلماء « والأمور المقرّبة غير الأمور الموجبة، فينبغي أن يعرفوا فضل ما بين الواجب والمقرب، وفرق ما بين الدليل وشبه الدليل<sup>٢</sup> » ويقول « وقال صاحب المنطق ويكون بالبلدة التي تسمى باليونانية « طبقون » حية صغيرة شديدة اللدغ إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك - قال الجاحظ - ولم أفهم هذا ولم كان ذلك؟<sup>٣</sup> ».

وأحياناً يقارن بين قول أرسطو في الموضوع وما ورد فيه من شعر جاهلي أو اسلامي، ويفاضل بينهما ويحكم عقله وتارة ينصر أرسطو وتارة ينصر العرب. وتارة يكذبهما معاً، فيقول: زعم صاحب المنطق أن قد ظهرت حية لها رأسان فسألت أعرابياً عن ذلك فزعم أن ذلك حق، فقلت له فن أي جهة الرأسين تسعى؟ ومن أيهما تأكل وتعض؟ فقال فأما السعى فلا تسعى ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل، وأما الأكل فانها تتعشى بضم وتتغذى بضم، وأما العض فانها تعض برأسها معاً - فاذا به أ كذب البرية! « ومثل ذلك في الكتاب كثير، فهو يعرض لما عرف عن اليونان وماورد في الموضوع من شعر العرب وقصصهم وأساطيرهم، وما عرف عن الأمم الأخرى، ويمزج كل ذلك مزجاً تاماً، ويعرضه بأسلوبه الجذاب ومبالغته المألوفة.

ولا يظن ظان أن الكتاب - وقد سمي الحيوان - قد اقتصر على الكلام في الحيوان بل لا نبعد اذا نحن قلنا ان ما فيه عن الحيوان أقل مما فيه عن غيره. فقد

استغرق الجزء الأول والثاني من الكتاب الكلام في الكلب والديك والمفاضلة بينها، واحتجاج صاحب الكلب للكلب والديك للديك، ويستوفى كل ما قيل في ذلك من آية أو حديث أو شعر أو قول لصاحب المنطق أو قصة أو أسطورة، كاتخاذ الجن السلاب مأوى لها والكلب واعتقاد العرب أن دم الأشراف يشفي منه الخ، ولكنه في كل ذلك يخرج عن الكلب والديك إلى موضوعات لا تخطر على البال، فتراه في أثناء ذلك يتكلم في الامامة والشيعه والشعر وأثره في القبيلة يرفعها ويضعها، الخ.

اتصل الجاحظ باليونان من كتبهم ومن طريق المتكلمين، فعرف أرسطو كما بينا ونقل عن أقليمون صاحب الفراسة في الكلام في الحمام<sup>١</sup> ونقل عن جالينوس فيما يصلح له لحم الضب<sup>٢</sup> وفي معارف البهائم والطيور<sup>٣</sup> ويذكر أن كتب المنطق وكتب اقليدس لا يفهمها العربي البليغ؛ ويظهر أن ثقافته اليونانية اتسعت بمجالسته لكثير من المثقفين بها، فقد كان يتحدث إلى سلمويه وابن ماسويه<sup>٤</sup> وإلى حنين بن اسحاق<sup>٥</sup> وإلى شمتون الطيب<sup>٦</sup> واتصل بالفرس وعرف الكثير عنهم، فينقل عن ابن المقفع ويتكلم في أساطيرهم ويعقد كلاماً طويلاً يذكر فيه نيرانهم، ويحكى عن المانوية والزنادقة وكتبهم وعباداتهم، ويحكى عن اليهود والنصارى، ويذكر شهاً أثارها بعضهم حول آيات من القرآن الكريم مثل آيات الشهب ويرد عليهم.

وعلى الجملة فيكتاب الحيوان معرض لكل الثقافات، عربية ويونانية وفارسية وهندية، ومعرض للثقافات الدينية من مانوية وزردشتية ودهرية ويهودية ونصرانية وإسلام، ولو ذكرنا مقاله في كل ثقافة ورددناه إلى أصله لاستغرق منا كتاباً كاملاً، فلنكتف بهذا القدر للدلالة على ما نقول. وننتم

قولنا بالشروط التي يشترطها الجاحظ لمن تسكون له الرياسة في العلم، وقد حققها هو في نفسه، فقد رأى أن العالم من يحسن من كلام الدين بقدر ما يحسن من كلام الفلسفة، والمصيب هو الذي يجمع بين تحقيق التوحيد واعطاء الطبايع حقائقها من الأعمال<sup>١</sup>.

\*\*\*

وبجانب الجاحظ عالمان آخران يمثلان معه كل معارف العصر، كما يمثلون أنواعا مختلفة الطعوم والألوان من الامتزاجات بين الثقافات، أحدهما ابن قتيبة الدينوري، والآخر أبو حنيفة الدينوري.

ابن قتيبة: فأما ابن قتيبة فهو أبو محمد عبد الله بن مسلم، أصله فارسي من مرو، وترى في بغداد وتولى القضاء بدينور فنسب إليها، ثم كان معلما ببغداد وعاش من سنة ٢١٣ هـ الى سنة ٢٧٦ هـ فهو قد عاصر الجاحظ جزءاً طويلاً من عمره وكان يكرهه كما يدل على ذلك نقده للجاحظ الذي أورده في كتابه «تأويل مختلف الحديث» فقد اتهمه بأنه يذكر حجج النصارى على المسلمين بأقوى مما يذكر الرد عليهم، وبأن كتبه ملئت بالمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ وأنه يستهزئ بالحديث كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان وذكر الحجر الأسود، وأنه كان أبيض فسوده المشركون وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا!، وأنه كذاب يضع الحديث وينصر الباطل<sup>٢</sup> والظاهر أن سبب النزاع اختلاف الطبيعتين واختلاف المذهبين، فالجاحظ مزاح خفيف الروح مهذار واسع العقل متصرف، وابن قتيبة جد، قاض، عليه وقار القضاء يمزح أحيانا ولكن ليس له خفة روح الجاحظ، ثم الجاحظ معتزلي من المتكلمين وابن قتيبة من أهل السنة - كما يحكى ابن تيمية - والنزاع بين الطائفتين شديد طويل. وشخصية الجاحظ في كتبه



أقوى ، فهو لا يخرج ما علم إلا مهضوما ، قد أسبغ عليه من نفسه ومن لسانه .  
وابن قتيبة واسع الاطلاع في غير شخصية قوية - كما يظهر لى - يعرف  
كثيراً ويجمع كثيراً ويؤلف كثيراً ، وقد يكون في ذلك قريباً من الجاحظ ،  
وكل ما وصلنا من تأليفه يدلنا على أنه عالم أديب ، اتصل بنواح كثيرة من  
العلم من لغة ونحو وأدب وشعر وحديث وفقه وتاريخ ومذاهب دينية ،  
ولكنه يفهم من التأليف أن يجمع ، ويجمع عن سعة اطلاع ، ويختار  
ما يجمع ، من غير أن يظهر نفسه فيما يجمع . فاذا حاول أن يبدي شخصيته  
اضطرب كالذى كان في كلامه في الشعوية ، ينقض في موضع ما أبرمه في  
آخر ، كما لاحظ ذلك صاحب العقد الفريد ، وميزة أخرى يمتاز بها الجاحظ ،  
وهي أنه في جميع ما يكتب يمس الحياة الاجتماعية في عصره ويتغلغل في  
ثناياها ، ولا يستحي أن يضرب مثلاً ما عبداً فما فوقه ، يحدث عن النجار والحواء  
وراعى الغنم ، ويستخرج منهم علماً أو تجربة ويحكىها ويعلق عليها ، أما ابن قتيبة  
فليس له شيء من هذه الناحية ، لأن هذا الضرب لا ينجح إلا في يد قوية كيد  
الجاحظ ولو تعرض لها ابن قتيبة لفشل .

على كل حال علم ابن قتيبة كثير ، وتأليفه غزيرة ومتعددة النواحي ولكن  
ما يهمننا هنا هو مظهر الثقافات المختلفة في كتبه ، ولعل أدلها على ذلك كتاب  
عيون الأخبار .

عيون الأخبار : - كتاب في المختار من الأدب ، قسمه الى عشرة كتب  
كل كتاب كِتاب : كتاب السلطان ، والحرب والسؤدد والطبائع ،  
والأخلاق المذمومة ، والعلم والبيان والزهد ، والاخوان ، والحوائح ،  
والطعام ، والنساء .

وقد تبع الجاحظ في الايتان بما يضحك خوف الملل ، فقال « ولم أخله

١ انظر ترجمته وكتبه في مقدمة كتاب الميسر والقдах ومقدمة الجزء الرابع من عيون الأخبار

مع ذلك من نادرة طريفة ، وفطنة لطيفة ، وكلمة معجبة وأخرى مضحكة . . .  
لأرواح بذلك عن القارىء من كد الجد واتعاب الحق ، فان الأذن بحاجة  
والنفس حمضة ، ولكنه يحس أنه سينتقد على ذلك من وسطه المتزمت فيعتذر  
بأنه بما يترخص فيه . كذلك يعتذر عن أن الكتاب لم يكن في القرآن ولا في السنة  
ولا شرائع الدين وعلم الحلال والحرام ، بأنه دال على معالى الأمور ومرشد  
للكريم الأخلاق ، زاجر عن الدناءة ناه عن القبيح « فالشعور الديني والخلقي  
متملك له مسير له في تأليفه ، فهو ان تكلم في الدنيا وشؤونها فقد أودع فيه طرفاً  
من محاسن كلام الزهاد في الدنيا ، وذكر فجائعها وزوالها وانتقالها حتى  
يستوجب بذلك الأجر ، بل رضى من الغنيمة بالسلامة ، وسأل الله أن يحو  
ببعض بعضاً ، ويغفر بخير شراً ، ويجد هزلاً .

والحق أنه نقل التأليف في الأدب نقلة جديدة من حيث الترتيب وقلة  
الاستطراد وتعمد ذلك في كتابه ونخر به فقال : « وقرنت الباب بشكله ،  
والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها وعلى الدارس حفظها »<sup>٢</sup>  
ويذكر أنه وضع كتاب الطبائع والأخلاق بعد كتاب السؤدد لأنه  
مقارب له ، وقد التزم ذلك فقل أن يخرج عن موضوعه في غير مشاكلة  
وتقارب ، فهو بذلك - من حيث منهج التأليف - أرقى من البيان والتبيين والكامل .  
وقد تعرض في أول الكتاب لمصادره فقال : انه تلقط ما فيه عن فوqe  
في السن والمعرفة ، وعن جلسائه وإخوانه ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم ،  
وبلاغات الكتاب في فصول من كتبهم ، ولم يستنكف أن يأخذ عن الحديث  
سناً لحداثته ، ولا عن الصغير قدرأ لحساسته ، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها  
فضلاً عن غيرها ، ولم يتحرج أن يأخذ العلم عن غير مسلم ، فلن يزرى بالحق  
أن تسمعه من المشركين ، ولا بالنصيحة أن تستنبط من الكاشحين .

وإذ كان الكتاب أكثر ترتيباً كان مزج الثقافات فيه أكثر وضوحاً فكما كان يضم الشيء إلى مثيله كان يضم ثقافة أمة في شيء خاص إلى ثقافة الأمة الأخرى فيه . فهو إذا ذكر السؤدد عن العرب ذكر السؤدد عن العجم ، فهو يذكر السؤدد في نظر الأحنف بن قيس وغيره من سادات العرب ، وينقل عن كتاب للهند في السؤدد . ويدكر رأى بعض العرب في أسباب السرور فيقول : قال قتيبة بن مسلم لحسين بن المنذر ما السرور؟ قال امرأة حسناء ، ودار قوراء . وفرس مرتبط بالفناء .

وقيل لعبد الملك بن الأهم ما السرور؟ فقال رفع الأولياء ، وحط الأعداء ، وطول البقاء مع القدرة والثناء . ثم ينقل رأى الفضل بن سهل الفارسي في السرور إذ يقول : توقيع جائز ، وأمر نافذ . ورأى أبي نواس - نصف الفارسي -

إذ يقول : إِنَّمَا الْعَيْشُ سَمَاعٌ وَمُدَامٌ وَنِدَامٌ  
فَإِذَا فَاتَكَ هَذَا فَعَلَى الْعَيْشِ السَّلَامُ

وينقل عن المسيح عليه السلام قوله لأصحابه « إذا اتخذكم الناس رءوساً فكونوا أذناً » ثم ينقل عن كتب العجم « علامة الأحرار أن يُلقوا بما يُحبون ويحرموا ، أحب اليهم أن يُلقوا بما يكرهون ويُعطوا » ثم ينقل عن أردشير وعن ابن المقفع في كيلة ودمنة ، وعن أنوشروان وعن استشهاد جعفر البرمكي بفعل أبرويز ويقول « أعلمت أن ناووس أبرويز أمده لأبرويز من شعر زهير لآل سنان ؟ »<sup>١</sup> وهكذا فهو يتعرض للعرب والعجم والهند ويعرض آراءهم وأقوالهم بانظم مما يفعل الجاحظ .

كذلك يمثل كتابه مذهبنا إليه قبل « من مناطق النفوذ » فنحن إذا استعرضنا - في عيون الأخبار - كتاب السلطان وسيرته والمشاورة رأيناها يكثر النقل عن

١ - قال ذلك لما رأى الاصمعي يعطي الكثير ويعيش عيش سوء

الفرس والهند، مما يدل على أن الادب العربي في هذا الباب أكثر تأثره بهاتين الأمتين. ونراه في باب القضاء والأحكام والشهادات والظلم قل أن ينقل عنهما، إنما ينقل عن العرب وأحكام الاسلام، واذتكلم في الزهد فيكاد يكون الفصل الاول كله نقلاً عن اليهودية والنصرانية. وفي باب الطعام عقد فصلاً للبياه والأشربة نقل فيه عن الأطباء وعن « الفلاحة النبوية » وعن ابن ماسويه، وعقد فصلاً للحمّان وما شاكلها ومضار الأطعمة ومنافعها والنباتات وخصائصها وسائر الجاحظ فكتب فصولاً عن الحيوان ونقل عن أرسطو وغيره. والثقافة اليونانية في كل هذه الفصول غالبية شائعة.

ثم هو رجل ديني من رؤساء أهل السنة، فكان لذلك مثقفاً ثقافة دينية واسعة، ولم تقتصر ثقافته على الاسلام، بل قرأ التوراة والانجيل وأكثر النقل منهما، فهو ينقل كثيراً عن وهب بن منبه وعن التوراة والانجيل، ويقول قرأت في التوراة وقرأت في الانجيل، وينقل دعاء للمسيح ودعاء لداود ودعاء ليوسف عليهم السلام، وينقل أخباراً عن الرهبان كما ينقل أحاديث عن رسول الله والصحابة والتابعين والزاهدين من المسلمين.

وعلى الجملة، فتقافة ابن قتيبة واسعة كل السعة، ومظهر امتزاج الثقافات فيه - مدينة كانت أو دينية - مظهر جلي واضح.

أبو حنيفة الدينوري : - ثالث ثلاثة تفقوا ثقافة علمية وأدبية واسعة وليس بأقلهم، وان كان حظه من الشهرة في عصورنا الأخيرة دونهم، هو أحمد بن داود بن وند، ولد بدينور، ولم يعلم تاريخ ولادته وان كان يرجح أنها في العشرين الأولى من القرن الثالث الهجري<sup>١</sup> وأخذ النحو عن ابن السكيت وأبيه في الكوفة، وفي سنة ٢٣٥ كان في أصفهان يرصد الكواكب ويضع نتائج رصده، ومات على الراجح نحو سنة ٢٨٢ هـ كانت معارفه واسعة

١ انظر ترجمته في دائرة المعارف الاسلامية ومعجم الادباء وبغية الوعاة وخزانة الأدب

في نواح مختلفة، في التاريخ — وقد وصل اليانامه كتاب «الأخبار الطوال» وفيه معلومات عن علاقة العرب بالفرس قد لا نجد لها في غيره. وكان — كما يقول ياقوت — نحوياً، لغوياً، مهندساً، منجماً، حاسباً، راوية، ثقة فيما يرويه ويحكيه.

كان يقربن بالجاحظ في بلاغته، ويختلف الناس أيهما أبلغ، ويتجا كيون الى أبي سعيد السيرافي فيقول: «أبو حنيفة أكثر ندارة وأبو عثمان (الجاحظ) أكثر حلاوة، ومعاني أبي عثمان لا تطفئ بالنفس، سهلة في السمع، ولفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب وأدخل في أساليب العرب»<sup>١</sup> وبعده أبو حيان التوحيدى أحد ثلاثة لوا اجتماع الثقلان على تقريرهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم — ما بلغوا آخر ما يستحقه كل منهم: الجاحظ وأبو حنيفة، وأبو زيد البلخي، ويصفه بأنه من نوادر الرجال، جمع بين حكمة الفلاسفة وبين العرب، له في كل فن ساق وقدم، ورواء وحكم.

ويظهر أن ثقافته اليونانية والهندية كانت أوسع منها في صاحبيه الجاحظ وابن قتيبة، وعلمه الرياضي يكمل نقصهما. يدل على ذلك تأليفه في الفلك والحساب والجبر والمقابلة ونوادر الجبر والقبلة والزوال والكسوف والبحث في حساب الهند.

اشتهر بالكتابة في النبات، وربما كان كتابه فيه أظهر شيء في المزج، ومع الأسف لم يصلنا كتابه هذا ولكن نقل منه الكثير في المخصّص لابن سيده، وفي مفردات ابن البيطار، ولم يقتصر فيه على نباتات العرب، بل ذكر نباتات تنبت في الأقطار الأخرى، وجمع بين ما روى لغويو العرب في النبات وما كتب عنه في الأمم الأخرى، واستعان ببلاغته على حسن وصفه فهو يقول — مثلاً — الخزامة: عشب طويلة العيدان، صغيرة الورق، حمراء الزهرة

طيبة الريح، لها نَوْرٌ كَنُورِ البَنْفَسَجِ» وهو كما ترى وصف دقيق ويقول «ويقال للموضع الذي يجعل فيه الزرع إذا حصد الأندر والبيدر والمِرْبَدُ والجَوْخَانُ والمِسْطَحُ وهو سوادى عَرَبٍ والسَجَرَيْنُ وجمعه الجُرْنُ والأَجْرِنَةُ»  
فتراه يدخل كلمات عربت . ويقول: «واذا تناوب أهل الجوخان، فاجتمعوا مرة عند هذا ومرة عند هذا وتعاونوا على الدِّياس فان أهل اليمن يسمون ذلك القَاه، ونوبة كل واحد قَاهُهُ، وذلك كالطاعة له عليهم، لأنه تناوبٌ قد ألزمود أنفسهم، فهو واجب لبعضهم على بعض» فتراه يعرف العادات المختلفة في البقاع، ويصف الشعير في أما كنهه المختلفة، فالشعير العربي والشعير العراقي والشعير الحبشى. ويصف نباتات لها أسماء غير عربية كالكُسْبُرَةُ والكُرْوِيَا ويقول الكَمْوُن ليس من نبات بلاد العرب، وهكذا كان ذا نظر واسع وخبرة دقيقة في النباتات عربية وغير عربية، وكان أساساً من أسس اللغة أمدها في النبات وما اليه بالفاظ جديدة، وحدد ألفاظها القديمة .

كذلك له كتاب في الأنواء، إلا أنه قصره على ما كان للعرب من العلم بها، كما يدل على ذلك الجزء الذى نقله عنه ابن سيده فى المخصص<sup>١</sup>  
ولعلك ترى معى بعد أن هذا العصر كان بوتقة صهرت فيها عناصر الثقافات المختلفة، أو مصباً لجداول متعددة المجرى مختلفة المنابع، وأن العلماء كانوا مظاهر تختلف باختلاف مصادرهما «فما أشبه حجل الجبال بألوان صخورها» «وعلى أعراقها تجرى الجياد» وأنهم كلهم كانوا يجرون فى عنان<sup>٢</sup> فأورثونا ثروة علمية وأدبية متعددة النواحي، نصفها فى الباب التالى إن شاء الله.

١ جزء ٩ ص ١٠ وما بعدها ٢ العنان الشوط

تم الجزء الأول ويليهِ الجزء الثانى من ضحى الاسلام  
وفيه بابان باب فى وصف الحركة العلمية وآخر فى المذاهب الدينية

## اهم الاحداث في ذلك العصر

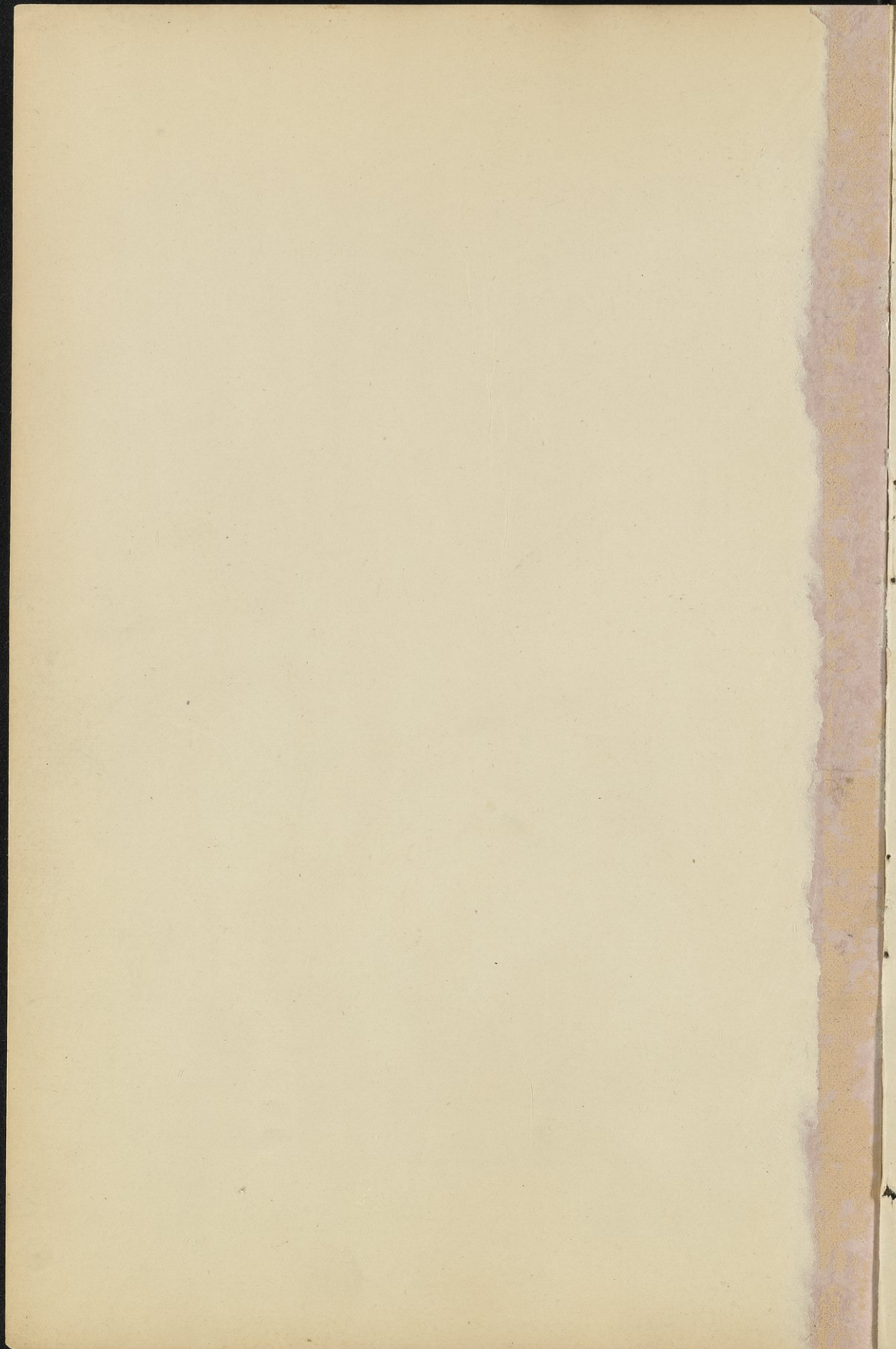
بدء السنة الهجرية	التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	أهم الاحداث
٢٠ أغسطس	٧٤٩	١٣٢	قيام الدولة العباسية وخلافة السفاح
٧ يوليه	٧٥٣	١٣٦	خلافة أنى جعفر المنصور
١ ابريل	٧٦٢	١٤٥	قتل ابن المظفر
١١ ابريل	٧٦١	١٤٤	موت عمرو بن عبيد المعتزلى
١ ابريل	٧٦٢	١٤٥	تأسيس بغداد
٢٧ فبراير	٧٦٥	١٤٨	موت جعفر الصادق
٦ فبراير	٧٦٧	١٥٠	موت أنى حنيفه
٢١ نوفمبر	٧٧٣	١٥٧	موت الأوزاعى
١١ نوفمبر	٧٧٤	١٥٨	خلافة المهدي
٩ اكتوبر	٧٧٧	١٦١	موت سفيان الثورى و ابراهيم بن أدهم
٢٦ اغسطس	٧٨١	١٦٥	موت دواد الظاهرى
٥ اغسطس	٦٨٣	١٦٧	قتل بشار بن برد على الزندقة
١٤ يوليه	٧٨٥	١٦٩	خلافة الهادى
٣ يوليه	٧٨٦	١٧٠	خلافة هرون الرشيد
١١ يونيه	٧٨٨	١٧٢	تأسيس الدولة الادريسية فى مرا كش
٢٧ مارس	٧٩٥	١٧٩	موت مالك بن أنس
٢٢ فبراير	٧٩٨	١٨٢	موت أنى يوسف القاضى
٣٠ ديسمبر	٨٠٢	١٨٧	نكبة البرامكة
٢٨ ديسمبر	٨٠٤	١٨٩	موت محمد بن الحسن
٢٥ اكتوبر	٨٠٨	١٩٣	خلافة الأمين
٢٨ ديسمبر	٨١٣	١٩٨	خلافة المأمون

769

بدء السنة الهجرية	التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	أهم الاحداث
١١ اغسطس	٨١٥	٢٠٠	موت معروف الكرخي
٢٨ يونيه	٨١٩	٢٠٤	موت الشافعي
١٦ مايو	٨٢٣	٢٠٨	موت أبي عبيدة
٢ ابريل	٨٢٧	٢١٢	قول المأمون بخلق القرآن
٢٧ يناير	٨٣٣	٢١٨	خلافة المعتصم
١٦ يناير	٨٣٤	٢١٩	انتقال عاصمة الخلافة من بغداد الى سامرا
٣١ اكتوبر	٨٤٠	٢٢٦	موت أبي الهذيل العلاف المعتزلي
	٨٤٨-٨٣٣	٢٣٤-٢١٨	استمرار محنة خلق القرآن
٢١ اكتوبر	٨٤١	٢٢٧	خلافة الواثق
»	»	»	موت بشر الحافي الصوفي
٧ سبتمبر	٨٤٥	٢٣١	موت النظام المعتزلي
٢٨ اغسطس	٨٤٦	٢٣٢	خلافة المتوكل
٥ اغسطس	٨٤٨	٢٣٤	الأمر بعدم القول بخلق القرآن
٢ يونيه	٨٥٤	٢٤٠	موت أحمد بن أبي دواد
٢٢ مايو	٨٥٥	٢٤١	موت أحمد بن حنبل
٣٠ ابريل	٨٥٧	٢٤٣	موت الحارث المحاسبي
٨ ابريل	٨٥٩	٢٤٥	موت ذى النون المصري
١٧ مارس	٨٦١	٢٤٧	خلافة المنتصر
٧ مارس	٨٦٢	٢٤٨	خلافة المستعين
٢٢ يناير	٨٦٦	٢٥٢	خلافة المعتز
١ يناير	٨٦٨	٢٥٥	خلافة المهتدي
»	»	»	موت الجاحظ

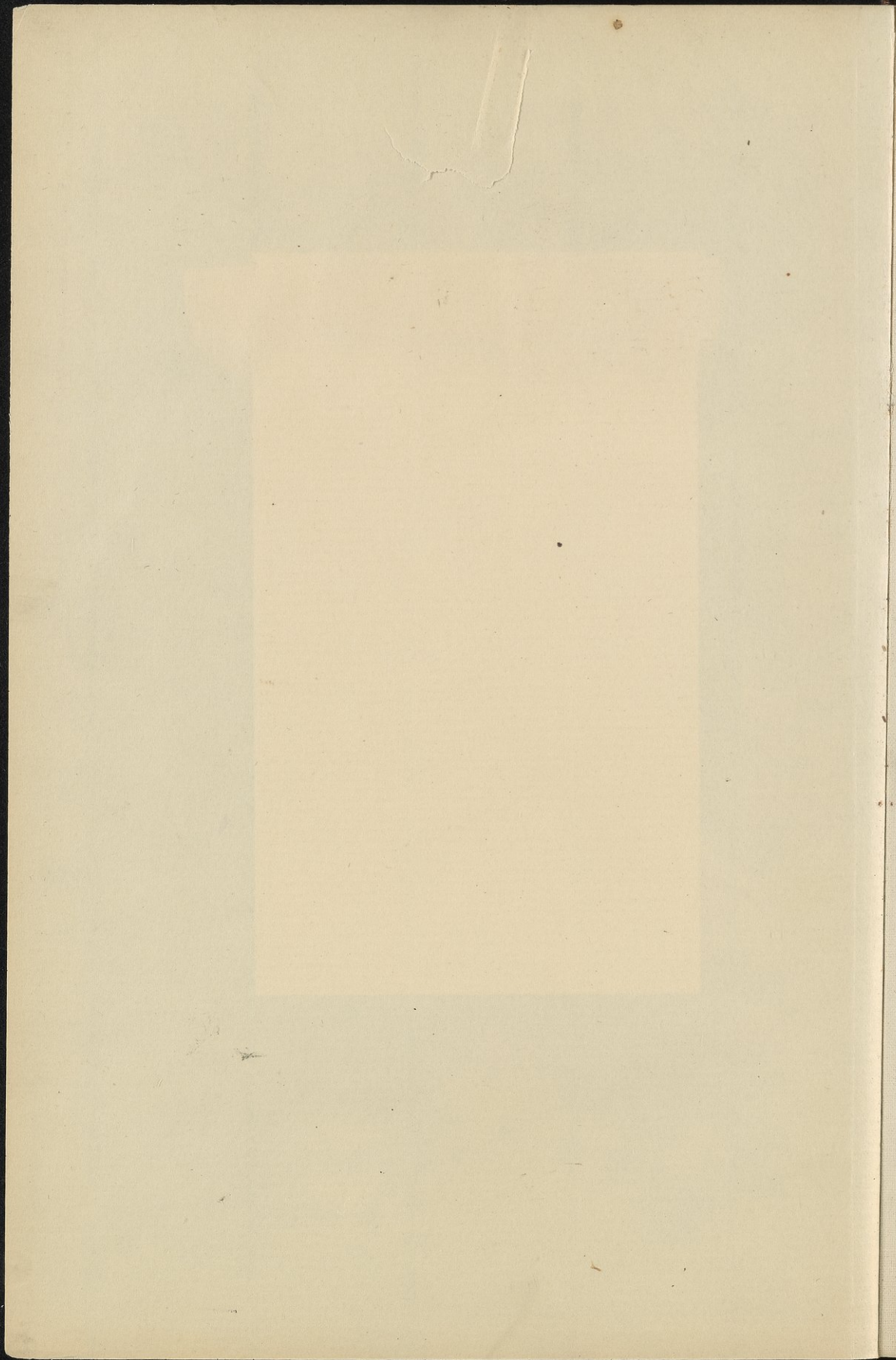
COLUMBIA  
UNIVERSITY  
LIBRARY





33 n

            
Pne



DATE DUE

FEB 15 2008

SEP 30 2011

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

893. 791

Ah 52

AUG 17 1933

OTTO HARRASSOW  
BUCHHANDLU  
:LEIPZIG

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58954074

893.791 Ah52

Duha al-Islam ...

**RECAP**